الفصل الخامس والعشرون

مقدمة

من الضروري لكي نفهم حوادث القرن الحادي عشر تقديم بعض الشرح لمواضيع الاقطاع بسبب اهميته كنظام سياسي اقتصادي وفرض سيادة القانون والامن في حقبة تميزت باللامركزية والفوضى التي اعقبت انحلال الامبراطورية. ولتنظيم الكنيسة الداخلي وادراتها، ولدور الاملاك الكنسية في نشوب الازمات بما يسمى حرب التعينات بين البابا والامبراطور. وهذا ما سنراه هذه المقدمة:

(1) تنظيم الكنيسة الداخلي وادارتها

العلاقات المتبادلة بين الكنيسة والامبراطورية من القرن الرابع الى الحادي عشر

عاشت الكنيسة الموجودة في حدود الامبراطورية الرومانية في العصور الثلاثة الاولى حياة منفصلة عن الامبراطورية، واقتصرت العلاقات بينهما على كون الكنيسة فريق مُضطَهَد والامبراطورية فريق مُضطهِد. وعندما اصبحت المسيحية الديانة السائدة في الامبراطورية دخلت الكنيسة في اتحاد وثيق مع الامبراطورية، ونتيجة لهذا الاتحاد قامت علاقات موصوفة من الجهة الواحدة بتأثير الامبراطورية على حياة الكنيسة ومن الجهة الثانية بتأثير الكنيسة على حياة الامبراطورية.

تأثير الامبراطورية على الكنيسة

1) اشتراك الاباطرة في الاعمال الكنسية:

بدء هذا الاشتراك من الامبراطور قسطنطين الكبير الذي دعا نفسه اسقف الاعمال الكنسية الخارجية. فقد اراد ان يكون حافظا فقط لمصالح الكنيسة الخارجية غير باسط نفوذه على نظامها الداخلي. فقد اهتم بنشر المسيحية وبتأمين الكنيسة وببناء وتزيين الكنائس. واذا حدث في الكنيسة جدال بشأن تعاليم الايمان وحسن الادارة، فلاجل حلها الف مجامع اساقفة حضرها بذاته وعين مفوضين وثبت قرارات المجامع واذا لزم كان ينفذها بسلطته المدنية. ولكن الملوك الذين خلفوا قسطنطين الكبير لم يكتفوا بدور المحافظة على مصالح الكنيسة الخارجية فحصلوا بالتدريج على التدخل بشؤونها الداخلية واختصوا لذاتهم في بادىء الامر بحق تثبيت الاساقفة في المدن الهامة وفيما بعد بحق انتخابهم وانزالهم وان كان بواسطة المجامع. وبذلك احرزوا تأثيرا كبيرا على كل ادارة الكنيسة. وعند حل المسائل العقائدية وغيرها من المسائل المختلف عليها خوَّل الاباطرة لذاتهم الحق بقيادة قرارات المجامع ذاتها، وبحل المسائل موضوع الجدل بلا مجامع بواسطة مراسيمهم وحدها المدعوة اعتراف الايمان.

2) حقوق وامتيازات:

(أ) تأمين معيشة الكنيسة واكليروسها: كانت الكنيسة تعيش حتى القرن الرابع على تقادم المؤمنين التي كانت وقتية وتأتي بطريق الصدفة. كنائس قليلة في نهاية القرن الثالث كانت تملك عقارات ثابتة تتناول منها معيشتها. ولكن هذه الكنائس لم تستطيع ان تعد هذا التأمين دائما، لانه عند اول اضطهاد كانت تصادر كل املاكهم وتضم الى خزينة الدولة. وكان الاكليروس يعيش بنوع خاص تقريبا على وسائله الخاصة. ومنذ القرن الرابع عندما دخلت الكنيسة في فلك حياة المملكة والحياة العامة اخذت الامبراطورية والرعية (المؤمنون) على عاتقها تأمين عيشتها مع اكليروسها. والطريقة للتأمين هي الاملاك الثابتة: الاقطاعات والحقول والاراضي الخصبة والبيوت وما اشبه. وقد ثبت قسطنطين الكبير بمرسوم سنة 331 للكنيسة حق اقتناء الاملاك الثابتة وامتلاكها. وبقوة هذا المرسوم صارت تضم الى املاكها ما

يجود به المسيحيون من الاملاك وخصوصا الى المؤسسات الروحية. والاباطرة من جهتهم حولوا لمصلحة الكنيسة الابنية العامة وخصوصا الهياكل الوثنية المقفلة وما يخصها من الاملاك غير المنقولة.

الامبراطور جستنيان الاول لاجل تأمين مداخيل الكنيسة من الاملاك الثابتة اصدر مرسوما اوجب فيه على كل من يريد ان يبني كنيسة جديدة ان يعين مسبقا املاكا لاعاشتها مع اكليروسها تعطي دخلا كافيا لهذه الغاية. ولكي تبقى الاملاك غير المنقولة في حوزة الكنيسة دائما منعت القوانين المدنية والكنسية رهنها او بيعها او ان يُعين بلا ضرورة اكليريكيون كثيرون في كنيسة ما ليس لها قوة على اعاشتهم. ان املاك الكنيسة غير المنقولة صارت مع الوقت كثيرة حتى انها صارت تكفي ليس للقيام بمصاريفها واعاشة اكليروسها فحسب بل لبناء كثير من المؤسسات الخيرية مثل دور العجزة والمستشفيات ومضافة الغرباء.

وفضلا عن المعاش المأخوذ من الاملاك الكنسية كان الاكليروس يستفيد ايضا من ما يجود به المؤمنون، نظير العشر على المدخول، والمكافأة على اقامة الشعائر الدينية واتمام الاسرار.

(ب) اعفاء الكنيسة والاكليروس من الضرائب العامة والجزية والخدمة العسكرية: هذا الحق منحه قسطنطين الكبير بقانون سنة 319، فكل المنضمين الى الاكليروس كانوا متحررين من الضرائب العامة او الشخصية، ومن الخدمة العسكرية. كما ان الاملاك الكنسية اعفيت دائما من الضرائب.

(ج) تحرير الاكليروس من المحاكم المدنية: كانت المشاكل بين المسيحيين (اكليريكيين وعلمانيين) في بدء الكنيسة تحل بواسطة الاسقف. هذا الحق كانت تعترف به السلطة المدنية بشخص قسطنطين الكبير. واصدر الامبراطور قنسطانس في سنة 355 قانونا صريحا يوجب على كل الاكليريكيين ان يتوجهوا ويحاكموا من قبل المحاكم الكنيسة. والمجمع الرابع الخلقيدوني في سنة 451 منع الاكليريكيين من التوجه الى المحاكم العلمانية، دون المحاكم الروحية واضعا لذلك نظاما محددا للمحاكمات الكنيسة.

(د) حق الحماية الكنسية: كانت الهياكل الوثنية تستخدم اماكن حماية لكل المطاردين فبالاحرى ان تمنح الكنيسة المسيحية حق الحماية. فكان يلتجيء الى هيكلها كل المطاردين والملاحقين باسم المصلوب. وثبت الامبراطور ثيودوسيوس الثاني بقانون صريح سنة 431 حق الكنيسة بقبول وحماية المطاردين مانعا طردهم من الكنيسة تحت التهديد بالاعدم.

تأثير الكنيسة على الامبراطورية:

المبادىء المسيحية: اذا كانت الامبراطورية اثرت على الكنيسة بواسطة القوة المادية الخارجية فالكنيسة بدورها اثرت على الامبراطورية بقوتها الادبية. الكنيسة كانت تريد لامبراطورية صارت مسيحية، ان تقبل في حياتها المبادىء المسيحية. فمجمع ارليسك سنة 314 فوض الى الاساقفة الرقابة الادبية على حكام المقاطعات وذوي الوظائف العالية. والاباطرة ايضا اقروا حق الرقابة الادبية للاساقفة، والاساقفة راقبوا بالفعل حكام المقاطعات وحققوا في عدالة الاحكام المدنية وزاروا السجون وبحثوا مع المساجين عن سير قضاياهم، وعند انحراف الحكام والقضاة عن جادة العدالة كانوا يطلبون حل الامور بالعدل، واخيرا كانوا يرفعون راسا الى الامبراطور سوء استعمال الحكام المدنيين لسلطتهم. وفي حال سوء الاستعمال المتطرف والصارخ من قبل الموظفين كان الاساقفة يفرزونهم من الكنيسة ولم يستثنى من هذا حتى الاباطرة.

وقد اثر الاساقفة على الحياة العامة بنوع خاص بواسطة ادارة اعمال الارامل والايتام. فكانوا يراقبون اعمال الاوصياء وغالبا ما كانوا ينتخبونهم. ونتيجة لذلك كانوا هم الاوصياء الرئيسيين.

والغت المبادى المسيحية الاعدام بواسطة الصلب ووسم وجوه المجرمين. والغت المبارزة بالسيف، وخففت القوانين بشأن العبيد والاسرى وعلاقة الوالدين بالابناء وغيرها وقوانين الزواج والطلاق اخذت صفة المسيحية.

(2) الاملاك او المقاطعات البابوية

ومنحت الممالك المؤسسة جديدا في الغرب الكنيسة حقوقا وامتيازات اخرى مختلفة، منها ان اعطوا الكنيسة لاعاشتها واعاشة رئاستها املاكا مأهولة واحيانا مقاطعات بجملتها. فعندما جاء البابا اسطفانوس الثاني في عام 754 الى دير القديس دنيس St. Denis في باريس، ومسح بابين "ملكا بنعمة الله"، انتهى بهذا الاسرة المروفنجية (486-751) وبدأت الاسرة الكارولنجية (751-987).

كان بابين Pépin الثالث "القصير" حكيما صبورا بعيد النظر، تقيا، عمليا، محبا للسلم، لا يُغلب في الحرب، متمسكا بالاخلاق الفاضلة الى حد لم يسبقه اليه ملك آخر في في غالة (فرنسا) تلك القرون. وكان بابين هو الذي مهد لشارلمان سبيل كل ما اتاه من جليل الاعمال. وفي خلال حكمهما الذي دام ثلاثا وستين سنة (751-814) تحولت بلدهما نهائيا من غالة الى فرنسا. وادرك بابين ما في الحكم بغير معونة الدين من صعاب، فاعاد الى الكنيسة املاكها، وامتيازاتها وحصانتها، وجاء الى فرنسا بالذخائر المقدسة، وحملها على كتفيه في موكب فخم. وانقذ البابوية من الملوك اللمبارد، ومنحها سلطات زمنية واسعة في عُهدة المعروفة باسم "عطية بابين" (756). كان هذ التخصيص لتلك الارض هو الاساس لكل الاملاك البابوية التي احتفظ بها البابا بدون انقطاع منذ 756 وحتى اتحد الشعب الايطالي في 1870.

وقنع بابين ان ينال في نظير هذا لقب "النبيل الروماني" وتحذيرا للفرنجة بالا يختاروا ملكا الا من سلالته. وتوفى بابين في عنفوان قوته عام 768 بعد ان اوصى بمملكته الفرنجة لولديه كارلومان Carloman الثاني وشارل الذي اصبح فيما بعد شارلمان على ان يحكماها معا.

واحتفظ شارلمان بعلاقة ودية مع الكنيسة وكان يعتبر الكنيسة بمثابة الروح والدولة هي الجسد. وكان يرى لكل من الكنيسة والدولة مجال تمارس فيه مسؤولياتها. وبينما كان في روما في احدى حملاته لاخضاع اللمبارديين في سنة 774، اكد حقوق البابوية في الارض التي منحها له بابين في 756. الا انه راى ان رئيس الكنيسة الدولة وأن الاساقفة ينبغي ان يكونوا خاضعين لرأس الدولة.

ونتيجة لذلك صار الاساقفة وبالاجمال كل الاشخاص متقلدي الرئاسة الذين استولوا على الاملاك الممنوحة للكنيسة، في علاقات خضوع للملاكين العلمانيين كعلاقة الامراء نحو اقطاعييهم. علاقة الاساقفة الاقطاعية انتقلت بصورة طبيعية من الجو المدني الى الجو الكنسي حتى ان سلطة الملاكين العلمانيين امتدت الى اعمال كنسية صرفة. وهكذا فحق انتخاب الاساقفة اختص بالملاكين العلمانيين كل منهم في ارضه. وفي العصر الثامن صارت عادة اقامة الاسقف من قبل الملك او الامير بواسطة تسليم المنتخب حديثا خاتما وعصا الرعاية وهذا العمل هو ما يسمى بالاينفستيتير Investiture وبدونه لم يكن من الممكن اتمام السيامة الكنسية. وارتبط مع حق الملاكين العلمانيين بانتخاب الاساقفة حق محاكمتهم حتى انهم تمكنوا من قصاصهم، حتى نزع الوظيفة الكهنوتية عنهم. وكانت نتيجة الاينفستيتير ان ادارة جميع اعمال كنسية انتقلت الى ايدي الملاكين العلمانيين لانهم كانوا يقيمون اساقفة من كان ضروريا لهم مثلا اولادا ذوي خمس سنين او اشخاص ذوي اخلاق فاسدة.

(3) نظام الاقطاع

ظهر النظام الاقطاعي في نهاية القرن الخامس ابان الاضطرابات التي نجمت عن سقوط الامبراطورية الرومانية، وقد ظل هذا النظام سائدا في غرب اوروبا حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

يطلق اصطلاح النظام الاقطاعي على مجموعة النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في غرب اوروبا خلال العصور الوسطى، حيث اخذ الامراء يتمتعون بقسط وافر من الاستقلال الذاتي في ادارة شؤون ممتلكاتهم دون التقيد بالامبراطور او الرجوع اليه. وقد اخذ هؤلاء الامراء يمارسون سلطات واسعو ازاء "الاتباع" الذين كانوا يعملون عندهم.

وينشأ الاقطاع بشكل او بأخر دائما عندما تضعف الحكومة المركزية ولا تعود قادرة على ممارسة سلطة فعالة على المناطق الواقعة تحت سيطرتها. ثم وصل الاقطاع الى اكمال نموه في القرنين التاسع والعاشر على اثر انحلال دولة شارلمان، ولما نتج عن ذاك من حروب اهلية اشترك فيها الامراء وعلى ذلك الهجومات المتوالية من قبل رجال الشمال وغيرهم، وقد عم الاقطاع اوروبا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ثم اخذ يضعف بالتدريج خصوصا عند اختراع البارود، وازالت الثورة الفرنسية ما تبقى من آثاره.

ومن العوامل التي ساعدت على اعادت وتقوية الاقطاع في القرون الثامن والتاسع والعاشر:

1) ان ملوك المروفنجيين والكارولنجيين اخذوا يؤجرون قادة جيوشهم وموظفيهم الاداريين بمنحهم مساحات من الارض. واضحت هذه الاقطاعات في القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك الاسرة الكارولنجيه.

2) اعادت غارات المسلمين والشماليين والمجريين في القرن الثامن والتاسع والعاشر نتائج الغارات الالمانية التي حدثت قبلها بستة قرون وزادتها قوة: فقد عجزت الحكومات المركزية عن حماية الاجزاء النائية من عواصمها، واقام الاسقف او البارون المحلي نظاما في مقاطعته وهيئة للدفاع عنها، وظل محتفظا بقوته ومحاكمه الخاصة.

ولم ير الشعب حرجا في هذه التطورات، فقد كانوا يتطلعون الى وجود نظام عسكري يتولى حمايتهم مما يحيط بهم من الرعب، ومن الهجمات التي قد تنقض عليهم في أي وقت كان. ولهذا الغرض كانوا يبنون بيوتهم اقرب ما تكون الى قصر البارون المنيع او الدير الحصين. ولم يترددوا في تقديم ولائهم وخدماتهم الى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية او دوق يستطيع قيادتهم.

اما الروابط الاقطاعية فقد تكونت على الاسس التالية:

(أ) ملكية الارض: عل اثر التجاء كثير من صغار الملاكين الى الامراء او كبار الملاكين لم يجد هؤلاء متسعا من الوقت للاهتمام بفلح اراضيهم الواسعة بسبب انهماكهم في الاستعدادات العسكرية، فقسموها الى اقسام وسلموها لامراء او ملاكين اصغر منهم على شروط معينة، وقد سميت الارض المعطاة بهذه الطريقة اقطاعية، وسمي الشخص الذي اخذه تبعا او مُقطَعا، وسمي الذي اعطاها سيدا او مُقطِعا وكثيرا ما كان التابع يجد حصته كبيرة فيقسمها الى اقسام ويقطعها لاناس آخرين يصبحون اتباعا له على نفس الشروط.

(ب) الروابط بين التابع والسيد: نشأت بالتدريج بين السيد واتباعه واجبات يجب على الطرفين مراعاتها. فواجب السيد ان يحمي اتباعه وان يفصل في القضايا التي يقدمونها له ولا يخرجهم من ارضه دون محاكمة وان يكون وصيا على القاصرين منهم. اما التابع فواجباته اكثر، وعليه ان يحلف يمين الطاعة لسيده امام الجمهور في حفلة دينية وهو راكع مكشوف الرأس، فيحلف اولا ان يكون مطيعا ومخلصا له معاديا لاعدئه. وعليه ان يكون عضو في محكمة سيده اذا طلب منه ذلك، وان يحضر المحكمة اذا كان متهما، وان يحارب مع سيده مدة معينة في كل سنة (40 يوما على الاغلب). وان يقدم له اعانة مالية عندما تتزوج ابنته الكبرى، وعندما يصبح ابنه فارسا وعندما يقع في الاسر لكي يفتدي، واذا تولى الاقطاعية لاول مرة بعد وفاة صاحبها، وعليه ايضا ان يضيفه اذا مر باقطاعيته، وقد تحول واجب الضيافة الى مبلغ من المال يدفعه التابع سنويا وصارت الخدمة العسكرية كذلك تستبدل بمبلغ من المال ايضا.

(ج) الاعفاءات: أي ان الملوك كانوا يعفون الكنائس والاديرة من دفع الضرائب ويمنعون رجال الحكومة من التدخل في شؤونها، فصارت الكنائس والاديرة حرة، وعلى اثر انحلال دولة شرلمان وكثرة الفوضى اصبحت اراضي الكنائس غير امينة فصارت الاديرة تلتجيء الى السيد المجاور ليحمي ارضها.

مساوىء الاقطاع

– استقلال الامراء والحروب الكثيرة بينهم: على اثر انحلال دولة شرلمان استقل الامراء، وبنوا الحصون واحاطوها باسوار قوية وخنادق مملؤة بالماء، وكونوا فرق الفرسان للدفاع والهجوم واصبحت اوروبا مقسمة الى الوف من الامارات او الحكومات الاقطاعية التي لم تعترف للملك او الامبراطور الا بالاسم، فكثرت الحروب بينها لاتفه الاسباب، فكان القوي يهاجم الضعيف، وكثيرا ما كان التابع يحارب سيده اذا وجده ضعيفا وعلى الاخص اذا كان طفلا او امرأة.

فادى ذلك الى انتشار الفوضى وقلة الامن حتى اضطر كل مجتمع الى انتاج ما يحتاج اليه من مأكل وملبس وصار الامراء حينما لم يجدوا من يحاربونه يدعون الى حفلات حربية يتبارز فيها الفرسان بقصد التسلية. وقد تدخلت الكنيسة ومنعت الحروب ثلاثة ايام كل اسبوع، وسمت تلك المدة "بالهدنة الربانية" ولما حدثت الحروب الصليبية وجهت الكنيسة ذلك الحماس نحو الشرق.

– انقسام المجتمع الى طبقات: حال الاقطاع دون تكوين مماليك قوية اذا لم يكن للملوك سلطة لعدم وجود جيش لهم غير الجنود المرسلين من قبل الامراء. زد على ذلك ان نظام الاقطاع جعل الشعب ينقسم الى طبقات متباينة اهمها الاشراف والفرسان والرقيق.

– ساهم في ابطاء عملية التطور: كان للفوضى التي صاحبت الاقطاع ان اخرت تقدم الزراعة والتجارة والصناعة.

محاسن عصر الاقطاع

مع ما كان لذلك العصر من مساوىء فانه لا يخلو من محاسن، فقد حمى اوروبا من الغارات الخارجية وولد في الاشراف روح الحرية ولذلك عملوا على تحديد سلطة الملوك. وقد اجبر اشراف انكلترا الملك يوحنا على امضاء عريضة المغنا كرتا سنة 1215، التي اعتبرت اساس حرية الشعب الانكليزي.

واعظم ما خلفه الاقطاع الفروسية التي تعلمها الاوروبيون عن العرب حينما رأوهم يحاربون على ظهور الخيل في معركة تور سنة 732، فصاروا يقلدونهم، وكانوا يلبسون دروعا من الحديد ويتسلحون بالسيوف والرماح، وصار الفارس اخيرا يدين بمبادىء هامة تجعله شهما ذا مروءة، ينصر الضعيف ويحترم المرأة، وصار للفروسية نظام خاص، فلم يتمكن الا ابناء الاشراف من الانضمام اليها، وكان هؤلاء يتطوعون الى خدمة احد الفرسان المشهورين من سن السابعة فيعلمون آداب المائدة، ولطف الحديث، ويصحبونه في الحرب والصيد، وفي سن الرابعة عشرة يتمرنون على الحرب واستعمال الاسلحة، وفي سن الحادية والعشرين تقام حفلة دينية لمنحهم لقب الفروسية، فيذهب الواحد منهم الى الكنيسة يتعبد طول الليل ويترك سيفه على المذبح ليباركه الكاهن، وفي الصباح يمتطي جواده ويقوم بالعاب بسلاحه امام الجمهور ثم يركع امام سيده فيضربه بعرض السيف قائلا "قم فانت فارس" ثم يلقنه واجبات الفروسية فيحلف ان يكون مطيعا لرجال الدين محترما للمرأة مساعدا للمظلوم، يضحي بحياته في سبيل دينه ووطنه. وهكذا كان للفروسية مظهران المظهر الحربي وقد جاء من نظام الاقطاع والمظهر الانساني وقد جاء من الكنيسة.

الكنيسة والاقطاع

تأثيرت الكنيسة كثيرا بالاقطاع في هذه الفترة. فمساحات شاسعة من الاراضي في اوروبا الغربية كانت مملوكة للكنيسة اثناء الفترة الاخيرة من العصور الوسطى. فكثير من مالكي الضيع والقرى كانوا اساقفة او رؤوساء اديرة. وكان كثير من الرهبان يعملون بايديهم، وكثير من الاديرة والكنائس تنال حظها من اموال العشور التي تجبى من الابرشيات المختلفة، ولكن المؤسسات الكنسية الكبيرة كانت بالاضافة الى هذا العمل اليدوي في حاجة الى المعونة المالية. وكانت تنال الجزء الاكبر من هذه المعونة من الملوك والاشراف على صورة هبات من الارض او حصص من الايرادات الاقطاعية. وتراكمت الهدايا حتى اصبحت الكنيسة اكبر ملاك الاراضي، واكبر السادة الاقطاعيين في اوروبا. فقد كان دير فلدا مثلا يملك 15000 قصر صغير من قصور الريف، وكان دير سانت جول يملك الفين من رقيق الارض. وكان الكوين في تور سيدا لعشرين الفا من ارقاء الارض.

زد على ذلك الاراضي والاوقاف التي منحها الاتقياء والتائبين من اصحاب الاراضي الساعين للتكفير عن خطاياهم. وقد ظلت هذه الاراضي في حوزة الكنيسة كمؤسسة من جيل الى جيل.

لذلك فان الكنيسة وبصفتها من اكبر ملاك الارض لم يكن ممكنا الا ان تتأثر بنظام الاقطاع. وكانت هذه الهبات يعهد بها في صورة اقطاعيات او عزب توضع تحت اشراف رؤوساء الاديرة او الاساقفة. وقد نتج عن تقسم

اراضي الكنيسة الى اقطاعيات صبغ الكنيسة بصبغة عالمية مادية، شغلت الكنيسة عن الالتفات الى اهتماماتها الروحية لتنشغل بمصالحها الزمنية.

وبما ان ابناء النبلاء الصغار كان يمكنهم الحصول على مزيد من الاراضي والامتيازات بانخراطهم في خدمة الكنيسة، فان بعض كبار النبلاء تدخلوا في كثير من الاحيان في الانتخابات لانجاح مرشح قريب لهم لمنصب رئيس دير او اسقف. وكان الكثيرون من هؤلاء ليس لهم أي اهتمامات روحية ولا تهمهم الخدمة التي تربط بالمناصب التي يحصلون عليها قدر اهتمامهم بالمصالح المادية التي يسعون لتحقيقها.

وكان الملك هو الذي يعين رؤوساء الاساقفة ورؤوساء الاديرة، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الاقطاعيين، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرهما من الالقاب الاقطاعية، ويسكبون العملة، ويرأسون محاكم الاسقفيات والاديرة، ويضطلعون بالواجبات الاقطاعية الخاصة بالخدمة العسكرية والاشراف الزراعي. كان الاساقفة ورؤوساء الاديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحراب من المناظر المألوفة.

وكان متعهدوا الاراضي الذين يشرفون على اراضي الكنيسة يواجهون مشكلة ازدواج ولائهم هل يكون ولاؤهم للملك الارضي او السيد الذي وكلهم على الارض ام يكون ولاؤهم للبابا، السيد الروحي، والذي يعدهم بالسلطان الروحي؟ وقد عطل مثل هذه الازدواجية في الولاء التطور السليم في الحياة الروحية التي تلزم لنجاح الكنيسة في خدمتها. والفت الكنيسة نفسها منظمة سياسية واقتصادية وحربية لا منظمة دينية وكفى. وكانت املاكها "الزمنية" ، وحقوقها والتزاماتها الاقطاعية سببا لتعرض الكنيسة للانتقاد والسخرية، ومصدرا للجدل العنيف بين الاباطرة والبابوات.

4) العصور الوسطى

فترة العصور الوسطى في تاريخ المسيحية، هي الفترة التي تمتد من عام 590 الى عام 1517 للميلاد، وان كان بعض المؤرخين يتخذ من عام 604 الميلادي، بداية لهذه الفترة الحافلة من تاريخ المسيحية.

وقد سميت بالعصور الوسطى، لتوسطها بين فترتين متميزتين من تاريخ المسيحية، اولاهما هي فترة الظهور والانتشار، والنمو والازدهار، والاخرى هي فترة عصر الاصلاح البروتستانتي، الذي بدأه "مارتن لوثر" في القرن السادس والاصلاح الكاثوليكي المضاد.

وفترة العصور الوسطى هذه، يصفها بعضهم بأنها العصور المظلمة، وهم على حق، لان الشعلة المسيحية التي بدأت مضيئة متوهجة، فاستنار بنورها الشعب الجالس في الظلمة، امست في فترة العصور الوسطى، وقد خبا نورها، فلم تعد اكثر من فتيلة مدخنة على وشك ان تنطفىء، اذا تحالفت عليه ريح واعاصير متعددة، حاصرتها وحصرتها.

ويجب الا نسى، ان تاريخ المسيحية في العصور الوسطى، لا يمثل تاريخ المسيحية بوجه عام، لكنه يركز بوجه خاص، على تاريخ المسيحية في الغرب، التي امكنها ان تقف صامدة في وجه الغزو البربري، الذي جتاح دول اوروبا في بداية العصور الوسطى، لا بل انها لم تلبث ان احتوت الغزاة، الذين وان كانوا قد احرزوا الكثير من الانتصارات العسكرية، الا انهم انهزموا دينيا، وانضووا تحت لواء الكنيسة، على النقيض تماما لما حدث في الشرق. عندما تعرضت بلدانه لغزوات لم تصمد امامها، من جانب الجيوش الاسلامية، بعدها جمدت وتجمدت الاوضاع في المراكز الدينية الكبرى، في كل من انطاكية والاسكندرية، وبيت المقدس والقسطنطينية.

ومن خلال ما سنعرضه ونتعرض له من احداث هذه الفترة، سوف يتضح لنا، ان رب الكنيسة وحاميها، كان يظهر لها في كل عصر، نجوما لامعة، وكواكب ساطعة، تبزغ من بين الظلام، شهادة حية ناطقة، بان الله هو العامل في التاريخ، الموجه لاحداثه، وهو الذي يحمي كنيسته ويحرسها، ويحفظ ايمانها وعقيدتها، تراثا خالدا للبشرية، ونورا يهدي الناس الى ما فيه صلاحهم وحياتهم الابدية.

الفصل السادس والعشرون

الصراع من اجل حرية الكنيسة

(من كتاب "تاريخ االكنيسة: المسيحية في العصور الوسطى" رقم 2)

غريغوريوس السابع هلدبراند (1073–1085)

كان من سوء حظ المسيحية ان وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بين ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من اقوى البابوات في تاريخ الكنيسة.

وهلدبراند اسم يوحي بأن صاحبه من اصل الماني، ويفسره معاصروه ان معناه الشعلة الخالصة. وقد ولد عام 1020من ابوين ينتميان الى اسرة وضيعة في قرية سوانو Soano الواقعة في مستنقعات توسكانيا، وتلقى تعليمه في دير سانت ماري القائم على تل الافنتين (Sainte-Marie de l'Aventin) في روما، ثم انضم الى جمعية الرهبان البندكتين. ولما خُلع البابا غريغوريوس السادس من منصبه ونُفي الى المانيا في عام 1046 صحبه هلدبراند في منفاه. وقد استفاد في السنة التي قضاها في كولونيا الشيء الكثير عن المانيا، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له في الصراع الذي نشب فيما بعد بينه وبين هنرى الرابع. ولم يمض على عودته الى روما الا قليل من الوقت حتى عينه البابا ليون التاسع، مديرا للولايات البابوية، واختاره في الوقت نفسه مندوبا للبابا في فرنسا. وفي وسعنا ان ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره الى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية في الشؤون السياسية والدبلوماسية. وظل البابا فكتور الثاني (1055–1057) واسطفانوس التاسع (1057–1058) يستخدمانه في المهام الكبرى. ولما ارتقى نقولا الثاني عرش البابوية في عام 1059، وكان اكبر الفضل في ارتقائه اياه راجعا الى نفوذ هلدبراند نفسه، عين هذا الراهب الذي لا غنى عنه وزيرا للبابا مع انه لم يكن قد اصبح كاهنا.

وكان هو الذي اقنع نقولا الثاني ومجلس لاتران في عام 1057 باصدار مرسوم انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا الى مجمع الكرادلة. وكان هدف هلدبراند من هذه الخطوة الحاسمة ان ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والاباطرة الالمان.

وطوال الفترة السابقة لتوليه منصب البابا، كان هو صاحب الرأي في اختيار البابوات، وهو الذي كان يضع لهم الخطط والبرامج. وظل يعمل بثبات، لتحقيق الاصلاح المنشود، وتجديد الحياة الكنسية، وكان هذا التجديد هو شغله الشاغل، فترة طويلة من الزمان، الى ان اتيحت له الفرصة، لتحقيق هذا الهدف عندما ارتقى الكرسي البابوي في عام 1073، وكان آنذاك قد ذهب لحضور قداس احتفالي اقيم على روح البابا الراحل "الاسكندر الثاني"، في كنيسة القديس بطرس، وما ان وقعت عليه الانظار، حتى راحت جماهير الحاضرين تهتف وتصيح قائلة: "القديس بطرس يختار "هلدبراند"، فاختاره الكرادلة لوظيفة البابا باسم "غريغوريوس السابع". وكان هذا الرجل من طراز نادر، لدرجة ان نابليون العظيم قال في معرض حديث له: "لو لم اكن نابليون، لتمنيت ان اكون هلدبراند".

عندما ظهر هذا الرجل العظيم على مسرح الاحداث، كانت البابوية قد هوت الى الحضيض، لكنه رفعها الى الذروة، وجعلها اعظم قوة في غرب اوروبا باسرها. انه كان واحدا من اعظم البابوات جميعا، بل يمكن القول انه المؤسس لبابوية العصور الوسطى، حتى وان كان قد ظهر قبله رجل عظيم مثل البابا غريغوريوس الاول.

وكان قد وضع امامه صورة رائعة ومثلا اعلى، لما يجب ان تكون عليه البابوية، وخطط ونفذ ما رسمه من خطط، لكي يحول الحلم الى حقيقة رائعة. ومن الاهداف العظيمة التي حققها "هلدبراند":

(1) تحرير الكنيسة من سلطان الحكام. فقد كانت الكنيسة واقعة تحت سلطان الاباطرة، الذين كانوا يدسون انوفهم في شئونها، ويتدخلون في امورها. وفي الفترة السابقة لظهور "هلدبراند"، كان اختيار البابا من اختصاص

الامبراطور، وفي اثناء تولي البابا "نيقولا الثاني" (1058-1061)، تم تأسيس مجمع الكرادلة، وهؤلاء وحدهم، صار من حقهم اختيار البابا، وبهذه الطريقة لم يعد للامبراطور أي تدخل في هذا الامر، واصبحت الكنيسة وحدها، هي صاحبة الحق في تعيين البابا او انتخابه، ومضى ذلك العهد، الذي كان فيه الامبراطور، يعرض على الكنيسة عددا من الاشخاص، تختار من بينهم رئيسها، وكان "هلدبراند" (غريغوريوس السابع)، هو المحرك الاول لتحقيق هذا الهدف.

(2) انتزع حق تعيين الاساقفة: خطوة اخرى تكميلية كانت ضرورية لتحرير الكنيسة، وهي انتزاع حق تعيين الاساقفة من ايدي الحكام والملوك. ولا ريب في ان "هلدبراند"، كان على حق، في الاقدام على هذه الخطورة، لانه لم يكن من المعقول و القبول، ان يقوم الملوك والحكام المدنيون، بتعيين الاساقفة في المناطق التي يحكمونها، لان منصب الاسقف من المناصب القيادية في الكنيسة، والكنيسة وحدها هي التي يجب ان تختار قادتها. وقد رأى "هلدبراند" ان انتزاع هذا الحق من ايدي السلطات الزمنية، سوف يعيد الامور الى نصابها، ويضع حدا للمفاسد والشرور والسيمونية، لان الحكام لم يكن يهمهم ان يختاروا الاصلح والاجدر، بل الاغنى والاقدر والذي يدفع اكثر.

ولكن لم يتم ذلك دون صراع مرير مع الدولة.

الصراع بين الكنيسة والدولة

وقد واجه "هلدبرند" مقاومة عنيفة من اولئك الحكم، الذين عز عليهم، ان ينتزع منهم اختصاص، ظلوا يمارسونه زمنا طويلا، لكنه لم يأبه بما لقيه من الامراء في دول اوروبا، من مقاومة عنيفة، وبقي راسخا في موقفه لا يتزحزح عنه، الامر الذي ادى في النهاية، الى حدوث مواجهة بينه وبين اكبر رأس من رؤوس السلطة الزمنية، أي الامبراطور "هنري الرابع"، حاكم المانيا، او امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة.

وهكذا وقع ما لم يكن منه بد، وحدث الصدام الذي لم يكن من الممكن تجنبه، بين القوتين العظمتين في غرب اوروبا في ذلك الوقت وهما الكنيسة والدولة.

ولم يرضخ الامبراطور، ورفض التسليم بمطالب البابا، وبعد الكثير من الاخذ والرد، والتهديد والوعيد، اصدر البابا قرارا بالحرمان ضد الامبراطور، كما اعلن عزله من العرش. وكان الامبراطور مكروها من رعاياه، في بعض ارجاء الامبراطورية، وفي فترة سابقة، كان بعضهم قد اعلن الثورة على الامبراطور، وكان هذا عاملا هاما، اذ وجد "هنري الرابع" نفسه عاجزا عن اتخاذ اجراء مضاد، فاضطر اخيرا للخنوع، وتقديم التنازلات، لاسترضاء الشعب والنبلاء في المانيا، واعلان الخضوع الكامل لسلطان البابا، حتى لا يفقد عرشه، وذلك في خلال السنة التالية لصدور قرار البابا، بفصله من عضوية الكنيسة. لكن في نهاية العام، اجتمع مجلس النبلاء برئاسة البابا، وقرر انتخاب امبراطور آخر، يخلف "هنري الرابع" في عرش الامبراطورية وبهذا يتم الخلاص منه نهائيا.

لكن الامبراطور راح يحاول الحصول على الغاء قرار الحرمان الصادر ضده، لكي تعود اليه عضويته في الكنيسة، وبهذه الطريقة يتقوى مركزه، وتصبح الفرصة امامه سانحة لاسترداد العرش. ولم يشأ الامبراطور ان يقف مكتوف اليدين، فاخذ ابنه وزوجته معه الى ايطاليا، ووصل في شتاء عام 1077 الى مدينة كانوسا Canossa حيث كان يقيم البابا، الذي رفض ان يقابله، وراح اصدقاء الطرفين يتوسلون الى البابا، لكي يرضى عن الامبراطور ويعقد صلحا معه، غير ان البابا اصر على موقفه. ومع ذلك اظهر الامبراطور خضوعا كاملا، وذات صباح قارس، وقف حافي القدمين امام باب القلعة التي يقيم فيها البابا، وراح يقرع الباب، طالبا الرحمة والرضا، لكن البابا لم يلق اليه بالا، فراح يقرع باب القلعة طيلة النهار، ولما لم يستجب البابا، ظل الامبراطور على هذه الحل يومين اخرين، يقرع ويسترحم. وبعد طول انتظار، قرر البابا الغاء قرار حرمان الامبراطور، وترك امر اعادته الى العرش لمجلس النبلاء، بشرط ان يعلن خضوعه للبابا خضوعا كاملا، في كل ما يتصل بامور الكنيسة. وهكذا انتصر البابا على الامبراطور، لكن موقعة كنوسا هذه لم تكن خاتمة المطاف بالنسبة للموجهة بين البابا والامبراطور.

وكان الناس ينظرون الى الامبراطور، على انه مُعيّن بسلطان الهي، الامر الذي ادى الى التفاف الشعب في المانيا حول الامبراطور، الذي راح يجمع حوله الانصار من الناس المتعاطفين معه، مستغلا شعور السخط، الذي ولده فيهم

موقف البابا المتشدد منه، واذلاله له، فاخل الملك من جديد بوعوده. فعاد البابا مرة اخرى، واصدر قرارا بفصل الامبراطور من عضوية الكنيسة، لكن هذا الاخير لم يأبه هذه المرة، وسير جيشا، دخل به الى روما، فاضطر البابا للهرب، وظل في المنفى، حتى وافته المنية بعد ذلك بعدة سنوت، وعند موته قال: "لقد حببت البر، وابغضت الاثم، وها نا اموت منفيا".

على ان ما وقع في كانوسا، كان انتصارا للبابا والكنيسة، برغم كل ما حدث بعد ذلك. ولم ينته هذا الصراع، بين البابا والامبراطور، الا في سنة 1122 عندما تقرر ان يتم اختيار الاساقفة بواسطة الاكليروس، على ان يؤيد البابا هذا الاختيار، ويرخص للاساقفة بممارسة الخدمة. وبهذا تم فصل السلطات وتوزيع الاختصاصات، الامبراطور يمنح رجال الكنيسة السلطان، على ادارة الممتلكات والاقطاعيات، ويمارس هو من جانبه، السلطان على الاقطاعيين في امبراطوريته، والكنيسة تباشر سلطانها في تدبير امورها، واختيار قادتها، بغير تدخل من السلطة الزمنية.

تحرير الكنيسة من روح العالم– بداية الاصلاح

رأى "هلدبراند"، ان الامور الدينوية قد احكمت قبضتها على رقاب رجال الاكليروس، فوضع في قلبه تحقيق الاصلاح الذي وضع برنامجه، رفاقه من الرهبان المصلحين. وقد رأى انه من الضروري العودة بالاكليروس الى حياة العزوبية، باعتبارها خطوة هامة على الطريق، لتحرير الكنيسة من العالم. وكان "هلدبراند" يرى ان زواج رجال الاكليروس، يعوقهم عن التفرغ لاداء الخدمة المطلوبة منهم، سعيا وراء ضمان العيش والرفاهية لابنائهم وزوجاتهم، كما ان اهتمامهم بتدبير شؤونهم العائلية، يتم بغير شك على حساب مصلحة الكنيسة. وفي سبيل الوصول الى هذا الهدف، شن حملة على المتزوجين منهم، وارغمهم على الانفصال عن زوجاتهم، واصدر تعليماته الى الشعب بتجنب الكهنة المتزوجين ونبذهم. ولئن كان لم ينجح في القضاء التام على زواج الكهنة، الا انه نجح في تأليب الرأي العام ضد الكهنة المتزوجين، الامر الذي ادى الى تقليل هذه الظهرة الى اقل حد ممكن، اما الكنيسة عامة، فقد حددت موقفها بعزوبية الكهنة.

البابا هو صحب الكلمة العليا في الكنيسة

كانت السلطة البابوية هي الوسيلة التي استخدمها "هلدبراند" لتحقيق الاصلاح المنشود في الكنيسة، بتطهيرها من المفاسد، التي كانت قد تفشت. وكان لزاما ان تكون للبابا سلطة مطلقة، وحكم نافذ في كل الامور في الكنيسة. وكان "هلدبرند" يرى ان الكنيسة يجب ان تكون دولة اخرى يرأسها البابا، الذي ينبغي ان يخضع له جميع الاساقفة والاكليروس والرهبان خضوعا مطلقا، باعتباره خليفة "بطرس الرسول"، وحامل مفاتيح ملكوت السموات، الذي له ان يحل ويربط كما يروق له. وقد افلح في استخدام هذا السلطان المطلق، للوصول الى اهدافه. ومن ذلك التاريخ فصاعد، اصبحت ارادة البابا هي العليا، رأيه هو الصواب، وقوله فصل الخطاب، في كل القضايا والشؤون.

الكنيسة بحسب فكر "هلدبراند"

لم يقف "هلدبراند" عند حد تحقيق الاصلاحات التي سلف ذكرها، لكنه كان طموحا جدا، من جهة ما يجب ان تبلغه الكنيسة، التي كان يرى انها يجب ان تكون لها السيادة على العالم باسره، وكان تحرير الكنيسة من الروح الدنيوية، ومن تدخل السلطات المدنية في شؤونها، مجرد خطوات على الطريق، لتحقيق هذا الهدف الابعد.

اكان يرى ان الكنيسة برئاسة البابا، يجب ان تكون لها اليد الطولى والرأى الاعلى في تسيير الامور، كما انها يجب ان تكون القوة العظمى، التي تخضع لها كل القوى الاخرى التي في العالم. وكان يرى ان الحكام يجب ان يخضعوا لسلطان البابا، وفي حالة عدم خضوعهم له، يقوم البابا بعزلهم من منصبهم، ويحل رعاياهم من الخضوع لهم. فالكنيسة هي صاحبة السلطان الروحي الفائق. من هذا نرى ان "هلدبراند"، كان يريد ان يكون العالم مجموعة من الولايات المتحدة، تدور كلها في فلك الكنيسة، وتمتثل لاوامر البابا، الذي هو الرأس المنظور للكنيسة.

وهنا ينبغي الا نتسرع في حكمنا على الرجل لئلا نظلمه، ان الامر يتطلب منا ان نتخلى قليلا عن آرائنا الشخصية، وننظر الى الامور من خلال مرقبه، وفي ظروف الزمان والمكان التي كانت محيطة به.

فجميعنا نرى ان ملكوت الله ينبغي ان يمتد ويتسع نطاقه الى ان يشمل العالم باسره. وفي العصور الوسطى، عندما كان الناس في غرب اوروبا يسمعون هذا الكلام، في الحال، كانت انظارهم تتجه الى الكنيسة، باعتبارها التجسيد الحي لملكوت الله، وكانت الكنيسة الكاثوليكية، هي الكنيسة الوحيدة التي لم يعرفوا سواها.

وفي ضوء هذا المفهوم، كان السعي الى ان تتبوأ هذه الكنيسة مكانتها المرموقة، ومكانها الرائد في القيادة، وتسيير دفة الامور في اوروبا، هذا كله كان يعتبر سعيا لتحقيق الحلم الذهبي لسيادة المسيحية. وما دامت السيادة من حق الكنيسة وحدها، فبالتالي ينبغي ان يكون رئيس الكنيسة هو الرئيس المطلق، لكل القوى والكراسي الحاكمة في اوروبا. وكان الناس في ذلك الزمان ينظرون الى البابا، على انه الشخص الذي اختاره الله، ليكون رأسا للكنيسة. وكان المنطق يقول، انه اذا كان المفروض ان تمارس الكنيسة هذا السلطان، فانها ينبغي ان تمارسه من خلال البابا.

ولعل المقتطفات التالية من رسالة ارسلها "هلدبراند" الى الملك "وليم الفاتح" ملك انكلترا، تكشف لنا عن سمو دوافعه، وخلوص نيته، في تبني فكرة سيادة الكنيسة، وسلطان البابا:

"كما خلق الله النورين العظيمين، ووضعهما في كبد السماء، لينيرا صفحة الكون، هكذ وضع في الارض قوتين عظيمتين، ينبغي ان يخضع لهم كل الناس، هاتان القوتان العظميتان هما القوة البابوية والقوة الملكية. والقوة الاولى هي الاعظم، بينما الاخرى تمثل النور الاصغر. وبحكم تعاليم الديانة المسيحية، يجب ان تنعقد السيادة لقوة البابا، الذي هو بمعونة الله، صاحب السلطان على كافة الملوك والحكام، من حيث انه هو صاحب السلطان الرسولي، والمسؤول عن جميع المسيحيين، ملوكا ورعايا، ليعطي عنهم حسابا امام الله. فان كنت ترغب ان يظلل السلام بلادك وشعبك، ون رُمت النجاة من العطب والهلاك، عليك ان تقدم لنا الطاعة الواجبة، طاعة مطلقة، وتخضع لنا خضوعا تاما، لانك اذ تكرمنا، فانك بهذا تكرم الله وتمجده، معطيا لهذا الامر من الاعتبار والاهتمام، ما تعطيه للاحتفاظ لنفسك بقدر عظيم من الكرمة والاحترام. عالما ان عليك ان تحب الرب الهك بكل قلبك وكل قدرتك، وتحبه بعقل طاهر وذهن نقي". (انظر كتاب "مقتطفات من وثائق العصور الوسطى" لهندرسون).

الفصل السابع والعشرون

الحملات الصليبية

1095-1291

مقدمة

" لا شك ان الحركات الصليبية (الحملات الصليبية) كانت ولا زالت من اكثر نقاط العلاقة بين الغرب والشرق سخونة. ولأن استخدام الكلمة حاليا – سواء من جماعات العنف السياسي او من حكومات الشرق الرافضة للتغيير – اصبح مردافا فقط للحركات الاستعمارية. ولأن مناهج التاريخ في مدارسنا هي ذات صبغة سياسية ودينية، تصاغ بما يخدم مصالح السلطة دائما، فلا شك ستظل هذه الحركات غامضة مغلّفة بإطار من السلبية. وستظل اجيالنا تتوارث ان كلمة حروب صليبية لا تعني سوى رغبة الغرب في استعمار الشرق.

لماذا حركات وليست حملات؟ استخدم كلمة "حركة صليبية" لأنها نتيجة لعدة حركات روحية في الغرب، فبعد عصور من الدمج بين الكنيسة والدولة سواء مع الامبراطورية الكارولنجية، او مع الامبراطورية الجرمانية، وبكل ما فيه من تكبيل لحرية الكنيسة احيانا، وعدم وضوح الفصل بين الامور الروحية والزمنية، بدأت في الكنيسة عدة اصلاحات هدفت الى:

1. تحرير الكنيسة من قيود الثراء المادي الذي طغى احيانا على روح المسيح الفقير.
2. الفصل بين الامور الزمنية والروحية بمعنى الفصل بين سلطات الامبراطورية الزمنية وسلطة ندبير شؤون الكنيسة الروحية.
3. العودة الى الوحدة المسيحية اي الاهتمام بوحدة جسد المسيح (الكنيسة) بعد ان نتج عن الصراعات الزمنية إنشقاقات روحية.
4. إصلاح حياة الاكليروس على كل المستويات لتكون شهادة لحياة المسيح المثل والنموذج.
5. الاهتمام بتوصيل كلمة البشارة لكل الخليقة، اولا للمسيحيين الذين فتر ايمانهم ثم للخليقة اجمع.

أول هذه الحركات الاصلاحية هي حركة الاصلاح الرهباني المسماة بالكلونية، ثم حركة إصلاح البابا غريغوريوس السابع (المسماة بالإصلاح الغريغوري).

كنتيجة لهذه الاصلاحات الروحية والادارية للكنيسة برزت حياة يسوع المسيح الارضية كمثال ونموذج لحياة المسيحي، وبالتالي اصبح للارض التي عاش عليها يسوع حياته ورسالته مكانة هامة في قلوب المؤمنين، فسعوا للحج

اليها. كذلك طُرح سؤال مهم: أمن التقوى ان يصمت العالم المسيحي حيال كون ارض المسيح وقبره في ايدي غير المسيحيين (وغير المؤمنين حسب الخطاب الكنسي وقتئذ).

وقد لا يعرف البعض ان التفكير في تحرير قبر المسيح كان قد بدأ مع الامبراطور هنري الثالث عام 1046 (خلال مجمع سوتري)، وايضا كان احد النقاط الهامة في اجندة البابا غريغوريوس السابع، قبل ان يوجه البابا اوربانوس الثاني دعوته في 1095.

من هذا يتضح ان استخدام كلمة حركة وليست حملة. فهي حركة روحية قادت الى تنظيم حملات عسكرية.

ولننتبه ان فتح ملف الحملات الصليبية يستدعي ان يبذل القارىء شيئا من الجهد، ليتفهم افكار ذلك الزمان ويدرك ان كنيسة العصر الوسيط استطاعت ان تلبي ما كان العالم يقتضيه في تلك الايام. اذ يمكننا القول ان الحركات الصليبية هي اولا قبل كل شيء حركة كنسية، اتخذ الكرسي الروماني مبادرتها، ولكن لو لم توافق دعوة البابا حاجات العالم المسيحي في ذلك الوقت لما لاقت مثل ذلك الصدى" (من مقال للاب انطون فؤاد).

أ- تعريف الحروب الصليبية

هي الحروب التي نشبت بين مسيحي الغرب واتراك الشرق بسبب الاماكن المقدسة المسيحية. وقد سميت كذلك بسبب ثياب المحاربين المسيحيين التي كانت معلمة بصليب احمر كبير. وقد اطلقت هذه التسمية على حروب اخرى، فقد نظم المسيحيون حملات صليبية ضد المغاربة في الاندلس باسبانيا وفي صقلية وذلك قبل تنظيمهم حملاتهم للمشرق بفترة. وكان هذا الجناح الغربي من الحملات الصليبية مكرسا لطرد الشرقيين من المناطق التي استولوا عليها في غرب اوروبا. اما الحملات الصليبية التي ذهبت الى فلسطين، والتي تعتبر الجناح الشرقي من الحركة الصليبية، فقد وضعت هدفا لها استعادة فلسطين من السلاجقة الاتراك الذين تميزوا بالوحشية والعنف.

وصفت هذه الحرب بانها حرب مقدسة حيث جندت لها كل القوى المسيحية في الغرب. فمنذ 1074 كان البابا غريغوريوس السابع قد اطلق نداءه لتنظيم الحملة على فلسطين لمواجهة الذين كانوا يتحرشون بالامبراطورية الشرقية ويضطهدون الحجاج الى الاراضي المقدسة، لكن صراعه مع هنري الرابع ملك المانيا حول التعيين للمناصب الدينية حرمه من ان يكون هو البابا الذي يبدأ الحملات الصليبية.

ب- الاسباب التي ادت الى تنظيم الحملات الصليبية

ينبغي ان نتذكر دائما انه بالرغم من ان الصليبيين كانت لهم مصالح اقتصادية وسياسية، الا ان الدافع الاساسي للحملات كان دينيا.

(1) انتشار عادة الحج وزيارة الاماكن المقدسة في فلسطين: وكان الناس قد اعتادوا على زيارة تلك الاماكن، والصلاة في بعض البقاع التاريخية التي لها ارتباط خاص بحياة السيد المسيح، وفي مقدمة هذه الاماكن، القبر المقدس، الذي دفن فيه جسد السيد المسيح. وكان الحجاج يعتقدون ان هذه الزيارة، بكل ما كانوا يعانونه في سبيل القيام بها من مشقات بالغة، هي خير وسيلة يتقربون بها الى الله وينالون صفحه ورضاه. وكان الناس ينظرون الى الحجاج العائدين، على انهم اشخاص مقدّسون طيلة حياتهم. وكان العامة يولمون الولائم للحجاج العائدين ويتبركون بهم. وكان هؤلاء الحجاج، يذهبون فردى وجماعات. كانت هذه العادة متبعة وشائعة، بين الفقراء والاغنياء، والشرفاء والعامة، ورجال الدين والعلمانيين، الكل يشتاق ان يزور تلك الاماكن المقدسة، ويود لو اتيحت له فرصة القيام بهذه الزيارة. وقد اعتبرت الحملات الصليبية حجا جماعيا منظما لتلك الاماكن المقدسة.

(2) اضطهاد السلجوقيين للمسيحيين: كان العرب المسلمون متسامحين اجمالا مع المسيحيين سواء اكانوا حجاجا ام مواطنين. فلما ضعفت سلطة الخليفة العربي واستولى السلجوقيون على قسم من آسيا الصغري وعلى زمام الحكم في سوريا وفلسطين، عاملوا المسيحيين باكثر وحشية وتعصب. تصدوا بعنف لجماهير الحجاج المسيحيين، وحاولوا منعهم من زيارة الاماكن المقدسة، وعاملوهم بقسوة بالغة، اثارت حفيظة المسيحيين في الغرب، وولّدت فيهم الاحساس

بضرورة انقاذ الاماكن المقدسة المسيحية، وبخاصة القبر المقدس، وتخليصه من ايدي الاتراك الذين اعتبرهم المسيحيون اعدى اعداء المسيحية.

(3) انتشار روح الفروسية في اوروبا: وكان فرسان ذلك الزمن، من ابناء الطبقات العليا في المجتمع، هؤلاء كانوا يتباهون ويتفاخرون بوقوفهم بجانب المستضعفين في الارض، ودفاعهم عن المظلومين. وقد وجد هؤلاء الفرسان، في الحملات الصليبية، فرصة سانحة لاشباع غرورهم، وتغذية طموحهم، وشوقهم لبلوغ مرتبة الفروسية، لانهم كانوا يعتقدون انهم يحاربون ويقاتلون في سبيل تحقيق هدف سام ومن اجل قضية مقدسة.

(4) مهاجمة السلجوقيين لدولة الروم: كان السلجوقيون لا يهدأون عن مهاجمة الدولة البيزنطية، مما دفع الملك ميخائيل السابع والملك الكسيوس الاول كومنين امبراطور القسطنطينية الى طلب معونة المسيحيين في غرب اوروبا ضد الغزاة من مسلمي اسيا الذين هددوا امن مملكته. وقد اعطى هذا الدافع الديني للحملات الصليبية طبيعة اشبه بالزحف الجماهيري او الحج الجماعي الى فلسطين.

(5) طمع الغربيين في اقتطاع امارات جديدة: دفعت الاعتبارات الاقتصادية الكثيرين للاشتراك في هذه الحملات. كانت المجاعات من الظواهر المستمرة في غرب اوروبا في القرن الذي سبق الحملات الصليبية. كان اهل البندقية يهمهم اعادة تنشيط تجاراتهم مع الشرق الادنى، واهتم النورمان الايطاليين بالسلب والنهب واقامة اقطاعيات لهم الى جانب اهتمامهم بانقاذ الاماكن المقدسة. وجذب حب المغامرة العسكرية، والذي اعتبرته الكنيسة عندئذ امرا مشروعا، العديد من نبلاء الاقطاع وفرسانه لينضموا الى جيوش الحملات الصليبية. وانضم البعض الاخر الى تلك الحملات هربا من عقوبات جرائم ارتكبوها او لمجرد التخلص من الملل الذي تمثله حياتهم في اوطانهم.

(6) النهضة الدينية: كانت تلك الفترة، فترة انتعاش ونهضة دينية، وربما كان اقوى الاسباب التي ادت الى الحروب الصليبية، هو تزايد الشعور الديني في اوروبا الغربية في تلك الايام، والحماس الديني لدى الناس هنا، جعلهم على اتم استعداد، للقيام بأي عمل، في سبيل دينهم. وساد بين الناس الاعتقاد ان انضواءهم تحت لواء الصليب، الذي رفع شعارا لتلك الحروب، هو الوسيلة المثلى، لخلاص نفوسهم.

ان هذه الاسباب المباشرة لم تكن قادرة بنفسها على اثارة الحملات الصليبية والقيام بها وتحقيقها فعلا لولا ان ساعدتها ظروف خفية قوية مهدت لها السبيل اولا ثم دفعتها الى الامام. وهذه الظروف هي:

1) تفكك العالم الاسلامي: استطاع السلجوقيون ان يسيطروا على العالم الاسلامي ويوحدوا اقطاره فاذا ايران والعراق والشام وارمينية وقسم من آسيا الصغرى دولة اسلامية واحدة لها من القوة ما يكفيها لتهدد الدولة البيزنطية والعالم المسيحي باسره. وبلغت دولة السجلوقيين اوج عزها في عهد السلطان ملكشاه. ولما مات ملكشاه تفككت دولته الواسعة وتفتت الى امارات متعددة، وقام عليها الامراء يتزاحمون فيها ويتخاصمون. ورأى الغرب ان الظروف مؤاتية لاجتياح الشرق، فاعد العدة للحملات الصليبية.

2) الاوضاع الاجتماعية في الغرب: سيطرت الاقطاعية في الغرب، فكان فيه كثير من الاشراف والفرسان بلا مقاطعات ولا اراض، وكثير من عبيد الارض والاقنان بلا مال ولا معاش، وكانوا كلهم يتحرقون شوقا الى القتال لتحقيق اهدافهم المادية واخذوا فعلا يتقاتلون في معارك دامية لا نهاية لها. وتناهت اليهم اخبار الشرق: الدولة الاسلامية متفككة ضعيفة، والثروات والاراضي فيها كثيرة واسعة، والسلجوقيون يضطهدون اخوانهم المسيحيين الحجاج، ودولة الروم المسيحية في خطر عظيم. فهاجت العواطف وتحمست النفوس واستعد الناس للحملات الصليبية.

3) سيطرة السلطة البابوية: ولم يكن امراء الفرنج وفرسانهم قادرين على القيام بالحملات الصليبية لولا وجود سلطة قوية توحد كلمتهم وتقضي على خصوماتهم. وكانت هذه السلطة القوية هي سلطة البابا. فكانت البابوية آنذاك في اوج عزها، لها الكلمة المسموعة والقدرة الكافية على كبح جماح الملوك والاقطاعيين والاشراف والفرسان وتوجيه العالم الغربي حيثما تشاء. فوجهته الى الديار المقدسة.

4) تأمين طرق الموصلات: ولم تكن غزوات الفرنجة لتتحقق لو لم تكن طرق المواصلات المؤدية الى الشرق في ايدي المسيحيين الغربيين. فقد سيطرت اساطيل جنوه والبندقية وبيزة وغيرها من المدن الايطالية على طريق البحر وتغلبت على قراصنة البحر من عرب واتراك ومغاربة. اما طريق البر فقد اصبح بايدي المسيحيين بدخول المجريين في المسيحية. فاتصل الغرب بالشرق اتصالا مباشرا عن طريق البر والبحر.

هذه الظروف وغيرها ساعدت على قيام غزوات الفرنجة ونجاحها في مرحلتها الاولى.

ج – الحملات الصليبية

ثمان حملات رسمية تخللتها حملات غير رسمية، كان منها ما هو اجدى نفعا من الجيوش الجرارة، وانتهى بعضها بمآسي تدمي القلوب.

الحملة الاولى (1096–1099):

الحملة الشعبية: كان السبب المباشر للحملة الصليبية الاولى هو الدعوة التي وجهها البابا اوربان الثاني Urban II في عظة القاها في مجمع عقد في كليرمونت Clermont في تشرين ثاني 1095، ودعا فيها الى تنظيم حملة ضد المسلمين استجابة لطلب الكسيوس للمساعدة. لكن الواقع ان البابا اربان كان يفكر في المفهوم الاوسع وهو انقاذ الاماكن المقدسة كاولوية اهم من تقديم المعونة للامبراطورية الشرقية. كان معظم الحاضرين في هذا الاجتماع من الفرنسيين وكان البابا اوربان نفسه فرنسيا، تجاوب الحاضرون مع نداء البابا بحماس شديد.

وقبل ان يحين الموعد المضروب، قامت جماعة من افراد الشعب الذين اثارهم وعظ بطرس المتوحد Pierre l'Ermite ووالتر Walter الفقير، تدفعها الحماسة الدينية، واسرعت لتنقذ القبر المقدس. وسار افراد هذه الحملة الشعبية نحو القسطنطينية من المانيا والمجر والبلقان بدون نظام ولا انضباط ولا سلاح كافي. وبلغوا العاصمة البيزنطية في شهر تموز سنة 1096، فاستقبلهم الملك الكسيوس باستغراب وحذر. وارتأى بطرس الراهب ان ينتظروا مجيء الجيوش النظامية، فلم يتبعوا رأيه، وبسبب عدم تنظيمهم او انضباطهم فقد كان امبراطور القسطنطينية مسرورا عندما سمح لهم بالمرور عبر المضايق الى اسيا الصغرى، ودخلوا اراضي الدولة السلجوقية، حيث ابادهم الاتراك او اسروهم وباعوهم عبيدا.

الحملة النظامية: كانت الحملة غير المنظمة التي قام بها افراد الشعب العاديون من الفرنسيين مجرد مقدمة للمجهودات المنظمة التي تبلورت في الحملة الصليبية الاولى التي قادها النبلاء الفرنسيين والبلجيك والنورمان. وصلت الجيوش المختلفة مع قادتهم الى القسطنطينية في ربيع عام 1097. واجتمع القادة بالملك الكسيوس ووعدوه بأن يعيدوا اليه المدن الاسيوية التي يستخلصونها من ايدي السلجوقيين. استولى الصليبيون على نيقية بعد حصار قصير، وعند حلول الخريف وجدوا انفسهم امام انطاكية، حيث استولوا عليها في ربيع 1098. واخيرا استولوا على اورشليم في حزيران 1099، حيث قتلوا فيها خلقا كثيرا، ودخلوا طرابلس في 12 تموز سنة 1109. وكان هؤلاء الصليبيون من نبلاء الاقطاع في اوروبا، لذلك لم يستطيعوا مقاومة الاغراء باقامة مقاطعات تابعة لهم في الشرق ايضا، في المناطق التي استولوا عليها. واسسوا اربع دول لاتينية هي مملكة القدس وامارات اديسا وانطاكية وطرابلس، وفرضوا عليها النظام الاقطاعي السائد انذاك في اوروبا، ويرجع معظم الحصون المبنية في الشرق الاوسط الى تلك الفترة. وفي نهاية الامر تم تنظيم اورشليم والمدن المحيطة بها لتصبح مملكة القدس حيث تم تنصيب جودفري دي بويون ملكا عليها وان رفض حمل التاج. وكان جودفري هو القائد الادبي لهذه الحملة. فتحققت بذلك اهداف الحملة الصليبية الاولى. فقد تم تخفيف ضغط المسلمين على القسطنطينية، واستعاد الحكام المسيحيون سيطرتهم على القدس.

الحملة الثانية (1147–1149):

اما مناسبة تنظيم الحملة الصليبية الثانية، فكانت تهديد الاتراك لمملكة القدس من الجانب الشمالي الشرقي بعد استيلائهم على مقاطعة اديسا. وفي عام 1146 دعى الراهب برنار ده كليرفو ST. Berbard de Clairvaux، الى

تنظيم الحملة الثانية. وتصدى ملك فرنسا لويس السابع وامبراطور المانيا كونراد الثالث لقيادة هذه الحملة. وصل الامبراطور عن طريق المجر الى بيزنطية ثم الى آسيا الصغرى، وفيها هاجمه عدوان شديدان وهما الجوع وعلاء الدين السلجوقي. فجرح كونراد وفقد سبعين الفا من جيشه. وادركه ملك فرنسا، واتجه الاثنان مع ما بقي لهما من جيوش الى البحر وكان هدفهما استرجاع اديسا فتحولا الى دمشق، وكان امير دمشق مجير الدين بن طغتكين مواليا للصليبيين يدفع لهم الجزية خوفا على امارته من نور الدين بن زنكي. فلما هاجم الصليبيون دمشق استجار طغتكين بنور الدين فاجاره. وهزمت الجيوش الاسلامية امبراطور المانيا وملك فرنسا امام دمشق فباءت حملتهما بالفشل. وكان من نتيجة فشلها نجاح القائد صلاح الدين الايوبي في استعادة مدينة القدس في عام 1187.

الحملة الثالثة (1189–1192):

الفترة ما بين 1148-1187 عرفت القوات الغربية في الشرق كثيرا من الهزائم على يد قوات نور الدين امير الموصل وحلب، الذي لجأ الى الخطاب الديني لتعبئة الجماهير، فاعتبرها حربا ضد الكفار ونوعا من الجهاد المقدس لنصرة الاسلام.

لما مات نور الدين في 1174، قام صلاح الدين بجمع القوات المسلمة جمعاء لمحاربة الافرنج (الصليبيين)، وهزمهم في موقعة حطين، واستولى على القدس في تشرين اول 1187، وهدم كنيسة القيامة، مما دفع البابا كليمنضوس الثالث الى دعوة الامراء لانقاذ القدس. كانت الحملة الثالثة والتي عرفت باسم حملة الملوك، تحت قيادة فيليب اغسطوس ملك فرنسا، وريشارد ملك انجلترا، والامبراطور فردريك ملك المانيا. لقى فردريك حتفه في حادث ادى الى غرقه في الطريق الى فلسطين، واستولى الصليبيون على عكا وعلى الساحل السوري. فاضحت عكا المركز السياسي الرئيسي للصليبيين بدل القدس. واستولى ريتشارد قلب الاسد في طريقه الى فلسطين على جزيرة قبرص، وكانت آنذاك تحت امرة امير بيزنطي، فاضحت الجزيرة قاعدة مهمة للفرنجة. وقام ريشتارد في الديار المقدسة باعمال عجيبة من الشجاعة والفروسية فذاعت شهرته بين الصليبيين والمسلمين. ورجع فيليب الى بلاده بعد خلافه مع ريتشارد. اما ريتشارد فقد واصل قتاله، وتغلغل عدة كليومترات داخل القدس، لكنه لم يستطع استرجاع المدينة بسبب نقص قواته. الا انه تفاوض مع صلاح الدين ونجح في اقناعه، وعقدا معاهدة، في 2 ايلول 1192، قبل بها المسلمون ان تظل صور ويافا (امارة عكا) في يد الصليبيين، وان يعطي الحرية للحجاج في زيارة القدس حسب اتفاقية صلح الرملة، شرط ان يدخلوها بدون سلاح. ولانه لم يستطع ان ينجز اكثر من ذلك، فرجع ريتشارد الى بلاده.

الحملة الرابعة (1202–1204):

ستظل هذه الحملة اكثر النقاط المظلمة في تاريخ الحركات الصليبية، لأن السيف الذي جُرد للدفاع عن مسيحي الشرق عاد لينغرس في صدورهم، والجيوش التي زحفت نحو القسطنطينية لحمايتها عادت فهدمت اسوارها ودكت حصونها، وبدلا من ان تكون هذه الحملات حجر الزاوية لوحدة المسيحيين خلّفت هذه الحملة الضغائن والاحقاد ما يصعب على الزمن محوه.

كان البابا انوسنت الثالث مهتما بتعويض الفشل الذي واجهته الحملة الثالثة، لذلك دعى بكل الحاح الى ضرورة تنظيم حملة جديدة وهي الحملة الرابعة التي كان هدفها الاستيلاء على مصر معقل الايوبيين كقاعدة للعمليات للاستيلاء على فلسطين. ومنع القادة الصليبيين منعا باتا من مهاجمة احدى الاراضي المسيحية. ومع ذلك، فقد انحرفت عن غايتها وتوجهت الى القسطنطينية واستولت عليها، واعادت الى العرش الملك المخلوع وابنه الكسيوس. ولكن الثورة ما لبثت ان قامت في وجهيهما في شهر كانون الثاني 1204 وقلبتهما عن العرش. فتسلم زمام الحكم الكسيوس الخامس. فعاد الفرنجة مرة ثانية الى المدينة وحاصروها ودخلوها في 12 نيسان 1204 وخربوها تخريبا هائلا، واسسوا دولة لاتينية.

ونصب الفرنجة في القسطنطينية بطريركا لاتينيا بدل البطريرك البيزنطي، واقالوا اساقفة الروم الذين رفضوا الاتحاد بالكنيسة الرومانية. اما الاساقفة الذين قبلوا الاتحاد فاعتبروهم نوابا للاساقفة اللاتين حفظا للمبدأ الذي ينهي ان يكون للمدينة الواحدة اسقفان.

ومن الاسباب التي دعت الصليبيين للاستيلاء على القسطنطينية:

(أ) لانهم كانوا يضمرون الحقد لدولة الروم، لان الروم وقفوا تجاه الحملات الثلاث الاولى موقفا عدائيا. وكان الغربيون لا يزالون يذكرون مذابح اللاتين في القسطنطينية سنة 1182.

(ب) لان الكسيوس الثالث في القسطنطينية خلع اخاه اسحق من العرش واستولى على الحكم بعد ان فقأ له عينيه. فقام الكسيوس الاصغر ابن الملك المخلوع يستنجد بفرسان الغرب، فانجدوه وسيروا جيوشهم نحو القسطنطينية.

(ح) لان تجار مدن البندقية وجنوة وبيزة وغيرها من المدن الايطالية طمعوا في السيطرة على جميع مرافق الحياة التجارية في الشرق فحرضوا الملوك والقادة على مهاجمة القسطنطينية والاستيلاء عليها.

وكان من النتائج الهامة لهذه الحملة:

1- اخضاع الكنيسة البيزنطية والامبراطورية الشرقية مرة اخرى لنفوذ البابا وذلك في الفترة من 1204-1261، بعد قرن ونصف من الانفصال.

2- اضعفت قوات الصليبيين المرابطة في الاراضي المقدسة ومنعت عنها الامدادات العسكرية.

3- ساعدت هذه الحملة على اضعاف الامبراطورية الشرقية وعلى تعميق الكراهية بين المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية.

حملة الصبية (1212):

احدى الحملات غير الرسمية، بل وغير المنطقية ايضا، لكنها اكثر الحملات تعبيرا عن الروح الحقيقية للحركات الصليبية. ذلك ان آلافا من الصبية والصبايا، تحركوا من فرنسا تحت قيادة "راعي الغنم" اسطفانوس، ومن المانيا تحت قيادة "ابن العاشرة" نيقولا دي كولونيا، صوب الاراضي المقدسة لتحريرها والحج الى قبر المسيح، واضعين امامهم صورة خيالية للقدس مستوحاة من صورة اورشليم السماوية كما ترد في سفر الرؤيا.

تحركت الحملة في حزيران 1212، متوجهة نحو البحر لعبوره نحو المشرق، لم يستطع الاهل او الاكليروس الوقوف لمنع مثل هذه الحملة، والتي كان يحركها ايمان قوي وثقة في تدخل الرب لتحقيق اهدافها. وصل الفريقان عند البحر، اسطفانوس عن شواطىء مرسليا، ونيقولا عند شواطىء جنوى. مات عدد كبير من اولئك الصبية سواء من الجوع او مهاجمة الوحوش وايضا اللصوص، او عودة البعض الى ذويهم وهم يتجرعون مرارة الفشل.

لم وجد نيقولا صداً من اهالي جنوى، ولم يعاونه احد للابحار للشرق. فعاد الى روما ليستنجد بالبابا الذي نصحهم بالرجوع الى ذويهم. اما اسطفانوس فوجد عرضا من بعض التجار لتوفير السفن... من هنا تبدأ المأساة... فبدأ رحلته مع رفاقه، لكن تحطمت بعض السفن بالقرب من شواطىء سردينيا وما تبقى منها قاده التجار نحو شواطىء انطاكيا والاسكندرية حيث باعوا بقية الصبية كعبيد.

بالرغم من عدم منطقية هذه الحملة إلا انها تظهر لنا بوضوح ان الحملات الصليبية لم تكن في الاساس حركة استعمارية، لكنها حركة دينية تقوية تهدف الى تحرير قبر المخلص.

الحملة الخامسة (1217-1221):

دعا اليه البابا انوسنت الثالث واقرها في مجمع اللاتران، وقام بها ملك المجر وملك قبرص، وتوجها بجيوشهما الى مصر، قلب الدولة الايوبية، واستوليا على دمياط عام 1217 وتأخر الامبراطور فردريك الثاني عن اللحاق بهما فتمكن السلطان الكامل من جمع قواه والانتصار عليهما، فاضطرا الى مغادرة مصر عام 1221.

حملة الفقير (زيارة القدس فرنسيس الاسيزي) (1219):

حقق القديس فرنسيس الاسيزي ما كان قد نواه ولم يتمه في 1214، وهو الخروج كمرسل نحو غير المؤمنين لتوصيل كلمة الحياة لهم، فخرج مع الحملة الصليبية الخامسة، ووصل معها الى مصر ليس بهدف المشاركة كمقاتل ولكن بهدف مقابلة السلطان الكامل لهدايته لكلمة الحياة، سمح السلطان بمقابلة هذا الفقير ذو الثياب البالية، وسمع منه – ولكن دون تحقق امنية فرنسيس – وسمح له ولجماعته بالتجول (بين المسيحيين) في القدس ومصر.

هكذا حققت هذه الزيارة، التي قام بها هذا الفقير، لوحدة الكنيسة اكثر من جميع الحملات المسلحة، حيث ان وجود مرسلين من الآباء الفرنسيسكان في المشرق ساعد على اتحاد جماعات من مسيحيي الشرق مجددا مع الكرسي البابوي، مكونة الكنائس الكاثوليكية الشرقية من جديد او محيية البقية الباقية امينة للاتحاد بروما في الشرق.

الحملة السادسة (1228–1229):

حث البابا غريغوريوس التاسع امبراطور المانية فردريك على ان يبر بوعده ويذهب الى الجهاد فامتنع، فلما رشقه بالحرم اظهر خضوعه وسافر مع جيشه الى عكا ووصل عام 1228. وكانت عكا آنذاك في ايدي الفرنجة. واتصل بالسلطان الكمل الايوبي، ودخل معه في مفاوضات، حتى توصلا لمعاهدة ابراماها في شباط 1229، تقضي بان يرد السلطان لمملكة القدس اللاتينية بيت لحم والناصرة وصور وصيدا وبعض القرى في طريق القدس. فسلمه السلطان في اثرها مدينة القدس (ما عدا المسجد الاقصى)، على ان يسمح للمسيحيين والمسلمين على السواء بحرية الخروج من او الدخول الى المدينة، وكذلك يكون الحق في بناء دور العبادة سواء المسيحية او الاسلامية. ولا شك ان الشرط الاخير هذا هو ما دفع بطريرك القدس ورهبانيات الفرسان الى اعتراض على هذه المعاهدة. وعقد الملكان هدنة لمدة عشر سنوات.

توج فريدريك نفسه ملكا للمدينة – دون موافقة البطريرك – ثم عاد الى اوروبا في حزيران من نفس العام، وقَبِل البابا ان يرفع عنه الحرم الكنسي. وهكذا نجحت هذه الحملة في استرجاع القدس من دون اراقة دماء، وكان يمكن ان تكون بداية صفحة جديدة للعلاقات بين المسيحية والاسلام. وفي هذه الاثناء ظهر المغول وضربوا العالم الاسلامي. فهرب الخوارزميون من وجههم وجاؤوا الى سورية واعانوا الملك الصالح على استرجاع القدس من ايدي الصليبيين عام 1244.

الحملة السابعة (1249–1254):

لم تستمر الهدنة التي عقدها فريدريك مع السلطان الكامل طويلا، ففي 1244 تحالف السلطان الصالح ايوب مع القوات الخوارزمية، واستولى على القدس وعسقلان ومناطق الجليل، ولا شك ان الصراعات التي نشبت بين الحاميات اللاتينية، الموجودة بهذه الاماكن، قد عجلت بهذا السقوط في ايدي المسلمين. دعا البابا غريغوريوس في مجمع ليون الاول عام 1245 جميع الملوك المسيحيين الى الجهاد فلم يلب دعوته الا لويس التاسع ملك فرنسا. ووصل بجيشه الى مصر واستولى على دمياط سنة 1249 وسار الى القاهرة. وسلك طريق الدلتا فاستطاع طوران شاه ابن الملك الصالح ان يفتح عليه نهر النيل وكان في اوج فيضانه فهلك كثير من جنود الافرنج. ومع هذا فقد كسروا جيش طوران شاه. الا ان الخسائر الفادحة التي وقعت بجيش الافرنج منعت الملك لويس من متابعة سيره، فارغم على المفاوضة والانسحاب من مصر. وقضى اربع سنوات في فلسطين يحصن المدن التي كانت في حوزة الافرنج. عاد الملك لويس الى بلده دون مكاسب حربية او تفاوضية. ولا شك ان فشل هذه الحملة كان له اكبر الاثر في انطفاء روح الحركات الصليبية في نفوس ملوك وامراء الغرب، ذلك ان لويس كان آنذاك اعظم ملوك اوروبا واقواهم، وفشله يعني استحالة نجاح غيره.

الحملة الثامنة (1270):

بعد ان هزم بيبرس سلطان المماليك – المغول، بدأ في مهاجمة القلاع المسيحية الواحدة تلو الاخرى، فسقطت قيصرية في يده في 1265، ويافا وانطاكية 1268، لذا قرر لويس التاسع نفسه سنة 1270 ليفي نذره ويغسل عار فشله، الخروج بحملة لاسترجاع هذه القلاع. لكن اخاه تمكن من اقناعه لمهاجمة تونس اولا. فتوجه الى تونس لياخذ مصر من الخلف، وقد اوهموه ان امير تونس مستعد ان يعتنق النصرانية. وتفشى الطاعون في جيشه ومات الملك نفسه سنة 1270، فانسحبت الجيوش واستولت على صقلية.

وهذه كانت آخر "الحملات الصليبية" ولم يقم بعدها حملة اخرى. واتصفت الحملات الاخيرة بشيء من الفتور وعدم الاكتراث في العالم المسيحي، لان العقلية الغربية قد تغيرت كثيرا في اوروبا في غضون القرن الثالث عشر.

وهكذا بموت لويس التاسع (القديس) فقدت الكنيسة اخر الملوك المتحمسين لمثل هذه لحركة الهادفة لتحرير قبر المسيح. اول البابا غريغوريوس العاشر في 1274 تسير حملة جديدة، ولكن احد من امراء اوروبا لم يستجب له.

خاتمة الحروب الصليبية

استولى المماليك على ما تبقى من مملكة الفرنج، فاخذوا اخر معقل لها عكا في عام 1291، ودمروا المدن الصليبية تدميرا كاملا خوفا من عودة الفرنج اليها. ولم يبق للفرنج سوى جزيرة قبرص. عندئذ كلف البابا الملك رولان دي انجو بشراء الاماكن المقدسة وكلف الفرنسيسكان بحراستها عام 1342.

د – نتائج الحملات الصليبية

كان للحملات الصليبية نتائج وتبعات مهمة في غرب اوروبا على الصعيد السياسي والاجتماعي والديني والاقتصادي.

على الصعيد الاجتماعي والسياسي: عانى النظام الاقطاعي من الضعف والوهن، ذلك لان الكثيرين من الفرسان والنبلاء الذين ذهبوا في هذه الحملات لم يرجعوا ابدا، وايضا لان كثيرين باعوا ارضهم للمزارعين او للاثرياء من الطبقة المتوسطة من سكان المدن وذلك لتدبير الاموال اللازمة للحملات. واستطاعت كثير من المدن التي كانت مملوكة قبلا للامراء الاقطاعيين، او كانت تقع تحت سلطانهم، استطاعت الحصول على وثائق تعطي لهم حكما ذاتيا نظير مبالغ من المال. واستطاع الملوك ان يبسطوا نفوذهم وسيطرتهم المركزية بمعاونة الطبقة المتوسطة، التي حبذت اقامة الحكومات والدول المركزية تحت سلطان ملك واحد وذلك لتوفير الامن والنظام الذي تحتاجه اعمالهم التجارية والصناعية.

على الصعيد الديني: كانت هناك بعض النتائج منها:

– ان البابوية زادت سلطاتها اثناء فترة الحملات الصليبية، ولكن توجيه طاقات وموارد الدول الى الحملات ادى الى تصاعد الشعور القومي لدى تلك الشعوب مما ادى في نهاية الامر الى تناقص النفوذ البابوي.

– عمق تأسيس المملكة اللاتينية في القسطنطينية الشعور بالعداء بين الشرق والغرب واضعف الامبراطورية الشرقية حتى تأكد سقوطها سنة 1453.

– اعطى ظهور النظم الرهبانية ذات الطابع العسكري المزيد من الدعم للبابوية بما اضافه لها من الرهبان الذين يدينون لها بالولاء المطلق.

– حلت قوة الاقناع بدلا من قوة السلاح كوسيلة للتعامل مع العرب وحضارتهم. تعلم رايموند لال Raymond Lull 1235-1315 وهو احد نبلاء جزيرة مانوركا بايطاليا اللغة العربية وشيئا عن الحضارة العربية من عبد اشتراه خصيصا لهذا الامر، وذلك بفكرة ان المرشحين ليصبحوا مرسلين الى الشرق ينبغي ان يتعلموا اللغة العربية وادابها وملامح الحضارة، انشأ ريموند لال معهدا للتدريب سنة 1276 وذلك في ميرامير في جنوب شرق اسبانيا، والف عدة كتب تضمنت المجادلات الدفاعية، وقد استشهد في شمال افريقيا.

العلاقة بين المسيحية والاسلام: لا يمكن القول ان العلاقة بين المسيحية والاسلام تشوهت كنتيجة لهذه الحملة. فالعلاقة مشوهة منذ ان بدأت جيوش المسلمين تخرج من الجزيرة العربية لتقتحم البلاد المسيحية الواحدة تلو الاخرى، حتى وصلت الى قلب اوروبا (اسبانيا – جنوب ايطاليا – حدود فرنسا)، وليس من المنطق ان نطالب اوروبا بمعاملة ودية لمن يأتي اليها في ثوب الحرب. إذا يمكننا القول ان الحملات الصليبية لم تشوه العلاقة بين المسيحية والاسلام لكن زادتها تشويها فقط.

العلاقة بين الكنيسة الغربية والكنائس الشرقية: ايضا لا يمكننا الادعاء بعلاقات ودية سابقة للحملات، ألم تنفصل كنيسة الاسكندرية عام 351؟ ألم ينفصل جزء كبير من مسيحي سوريا عن روما في 451 ايضا؟ ألم ينفصل بطريرك القسطنطينية معلنا عدم الشركة مع روما في 1054؟ إذا لم تكن العلاقة ودية من قبل، ولكن لا شك ان هذه الحملات – وخاصة الرابعة منها – جعلت الهوة اكثر إتساعا، وتركت وصمة على جبين الكنيسة ذاك ان السيف يوما رُفع لقتل الأخ لا لنجدته.

على الصعيد الاقتصادي: كانت النتائج الاقتصادية على نفس الدرجة من الاهمية. بدأت المدن الايطالية وعلى رأسها مدينة البندقية (فينيسيا) في التجارة مع الشرق الاوسط باسرع ما يمكن من النجاح الذي حققته الحملة الصليبية الاولى. وارست تجارة المنتجات الغالية الثمن من الشرق الاوسط (الحرير والتوابل والعطور) الاساس الاقتصادي لحركة رعاية الفنون في عصر النهضة في ايطاليا.

على الصعيد الثقافي والعلمي: بالرغم من فشل الحملات الصليبية في تحقيق التحرر الكامل الدائم لمدينة القدس من سيطرة المسلمين، الا انها عادت بالكثير من الفوائد على غرب اوروبا وساعدت على تخليص اوروبا من حالة ضعف انحدار الحضارة فيها. جاءت الحملات بعلوم العرب وادابهم الى اوروبا الغربية، ليعكف على دراستها المتخصصون الذين حاولوا توفيق هذه العلوم مع الفكر المسيحي.

هـ– الحكم على الحروب الصليبية

امر صعب جدا لاختلاط الامور ولاختلاط وجهات النظر بين الشرق والغرب. فمن ناحية كان هم البابا فعلا تحرير الاماكن المقدسة، والخوف من اغلاقها امام الحجاج. واتى فتح الاتراك للقسطنطينية في القرن الخامس عشر ليؤكد ان خوف البابا كان حقيقيا. ومن ناحية ثانية لم يوفق البابا بسفراء مناسبين لهذه الغاية النبيلة. فالملوك والامراء خلطوا الدافع الديني بدوافع اخرى اقل نبلا.

بقي ان نرى هذه الحملات بعيون عصرها وليس حسب رؤانا اليوم، فلك ان تتخيل أنك فارس، تتباه دائما بشجاعتك في الحروب، وفجأة تجد أخاك واقفا على بابك مثخنا بالجراح يطلب نجدتك، ماذا ستفعل؟ أو انك اب لكل المسيحيين ورأيت كل المقدسات المسيحية تنتهك، وابنائك يقتلون، ماذا ستفعل؟

تبقى فظائع القتل واهمها مذبحة سقوط القدس ومعرة النعمان. صحيح ان الصليبيين قتلوا الالاف، وصحيح ان كل حرب في ذلك الزمان كان يقتل فيها الالاف. فلا كل الصليبيين كانوا مجرمين ولا كل المسلمين كانوا بحلم صلاح الدين.

ما اسهل ان نحرّف التاريخ وان نفتري عليه، فإذا جردنا الحركات الصليبية من كل قيمة روحية، وصورناها فقط كمشروع استعماري، فماذا سننعت الجيوس الخارجة من الجزيرة العربية في النصف الاول من القرن السابع وتبيد وتقضي على الناس، لا لشيء سوى انهم يعتنقون عقيدة مخالفة لعقيدتها؟

و– ملحق للحملات الصليبية

الرهبانيات العسكرية:

رهبانيات الفرسان هي احدى النتائج المترتبة على الحركة الدينية والروحية الناتجة للحملات العسكرية، تكريس من نوع جديد، يجمع بين روح الفروسية (فخر العصور الوسطى) والتقوى الدينية الراغبة في التكريس الكامل لله. تأسست في فلسطين رهبانيات عسكرية ثلاث، متقاربة زمنيا من حيث النشأة، هدفها المشترك الدفاع عن الاماكن المقدسة، وتحرير قبر المسيح. فكان اعضاؤها رهبانا وفرسانا على السواء، يشتركون جميعا في حفظ النذور الرهبانية الثلاث (الفقر – العفة – الطاعة)، الى جانب وضع انفسهم في خدمة الحجاج القادمين للاراضي المقدسة والدفاع عنهم، كما في اسعاف الجرحى والمرضى من الفرسان المحاربين في الحملات العسكرية. وهذه الرهبانيات هي:

– **رهبانية القديس يوحنا Les Hospitaliers** أسست سنة 1099 بهدف الخدمة في مستشفى القديس يوحنا بأورشليم. اصبحت مؤسسة رهبانية ذات نظام محدد في سنة 1120، متخذين زيا خاصا لهم (رداء اسود مزين بصليب ابيض)، نالوا اعتراف الكرسي الرسولي في نفس العام. انتقلوا عام 1291 – حسب امر الكرسي الرسولي – الى قبرص. وفي سنة 1530 انتقلوا الى مالطا ويعرفوا اليوم باسم فرسان مالطا.

– **رهبانية الهيكليين او حر اس الهيكل Les Templiers** تأسسوا سنة 1118، على ايدي ثمان فرسان فرنسيين، طلبوا من الاسقف السماح لهم بالاقامة في بقايا هيكل سليمان او قريبا منه (من هنا اتت تسميتهم). التزموا بزي تكريس عبارة عن رداء ابيض مزين بصليب احمر. فانتشروا بسرعة وبخاصة في فرنسا. تم الاعتراف بهذه الرهبنة في 1127، والتزمت بقوانين القديس اوغسطينوس. في عام 1139 اصدر البابا انوسنت الثاني، براءة بابوية (كل عطية صالحة) منح بموجبها الهيكليين امتيازات كثيرة.

إنتشرت الأخوية بشكل سريع، وصلت في منتصف القرن الثالث عشر الى اربعة عشر اقليما (اربعة بالاراضي المقدسة وعشرة باوروبا). استولى الاتراك في 1291 على امبراطورية الشرق، ففقد الهيكلييون علة وجودهم بها، فعادوا الى اوروبا. فخشي الملك الفرنسي فليب الجميل من سطوتهم وغناهم، فأكال لهم التهم، وصادر اموالهم، ونصب لهم المحارق العلنية، واستطاع في نيسان 1312 إستصدار براءة البابا كليمنضوس الخامس بعنوان "صوت صارخ" بحل الرهبانية نهائيا. ولا شك ان هذا العنف في مواجهة الرهبانية والقرار السريع بحلها هما المصدر الاساسي لكل هذه الاساطير التي تنسج حول الهيكليين حتى اليوم.

– **رهبانية التيوتونيين Les chevaliers Teutoniques**، تأسس على يد مجموعة من التيوتونيين الالمان ما بين عامي 1189-1190، كاحدى الاخويات التمريضية بمستشفيات المعسكرات الصليبية. اسسوا مستشفى لهم في عكا لاستقبال الحجاج. وكفرسان اشتركوا في الحروب الصليبية واعترف بهم البابا كمؤسسة كنسية سنة 1198، والتزمت الرهبانية بقوانين خاصة تحافظ على النذور الثلاث، متميزين بارداء الابيض مع الصليب الاسود. . وانتشرت رهبانيتهم في المانيا والنمسا، وبعد سقوط عكا نقلوا مقرهم الى البندقية ثم الى ماريمبورغ. سنة 1525 انضم الرئيس العام للرهبنة البرتو دي براندبرجو لاحدى الحركات البروتستانتية، ولا يعرف بعد هذا التاريخ أي شيء عن هذه الرهبانية. لا بد انهم اعتنقوا مع المانيا باسرها البروتستانتية.

الفصل الثامن والعشرون

الهرطقات في الغرب

ظهرت في هذا العصر هرطقات وشيع كثيرة، يرجع اكثرية المؤرخين ظهورها الى الاسباب التالية:

1) فساد اخلاق رجال الدين. اكثرية هذه الشيع قاومت وانتقدت فساد الاخلاق، والغنى والروح العالمية والمادية التي طغت على رجال الدين في آخر القرن الثاني عشر.

2) التصوف والعبادات الشرقية: اقبلت على بلاد الغرب موجات جديدة من التصوف الشرقي لعلها سارت في ركاب الصليبيين العائدين البلادهم. وجاءت من بلاد فارس عن طريق آسية الصغرى وبلاد البلقان اصداء الثنائية المانوية والاشتراكية المزدكية. وجاءت من بلاد الاسلام كراهية الصور والاشمئزاز من الكهنة. واعقب الحروب الصليبية واخفاقها شك خفي فيما يعزى الى الكنيسة المسيحية من اصل قدسي ومعونة الهية.

3) ظهور الجامعات: خلق ظهور الجامعات في الناس روح البحث والدرس، والذي ادت، تحت تأثير الفلسفة العربية ، بعض الاشخاص الى الابتعاد عن الاورثوذكسية في تعاليمهم.

4) روح الاستقلال والتحرر الديني والسياسي: هذا الروح الذي بدأ يظهر في كثير من الاماكن ولا سيما في المدن الكبيرة، والذي دفعت الكثيرين لمحاولة التحرر من القيود الكنسية، ومن التبعية الاقطاعية.

5) صراع البابوات: ويعزي ايضا بعض المؤرخين الى صراع البابوات المستمر مع السلطات الزمنية، الذي ادى الى تضعضع السلطة البابوية ودفعت الناس الى عدم الطاعة.

ولما كانت هذه الشيع كثيرة ومتنوعة ، وقد احصى منها برتولد Berthold of Regensburg مائة وخمسين شيعة في القرن الثالث عشر، منها جماعات عديمة الضرر تلتقي ليقرأ بعضها الى بعض الكتاب المقدس بلغتها القومية دون الاستعانة بالكاهن، وليفسروا بانفسهم ما فيه من عبارات اختلف الناس في تفسيرها. ومنها جماعات عدة كانت تعد من الشيع الملحدة منها: البوليسيون Paulicians الذين جاؤوا الى ايطاليا وبروفانس عن طريق البلقان فارين نحو الغرب من وجه الاضطهاد البيزنطي، يحملون معهم سخريتهم من الصور المقدسة والعشاء الرباني، ورجال الدين، وقسّموا الكون الى عالم روحي من خلق الله وعالم مادي من خلق الشيطان، وقالوا ان الشيطان هو يهوه الوارد ذكره في العهد القديم.

وتكونت طائفة البجوميل Bogomiles (أي اصدقاء الله) في بلغاريا، وتسموا فيها بهذا الاسم، وانتشروا في البوسنة بنوع خاص. وهوجموا بالسيف والنار في اوقات مختلفة في القرن الثالث عشر، واستماتوا في الدفاع عن انفسهم، ثم استسلموا آخر الامر (1463) للاسلام لا للمسيحية.

وظهرت في عام 1000 شيعة في طولوز واورليان، تنكر المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب ووجود المسيح في القربان المقدس، وتأثير الصلوات للقديسين. واغفل امرهم الى حين ثم حوربوا، واحرق ثلاثة عشر منهم احياء في عام 1023. ونشأت شيع ملحدة اخرى شبيهة بهم، واعقبت نشأتهم اضطرابات في كمبرية، وليج (1035) وسواسون (1114) وكولونى (1146)، وغيرها من المدن:

نكتفي هنا بالحديث عن اشهر هرطقتين:

1) الولدنزيين Waldenses

نسبة الى مؤسسها "بطرس والدو" Pierre Valdo، وهو واحد من اعيان مدينة ليون، وبينما كان حاضرا احد اجتماعات مجلس المدينة، توفى صديق له من اعضاء المجلس، فأثر فيه هذا الحادث تأثيرا عميقا، وراح يفكر في انه ربما وقع له مثل ما وقع لزميله. ولكونه تاجرا ثريا استاجر في عام 1170 جماعة من العلماء ليترجموا الكتاب المقدس الى لغة جنوبي فرنسا. واقبل على درس الترجمة بشغف. وفي عام 1173، اثار انتباهه شاعر موسيقى، كان يتجول في شوارع المدينة، وهو ينشد اجزاء من مقطوعة عن حياة احد القديسين، فاخذ الشاعر معه الى منزله، لكي يسمع منه المقطوعة كاملة، وخرج من هذا معتقدا ان من واجب المسيحيين ان يعيشوا كما كان يعيش الرسل — ليس للواحد منهم ملك خاص. وفي اليوم التالي، قصد احد الكهنة وسأله عن الطريقة التي يستطيع بها ن ينال القداسة العملية، فاجابه الكاهن: "ان اردت ان تكون كاملا، ذهب وبع كل ما عندك واعطه للفقراء". وكان "والدو" مستعدا ان يفعل اي شيء يعينه على بلوغ غايته، لذلك لم يتردد، ومضى ونفذ ما اشار به الكاهن وباع كل ما كان عنده، وتنازل عن

جزء من ثروته لزوجته، ووزع الباقي منها على الفقراء، واودع ابنتيه في دير للراهبات، وقام يدعو الناس الى ان يعيشوا فقراء. وجمع حوله طائفة قليلة العدد دعوا انفسهم "رجال ليون الفقراء" لبسوا مسوح الرهبان، وعاشوا عيشة العفة والطهارة، ومشوا حفاة او منتعلين الصنادل، وكانوا ينفقون من مكاسبهم مشاعة.

في بداية الامر، كان "والدو" ورفاقه يحاولون ان يصلوا الى اختبار القداسة العملية في حياتهم الشخصية، وكانت الخدمة والمحبة والتضحية هي طريقهم لنوال هذا الاختبار. لكن هالهم الفساد المتفشي بين رجال الدين، فقرروا العمل على معالجة هذه الحالة، فانتقدوا رجال الدين وفسادهم. وراحوا يجوبون الشوارع، حاملين في ايديهم الكتب التي الفوها، وكانوا يذهبون من شارع الى شارع، ومن مدينة الى مدينة، يقدمون للناس رسالة الانجيل.

صبر عليهم رجال الدين بعض الوقت فلم يعارضوهم في شيء، وسمحوا لهم ان يقرأوا او ينشدوا في الكنائس، ثم تغيير الوضع فبدأت الكنائس تغلق ابوابها في وجوههم، وكان الكهنة يحاولون عرقلة مساعيهم، ويضعون العقبات في طريقهم، وذكّرهم رئيس اساقفة ليون بعبارة قوية ان الاساقفة وحدهم الذين يجوز لهم ان يعظوا الناس، ثم اصدر قرار بمنع "والدو" ورفاقه من مواصلة عملهم.

سافر بطرس الى روما (1189)، وطلب من البابا الاسكندر الثالث ان يمنحه اذنا بالوعظ، فاجابه البابا الى طلبه على شريطة ان يوافق على ذلك رجال الدين المحليون، وان يكون خاضعا لاشرافهم، لان البابا رأى انه ليس من الحكمة ان تخمد الكنيسة جذوة هذه الغيرة الدينية.

وواصل بطرس عظاته، دون ان يحصل على موافقة رجال الدين المحليين. واصبح اتباعه من اشهر رجال الدين تمسكا بالكتاب المقدس، وحفظوا فقرات طويلة منه عن ظهر قلب. واصطبغت هذه الحركة تدريجيا صبغة معادية لرجال الدين، ونبذتهم جميعا، وانكرت صحة العشاء الرباني الذي يقدمه كاهن اثم، وعزت الى كل مؤمن طاهر القدرة على العفو من الذنوب. وعارض بعض الاعضاء صكوك الغفران، وعقيدة المطهر، وتحول القربان المقدس الى جسد ودم المسيح، والصلاة للقديسين. وقامت طائفة منهم تنادي بان "الاشياء جميعها يجب ان تكون ملكا مشاعا". ونادت طائفة اخرى بان الكنيسة هي المرأة الحمراء المذكورة في سفر الرؤية.

صدر في عام 1184 قرار بحل هذه الجماعة، وقَبِل البابا انوسنت الثالث في الكنيسة عام 1206 فئة منها هي فئة "الكاثوليك الفقراء"، اما كثرتها الغالبة فقد اصرت على ارائها الخارجة عن الدين، وانتشرت من فرنسا الى اسبانيا والمانيا. واصدر مجلس عقد في طولوز عام 1229، ليقاوم اغلب الظن هذه الشيعة، قرارا يقضي بالا يمتلك شخصا من غير رجال الدين كتبا مقدسة عدا كتب التراتيل والصلوات. وحرم عليهم ان يقرأوا هذه الكتب بغير اللغة اللاتينية، لأن الكنيسة لم تكن حتى ذلك الوقت قد بحثت وايدت اية ترجمة الى اللغات القومية. ولما قامت حركة القضاء على الالبجنسيين حرق الالاف من اتباع ولدو، ومات بطرس نفسه في بوهيميا في عام 1217، ويبدو انه مات ميتة طبيعية.

وتحت تأثير اسقف تورين Turin، قام "اوتو الرابع" امبراطور المانيا، باصدار قرار امبراطوري، بالقضاء على الوالديين. ومنذ ابتداء عام 1300 وحتى نهاية القرن السابع عشر، تعرضت هذه الجماعة الى الاضطهادت والمقاومة حتى بادت او تفرقت وانضمت الى شيع جديدة اخرى ظهرت مشابه لها.

2) الكاتاري او الالبجية Cathares ou Albigeois

وكانت اسماء مختلفة تطلق على اقوى الشيع الملحدة كلها، فكانت تسمى شيعة الكاثاري، وهذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية معناها "الطاهر"، او البلغاري نسبه الى اصلهم، والالبجنيين نسبة الى بلدة البي Albi التي كانوا يكثرون فيها بنوع خاص.

كانت عقائد الكاثاري وشعائرهم من ناحية عودة الى العقائد والاساليب المسيحية الاولى، وكانت من ناحية اخرى ذكرى غامضة للالحاد الاريوسي الذي انتشر في فرنسا الجنوبية في عهد القوط الغربيين، ومن ناحية اخرى نتيجة

للآراء المانوية وغيرها من الآراء الشرقية. وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثيابا سوداء ومطارنة يسمون "الكاملين Perfecti"، يقسمون وقت ترقيتهم لهذه المناصب ان يتخلوا عن آبائهم وازواجهم وابنائهم، وان يهبوا انفسهم "لله والانجيل... والا يقربون من امرأة قط، ولا يقتلوا حيوانا، ولا يأكلوا اللحم او البيض او منتجات الالبان، والا ياكلوا الا السمك والخضار"[1] . وكان اتباعهم "المؤمنون Credentes" يتعهدون ان يقسموا فيما بعد الايمان على هذا، وكان يسمح لهم قبل ان يقسموها ان يأكلوا اللحم، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب اليهم ان يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية، وان يسيروا نحو الحياة "الكاملة"، وان يُحيُوا كل واحد من الكاملين بثلاث ركعات علامة على التعظيم.

تعاليمهم:

وتقسم فلسفة الكاثاري الدينية الكون كما يقسمه المانوية الى الخير: الله والروح والسماء، والشر: الشيطان، والمادة، والعالم المادي. وتقول ان الشيطان لا الله هو الذي خلق العالم المرئي. وهي تعد المادة كلها شرا بما فيها الصليب الذي مات عليه المسيح والقربان المقدس، وتقول ان المسيح لم يكن يتحدث الا مجازا حين قال عن الخبز "هذا هو جسدي". واذا كانت الاجسام كلها من المادة فان كل اتصال بها يدنس المتصل، وكل الاتصال الجنسي اثم، وكان الجماع هو خطيئة آدم وحواء. ويقول معارضي الالبنجيين عنهم انهم كانوا يرفضون العشاء الرباني، والقداس، وتعظيم الصور المقدسة، والثالوث الاقدس، ولا يؤمنون ان المسيح ولد من عذراء. وعندهم ان المسيح من الملائكة، ولكنه ليس هو الله. وانهم ينكرون الملكية الخاصة، ويأملون ان تقسم الخيرات بين الناس بالتساوي. وقد اتخذوا "عظة الجبل" اساسا لمبادئهم الاخلاقية. وكانوا يعلمون ان يحبوا اعداءهم، وان يعنوا بالمرضى والفقراء، والا يقسموا قط، وان يستمسكوا على الدوام بالسلم. وكان يقال لهم ان العنف يتنافى مع الخلق الكريم، ولو كان موجها للكفار، وان عقوبة الاعدام من اكبر الجرائم، وان على الانسان ان يوقن وهو مطمئن ان الله سينتصر آخر الامر على الشر من غير ان يستخدم وسائل شريرة.

ولم يكن في هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر، بل ان كل نفس ستنجو بعد ان تتقلب في عدة ادوار من التناسخ تطهريا من اثامها. ولا بد للانسان ان يموت وهو طاهر لكي يصل الى السماء، ولهذا كان عليه ان يتلقى من كاهن مسيحي القربان الاخير الذي به يتم تطهير الروح من آثامها. وكان الكاثاريون المؤمنون يؤجلون هذا القربان (كما كان بعض المسيحيين الاولين يؤجلو التعميد) الى مرضهم الاخير، وكان الذين يشفون من هذا المرض يتعرضون لخطر الدنس من جديد، وللموت دون ان يقوموا بمراسيم القربان الاخير من جديد، ولهذا كان من اكبر البلايا ان يشفى الشخص من مرضه بعد ان يقوم بمراسمه. وكان الكهنة الالبجنيون يُتهمون انهم يعملون لمنع هذه الكارثة باقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون ان يميتوا انفسهم جوعا ليذهبوا الى السماء. ويؤكد لنا اعداؤهم انهم كانوا في بعض الاحيان يميتون المريض خنقا برضاه حتى لا يكون ثمت مجال لاحتمال شفائه من مرضه الاخير.

الحرب ضد الالبيجنيين

ولقد كا في وسع الكنيسة ان تترك شيعة الكاثاري تقضي بنفسها على نفسها، لولا انها اخذت توجه سهام النقد الى الكنيسة. فقد انكرت ان الكنيسة كنيسة المسيح. وادعت ان القديس بطرس لم يأت قط الى روما، ولم يؤسس البابوية، وان البابوات خلفاء الاباطرة وليس خلفاء الرسل. وان المسيح لم يجد له مكانا يضع فيه رأسه، اما البابا فيسكن قصرا منيفا، وان المسيح لم يكن له مِلك ولا مال ولكن كبار رجال الدين من ذوى الثراء الفاحش. وما من شك — كما يقول الكاثاري — في ان رؤساء الاساقفة، والاساقفة، ذوي الاملاك الواسعة، والكهنة والرهبان، هم الفريسيون عادوا الى الحياة من جديد! ولم يكونوا يشكون في ان الكنيسة الرومانية هي "زانية بابل"، وان رجال الدين هم زمرة الشيطان، وان البابا هو المسيح الدجال.

[1] من تقرير كتبه سكوني Sacchoni احد قضاة محكمة التفتيش. ولسنا نعرف شيئا عن عقائد الكاثاري وشعائرهم الا منقولا عن اعدائهم. اما ما كتبوه هم فقد ضاع او تلف.

وكانوا ينددون بالداعين الى الحروب الصليبية ويصفونهم بانهم قتلة، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران. ويقال ان جماعة منهم صوروا العذراء في صورة قبيحة، عوراء، مشوهة الجسم، وادعوا انهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات، وان كثيرين من الناس آمنوا بقوة هذه الصورة الزائفة، ثم كشفوا هم انفسهم آخر الامر عن سخريتهم.

ونُشرت كثير من آراء الكاثاري عن طريق الاغاني التي اذعها شعراء الفروسية الغزليون، ولم يكن هؤلاء ممن تعجبهم تعاليم المسيح الاخلاقية وان لم يعتنقوا آراء الشيعة الجديدة.

وظل رجال الدين والسلطة الزمنية في فرنسا الجنوبية حينا من الدهر يبدون الكثير من التسامح مع طائفة الكاثاري. ويلوح انهم اجازوا لجمهرة الشعب ان تختار بملء حريتها الانضمام الى الشيعة ام لا. وعقدت مجالس عامة تناقش فيها فقهاء الكاثاري والكاثوليك، منها واحد عقد في كاركسون Carcassonne حضره مندوب من قبل البابا وآخر من قبل بدرو الثاني ملك ارغونة (1204). وكذلك عقدت عدة فروع مختلفة من الكاثاري مجلسا من رجال دينها عام 1176، وحضره ممثلون لهذه الفروع من بلاد مختلفة. وتباحث المجتمعون في عقائد هذه الشيعة، ونظمها، وشئونها الادارية، ووضعت قواعد تسير بمقتضاها. وانفض المجتمعون دون ان يتعرض لهم احد. وفوق هذا فان الاشراف رأوا ان من الخير لهم ان يضعفوا سلطان الكنيسة في جنوب فرنسا، ذلك ان هذه الكنيسة كانت واسعة الثراء تمتلك الكثير من الارض، على حين ان الاشراف كانوا اذا قيسوا اليها فقراء، ولهذا شرعوا ينتزعون بعض اراضيها.

ولما جلس انوسنت الثالث على كرسي البابوية في عام 1198 رأى في هذه التطورات خطرا محدقا بالكنيسة والدولة جميعا. لقد كان يرى بعض العذر فيما يوجه الى الكنيسة من نقد، ولكنه كان يحس انه لا يستطيع ان يقف مكتوف اليدين، ويرى هذا الصرح الديني العظيم الذي وضع له اكبر الخطط، وعقد عليه انبل الامال، والذي بدا له اقوى عاصم من العنف البشري، والفوضى الاجتماعية، ومن ظلم الملوك، يرى هذا الصرح يهاجم من اساسه، وتغتصب ممتلكاته، وتهان كرامته، ويتعرض لضروب السخرية والتجديف. لقد ارتكبت الدولة هي ايضا كثيرا من الذنوب، واحتضنت الفساد والموظفين الفاسدين، ولكن البلهاء وحدهم هم الذين يرغبون في القضاء عليها. هل يستطاع اقامة نظام اجتماعي دائم على المبادى التي تنهي عن الابوة، وتدعو الى الانتحار؟ وهل يفلح نظام اقتصادي يمجد الفقر ويخلو من كل ما في الملكية من حافز الى السعي والعمل؟ وهل يستطاع انقاذ العلاقات الجنسية بين النساء والرجال، وتنشئة الاطفال، من الفوضى الوحشية الا بنظام كنظام الزواج. وقد بدت عقائد الكاثاري لانوسنت كأنها خليط من السخف، نفث فيها سذاجة الجماهير سما زعافا؟ وما فائدة حرب صليبية توجه الى المسلمين في فلسطين اذا ظل هؤلاء الالبنجنيون يتضاعفون في قلب العالم المسيحي نفسه؟

وكتب انوسنت بعد شهرين من توليته الى رئيس اساقفة اوتش Auch في غسقونية يقول:

"ان قارب القديس بطرس الصغير تتلقفه العواصف وتتقاذفه امواج البحر، ولكن اشد ما يحزنني ويقضي مضجعي... ان قامت في هذه الايام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلا في تحررها من جميع القيود وفي شدة أذاها، قد ارتكبت اخطاء لا يرتكبها الا الشياطين، واخذت توقع نفوس السذج من الناس في حبائلها، وتفسد بخرافاتها وبدعها الكاذبة معاني الكتاب المقدس، وتحاول ان تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية. واذ كان هذا الوباء قد اخذ ينتشر في غسقونية والاقاليم المجاورة لها، فاننا ندعوكم انتم والاساقفة زملاءكم الى مقاومته بكل ما أوتيتم من قوة... وقد اصدرنا اليكم هذا الامر القوى النافذ ان تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل، وان تخرجوا من اسقفيتكم كل من اصابهم دنسها... وفي وسعكم اذا اضطررتم ان تجعلوا الامراء والشعب يقضون عليهم بحد السيف".

وحين قُتل موفد البابا المكلف بمحاربة البدع في جنوب فرنسا، قامت حملة صليبية بالتعاون مع ملك فرنسا كانت نتيجتها ابادة جماعية، اذ انتهت حركة الالبجيين في الواقع بمذبحة. ففي مدينة بيرير، قتل بحد السيف اكثر من 7000 من الرجال والنساء والاطفال.

ولم يكن انوسنت الثالث راضيا كل الرضا عن هذه الاعمال، فقد هاله ان يجد ان الصليبيين استولوا على املاك رجال لم يخرجوا قط على الدين، وان هؤلاء الرجال نُهبوا وقُتلوا كما يُقتل القراصنة المتوحشون وينُهبون. ووقفت الحرب

لما مات انوسنت. وخرج من بقي حيا من الالبجنيين المتمسكين بعقيدتهم يمارسون شعائر دينهم ويدعون له تحت حكم كونت طولوز الجديد اللين الرحيم.

وعرض لويس الثامن ملك فرنسا في عام 1223 ان يقضي على كل الخوارج اذا سمح له هونوريوس الثالث بان يضم الاقليم التى يحررها الى املاكه الخاصة. ولسنا نعرف جواب البابا، وكل ما نعرفه ان حربا صليبية بدأت. وان لويس اوشك ان ينتصر فيها حين وافته المنية في منبلية (1226). وعقدت معاهدة صلح في باريس عام 1229وافق عليها البابا غريغوريوس التاسع بعد ان تعهد ريموند بالقضاء على حركة الالحاد. ووضعت الحروب الالبجنية اوزارها بعد ثلاثين عاما من التقتيل والتخريب، وخرج الدين القويم ظافرا من هذه الحروب، وانتهى بانتصاره عهد التسامح، وحرم مجلس نربونة (1229) ان يمتلك احد من غير رجال الدين أي جزء من الكتاب المقدس. واخذ الاقطاع ينتشر، واخذت حرية المدن وحكوماتها البلدية في الاضمحلال. وانقض عصر شعراء الفروسية الغزاليين في جنوبي فرنسا.

وكانت هذه الوحدة الفرنسية ومحكمة التفتيش اعظم ما اسفرت عنه الحروب الصليبية الالبجنية.

(ول ديورانت من كتاب "قصة الحضارة" الجزء 16 ص. 75-89)

الفصل التاسع والعشرون

محاكم التفتيش

كانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين – أي الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية – جريمة كبرى يعاقب عليها بالاعدام، وهذا هو القانون الذي حكم به على سقراط بالموت. وفي رومة القديمة، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة

واصدقاءها الاوفياء، كان الخروج عليهم او التجديف في حقهم من جرائم الخيانة العظمى التي يعاقب عليها بالاعدام. فاذا لم يوجد من يتقدم باتهام المذنب، استدعى القاضي الروماني نفسه هذا المتهم وقام بتحقيق القضية (Inquisitio)، ومن هذا الاجراء اخذت محكمة التفتيش او التحقيق في العصور الوسطى شكلها واسمها.

محاربة الهرطقات

في مجتمع مطبوع بطابع الايمان، تلعب الوحدة فيه دورا مهما، وليس التسامح فيه معتادا على استخدام العنف، الا ان الهرطقة كانت ظاهرة لا يمكن التسامح معها، ليس لانها تهدد الحقيقة فقط، بل لانها تهدد اسس المجتمع ايضا. فقد ظهرت الهرطقات منذ بداية الكنيسة، وقد واجهتها الكنيسة خاصة كنيسة روما مستندة الى تعاليم المسيح والرسل والى خلاصة الايمان التي كتبت في "نؤمن". وحين كان المُعمَودون يرفضون قانون الايمان هذا، كانوا يتعرضون "للحرمان"، أي لاستثنائهم من الجماعة الكنسية ومن التقدم من التناول المقدس، الا انهم كانوا يتركون بسلام للعيش في المجتمع المدني كغير المسيحيين.

طبق اباطرة الرومان الروم القوانين الرومانية في العالم البيزنطي فحكموا بالاعدام على المانويين وغيرهم من المارقين. ثم كثر التسامح في البلاد الغربية خلال العصور المظلمة وهي التي قلما كان ابناؤها يتحدون الكنيسة، وقال ليون التاسع ان الحرمان من الدين يجب ان يكون هو العقاب الوحيد الذي يوقع على المارقين. ولما انتشر الالحاد في القرن الثاني عشر قال بعض رجال الكنيسة ان حرمان الملحدين يجب ان يعقبه نفى الدولة اياهم او سجنهم. ولما عادت بولندا في القرن الثاني عشر الى اتباع القوانين الرومانية جاءت في قانونها نصوص واساليب ودوافع لانشاء محكمة تفتيش، ونقل قانون الالحاد الكنسي كلمة كلمة من القانون الخامس المعنون De hereticis في كتاب جستنيان. وكان آخر ما فعلته الكنيسة ان اخذت في القرن الثالث عشر قانون الد اعدائها فردريك الثاني، وهو ان يكون الاعدام عقوبة الضلال.

في القرون الوسطى، عاشت الكنيسة حالة دمج غير واضح المعالم بين السلطتين الروحية والزمنية. كان ينظر الى المجتمع المسيحي ك"مدينة الله"، وكان يدافع عن نفسه بقوة ضد بذور التفتت الداخلي التي هي الهرطقات والارتداد عن الايمان والسحر والشعوذة.

ولما ارتقى غريغوريوس التاسع عرش البابوية (1227) وجد ان الضلال آخذ في الازدياد رغم المحاكمات الشعبية، والحكومية، والاسقفية. فقد كانت جميع بلاد البلقان، والجزء الاكبر من ايطاليا، وغير قليل من فرنسا، كانت هذه البلاد مرتعا للزيغ والضلال. وكانت المسألة، كما يراها الحبر الطاعن في السن، ان الكنيسة وهي تقاتل فردريك والضلال في وقت واحد، انما تقاتل في سبيل المحافظة على حياتها، وانها يحق لها من اجل ذلك ان تلجأ الى المبادئ الاخلاقية والاساليب التي تحتمها حالة الحرب.

وروع غريغوريوس لما عرف ان الاسقف فلبو باترنون Filippo Paterrenon الذي تمتد اسقفيته من بيزا الى ارزو قد اعتنق مذهب الكاثاري، فعين لجنة للتحقيق يرأسها راهب من الدومنيكان تعقد جلساتها في فلورنس وتُقدم الضالين الى المحاكمة (1227). وكانت هذه اللجنة في واقع الامر بداية محكمة التفتيش البابوية، وان كان المحققون فيها خاضعين من الوجهة الرسمية لسلطان الاسقف المحلي. فلما كان عام 1231 ادخل غريغوريوس في قانون الكنيسة الشرائع التي سنها فردريك في عام 1224. وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة من ذلك الوقت على ان الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب ان يعاقبوا بالاعدام. وبهذا انشئت محكمة التفتيش رسميا تحت سلطان البابوات.

وكانت محاكم التفتيش خاضعة مبدئيا للبابا، الا ان العمل بها كان يتم بواسطة "المحققين او المفتيشين"، وكان اغلبهم من الدومنيكان. وكان المحقق المسؤول عن منطقة معينة يترأس محكمة يمثل امامها المتهمين. وفي عام 1252، سمح البابا انوسنت الرابع باستعمال التعذيب لاجبار المتهمين على الاقرار بذنوبهم، وكان هذا مخالفا لجميع مبادىء الانجيل والتقاليد الكنسية. فمن ارتد من المتهمين عن ضلاله حافظ على حياته، الا انه كان يخضع لاعمال تكفيرية تختلف قساوتها. اما من رفض انكار الهرطقة فكان يعهد به الى الذراع المدني للسلطة ليقاد الى الاعدام حرقا. وقد

اخضعت جان دارك لمحكمة صورية واحترقت متهمة بالهرطقة في روان في الثلاثين من ايار عام 1431. وقد استخدم البروتستانت نفس الاساليب ضد الكاثوليك في القرن السادس عشر (كما فعل كالفين في جنيف).

اختفت محاكم التفتيش مع تنامي الوعي الديني والاخلاقي، الا ان الاحكام ضد الهراطقة لم تتوقف سوى في القرن الثامن عشر، حيث نفذت اخر الاحكام عام 1635 في فرنسا. وعام 1775 في المانيا، وعام 1781 في اسبانيا.

النتائج

لقد حققت محاكم التفتيش في العصور الوسطى اغراضها العاجلة، فقد قضت على الكاتارية في فرنسا، ولم تبق من الوالديين الا عددا قليلا من المتحمسين المتفرقين في اماكن مختلفة، واعادت جنوبي ايطاليا الى الدين القويم، واجلت تمزق المسيحية الغربية مدى ثلاثة قرون. وبها انتقلت زعامة اوروبا الثقافية من فرنسا الى ايطاليا، ولكن الملكية الفرنسية المطلقة، بعد ان قويت باستيلائها على لانجويدك، بلغت من السلطان مبلغا استطاعت به ان تخضع البابوية لامرها في ايام بونيفاس الثامن، وان تزجها في السجن في عهد كلمنت الخامس.

ولم يكن لمحاكم التفتيش في اسبانيا قبل عام 1300 الا شأن صغير، وترجع نشأتها فيها الى عام 1232 حين استطاع ريمند البنيا فورتي Raymond of Panafort الراهب الدمنيكي عند جميس الاول ملك ارغونة، ان يقنع هذا الملك بادخال محاكم التفتيش في بلده. ولعل هذا الملك اراد ان يقلل من شطط محاكم التفتيش فسن في عام 1233 قانونا يجعل الدولة هي التي تؤول اليها املاك الضالين المصادرة، وان اصبح هذا العمل نفسه في القرون التالية حافزا قويا للملوك الذين وجدوا ان التفتيش والاستيلاء عملان شديدا الاتصال احدهما بالآخر.

وفي شمالي ايطاليا ظل الضالون كثيري العدد، فلم يكن اتباع الدين القويم يعنون كثيرا بالاشتراك في اصطياد الضالين، وكان الطغاة المستقلون امثال ازلينو Ezzelino في فيسننزا Vicenza وبلافيشنيو Pallavicino في كرمونا وميلان يحمون الضالين سرا او جهرا. وفي فلورنس انشأ الراهب روجييري Ruggieri جماعة عسكرية من النبلاء المتمسكين بالدين لتأييد محكمة التفتيش. واشتبك معهم البتاريون في معارك دموية في الشوارع ولكنهم هزموا فيها (1245). ثم اخفت الضلالة في فلورنس راسها فيما بعد، وحدث في عام 1252 ان اغتال بعض الضالين الراهب بيرو دا فرونا Piero da Verona في ميلان، فلما قتل ضمته الكنيسة في عداد القديسين الشهداء واسمته الشهيد بطرس. وكان لعملها هذا من الاثر في مقاومة الضلالة في شمالي ايطاليا اكثر مما كان لجميع فظائع المفتيشين. وشنت البابوية حروبا صليبية على ازلينو وبلافنسينو، وقضى على اولهما في عام 1259 وعلى الثاني في عام 1268، وبهذا كان انتصار الكنيسة في ايطاليا نصرا حاسما في ظاهر الامر.

ولم تثبت محكمة التفتيش قدمها في انجلترا. نعم ان هنري الثاني حرص على اثبات تمسكه بدينه في اثناء نزاعة مع بكت بأن جلد واحدا وعشرين من الضالين وكواهم بالنار في اكسفورد عام 1266. ولكننا لا نكاد نسمع عن ضلالة في انجلترا قبل ايام ويكلف Wyclaf.

وفي المانيا ترعرعت محكمة التفتيش واقدمت على اعمال جنونية زمنا قصيرا، ثم ماتت. فقد حدث في عام 1212 ان احرق هنري اسقف استرسبرج ثمانين ضالا في يوم واحد، وكان معظمهم ولديين. واعلن زعيمهم الكاهن يوحنا عدم ايمانه بالغفران، وبالمطهر، وببقاء رجال الدين بلا زواج، وقال ان رجال الدين يجب الا تكون لهم املاك. وفي عام 1227 عين غريغوريوس التاسع كنراد Conrad كاهن ماربرج Marburg رئيسا لمحاكم التفتيش في المانيا وامره الا يكتفي بالقضاء على الضلال، بل ان يصلح احوال رجال الدين بعد ان وصمهم البابا بالفساد، وقال ان فسادهم هو اهم اسباب ضعف الايمان بين الناس. واضطلع كنراد بكلا الواجبين بمنتهى القسوة، وخيّر كل من اتُّهموا بالضلال بين واحدة من اثنتين: اما الاعتراف فالعقاب، او الانكار فالموت حرقا. ولما ان سار في اصلاح رجال الدين على هذا النحو من الجد، انضم المتمسكون بدينهم والضالون بعضهم الى بعض في مقاومته، وانتهى الامر بان قتله اصدقاء ضحاياه (1233)، وتولى الاساقفة الالمان اعمال محاكم لتفتيش، وخففوا من غلوائها، وجعلوا اجراءتها اقرب الى

العدالة من ذي قبل. وبقيت بعض الشيع الدينية، بعضها شيع ضالة وبعضها صوفية، في بوهيميا والمانيا، ومهدت السبيل الى هوس Huss ولوثر Luther.

صفحة سوداء في تاريخ الكنيسة

كان التفتيش ومحكمته صفحة سوداء في تاريخ الكنيسة مع انه علينا حين نصدر حكما على محاكم التفتيش ان ننظر اليها على ضوء عصر اعتاد الوحشية، ولعل عصرنا الحاضر الذي قتل في الحروب وازهق من الارواح البريئة دون اية محاكمة، اكثر من امثالهم بين ايام قيصر ونابليون، اقدر من غيره على فهم هذه المحاكم. ان التعصب يلازم الايمان القوي على الدوام، والتسامح لا ينشأ الا حين يفقد الايمان يقينه، اما اليقين فسيف بتار. ولقد اقر افلاطون التعصب في "قوانينه"، واقره المصلحون في القرن السادس عشر، وان بعض من ينتقدون محكمة التفتيش ليدافعون عن اساليبها اذا جرت عليها الدول الحديثة. ولقد تضمنت قوانين كثير من الحكومات الاساليب التي سارت عليها محاكم التفتيش، ولعل ما يحدث من تعذيب المشتبه فيهم سرا في هذه الايام يسير على نمط محاكم التفتيش اكثر مما يسير على نمط القانون الروماني. واذ وازنا بين اضطهاد المسيحيين الضالين في اوروبا من 1227 الى 1492، وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين في الثلاثة القرون الاولى بعد المسيح، حكمنا من فورنا ان هذا اخف وطأة واكثر رحمة من ذاك. واذ ما اسقطنا من حسابنا كل ما يطلب الى المؤرخ من اعتدال في حكمه، وما يسمح به للمسيحي من تمسك بدينه. اذا اسقطنا من حسبنا هذا وذاك، فلا بد لن ان نضع محاكم التفتيش في مستوى حروب هذه الايام واضطهاداتها، ونحكم عليها جميعا بانها اشنع الوصمات في سجل البشرية كله، وبانها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظير عند أي وحش من الوحوش.

وما علينا الا الانتظار حتى العصر الحديث لنرى روح التسامح تنمو وتترعرع في حضن الكنيسة (وايضا ليس أي كنيسة واي دين!) أي روح التعايش من خلال الضمير بين الاخلاص الشديد للايمان واحترام اراء من لديهم طرق اخرى في التفكير والعمل. في الواقع، فان الحقيقة تظهر من خلال المثال الصالح ويعبر عنها بالحوار، تماما كما فعل السيد المسيح والرسل الابرار، ولا يمكن فرضها بالقوة.

(من كراس الاب جمال خضر "تاريخ الكنيسة"
ومن كتاب ويل ديورانت "قصة الحضارة " الجزء16 ص. 90-106)

الفصل الثلاثون

ازدهار الحياة المسيحية

في القرن العاشر وحتى الثالث عشر

ما رأيناه الى الان من تاريخ الكنيسة في الغرب في القرون الوسطى هي امور تقبل الانتقاد واللوم. لكن القرون الوسطى، بما فيها من ظلمات، تحوي ايضا جوانب مشرقة. وهذا ما سنراه في القسم التالي.

1- الدين والايمان والاسرار

ليس في تاريخ العصور الوسطى كله ما هو **اعظم اثرا في النفس من الدين**. فانك تراه في كل مكان، ويكاد يكون اعظم القوى في تلك العصور. وبدون ان نقع في المغالاة في الاعتقاد بتقوى الناس في تلك العصور، الا ان العصور الوسطى لا تزال مع هذا تغمر الباحث في جو من العبادات والعقائد الدينية. وكانت كل دولة اوروبية تأخذ المسيحية في كنفها وتحت حمايتها، وترغم الناس بقوة القانون على الخضوع للكنيسة. وكان كل ملك تقريبا، الا النادر منهم، يثقل الكنيسة بالهبات. وكانت كل حادثة تقع في التاريخ تُفسر على اساس الدين.

والايمان هو اول واهم صفة يمكن ان نطلقها على القرون الوسطى. كان المجتمع باكمله مؤمنا. لم يكن يحدث شيء على الارض لم يكن له، مباشرة او غير مباشرة، الله كغاية ووسيلة، كشاهد او كحاكم؛ ولم يكن ممكنا ان تجد اثرا للامبالاة الدينية او الالحاد.

صفات هذا الايمان انه **عميق وبسيط**، يقبل كل شيء ويصدق أي شيء. والشهادات على هذا الايمان كثيرة: هناك اولا، شهادات القديسين، ابطال المسيحية، رجالا ونساء، كان حب المسيح بالنسبة لهم الحقيقة الوحيدة التي تعطي معنا للحياة، والتي تستحق ان نضحي حياتنا من اجلها. ولكن ايضا شهادات كثير من الناس العاديين، الخطأة، وحتى سيىء السمعة، ومع ذلك تصرفوا بدافع من الايمان. مثال ذلك، هذا الجندي الغليظ، المُطلّق والمتزوج ثانية، والذي طلب من الاسقف ان يمنحه الحلة والغفران والا ضربه بالسيف! وعندما اجابه الاسقف: اضرب! اجاب: "لا احبك كفاية لارسلك مباشرة الى الجنة"، هذا الجندي الشرس كان مؤمنا.

صفة اخرى لهذا الايمان انه **لم يكن يرتبط دوما بالاخلاق الحميدة**. كان هناك فجوة كبيرة بين هذا الايمان الكبير والحياة المسيحية اليومية. انه من السذاجة ان نعتقد ان القرون الوسطى، كانت فترة جميلة، مليئة بالبراءة. فالبشر يبقون بشر، للأسف! ولكن عندما كان انسان القرون الوسطى يتصرف خطأ، كان يعرف انه يرتكب خطأ، وانه خاطىء. ولأنه خاطىء فهو بحاجة الى الله، فكان يلتجىء الى الله بكل تواضع واضعا كل ثقته في الفداء الذي حصل عليه بالمسيح.

كما انه كان ايمانا لا يخلو من تأثير الخرافات، تختلط فيه بعض الخشونة والعنف، التي حاربتها الكنيسة جاهدة. وبالرغم من خطاياه الكبيرة، وايمانه المشوب بالخرافات، وعقيدته البدائية عن الخلاص، كان انسان العصور الوسطى مسيحيا مؤمنا، لأنه كان متواضعا امام الله، تملأه الثقة الكاملة بالفداء. لم يكن احد في تلك العصور يتصور هرطقة العالم المعاصر، الالحاد ومحاربة الله او نكرانه، والعيش كأنه غير موجود. فللعصور الوسطى، الله موجود، وموجود بعمق. ولا ننسى ان الكنيسة استطاعت ان تغرس نور هذا الايمان في النفوس في فترة حالكة من فترات غزوات البرابرة الدامية، وجعلت من هذا الايمان نورا الخلاص الوحيد، والدليل الاوحد للحياة الادبية والاخلاقية، والوسيلة الوحيدة للحضارة.

ظهر التعبير عن هذا الايمان في العصور الوسطى في كثير من المجالات: منها:

1) الايمان بالفائق الطبيعة: المعجزة

كان موقف مسيحي القرون الوسطى امام الفائق الطبيعة موقفا خاصا. وكان للايمان العميق في نفوس اناس القرون الوسطى اثر في موقفهم من الفائق الطبيعة. انسان القرن الواحد والعشرين يسبح في جو من العقلانية والعلم، وهو مقتنع بانه يوجد قوانين طبيعية تُسيّر العالم، ويفكر حسب مبدأ السببية. في القرون الوسطى، لم يكن كذلك. لانسان القرون الوسطى، الله موجود، وهو قادر على كل شيء، وحوادث الارض لا تطيع المنطق البشري، الا بقدر ما يسمح به الله، وحيث لا يتدخل لتغيير مساره، وكان مقتنعا بان التفسير الاخير للحياة، موجود بعد هذه الحياة، في الحياة الاخرى، في الحياة الفائقة الطبيعة. فلماذا اذن نتعجب ان يسود الغموض والاسرار والفائق الطبيعة كل نواحي الحياة؟ ولنا برهان في ذلك موقف انسان القرون الوسطى من المعجزة. ففي ايامنا، عندما نسمع عن معجزة ما، فان رد فعلنا الاولى هو دائما الشك. لم يكن كذلك بالنسبة الى انسان العصور الوسطى. لا يعني ذلك، ان الكنيسة لم تكن

تدرس وتراقب حقيقة الحدث وصدق الشهود. وهناك وثائق وسجلات كثيرة عن تحقيقات تمت حول المعجزات بأمر من السلطات الدينية. ولا يعني ذلك ايضا ان اللاهوتيين لم ينتبهوا الى الخطر الناجم عن تأسيس ايمان الجموع على المعجزات والخوارق: فمثلا كان القديس توما يقول، ان المعجزات هي علامات للايمان وليس براهين للايمان. ولكن هذا لم يمنع بان رد الفعل الجماعي امام المعجزة هو قبولها بسهولة وعفوية، والابتهاج بها، ورؤيتها كبرهان مقنع بان الله يدير العالم. فكيف لنا اذن ان نتعجب، في هذا الجو، من ان نرى وفرة المعجزات؟ فكثرت وتعددت بشكل كبير ظهورات السيد المسيح والعذراء، وكثرت عجائب القديسين.

2) تكريم القديسين

– التعبد للعذراء مريم: – كان لمؤمني القرون الوسطى موقفا خاصا لمريم العذراء. اصبح هذا التعبد شعبيا بسبب عظات القديس برناردس، وكتابات القديس بونافنتورا، وكرازة اعضاء الرهبانيات المتسولة. وتُرجم هذا التعبد باشكال مختلفة: فشيدت على ذكرها كنائس وكتدرائيات فخمة (نوتردام دي باريس – نوتردام دي شارتر وغيرها)؛ وظهرت صورتها على ختم جامعة باريس؛ وخصصت لها اعيادا كثيرة على مسار السنة الليتورجية؛ واوصى البابا اوربان الثاني، في مجمع كليرمونت، (1095) بتلاوة فرض العذراء القصير، الذي كان دارجا منذ ثلاث قرون؛ وانتشر بشكل خاص في القرن الحادي عشر في اديرة ايطاليا؛ وأُلفت على شرفها وفي مدحها الترانيم الدينية الجميلة امثال Salve Regina ،Alma Redemptoris Mater. وانتشرت بين المؤمنين عادة تلاوة السلام الملائكي بكثرة، وكانت هذه الصلاة لا تحتوى في ذلك الوقت سوى على ثلث ما هو اليوم، ويعدها على عُقد من الحبل المعقود ومعلق في الحزام، كما كان يفعل المسيحيون الاولون بالنسبة الى تلاوة صلاة "ابانا". وكانت هذه العادة بداية واصل المسبحة chapelet، المأخوذ اسمها من الكلمة اللاتينية caput "رأس"، لانه أُعتبرت اكليل من السلام الملائكي يزين رأس العذراء مريم. ودرجت ايضا عادة تلاوة السبحة الوردية Le Rosaire، أي تلاوة عدد من السلام الملائكي يوازي عدد المزامير (150)، والتي نشرها الرهبان الدومنيكان. ويعزو تقليد ظهر في القرن الخامس العشر، تأسيس هذه العادة – أي تلاوة السبحة الوردية – الى القديس دومينيك، الذي قال انها استلمها من العذراء مريم في احدى الرؤى، وعلّم هذا التعبد لرهبانه (عام 1205).

– تكريم القديسين: كانت الصلوات الرسمية توجه الى الله الاب. ولكن الناس كانوا يخافون الله، فقد كان لا يزال يتصف في عقول العامة بكثير من القسوة التي كانت ليهوه؛ وكيف يجرؤ الشخص المذنب الساذج البسيط ان يوجه صلاته الى ذلك العرش الرهيب البعيد؟ ان يسوع المسيح لاقرب اليه، فكان يوجه صلاته في الاغلب الى يسوع. ولكن يسوع المسيح ايضا هو اله، ومن اصعب الاشياء ان يجرؤ الانسان على مخاطبته، وجها لوجه وهو الانسان الخاطىء، ناكر الجميل. ومن اجل هذا بدا للناس ان من الحكمة ان توجه الادعية والصلوات الى العذراء مريم، واحد القديسين او القديسات، وان يتوسل اليه ليكون وسيلته عند المسيح. وملأت العبادات المسيحية بطائفة كبيرة من الارواح (الملائكة)، ترافق الناس، وتشد عزائمهم، وتكون لهم اخوة على الارض تقربهم الى السماء. فكان لكل أمة ومدينة ودير وكنيسة وحرفة ونفس، وأزمة من أزمات الحياة، وليّها الشفيع النصير.

كان لانكلترا القديس جورج، ولفرنسا القديس دنيس، وكان القديس بارثوليو حامي الدباغين، لان جلده سلخ وهو حي؛ وكان صانعو الشموع يضرعون الى القديس يوحنا، لأنه غمر في قدر مليء بالزيت المشتعل؛ وكان القديس كرستوفر نصير الحمالين لأنه حمل المسيح على كتفيه، وكانت مريم المجدلية تتلقى توسلات بائعي العطور أنها صبت زيوتا عطرة على قدمي المسيح.

وكان لكل من يحدث له حادث طارىء، او يصاب بمرض، شفيع في السموات. فكان القديس سبستيان والقديس روكس ذوي قوة وبأس في ايام الوباء. وكان القديس ابولينيا الذي كسر الجلاد فكه يشفي من ألم الاسنان؛ والقديس بليز يشفي ألام الحلق، والقديس كورنيه يحمي الثيران، والقديس جول يحمي الدجاج والقديس انطون يحمي الخنازير؛ وكان القديس ميدار هو الذي تتضرع اليه فرنسا اكثر من سائر القديسين لينزل اليها المطر. فاذا لم ينزله القى عباده الذين ينفذ صبرهم تمثالا له في الماء من حين الى حين.

ووضعت الكنيسة تقويما كنسيا جعلت كل يوم فيه عيدا لاحد القديسين. ولكن التقويم لم يتسع للخمسة والعشرين الفا من القديسين الذين اعترفت بهم القوانين الكنيسة قبل ان يحل القرن العاشر الميلادي. وقد بلغ من معرفة الشعب بتقويم القديسين ان التقويم العادي قسم السنة الزراعية اقساما اطلق على كل منها اسم احد القديسين؛ ففي فرنسا مثلا كان عيد القديس جورج يوم البذار، وفي انجلترا كان عيد القديس فالنتين يحدد اخر فصل الشتاء؛ فاذا حل ذلك اليوم، على حد قولهم، تزواجت الطيور بحماسة في الغابات، ووضع الشباب الازهار على اعتاب النوافذ في بيوت البنات اللاتي يحبونهن.

ومن القديسين عدد كبير اعترفت بهم الكنيسة لأن العامة واظبوا على تكريمهم واحياء ذكراهم، او لأن مكانا ما قد أصر على هذا التكريم على الرغم من معارضة رجال الدين.

وعلقت صور ووضعت تماثيل للقديسين في الكنائس، والميادين العامة، وفي الطرق، وفوق المباني.

وكان الاعتراف بالقداسة يتم عن طريق اختيار او تصويت الشعب وموافقة الاسقف. اصدر شارلمان قرارا بضرورة طلب اذن الاسقف قبل تكريم أي شخص كقديس، لتفادى المساوىء التي يمكن ان تنجم عن اختيار الشعب. ثم عُهد بهذا الحق الى السينودس الاقليمي. اما اول اعلان قداسة بابوي، فقد تم عام 993، في مجمع اللتران، عندما اعلن البابا يوحنا الخامس عشر، قداسة اسقف اوسبورغ. وحفظ البابا غريغوريوس السابع حق اعلان القداسة الى الكرسي الرسولي عام 1234.

3) تكريم الذخائر

ما دام القديسون قد كثُر عددهم الى هذا الحد، فقد كثرت تبعا لذلك مخلفاتهم – عظامهم، شعورهم، واثوابهم، وأي شيء استعملوه في حياتهم. وكان المفروض ان كل مذبح يشمل واحدا او اكثر من واحد من هذه المخلفات؛ فكانت بازيلكا القديس بطرس تتباهى بانها تحتوي جسدي القديسين بطرس وبولس، اللذين اصبحت روما بفضلهما كعبة الحاج من جميع انحاء اوروبا. وكانت كنيسة في سانت اومر تدعي ان فيها قطعا من الصليب الحقيقي ومن الحربة التي اخترقت جسد المسيح، ومن مهده، وقبره، ومن المن الذي نزل من السماء، ومن عصا هارون، ومن شعر تومس ابكت وقلنسوته، وقميصه المنسوج من الشعر، والشعر الذي جز من مقدم رأسه، ومن الالواح الحجرية الاصلية التي سجلت عليها الوصايا العشر. وتحتوي كنيسة امينس Amiens رأس يوحنا المعمدان في كأس فضية. كما تؤكد خمس كنائس في فرنسا ان في كل منها الاثر الحقيقي الوحيد الباقي من ختان المسيح. وفي كنيسة وستمنستر بعض دم المسيح وقطعة من الرخام عليها طابع قدمه.

وكانت كنائس القسطنطينية قبل عام 1204 غنية اكثر من غيرها بالمخلفات المقدسة، فكان فيها الحربة التي نفذت في جسم المسيح، والتي لا تزال حمراء من دمه، والعصا التي ضُرب بها، وقطع كثيرة من الصليب الحقيقي مغلفة بالذهب، وشعيرات من لحية المسيح، وذراع يوحنا المعمدان اليمنى... وسرقت كثير من هذه المخلفات حين نُهبت القسطنطينية، ثم اشتُري بعضها، واخذت تنتقل من كنيسة الى كنيسة في بلاد الغرب الى ايدي من يؤدي فيها اكبر الاثمان.

وكانت تعزى الى جميع المخلفات قوى معجزة، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات. وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما في وسعهم للحصول على اقل اثر ليتخذوه طلسما: كخيط من ثوب قديس، او قليل من تراب قبره، او نقطة زيت. وكانت الاديرة تتنافس وتتنازع في جمع المخلفات وعرضها على العباد، لان امتلاك المخلفات الشهيرة كان يدر على الدير او الكنيسة ثروة طائلة.

واخذ الناس يبحثون عن الذخائر: اجساد القديسين او اعضاء من اجسادهم، او أي شيء كان له اتصال بهم اثناء حياتهم او بعد مماتهم؛ واصبحت ايام اعلان قداستهم او نقل رفاتهم ايام احتفالات شعبية كبيرة. وجاءت معظم هذه الذخائر من ايطاليا وفرنسا او الشرق.

الا انه وللاسف، كان تكريم القديسين وذخائرهم، ونظرا لانحطاط المستوى الثقافي للشعب، قد ادى، في مرحلة العصور الوسطى، الى انحراف هذا التكريم عن مساره الصحيح. فنُسِبت الى الذخائر اهمية كبيرة، واصبحت مادة للتجارة، وعُرضت في الاسواق ذخائر مزيفة غير صحيحة، ولم يستنكف البعض باللجوء الى السرقة والغزو في سبيل الحصول عليها. لذلك قرر مجمع اللتران الرابع عام 1215، بقانونه رقم 62، حق تقرير صحة الذخائر الى الكرسي الرسولي.

4) الكاتدرائيات الكبرى

ولكن اجمل تعبير عن هذا الايمان هو بناء الكاتدرائيات الكبرى. تميزت هذه الفترة بالعمارة الرومانية، من 1100-1150، جاءت بعدها العمارة القوطية Style Gothique.

بالرغم من انتقاد المعماريين الذين جاءوا في عصر النهضة الذي تميز بارتباط قيمه بالحياة الارضية، ووصفهم للطراز المعماري للعصور الوسطى بانه بربري متوحش-أي قوطي.الا ان المعماريين في العصور اللاحقة لم يتمسكوا بهذا الرأي.

وتتميز المباني القوطية ببعض الخواص التي تظهر مهارة مهندسي وعمال العصور الوسطى. فعند الدخول الى كاتدرائية من الطراز القوطي، يُلاحظ تصميم المبنى الذي يتخذ من الصليب شكلا، تعبيرا ورمزا لايمان الكنيسة المسيحية.

واستخدام مهندس الطراز القوطي للاقواس المدببة بدلا من الاقواس الرومانية المستديرة، حيث ان تلك الاقواس المدببة تقود الناظر تلقائيا الى اعلى مبتعدا عن الارض متطلعا الى السماء. وتنقل الاكتاف المعلقة والقوائم المقوسة التي تشبه الاضلاع ثقل السقف الى الارض مما يتيح ان تكون الاجزاء العليا للحيطان الجانبية رقيقة مما يسمح بوجود عدد كبير من النوافذ الكبيرة التي تسمح بدخول الضوء وهي احتياج كبير للمباني في شمال اوروبا حيث النهار قصير في الشتاء الطويل. وغالبا ما يكون هناك ثلاثة ابواب في الطرف الغربي من مبنى الكنيسة.

وكانت كل عناصر الزينة التي تستخدم في تزيين المبنى سواء كانت نوافذ الزجاج الملون او التماثيل تخضع بشكل مباشر للتصميم العام للمبنى ككل. فمثلا يمكن ان تنظر الى احد التماثيل وهو على الارض فترى ان ابعاده واحجام اطرافه تبدو غير متاسقة بل ربما مشوهة، ولكن ما ان يوضع هذا التمثال في مكانه اعلى المبنى او في مكانه فوق احدى النوافذ حتى يبدو للناظر اليه من تحت متناسقا جدا، حيث انه يتوافق تماما مع التصميم الشامل للمبنى. كانت الالوان ايضا تستخدم بواسطة فناني النوافذ الزجاجية الملونة في رسم قصص الكتاب المقدس بأبدع شكل ممكن. وكان يستغرق بناء الواحدة منها قرابة قرن كامل.

ولكن ترى لماذا شادت اوروبا هذا العدد الجم من الكنائس في الثلاثة القرون التي اعقبت عام 1000 بعد الميلاد؟ وأية حاجة دعت الى ان تنشأ في اوروبا التي لا يكاد سكانها في ذلك الوقت يصلون الى خمس سكانها الحاليين، معابد قلما تمتلىء لسعتها بالمصلين في اكثر الايام قدسية؟ وكيف استطاعت حضارة زراعية ان تنشىء بمواردها المتواضعة تلك الصروح الكثيرة النفقة التي تكاد الحضارة الصناعية تعجز عن الاحتفاظ بها؟

لقد كان السكان قليلين، ولكنهم كانوا مؤمنين، وكانوا فقراء، ولكنهم كانوا يبذلون بسخاء عظيم. ولكن اسبابا كثيرة كانت تدعو الى بناء الكنائس بهذه الكثرة وتلك السعة: لقد كان من المرغوب فيه ان يجتمع سكان بعض المدن مثل فلورنسا، وبيزا، وشارتر، ويورك، وباريس، في صرح واحد في بعض المناسبات. كذلك كان لا بد ان تتسع كنيسة الدير المزدحم للرهبان والراهبات ولغير رجال الدين. وكان لا بد من ان تحفظ المخلفات المقدسة في اضرحة خاصة تتسع ايضا للصفوة من العابدين. وكانت الحاجة تدعو الى وجود بناء مقدس رحب تقام فيه الطقوس الكبيرة، والى مذابح جانبية في الاديرة والكتدرائيات التي ينتظر ان يتلو كهنتها الكثيرون القداس في كل يوم؛ وكان الاعتقاد السائد ان مذبحا او مصلى يخصص لكل قديس محبوب قد يدعوه الى اجابة طلبات من يتوسلون اليه.

اما نفقات هذه الصروح فقد كان معظمها يؤخذ من ما يجمع من الاموال في كرسي الابرشية؛ وكان الاساقفة فضلا عن هذا يطلبون العطايا من الملوك والنبلاء، والمدن ذات الحكم الذاتي، والجمعيات الطائفية والابرشيات، والافراد. وكان المتبرعون يُوْعَدون بان تغفر لهم ذنوبهم، كما كانت المخلفات المقدسة يطاف بها في الابرشية لتحفز الناس الى العطاء، وقد يحدث في بعض الاحيان ان يحرض الناس على البذل والسخاء بمعجزة من المعجزات. وقد استنفذت هيئات الكهنة في الكتدرائيات الفرنسية اموالها الخاصة، وكادت الكنيسة الفرنسية تفلس من اجل ذلك في خلال سورة البناء القوطية.

ولم يكن الناس انفسهم يشعرون وهم يتبرعون بالمال بأنهم يُستغلون، وقلما كانوا يحسون بفقد القليل الذي يبذله كل فرد منهم، لأن هذا القليل كان يرد اليهم فيما يعود عليهم من عزة جماعية وعمل جليل عظيم، وفيما يكون لهم من بيت للعبادة، ومكان رحب يجتمعون فيه، ومدرسة يتعلم فيها ابناؤهم، ومدرسة للفنون والحرف تتلقاها فيها نقاباتهم الطائفية؛ وكانت في نظرهم كتابا مقدسا من الحجارة يقراؤن في تماثيله وصوره بعين بصيرتهم قصة ايمانهم. كانت هذه مباني ذه الكنائس العظيمة تمثل طبيعة العصر الروحية بمقدار ما تمثل ناطحات السحاب اليوم الروح المادية لعالم اليوم.

5) الحج الى الاراضي المقدسة[1]

تعبير اخر عن هذا الايمان هو الحج الى الاراضي المقدسة، وذلك بالرغم من بعد المسافة ومخاطر السفر.

برزت فكرة الحج والغفران في عقول الاوروبيين في العصور الوسطى بروزا دفع بعض المؤرخين الى وصف العصور الوسطى باسم عصر الحج. لقد كان يعتبر الحج طريقا للغفران ذا اثر فعال؛ بل اكثر من ذلك كان التبرك بالآثار المقدسة التي يجلبها الحجاج يؤدي الى معجزات في شفاء المرضى. وكانت احدى صور التقوى في الحج تلك الرحلة التي يكتنفها بعض الصعاب والاخطار. فكانت فرصة لاولئك الذين يرغبون في المغامرة. ويجب علينا ان نذكر ان الحج والتبرك بالآثار المقدسة اصبح شيئا محببا في اوروبا خلال العصور الوسطى ابتداء من القرن العاشر.

6) الكرازة

كانت الوسيلة التي استعملتها الكنيسة في نشر عقائدها الدينية والايمانية، وتعاليم الكتاب المقدس وحياة القديسين، هي بالخصوص الكرازة. ويجب ان نتذكر بان في العصور الوسطى لم يكن هناك لا جرائد ولا مجلات، ولا راديو ، ولا تلفزيون. هذه الوسائل التي تأخذ اليوم بمعظم وقت وانتباه وانشغال ابناء العصر الحاضر، عوضت عنها العصور الوسطى بالاحتفالات والطقوس الدينية في الكنائس. وكان القداس والعظة تعتبر احدى الوسائل الترفيهية التعليمية.

توقفت الكرازة تقريبا في الاوقات الصعبة اوقات غزوات البرابرة، وانقطعت تقريبا ايام انحطاط العصر الكارولنجي. فبينما نملك من القرن الرابع والخامس والسادس عظات كثيرة، بالكاد نملك منها القليل للفترة التي ذكرناها.

كسبت الكرازة اهمية جديدة في القرن الثاني عشر بدافع الحماس والاندفاع الديني الذي تغلغل في كثير من مجالات الحياة لمعرفة اشياء الله. بدأت هذه الاهمية اولا في الاوساط الرهبانية! وكان الوعاظ في البدء يتوجهون الى مجموعة من الاكليروس المختار Elites، ولكن سرعان ما خرجت من الاديرة وتوجهت نحو الشعب. وتطورت الكرازة بشكل سريع ومدهش، وظهر فيها مجموعة كبيرة من الوعاظ المشهورين امثال القديس نوربرت مؤسس البرمونتريه Prémontrés، والقديس برنارد، الصوت الكبير في الجسم الهزيل، والقديس فرنسيس الاسيزي، والقديس دومنيك، واشهرهم القديس انطونيوس البدواني، الذين جذبت كرازاتهم الجموع الغفيرة. ومن الوعاظ المشهورين ايضا القديس بونافنتورا، والقديس توما الاكويني، وبطرس الناسك، والبابا اوربان الثاني، وانوسنت الثالث. وقد جمعت كرازتهم في مؤلفات كانت تقرأ وتدرّس وتفسر.

---

[1] من كتاب "الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب" د. عزيز سوريال عطية، دار الثقافة، 1990 ص 28-34.

وابتداء من القرن الثاني عشر، اخذ الوعاظ يكرزون بلا انقطاع، وكل المناسبات كانت ملائمة للكرازة: القداس، الحج، الاحتفالات الدينية، لبس الثوب الرهباني، تكريس الكنائس، تتويج، دفن، معاهدات السلام. وكان يُكرز في الاسواق، في الساحات العامة بكثرة.

كانت الكرازة ابعد ما تكون من اسلوب وفصاحة بوسييه Bousset، الا انها كانت حية وواقعية، يتخللها قصص وحكايات واخبار آنية، تهم المستمعيين، كاحتلال القدس، او خضوع الامبراطور للبابا في كانوسا، او حوادث واخبار القرية. كان الناس يتفاعلون معها، مرة يضحكون وتارة يبكون، او يقاطعون الكرازة للسؤال او للاستفهام، او لابداء رأى او تعليق على تعليم... كما كان يتخللها الكثير من قصص وآيات الكتب المقدسة بعهديه القديم والجديد، وامثلة من حياة القديسين.

7) الاسرار

حتى القرن الثاني عشر، كانت كلمة "سر" تُفهم بمعناها العام، وكانت تنطبق حتى على طقوس كنسية ينقصها الشرط الاساسي وهو "التأسيس الالهي" Insitution divine، حتى تكون اسرارا بالمعنى الحديث للكلمة. فمثلا كانت تطلق كلمة سر على قبول الماء المقدس، او الرماد المقدس او على مباركة الكنيسة.

دفعت الجدالات والصراعات مع الهراطقة، وخصوصا مع الكاتاري، اللاهوتين الى تحديد عقيدة الكنيسة حول الاسرار وعلى تحديد عددها. ويعود الفضل الى القديس بيير لومبارد في تحديد علامات الاسرار caractère وعددها، واصبح تعليمه هو الدارج في الكنيسة وتبناه المجمع التريدنتيني Trente. ولكن يجب الاخذ بالاعتبار، انه وان كانت الصيغة اللاهوتية ظهرت متأخرة، الا ان وجود الاسرار السبعة يعود الى بداية المسيحية، والبرهان على ذلك انّا نجد نفس الاسرار عند الكنائس المونوفيزية والارثوذكسية، التي تدّعي دائما انها لم تُدخل أي تغيير الى المعتقدات القديمة.

المعمودية: اختفت تقريبا في هذه الفترة، ما يدعى بفترة تحضير الموعوظين Catéchuménat، بسبب انتشار عادة تعميد الاطفال. اما بالنسبة الى طريقة اعطاء العماد، فقد حل طقس الصب الثلاثي بدلا من التغطيس الثلاثي، ولسببين: 1) الخطر الذي كان يتعرض له الاطفال في طقس التغطيس؛ 2) بدافع الحشمة وخصوصا في عماد النساء البالغات.

التثبيت: لم يعد يمنح التثبيت بعد المعمودية مباشرة الا في حالات نادرة. وكان سر التثبيت من اختصاص الاسقف، الا ان القديس توما الاكويني صرح ان البابا بامكانه ان يفوض اعطاء منح هذا السر الى الكاهن العادي.

الافخارستيا: كان من المحبذ ان يقوم الكاهن باقامة ذبيحة القداس مرة في اليوم، حسب قاعدة ارساها البابا اسكندر الثالث، ولم يكن لهم الحق باقامة اكثر من قداس الا في حالة الضرورة، وفي الاعياد الكبرى: عيد الميلاد والفصح والعنصرة وعيد جميع القديسين. وكان البابا انوسنت الثالث قد حصر ذلك فقط الى عيد الميلاد.

الا ان هاتان القاعدتان تعرضتا الى كثير من الشواذ. فمن جهة، كان بعض الكهنة لا يقومون بذبيحة القداس الا اربع مرات في السنة، ونرى ذلك من خلال ما جاء في مجمع اللتران الرابع (قانون 17). ومن جهة ثانية كان بعض الكهنة يقومون بالذبيحة عدة مرات في النهار ولاتفه الاسباب. وقد تم ادانة هذا التصرف في عدة مجامع.

كما ودخلت عدة مساوىء في اقامة ذبيحة القداس: منها ما كان يسمى بالقداس الناشف Messa sicca، بدون تقدمة، او تكريس او مناولة؛ والقداس الثنائي bifaciata او الثلاثي trifaciata ، والتي تقال فيه ثلاث مداخل، وثلاث قراءات، وثلاث اناجيل؛ وقداس الموتي messe des morts، من اجل الاحياء، لتسريع موتهم. كل هذه الممارسات منعتها الكنيسة وادنتها في مجامعها.

المناولة: بدأت تظهر، ابتداء من القرن الثاني عشر، تغييرا ملاحظا حول منح المناولة. فاختفت عادة مناولة الاطفال بعد المعمودية. كما واختفت عادة المناولة تحت الشكلين: خوفا من سكب الدم المقدس، واستنكاف الناس عن المناولى من نفس الكأس، وصعوبة تأمين النبيذ الكافي وخصوصا في مناطق الشمال.

كان الهدف من هذه التجديدات هو حفظ القربان الاقدس من التدنيس، واعطائه مظاهر الاحترام والتكريم والتشريف. كما وبدأت في هذه الفترة ايضا عادة رفع القربان الاقدس لسجود المؤمنين، بعد كلام التقديس، لمقاومة بعض الاراء الخاطئة لبعض اللاهوتيين حول الاستحالة في القربان الاقدس عند كلام التقديس.

كما في الفترة السابقة، لم يكن المؤمنون الرهبان يقبلون المناولة الا نادرا. فمثلا في دير كليرفو، حتى وقت القديس برنار لم يكن الرهبان الاخوة، يقبلون المناولة الا سبع مرات في السنة، وفي الاعياد الكبرى. بينما لم تفرض قوانين القديس فرانسيس الا ستة مرات. ونص المجمع اللتران الرابع (1215) على المناولة الفصحية كحد ادنى مطلوب.

التوبة: تعرض سر التوبة في هذه الفترة الى تغييرات واضحة: 1) بخصوص الاعتراف: قرر مجمع اللتران الرابع، تحت اشد العقوبات، ضرورة حفظ المعرّف لسر الاعتراف، وللمؤمنين بضرورة الاعتراف على الاقل مرة في السنة ولكاهنهم الخاص.

انتشرت في القرن الحادي عشر فكرة ان الاعتراف ضروري ضرورة مطلقة، لدرجة انه في حالة تعذر وجود الكاهن، درجت العادة الاعتراف لأي شخص، ليس فقط من الاكليروس (الرهبان الاخوة او الشمامسة) الذين كانوا يدّعون بان لهم حق اعطاء الحلة وغفران الخطايا، ولكن ايضا للعلمانيين رجل كان ام امرأة، مستندين في ذلك الى نص للقديس اغوسيطنوس tanta vis confessionis est ut, si deest sacerdoce, confiteatur proximo. ودافع عن هذا الرأي بيير لومبارد، والبير الكبير، والقديس توما الاكويني، وحاربها القديس بونافنتورا ودون سكوت. ومنع مجمع روان سنة 1231، الشمامسة من سماع الاعترافات، الا في حالة الضرورة القصوى (قانون 34). وحتى عندما خف الاعتقاد بالضرورة المطلقة للاعتراف، استمرت هذه الممارسة بدافع من التواضع والتقوى. ولم تمنعه الكنيسة رسميا الا في القرن الرابع عشر، عندما ادعت اللوثرية ان كل المؤمنين لهم السلطات الكهنوتية.

وتحولت صيغة الحل، من صيغة الطلب والتوسل déprécative الى صيغة الامر Indicative: "بالسلطة المخولة لي، انا اغفر لك...".

2) اما بخصوص التوبة العلنية، فقد تم في الفترة السابقة تحقيقها بواسطة التبديل commutation، او الافتداء، او الغفرانات. اما في هذه الفترة، وان كانت لا تزال عادة التوبة العلنية موجودة مبدئيا، انما عمليا اختفت تقريبا.

وفي وقت الحملات الصليبية، تم تبديل التوبة العلانية بالغفرانات، التي منحها البابوات لمن يشاركون في هذه الحملات، وللذين لا يستطيعون شخصيا المشاركة، المساهمة في تجهيز الحملات الصليبية.

كما وتم تبديل التوبة العلانية بالحج او الصدقة للاعمال الخيرية. وفي عام 1300، اسس البابا بونيفاس الثامن "يوبيلا" خاصا، منح فيه غفرانا كاملا وغير اعتيادي، يُحتفل به كل مئة عام. كما وكان الاساقفة يمنحون في ابرشياتهم غفرانات كاملة، ومرارا بكرم زائد، مما دفع البابا انوسنت الثالث في مجمع اللتران الرابع (قانون 2) على تحديد سلطة الاساقفة في اعطاء الغفرانات.

3) شجعت الكنيسة المؤمنين على ممارسة التوبة الخاصة الشخصية، بدلا من التوبة العلنية. وهكذا ظهرت في هذه الفترة، جماعات التائبين، تجوب الشوارع، وهي تجلد نفسها علنية وتردد الصلوات. وهذه الممارسات بدورها تطورت الى اعمال شاذة، تدخلت الكنيسة لمنعها.

مسحة المرضى: عارض في هذه الفترة، بعض اللاهوتين حق اعادة منح مسحة المرضى. واستعملت في منح السر سواء صيغة الدعاء، او الطلب. وحُدد سن الرابعة عشر لقبول السر .

الكهنوت: حُددت بعض الاوقات معينة خلال السنة لمنح هذا السر، كما تم ترك فسحة من الوقت interstices بين قبول الدرجات؛ كما ومنعت منعا باتا قبول الرسامات السيمونية.

الزواج: بخصوص شروط صحة الزواج validité، اصبح الرضى الحر للزوج والزوجة، شرطا اساسيا، بينما كانت المرأة سابقا واقعة تحت وصاية اهلها وموافقتهم. ولم يعد رضى الوالدين مطلوبا كشرط لصحة الزواج. ولم يعد مقبولا

الزواج بالقوة اوالغصب. كما اصبح صحيحا ومقبولا الزواج بين الرقيق والاحرار. ومنعت الكنيسة التفريق بين رقيقين حتى وان كانا يعودان لاسياد مختلفين.

اما بخصوص الموانع: حددت الكنيسة الزواج باطلا:

1) اذا كان هناك زواجا سابقا لم يتم كسره ، ام بموت احد الزوجين.
2) وجود النذر الرهباني الدائم او بقبول درجات الكهنوتية اوالدرجات الكبرى على الاقل.
3) وجود قرابة دموية. كانت الكنيسة في الفترة السابقة تمنع الزواج بين الاقارب افقيا حتى الدرجة السابعة، اما في هذه الفترة، فقد تم تقصيرها، مجمع اللتران الرابع الى الدرجة الرابعة.

اما عن طريقة شكل الزواج Forme، او الاحتفال، منعت الكنيسة بصوت مجامعها، وتحت اقسى العقوبات الزواج السري، أي بدون وجود كاهن الرعية، دون ان تعتبره باطلا. ولم يعلن باطلا الا في المجمع الترداتيني.

2- نظام الكنيسة وهيكلتها

أ) اختيار الاكليروس

1)- السلطات العليا (البابا والاساقفة)

كانت طريقة تعيين الاكليروس الاعلى، هي شاغل هذه الفترة. ولاسترجاع حرية الكنيسة في الانتخابات الاسقفية، قام البابا غريغوريوس السابع بصراعه ضد التقليد العلماني، (كما رأينا في الفصل الاول) سنكتفي هنا بالتذكير بالمراحل التي مرت بها طريقة انتخاب البابوات والاساقفة.

الانتخابات البابوية: - حصر البابا نقولا الثاني بمرسومه الثاني عام 1059، حق انتخاب البابا الى الكرادلة والاساقفة، وذلك لابعاد الانتخابات البابوية عن تدخل الامبراطور والاحزاب الايطالية. وكان لهذا الاجراء ميزة اخرى، وهو الامل في ان اعطاء حق الانتخاب لعدد محدود من الاعضاء، من شأنه ابعاد خطر الانشقاقات، والذي لم يحصل، مما حدا بالمجمع اللتران الثالث عام 1179، ان يشرّع، بضرورة حصول المنتَخَب على ثلثي اصوات الكرادلة. الا ان هذا التجديد، وان كان ابعد شبح الانشقاقات، الا انه نتج عنه عارض اخر وهو فراغ الكرسي الرسولي الطويل، كل مرة لم يتم الحصول فيها على ثلثي الاصوات، كما حصل اثناء انتخاب البابا شليستينوس الرابع (1241) وكليمنضوس الرابع (+ 1268)، مما دفع مجمع ليون عام 1274، على اصدار مرسوم جديد، فرض على الكرادلة الاجتماع عشرة ايام بعد وفاة البابا، وعدم حل الاجتماع حتى انتخاب البابا الجديد. الغى البابا ادريانوس الخامس ويوحنا الحادي والعشرون هذا التشريع، واعاده البابا شليستينوس الخامس، الذي هو بنفسه لم يتم انتخابه الا بعد سنتين وثلاثة اشهر من فراغ الكرسي البابوي.

انتخاب الاساقفة: - بعد ان تحررت البابوية من الوصاية العلمانية، عمل البابوات على نزع التعيينات الاسقفية من ايدي الملوك والامراء والاسياد الاقطاعيين العلمانيين. وكسبت الكنيسة هذه الجولة ايضا في معاهدات ورمس، كما رأينا ذلك ايضا سابقا (الفصل الثاني)، ومنع مجمع اللتران (1123) تكريس أي اسقف لم يتم انتخابه قانونيا. وكما حصر انتخاب البابا في مجمع الكرادلة-الاساقفة، حصر انتخاب الاساقفة لمجمع كهنة الكاتدرائية Chapitres des cathédrales، وابعد المنتَخِبون الاخرون: الاكليروس والشعب، او رؤوساء الاديرة عن حق الانتخاب، مما اثار احتجاجات الجميع، وبالخصوص الرهبان، مما دفع البابا انوسنت الثاني، الى ان يشرّع بواجب مجمع كهنة الكاتدرائية طلب توصيتهم او مشورتهم Conseil عند كل انتخاب. وصدّق مجمع اللتران الرابع عام 1215، على حق مجلس كهنة الكاتدرائية في انتخاب الاسقف. وكان يتم انتخاب الاسقف بطرق ثلاث: اما بالتصويت بالاكثرية Scrutin، اما بواسطة الاتفاق على حل وسط بانتخاب اثنان او ثلاثة من بينهم compromis، او بواسطة "اعلان" acclamation من كان الجميع متفق عليه بدون انتخاب.

لم ينج انتخاب الاساقفة من نفس المساوىء التي اصابت انتخاب البابوات، فقد تدخلت فيه الدسائس والممارسات السيمونية، والانقسامات، وفراغات الكراسي الاسقفية. ولمعالجة هذه المساوىء، جاء تدخل البابوات المتزايد في انتخاب الاساقفة. وابتداء من القرن الثالث عشر، اخذ البابوات، ولا سيما البابا انوسنت الثالث، في التدخل لالغاء عدة انتخابات، او احلال مرشحيهم بدل مرشحي مجالس كهنة الكاتدرائيات، وسموا في بعض المرات مرشحيهم مباشرة. الا انه في العادة، قَبِل البابوات مرشحي هذه المجالس وصادقوا على مرشحيهم. وانتقل، في كثير من الاحيان، تثبيت المنتَخَبين الى الكرسي الرسولي، الذي كان في الاساس من صلاحيات المتروبوليتان او رئيس الاساقفة. وحدث في بعض الحالات ان روما لم تتدخل فتوجه المُنتَخَبون الجدد انفسهم الى البابا لتثبيتهم. لذلك يتوجه الاسقف الى رعيته بهذه العبارة: "فلان... اسقف بنعمة الله وبارادة الكرسي الرسولي". واصدر مجمع اللتران الثالث عام 1179 قرارات، بأن على المرشح، سواء اكان من الطبقة الشريفة او من عامة الشعب، ان يكون قد بلغ الثلاثين من عمره، وحائز على سمعة جيدة بعلمه وفضائله وصفاته الادارية.

2)- الاكليروس الادنى (الكهنة والشمامسة والدرجات الصغرى...)

كان اختيار الاكليروس الادنى، من كهنة وشمامسة، يتم عادة من قِبَل الاسياد الاقطاعيين. فمنع مجمع اللتران الثالث (1179)، تحت طائل الحرمان، تعيين كاهن دون موافقة الاسقف. الا ان الاسياد الاقطاعيين لم يتخلوا عن حق الوصاية والرقابة على منافع ومداخيل المناصب الكهنوتية bénéfices.

ب) تنشئة وتهيئة الاكليروس – العزوبية

1- تنشئة وتهيئة الاكليروس

كما في الفترات السابقة، كان يتم تنشئة وتحضير الاكليروس في مدارس الكاتدرائيات والاديرة. وبالرغم من توجيهات البابوات على الاهتمام بتعليم الاكليروس، الا ان هذا التعليم بقي بسيطا وقليلا، على الاقل للعدد الاكبر. برهان ذلك، ما قرره مجمع كولون Cologne في عام 1260، الذي طلب ان يتعلم رجال الاكليروس القراءة وترنيم الطقوس (قانون 3)؛ وكذلك مجمع لندن الثالث Londres عام 1268، الذي طالب ان يفهم الكهنة قانون القداس ومعنى العماد (قانون 20).

2- العزوبية

بالرغم من اوامر البابا نقولا الثاني واسكندر الثالث، وبالرغم من عقاب المنع suspens للكهنة المتزوجين، او الذين يعيشون مع امرأة، فقد كانت النيقولاوية (زواج الكهنة) عادة عامة في معظم البلاد. ولاقت الحملة التي قام بها البابا غريغوريوس السابع، الذي اعاد تثبيت قرارات اسلافه في هذا الشأن، وارسل مبعوثيه للتأكد من تطبيق هذه القرارات، لاقت في كل مكان، معارضة شديدة من قِبَل الاكليروس، خصوصا في المانيا وفرنسا.

ذهب البابا اوربان الثاني ابعد من ذلك، وقرر في مجمع ملفي Melfi عام 1089، ان يُطبق قانون العزوبية ابتداء من الشماسية الرسائلية (قانون 2). وان من لم يتزوج سوى مرة واحدة، يمكنه ان يُقبَل لدرجة الشماسية الرسائلية، شريطة ان ينفصل عن أمراته (قانون 3)، واذا رفض يُفصل ويمنع عن ممارسة كل مناصبه ويخسر مكاسبه الكنسية، وفي حالة عناده، على اسياد الارض حيث يقيم تحويل أمراته الى رقيقة (قانون 12).

اثار قرار البابوات المتكرر فرض العزوبية على الاكليروس مسألة اذا ما كان الدخول في الرتب الكنسية يكوّن مانعا قاطعا للزواج ام لا. وتم تحديد القانون الكنسي حول هذا الموضوع في هذه الفترة.

كان البابا غريغوريوس السابع واسلافه، قد استكفوا بادانة زواج الكهنة دون اعتباره غير صحيح.

تشدد البابا اوربان الثاني حول هذه المسألة ايضا، واراد في مجمع ملفي ان يحصل على قانون يعتبر زواج اكليروس الدرجات الكبرى باطلا. وصدّق مجمع اللتران الاول عام 1123، ومجمع اللتران الثاني 1139، وغيره من المجامع هذا

الاتجاه.يجدر الاشارة ان هذا القانون لم يشمل حتى ذلك الوقت الا الكهنة. ويجب انتظار مجمع اللتران الثالث 1175، ليمنع البابا اسكندر الثالث حتى اكليروس الدرجات الصغرى من الزواج تحت طائل فقدان مناصب وامتيازات رتبهم.

لم تنجح هذه الاجراءات لفرض العزوبية بشكل نهائي، لدرجة ان مجمع اللتران الرابع عام 1215، اضطر الى التهديد باشد العقوبات الاساقفة، الذين مقابل بعض المال، كانوا يسمحون للاكليروس بالزواج. وحدث انه في بعض البلاد، انجلترا مثلا، اضطر الاساقفة الى تخفيف هذه الاجراءات بسبب النقص في الاكليروس.

3- الكنيسة رائدة الفكر والثقافة (1073-1305)

أ- الكنيسة رائدة الفكر والثقافة

لا ينكر اليوم أي مؤرخ كون الكنيسة كانت حصنا للثقافة، وحافظة لها في العصور الوسطى. ولم يكن جهد الكنيسة في هذا المضمار نابعا فقط من رغبتها في البحث عن المعرفة، بقدر ما كان موجها لمجد الله؛ ولاظهار هذا المجد توجهت كل قوى الكنيسة في هذ الفترة، وأخضعت الثقافة للدين. فلم يكن هناك معرفة للكتب المقدسة، او لطقس من الطقوس الليتورجية، بدون معرفة لغة الكنيسة اللاتينية؛ ولا ايمان قويم بدون دراسة جيدة للكتب المقدسة او آباء الكنيسة. من اجل ذلك عمل البابوات والاساقفة ورؤساء الاديرة على حفظ هذه الثقافة وانتشارها، في مجتمع كان ينبذها ويحتقرها. واكثر من ذلك، فقد فهمت الكنيسة انها لا تستطيع ان تدافع عن قضاياها وعقائدها، بدون ان تكون متسلحة لهذه المعركة بالفكر.

ألكتّاب والنساخ: وما ان فكرت الكنيسة في استغلال كل التراث الادبي والفكري للكتّاب الاقدمين، لمجد الله، حتى ساهمت في انقاذ مؤلفات الكتّاب الوثنيين القدامى من الضياع والنسيان. فظهرت مراكز نسخ اصبحت مشهورة في التاريخ، ولكل مركز اسلوبه الخاص في النسخ والكتابة. كما وظهر فن تزيين الصفحات miniatures، برسومات جميلة رائعة، لا تزال تخلب الالباب بجمالها وروعتها. لهؤلاء النُسّاخ المجهولين، يعود الفضل في معرفة كُتّاب امثال اغوسطينوس، وايرونيموس، واوفيد، وهوراس، وغيرهم؛ وبفضل هؤلاء ايضا، حافظ الجنس البشري على علاقته بماضيه.

المدارس والجامعات: استمرت الكنيسة في القيام بهذا الدور الكبير ابتداء من منتصف القرن الحادي عشر، وهذه المرة ليس للحفاظ عليه من مجتمع بربري، وانما لتنظيمه وتوجيهه لغايته الحقيقية، الا وهي خدمة الله ومجده؛ وكان لا بد لها ان تمنع، في غمرة هذا الانتعاش الفكرية، الذي بدأ يعيشه المجتمع المسيحي، من ان تقوم الحركة الفكرية بابعاد الانسان عن الطريق القويم. ففتحت المدارس، وأنشأت الكليات والجامعات. ومن اهم المدارس: شارتر، واورليان، وتور، وريمس، وليبج، وكولوني، ويورك وكنتربري الخ. ومن اهم هذه الجامعات في **ايطاليا**، جامعة بادوفا Padova، وجامعة رومة التي بلغت مجدها في ايام نقولا الخامس وليو العاشر، واحرزت لقب سبينسا Sapienza (الحكمة)، في عهد البابا بولس الثالث. وبدأت سينا Siena جامعة بلديتها في عام 1246، وبياسنزا عام 1248، وقبل ان يختتم القرن الثالث عشر وُجدت مدارس القانون والآداب والطب ايضا احيانا، في كل مدينة كبرى في ايطاليا.

وكانت جامعات **اسبانيا** فريدة من نوعها. فقد أنشأها الملوك وبسطوا حمايتهم عليها، فكانت تخدمهم وتخضع لاشراف حكوماتهم. فأنشأت قشتالة جامعة ملكية في بالنسية Palencia (1208)، ثم أنشأت جامعة اخرى في ليون Leon، وجامعة في سلمنقة (1227) وغيرها. وكانت الجامعات الاسبانية تقبل اشراف الكنيسة عليها والمعونة المالية منها رغم صلتها بالملوك. وافتتح راهب دومنيكي في عام 1205 مدرسة للدراسات الشرقية في طليطلة لتدريس اللغتين العربية والعبرية.

كانت **فرنسا** بلا ريب الزعيمة الفكرية لاوروبا في العصور الوسطى خلال القرنين الثاني والثالث عشر. فقد اصبحت لمدارس كتدرائياتها، شارتر، ريمس، اورليان، منذ بداية القرن الحادي عشر شهرة عظيمة. ونمت وازدهرت هذه المدارس حتى اضحت جامعات. فجامعة باريس تطورت من المدرسة الملحقة بكاتدرائية نوتردام.

اما في **انكلترا** فيبدو ان مدارس نشأت في اكسفورد، ولكننا لا نسمع بوجود مدرسة كاتدرائية فيها. وخطت المدرسة خطوات لا يعرف التاريخ عنها شيئا الان، اضحت بعدها مدرسة اكسفورد في القرن الثاني عشر "مدرسة عامة" أي جامعة، وهناك من يقول بانها ظهرت على اثر تمرد الطلبة الانجليز الذين كانوا يدرسون في باريس لانهم شعروا باساءة معاملتهم. فرفضوا ظروف معيشتهم هناك وانتقلوا معا الى اكسفورد في سنة 1167 او 1168. وكان فيها كما كان في جامعة باريس اربع كليات: كلية الفنون، وكلية اللاهوت، وكلية الطب، وكلية القانون الكنسي. اما جامعة كمبردج فقد نمت نتيجة تمرد بعض طلاب جامعة اكسفورد ونزوحهم الجماعي الى كمبردج عام 1209.

الفكر المسيحي (الفلسفة والاهوت والعلوم): عملت الكنيسة ايضا، بشكل اخر، في الحفاظ على الفكر، بأن جعلت الايمان اساسا للفكر والثقافة. فمن القرن الحادي عشر والى القرن الرابع عشر، ما عدا بعض الاستثناءات النادرة، حافظت الثقافة على صبغتها الدينية، وبقي التعليم بين ايدي رجال الدين تقريبا، وظلت الكنيسة توجه هذه الحركة حتى في الوقت الذي بدأت الحركة الفكرية تدّعي التحرر من روابط الايمان.

كان الايمان اساسا لكل هذه الحركة الفكرية. وكان اللاهوت وهو "علم معرفة الله"، بدون منازع، اسمى العلوم وافضلها، منه يبدأ كل شيء واليه ينتهي. ولم يكوّن الايمان عائقا امام الفكر، بل بالعكس، شجعه على التعمق اكثر في هذه المسائل والخروج منها بافكار جديدة جريئة.

وكانت مشكلة العلاقة بين العقل والايمان، احدى المشاكل التي واجهت لاهوتيي ومعلمي القرون الوسطى. هل على العقل ان يساعد الايمان، ام الايمان يساعد العقل؟ نؤمن لكي نفهم، ام نفهم لكي نؤمن؟ هذا ما كان على مفكري العصور الوسطى مواجهته. فظهرت المدارس اللاهوتية السكولاستيكية والصوفية. ويُعتبر القديس توما الاكويني من اعظم المدرسين (السكولاستيك) على الاطلاق، مع معلمه البرتوس الكبير وهم من الرهبان الدومنيكان. بينما كان ويليام من اوكهام وبونافنتورا من الرهبان الفرنسيسكان.

الفصل الواحد والثلاثون

الرهبان المتسولون

Les Ordres Mendiants

1300-1095

تعبير اخر عن ايمان هذه الفترة هو ظهور الجمعيات الرهبانية وخصوصا المتسولة.

1_ تجديد الحياة الرهبانية تجديد الحياة النسكية

لكل عصر قديسيه وحركاته ومؤسساته التي تتجاوب مع حاجات ذلك العصر وتترك اثرا هي بالاحرى نعمة من الله لا تمحى، تعمل في جسد المسيح السري الذي لا ينفك يتطور بشكل مستمر. في جميع الاحوال فان نعمة المسيح هي التي تبرز، لكن بشكل متغير ومتجدد دائما، من خلال التطور العجيب للمسيحية في القرون الوسطى، ظهرت العديد من المواهب التي تعمل دائما في الكنيسة.

تأسست العديد من الجمعيات الرهبانية النسكية في ايطاليا وخارجها بتأثير جزئي من رهبان دير كلوني Cluny، الا ان الفضل الحقيقي يعود لجاذبية الحياة النسكية، على مثال القديس نيل Nil الذي ذاع صيته في الزهد الى حد

الاسطورة (نهاية القرن العاشر). كانت غاية كل راهب منذ بدايات الحركة الرهبانية هي العزلة الكلية عن العالم ليكون كليا لله. الا ان التجربة دلت ان الوحدة دون حياة جماعية وطاعة لرئيس لا يمكنها البلوغ لهذا الهدف.

قبل نهاية حياته، اسس القديس نيل دير غروتافراتا Grottaferrata (جنوب شرق روما)، واختار له الطقس البيزنطي وطبق فيه قانون القديس باسيليوس (عام 1004). اما الراهب رمولد دي رافين Romauld de Ravenne فقد خطرت له فكرة بناء دير نسكي يتبع قانون القديس بندكتوس وينظم الحياة النسكية، او ان يكون حلا وسطا بين الطريقتين. فاسس عام 1010 دير كملدولي Camaldoli، وقد تخرج من هذا الدير العديد من رجالات الكنيسة، منهم الكاردينال بطرس داميان الذي عمل كثيرا مع البابا غريغوريوس السابع في اصلاح الاكليروس في الكنيسة. وقد توالت عملية افتتاح الاديرة الجديدة في القرن الحادي عشر وما تبعه.

احتوت هذه الاديرة عادة على بناء ضخم خاص برئاسة الدير وسكن الرهبان العاملين الذين يعيشون حياة مشتركة، ثم "قرية" الرهبان الذين يعيشون في صوامعهم (غرفة صغيرة لكل منهم مع مكان عمل وحديقة) وكنيسة. يقضي الرهبان وقتهم في العمل والدراسة، ويصلون اما بصورة فردية في صوامعهم او مجتمعين في الكنيسة. وبين الحين والاخر يقومون بنزهة، كل اثنين او ثلاثة، في الغابات المحيطة بالدير.

وتأسست الرهبانية الكرملية في الاراضي المقدسة كمجموعات من النساك على جبل الكرمل (عام 1155)، وفي نفس الفترة قامت مجموعات من النساك في انحاء مختلفة من ايطاليا واتبعت قانون القديس اغوسطينوس. وقد تجمع هؤلاء الرهبان عام 1256 واسسوا الجمعية الرهبانية الاغوسطينية. وقد عملت هاتين الجمعيتين على تنظيم الحياة الجماعية وعملت في التبشير مستلهمة حاجات وظروف العصر الذي عاشوا فيه. في نهاية القرن الخامس عشر، وصل تعداد الرهبان الاغوسطينيين الى ثلاثين الفا. في القرن السادس عشر، ومع الاصلاح الرهباني الذي قام به كل من القديسة تريزيا الافيلية والقديس يوحنا الصليبي، نشأت جميعة رهبانية عرفت باسم الكرمليين الحفاة.

الاصلاح الرهباني: الصلاة والعمل

تعرضت الحركة الرهبانية للعديد من الحركات الاصلاحية في القرون الوسطى، وفي كثير من الاحيان يقوم ناسك بتأسيس دير جديد للرهبان بسبب كثرة اعداد المنتسبين للرهبنة، وفي احيان اخرى يتم تأسيس اديرة للرجال واخرى للنساء، كما حدث مثلا مع الراهب روبير الذي اسس العديد من الاديرة. والجديد في هذه الاديرة هو الادارة العامة للرهبان والراهبات قد اوكلت للراهب الرئيس او للراهبة الرئيسة، احياء لذكرى المسيح على الصليب الذي اوكل القديس يوحنا للعذراء مريم.

من بين المؤسسات الرهبانية الجديدة، يعتبر دير سيتو Citeaux اشهرها. حاولت هذه المؤسسة الجديدة اصلاح الحياة الرهبانية البندكتانية: العودة للعمل اليدوي وللفقر الجماعي، وذلك في مواجهة تطور النشاطات الليتورجية والثقافية للرهبان والغنى النسبي لبعض الاديرة. في عام 1098، اسس الراهب روبير بمساعدة بعض الرهبان، دير "سيتو الجديد Cistercium" . في هذا الدير لم يجلب الرهبان معهم سوى كتاب صلاة الفرض والضروري للاحتفال بالذبيحة الالهية ولمتابعة حياتهم. بنوا غرف خشبية صغيرة بين نباتات العوسج، عاقدين العزم على العيش من ثمر عملهم دون الحاجة الى ممتلكات كنسية او كنائس او مقابر او مطاحن للقمح او عقار او اماكن سكن ثابتة اواحسانات مهما كانت.

القديس برناردس و "وثيقة المحبة"

القديس برناردس هو الابن الثالث لسيد مقاطعة الينابيع في برجونيا. وفي العام 1112، وعندما كان برنار في الثاني والعشرين من عمره، دخل مع ثلاثين من زملائه دير سيتو. ومنذ ذلك الحين قدمت اعداد كبيرة من الشباب من مختلف مقاطعات فرنسا للانضمام لهذا الدير. وفي تلك الفترة انتشرت الاديرة التابعة لدير سيتو امثال اديرة Ferte 1113، Pontigny 1114، Clairvaux 1115. وفي عام 1151 وقبل عامين من وفاة برناردس كان هناك 348 ديرا. في بداية القرن السادس عشر كان مجموع اديرة سيتو ما يقارب السبع مائة دير للرهبان وتسع مائة دير للراهبات. وقد كرست جميع كنائس الاديرة للعذراء، شفيعة الرهبنة.

بخلاف رهبان دير كلوني Cluny، فان رهبان اديرة سيتو عادوا الى اللامركزية على مثال اول اديرة الرهبان في المسيحية، مع المحافظة على نوع من العلاقة بين اديرة التابعة والاديرة الام. في الاجتماع العام سنة 1119، السنة التي اقر فيها البابا كاليكست الثاني قانون الرهبنة، دوّن القديس برناردس ما دعي ب "وثيقة المحبة" التي يشرح فيها كيف انه يجب على كل دير ان يكون مدرسة لمحبة الله والقريب، وحيث المسيح هو المعلم الوحيد. يسود الاديرة جو من الصمت يتناسب مع روح التأمل ويحمي مبادىء مدرسة المحبة هذه. بعد خمس وعشرين سنة، كتب رئيس احد الاديرة غيوم صديق القديس برناردس متذكرا هذه الفترة:

> "كانت هذه الفترة عصرا ذهبيا" بالنسبة له فان آباء الصحراء القدامى في طيبة (مصر) قد بعثوا من جديد! كانت تلك الفترة الفردوس التي اعيد فتحه حيث يلتقي الرهبان الذات الالهية بتشبههم بالمسيح: "حيثما نظرت، كان الاعجاب يهزني، كما لو كنت اتامل السماوات الجديدة والارض الجديدة ، وذلك برؤيتي لرجال عصرنا وقد اختاروا الحياة الكاملة على مثال الاباء الاوائل... في هذا الوادي المليء بالرجال، لم يكن أي منهم يعاني من البطالة، فقد انكب كل منهم على عمله. طوال النهار ساد صمت تام كأنه ليل، لم يتخلله سوى اصوات العمل او ترتيل الرهبان حينما تحين ساعة تمجيد الله. اثار جو الصمت العام الذي ساد الدير شعور بالاحترام العميق لدى زوار الدير من ابناء العالم، الى حد انهم كانوا يحجمون عن تبادل الاحاديث، ليس فقط الاحاديث غير اللائقة او عديمة الفائدة، بل ايضا الاحاديث التي لا تتناسب مع الروح السائدة لدى سكان الدير" (غويوم دي سانت تييري Guillaume de Saint-Thierry, Vita prima, VII, n. 35).

اعمال القديس برناردس واثره العظيمين

كان تأثير القديس برناردس عظيما في زمانه ولا يزال هذا التأثير الى يومنا هذا. وقد ادى مثال دير سيتو الى العديد من الحركات الاصلاحية: من رهبان وكهنة ورعايا وحتى بين اعضاء الحاشية البابوية. في الواقع لم يتردد القديس برناردس في انتقاد البابوات في تصرفاتهم وكانهم خلفاء للامبراطور قسطنطين وليس خلفاء للقديس بطرس. وقد شمل تأثيره الحقل السياسي ايضا لصالح السلام بين الامراء المسيحيين. كان العمل الرسولي بالنسبة للقديس برناردس دون حدود. كان برناردس رجل صلاة وتأمل، محبا للعزلة مع الله، كما انه كان رجل عمل قادته الطاعة للاهتمام بالقضايا الكبرى في زمنه[2] .

اما فيما يتعلق بدوره كمعلم في الامور الروحية، فقد عُدَّ القديس برناردس من اعظم معلمي الكنيسة في هذا المجال. وقد ظهرت تأملاته في اسرار حياة المسيح، والتي عمل على تطورها بين الاكليروس والمؤمنين، في رسومات المسيح المصلوب في كنيسة مواساك وكاتدرائية شارتر، والتي نقشت في نفس الفترة: يظهر المسيح في قمة مجده، حاملا الانجيل المقدس، الذي يدعو البشر لذاك الذي هو "الطريق والحق والحياة" (يوحنا 14، 6).

2- القديس فرنسيس الاسيزي (1182-1227): موهبة الفقر

في بداية القرن الثالث عشر، ازدهرت مع القديس فرنسيس حركة روحية ستجدد الكنيسة والمجتمع بعمق في وقت كان الشغل الشاغل للناس هو الربح المادي والمصالح الفردية، ازدهرت التجارة، ازداد البرجوازيون غناء وسعوا لتحرير الاقطاعيات من ايدي السادة، ازدهرت المدن وازدادت اتساعا فشعر سكان الضواحي باهميتها في مواجهة استبدادية الامراء والاساقفة (الذين كثيرا ما تصرفوا كامراء وليس كرعاة)، وفي مواجهة تفشي ظاهرة الربح المادي التي اثارت الكثير من المنازعات، كان كثير من المسيحيين يتوقون لاخوة حقيقية بين الناس. حين اختار ان يتبع المسيح في الفقر الكامل، اصبح القديس فرنسيس بطل الاخوة بالمنطق المسيحي ورسول التسامح والمصالحة.

---

[2] الانشقاق الذي حدث بين عامي 1130-1138، بسبب الاختيار المتزامن للبابا انوسنتيوس الثاني من قبل جماعة من الكرادلة، وللبابا المضاد اناكليت الثاني: الدعوة للحملة الصليبية الثانية عام 1147.

كان يوحنا ابن تاجر اقمشة غني من مدينة اسيزي في مقاطعة امبريا، وكانت امه فرنسية الجنسية. وبما ان اباه كان كثير السفر الى فرنسا فقد سماه فرنسيس. وعلى مثال اترابه من الشباب، فقد سحره نموذج حياة الفروسية، الا ان الله افهمه ان هنالك ما هو افضل من وضع نفسه في خدمة احد الامراء هذا العالم. في العام 1205، وخلال عودته من رحلة حج الى مدينة روما، انعزل امام تمثال للمصلوب في احدى الكنائس الصغيرة المكرسة للقديس داميان قرب اسيزي، فسمع صوت المسيح يطلب منه ان يصلح بيته المعرض للانهيار. فسرعان ما ترك فرنسيس والديه واصدقاءه وثروته ووضع نفسه في خدمة كاهن الكنيسة ليصلح الكنيسة (التي اصبحت فيما بعد مهد رهبنة الكلاريس). بعد كنيسة دميان، شرع في اصلاح كنيسة القديس بطرس، ثم كنيسة العذراء سيدة الملائكة، الكنيسة الصغيرة في السهل، والتي بنى بالقرب منها اول دير للاخوة الرهبان. في عيد القديس متى واثناء استماعه للانجيل (متى 10) فهم فرنسيس ان الله يريد منه شيء اخر غير ترميم الكنيسة ترميما ماديا، ترك حياة العزلة واخذ يجوب البلاد بفرح غامر مبشرا بالانجيل.

ازداد عدد التلاميذ: برجوازيين، صناع، فرسان، فلاحين وكهنة. وهكذا تأسست العائلة الفرنسيسكانية. اراد القديس فرنسيس ان يكون اتباعه في الكنيسة "الاخوة الصغار"، فاضحى هذا الاسم هو اسم المؤسسة الجديدة: **"الاخوة الاصاغر"**. من بين اتباعه كان هنالك كلارا وباشيفيكا من اسيزي، وسرعان ما انضمت اليهما اغنيس وفتيات اخريات، فمنحهن فرنسيس كنيسة القديس داميان وهكذا تأسست الجمعية الثانية "الكلاريس". ارسل فرنسيس رهبانه على دروب الارض ليربحوا النفوس للمسيح: في ايطاليا وفرنسا واسبانيا وهنجاريا والمانيا والشرق... عام 1220، استشهد خمسة اخوة في المغرب متممين ما تمناه فرنسيس لنفسه.

اسبغ عليه الله نعمة اخرى: عام 1224 وفي مكان منعزل بالقرب من اسيزي (الفرن Alverne) حيث كان يحب البقاء بين الصخور والشجر والينابيع، نال فرنسيس جرحات المسيح الخمسة، علامة حسية على تشبهه بالمسيح. اصيب بالعمى على اثر مرض اصابه في مصر، حيث ذهب لمقابلة السلطان الملك الكامل. توفي في الخامسة والاربعين من عمره في كنيسة العذراء سلطانة الملائكة.

رفض البابا الموافقة على القانون الاول لرهبانه. في نهاية حياة القديس فرنسيس كانت قد بدأت النقاشات بين الرهبان اتباعه على التفسيرات المختلفة لقانونه الجديد حول موضوع الفقر. هذه النقاشسات ادت الى ولادة فرع جديد، عام 1517، هو فرع "الاديرة" المؤيدين لانشاء اديرة كبيرة مؤيدين تفسير القديس بونافنتورا، مميزين انفسهم عن المحافظين على القانون الاصلي. عام 1528، تأسس **فرع الكبوشيين** الذي فضل عودة للفقر الاصلي، فعاشوا في جماعات صغيرة (من 8 الى 12 شخص) ولعبوا دورا مهما في التجدد الرهباني في ايطاليا في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

كان تأثير القديس فرنسيس عظيما، فقد فتح طريقا جديدة في الحياة المسيحية بتأكيده على اولية الشهادة المسيحية على التبشير، وبتجديده للحياة الارسالية" يجب محاربة عدم الايمان بمحبة وليس بالقوة، بان "نبشر بدل من ان نعارك" فكان هذا الاسلوب مناقضا للاسلوب الصليبيين. انتشر هذا التجديد بين الشعب بفضل "الرهبنة الثالثة" التي ساهمت في تنشئة الالاف من المسيحيين الذين، على الرغم من عدم استطاعتهم دخول الدير، تجمعوا في اخويات للعلمانيين، مرتبطين بالرهبنة، ليعيشوا بروحانيتها ومساندة رسالتها (عام 1228). انضم الكثيرون للرهبنة الثالثة وجاهدوا في صفوفها ومنهم اليزابيث ملكة هنجاريا ولويس التاسع ملك فرنسا وفرديناند من كاستيلا ودانته والكثيرين غيرهم.

3- القديس دومنيك (1170-1221)

في نفس الفترة تقريبا، ظهرت في فرنسا **جمعية الاخوة الوعاظ** التي اسسها دومنيك دي كوزمن. ولد دومنيك في سهل كاستيلا القديمة Vieille – Castille انتقل الى فالنسيا حيث تعلم اللغة والديالكتيك والفلسفة وعلوم اخرى، بادر الى تعلم العلوم اللاهوتية والكتب المقدسة. خلال احدى المجاعات التي المت بالبلاد، لم يتردد دومنيك ببيع ممتلكاته

وكتاباته المدونة بيده لينظم مركزا لتوزيع الغذاء على الفقراء: "لا اريد الدراسة على جلود ميتة، في الوقت الذي يتضور فيه البشر جوعا" (الاخ اتيان، شهادة في محكمة التطويب في نولونيا).

في الرابع والعشرين او الخامس والعشرين من عمره، قبل في جماعة رهبان كاتدرائية اوسما Osma، غير بعيد من مسقط رأسه. كانت هذه الجماعة تعيش الحياة الجماعية بحسب قانون القديس اغوسطينوس. قَبِل سر الكهنوت واصبح نائب رئيس هذه الجماعة. منذ العام 1203، اصبح المرافق الخاص للاسقف دييج Diegue d'Acebes في جولاته الكثيرة الى الدنمارك لحساب الملك الفونس الثامن ملك كاستيلا. كشفت هذه الرحلات للقديس دومنيك المأساة الروحية للشعب المسيحي، المتروك ليواجه الضلال وسوء الاخلاق وحيدا، وذلك على اثر التراجع الروحي للاكليروس. في نفس الوقت شعر بنداء الوثنيين في شمال اوروبا لتبشيرهم بالانجيل.

في العام 1206 وبعد زيارة لمدينة روما، توجه مع الاسقف الى اسبانيا، وتوقفا في مونبلييه، حيث التقوا المبعوثين البابويين لتنظيم الوعظ في ناربونييز Narbonnaise في مواجهة هرطقة الالبيين. عانى المبعوثون من الاحباط بسبب فشلهم الذريع. اقترح الاسقف دييغ الاستمرار في التبشير بحرارة اكبر، هذه المرة بدمج التبشير مع العمل، على مثال المعلم: القيام بالعمل بتواضع، والذهاب دون فضة او ذهب، أي التمثل الكامل باسلوب حياة الرسل وطريقتهم في العمل. بعد طرد اتباع هذه الهرطقة من اسبانيا، تابع الاسقف ودومنيك العمل مع المبعوثين والمبشرين الاخرين (حوالي الاربعين): تقاسموا البلاد فيما بينهم، ونظموا التبشير والندوات... وهكذا تأسست جماعة "المبشرين بيسوع المسيح"، نواة الوعاظ الدومنيكان.

انضم رفاق اخرون شيئا فشيئا الى هذه الجماعة: كاهن وزوجين وجماعة من النسوة بينهم العديد من الفتيات من طبقة النبلاء المهتديات واللواتي شكلن الدير الاول للجمعية.

بعد موت الاسقف دييغ وعودة الاباء السسترسيان الى اديرتهم، وفي حين اشتدت هجمات امراء شمال فرنسا نحو الجنوب بما تتضمنته من مذابح ونهب، بقي القديس دومنيك وحيدا تقريبا مدة ثماني سنوات، متابعا دون كلل مهمة الكرازة والمصالحة في مختلف المناطق، باذلا في سبيلها كل غال ونفيس، مستعدا لبذل حياته اذا لزم الامر. كان في النهار يكرز "ليكسب للمسيح ما استطاع من النفوس، وقاضيا ليله في الصلاة اكثر منه في النوم، وكانت هذه الصلاة كثير ما تتكرر على لسانه: "ايها السيد، ارحم شعبك". (غيوم بيير وشهادة في دعوة تطويب تولوز).

اسس القديس دومنيك ديره الاول في تولوز عام 1210، في الوقت الذي عاد فيه العديد من اصحابه، وقد اختار برامج حياة يرتكز على الحياة الجماعية والصلاة الجماعية ودراسة كلمة الله من اجل التبشير، لان الانسان لا يحيا بالخبز وحده، بل من الحق. صادق الاسقف المحلي على الجمعية الرهبانية الجديدة في ذلك الوقت. في العام الذي تلى وخلال رحلة له الى روما، حصل دومنيك على موافقة البابا اونوريوس الثالث على مؤسسته الجديدة "جمعية المبشرين". اما قانون الجمعية فكان قانون القديس اغوسطينوس مع بعض التعديلات اوحت بها اديرة سيتو وبريمنترى Premontre. وهكذا اصبح المرسلين من ابرشيات معينة تابعين لجمعية القديس دومنيك الجديدة مبشرين للكنيسة الجامعة.

ابتدأ من عام 1217، ارسل دومنيك ابناءه الى المدن الكبرى في اوروبا، خاصة باريس (مركز العلوم اللاهوتية في ذلك الزمن) وبولونيا (مركز دراست الحق القانوني). كان دومنيك يجيب منتقديه الذين اتهموه بالتهور (لم يكن اتباعه سوى 16 فقط): "اتركوا لي حرية العمل، فانا اعلم ما اعمل. فان حبة الحنطة تموت اولا، لكننا حين نزرعها فانها ستعطي ثمارها حتما" (من دعوة التطويب في بولونيا).

توفى دومنيك في السادس من شهر اب عام 1221، بعد ان انهكته الاعمال الرسولية وسهرات الصلاة الطويلة واعمال التكفير.

عام 1234، وُجِدت في بولونيا "محاضرة للقديس دومنيك" كانت الاساس فيما سيدعى فيما بعد الرهبانية الثالثة، هذه الرهبنة التي بدأت منذ العام 1285 تجمع مؤمنين يعيشون في العالم، في اغلب الاحيان من المتزوجين،

داعية اياهم للعيش بحسب روح الرهبنة وتاييد الرهبنة في عملها الرسولي. في نهاية القرن كان هنالك 557 ديرا منتشرة في جميع انحاء اوروبا وفي الاراضي المقدسة، تضم حوالي 15000 راهبا.

الفصل الثاني والثلاثون

القديسون والقديسات

في القرون العاشر وحتى القرن الثاني عشر

مقدمة

سُئِل احد مؤرخي الكنيسة، ماذا كان برأيه الحدث الاكبر تعبيرا، عِبر الواحد والعشرين قرنا، التي بالرغم من الكوارث والازمات الهدامة، أدت الى ان تصبح حبة الخردل، تلك الشجرة الضخمة، أي الكنيسة، التي نراها اليوم. فاجاب: ان تاريخ القداسة هو اهم حدث معبّر، أي ان تاريخ الكنيسة الحقيقي هو تاريخ القداسة فيها. فتطور الكنيسة لم ينجم عن استراتيجية مدروسة، او من خلال حملة اعلامية منظمة، ولكن من خلال اشعاع حياة القديسين.

العصور الوسطى تُعتبر عصور انتصار القداسة، العصور التي فيها نمت وترعرعت وازهرت بشكل غير عادي حديقة القداسة في الكنيسة. ان علماء ما يُدعى بعصر النهضة اطلقوا احتقارا على هذه الفترة من التاريخ اسم "العصور الوسطى". الا ان هذه التسمية غير صحيحة. فتلك الفترة ليست فترة "عبور" من ظلام البربرية الى نور عصر النهضة؛ وليس مسيرة تتلمس طريقها ببطء، بل فترة قمة عالية في السماء، عليها بنى مجتمع المسيح بنيانه الالهي، بايدي رجال قادهم الايمان بالمسيح الاله.

صحيح انه مهم لنا ان نعرف تاريخ الكنيسة السياسي، تاريخ ظهورها في العالم، تاريخ صراعها مع السلطات الزمنية، تاريخ فكرها وتطور عقائدها، وتاريخ صراعها للدفاع عن الوديعة المقدسة التي عُهدت اليها. لكن اذا ما استكفينا بمعرفة هذه الفصول عن الكنيسة، يصبح تاريخ الكنيسة تاريخ حزب او تاريخ مدرسة فلسفية؛ ولكن لأن الكنيسة هي اكثر من ذاك، فالذين شيدوها وطوروها، ليسوا رجال السياسية فيها ولا المفكرون – ولا حتى، ونستطيع ان نقول ذلك بشيء من الجرأة، اللاهوتيون – ولكن الشهود المجهولون في الغالب، الذين هم القديسون.

شهدت العصور الوسطى ظهور نخبة من عظماء هؤلاء القديسين: غريغوريوس السابع، برنارد دي كليرفو، فرنسيس الاسيزي، كلارا الاسيزية، انسلم، دومينك غوزمان، البرتوس الكبير، بونافنتورا، توما الاكويني، لويس التاسع ملك فرنسا وغيرهم.

ترك بعض هؤلاء القديسون اثرا خاصا، اكبر من الاخرين، فقامت الكنيسة باعلان قداستهم. ولكن علينا ان نعترف ان القديسين المعلنين او المكرمين كقديسين مهما كان عددهم، لا يكوّنون الا جزءا صغيرا من "الجميع الكبير الذي لا يحصى" كما يقول سفر الرؤيا.

احدى ظواهر تاريخ الكنيسة والاكثر مثيرا للاندهاش، هو ان هؤلاء الرجال والنساء القديسون، ظهروا في كل مكان، وفي كل العصور، ولم تخلو منهم فترة من فترات الكنيسة. ويمكن ان نقول، بأنه وعلى حسب قانون غير مقرر، ولكنه مطلق، ظهرت القداسة دائما حيث كان لها دور مهم، وتحت الاشكال الاكثر فعالية، وكأن وعد المسيح الصاعد الى ابيه "انا معكم حتى انتهاء الدهر" تحقق في قديسيه. لنتصور ماذا يمكن ان يكون تاريخ الكنيسة والحضارة، لو انتفى منهما القديسون والقديسات، التي اصبحت اسمائهم متأصلة في ذاكراتنا، دون ان نذكر الجموع الكثيرة التي لا نعرف اسماءها، التي عمل كل واحد منهم على نمو وتطور وتقدم ملكوت الله. انه تاريخ لا يمكن تصوره، لانه تاريخ غير موجود.

وكان للقداسة دور مزدوج: فمن جهة، بعيدا عن الانزواء عن العالم، وعن رفض العالم، كما يظن البعض، كان للقديسين، معرفة كاملة لعصرهم، وادراك تام لمجتمعاتهم التي عاشوا فيها وعن متطلباته واحتياجاته الروحية. وظهر القديسون كحكام وقضاة لعصرهم. ولكن بنفس الوقت، بمثال حياتهم وبكلمتهم، وبعض المرات بصلواتهم، شهدوا للحقيقة التي هي الطريق والحياة، وكانوا قادة للبشرية التي عاشوا فيها. ولم يهمل أي قديس هذه الرسالة المزدوجة.

اعطى المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني اهمية خاصة للقداسة، مذكرا اننا كلنا مدعوون الى القداسة. والعدد الهائل لاعلانات القداسة والتطويبات التي قام بها البابا يوحنا بولس الثاني ومن جاء بعده من البابوات، لشاهد على ذلك، ويثبت ان القداسة قريبة منا ومعروضة علينا.

رأينا في هذا الفصل ان نذكر بعضا من الكثير، من قديسي العصور الوسطى، وخاصة من القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر، لنبعد عن هذه العصور صفة الظلام، ومساوىء الاخلاق، التي الصقها بهم كُتّاب عصر النهضة. فبجانب القديسين الذين ذكرناهم في الفصول السابقة، وخاصة الفصل الثامن، نذكر فقط الذين ضمت الليتورجية اسماءهم الى كتاب القداس الالهي، وتذكرهم بتواريخ محددة خلال السنة الليتورجية.

* * * * *

7– كانون الثاني – القديس ريموندس البنفوري، الكاهن (1175–1275)

وُلد بالقرب من برشلونة. انتمى الى الرهبانية الدومينكية، ثم ترأسها وساسها بخير القوانين. عمل على تحرير الاسرى، ونشر مجموعة "البلاغات"، وسلسلة من "الفتاوي" في سر التوبة.

28 كانون الثاني: القديس توما الاكويني (1225–1274)

وُلد من اسرة اشراف في اكوينوا بايطاليا. كان من الرهبانية الدومينيكية. علّم في جامعة باريس، وكتب كثيرا. ومن اشهر ما كتب "الخلاصة اللاهوتية"، " و "الخلاصة ضد الامم". وكان حجة العصر، وهو حجة الكنيسة في الفلسفة واللاهوت، مما اكسبه لقب "الاستاذ الملائكي".

12شباط: القديس بطرس دميان، الاسقف ومعلم الكنيسة (1007–1072)

عاش في ايطاليا. ترك التدريس، وانخرط في سلك الحياة الرهبانية، وعمل على نشرها في البلاد. ساند البابوات باعماله وكتاباته وسفارته، في اصلاح الكنيسة وتحريرها من السلطة المدنية.

11نيسان: القديس استانسلاوس، الاسقف الشهيد (1030–1079)

وُلد في بولندا. واقيم اسقفا على كراكوفيا، فكان على كنيسته راعيا صالحا، ومحبا للفقراء. كان يقوم بزيارة سنوية منتظمة لكهنته العاملين في ابرشيته. وناضل من اجل حرية الكنيسة، وحرم ملك البلاد لتداخله في شؤون الكنيسة، فقتله.

21 نيسان: القديس انسلمس، الاسقف ومعلم الكنيسة (1033–1109)

كان راهبا بندكتيا. اقيم رئيس اساقفة عى كانتربري بانكلترا، ونفي مرتين. امضى عمره في التقصي عن سر الله، في ضوء العقل والوحي. وهو من منشئي الفلسفة المدرسية واليه يُنسب البرهان الوجودي للوصول الى معرفة الله. وقد ترك كتبا كثيرة قيمة في اللاهوت والتصوف المسيحي. ودافع عن حرية الكنيسة.

25 ايار: القديس غريغوريوس السابع، البابا (1028–1085)

هو الراهب هيلدبراند. ساعد البابوات في اصلاح الكنيسة، وواصل هذه المهمة بكل بأس، بعد ارتقائه كرسي بطرس. كان غرضه انقاذ الكنيسة من سلطة الاقطاع، وضمان قداسة الاكليروس. حرم الامبراطور هنري الرابع، فنفاه، ومات منفيا. بقي اسمه مهيمنا على تاريخ القرون الوسطى.

6 حزيران: القديس نربارتس، الاسقف (1080–1134)

سار على خطى الرسل، وبشر بالانجيل في فرنسا والمانيا. انشأ الرهبانية "بريمونتريه"، وأسس اديارا كثيرة. ثم اقيم اسقفا في المانيا. كان من رواد الحياة المسيحية، ومن العاملين على اصلاح الكنيسة، ونشر الانجيل بين الشعوب المجاورة.

13حزيران: القديس انطونيوس البادوي العجائبي، الكاهن ومعلم الكنيسة (1195–1231):

وُلد في لشبونة، في اواخر القرن الثاني عشر، وتوفي في بادوفا سنة 1231. انتمى الى الرهبانية الفرنسيسكانية، الى جانب مؤسسها، من أجل ان يتمكن من الذهاب الى افريقيا وتبشير شعوبها. لكن نشاطه امتد الى فرنسا وايطاليا. وكان عظيما بفضائله ومواهبه وعجائبه. وهو اول من علّم اللاهوت في رهبانيته. وكتب من المواعظ ما كان على جانب كبير من العمق التعليمي. أُعلنت قداسته في السنة التالية لوفاته، واخذ تكريمه منذ ذلك الحين في الانتشار.

4: تموز: القديسة اليصابات، ملكة البرتغال (1271–1336)

تزوجت ملك البرتغال، فرزقت منه ولدا وبنتا. تألمت في حياتها الزوجية كثيرا. وصلّت كثيرا، وصامت، وقامت بالكثير من اعمال المحبة المسيحية، وعملت على نشر السلام. وعند ترملها، دخلت الرهبانية الثالثة الفرنسيسية.

13 تموز: هنري الملك (973–1024)

هو هنري الثاني امبراطور الغرب. عاش وزوجته حياة قريبة من حياة الرهبان. اهتم بواجباته الزمنية كثيرا، وعمل على اصلاح الكنيسة ونشر الايمان. وانشأ ابرشيات عديدة في البلاد، ووهب للكنائس والاديار اوقافا كثيرة.

15 تموز: القديس بونافنتورا، الاسقف ومعلم الكنيسة (1218–1274)

درس الفلسفة واللاهوت في باريس. فكان لاهوتيا بارعا. علّم الفلسفة واللاهوت اخوته في الرهبنة الفرنسيسكانية. ثم عُيّن رئيسا عاما عليهم. فساسهم بفطنة وحكمة، الى ان صار كردينالا. له مؤلفات كثيرة في اللاهوت. ومن كتبه: "مسيرة النفس الى الله" و "سيرة القديس فرنسيس الاسيزي".

8 اب: القديس عبد الاحد (دومينيك)، الكاهن (1170–1221)

وُلد في اسبانيا، ورسم كاهنا. جمع من حوله بعض النساء تحت نظام حياة معين. انشأ في طولوز رهبانية الواعظين أي الدومنيكيين، لمقاومة بدعة الالبيجيين. واراد ابناءه في الرهبانية ان يكونوا متسولين، وان يتغذى كلامهم بالتأمل. وجعل مقر رهبانيته في روما.

11 آب – القديسة كلارا الاسيزية البتول (1193– 1253)

وُلدت في اسيزي. وكان لها من العمر 18 سنة، عندما سألت القديس فرنسيس ان تشاطره حياته. فاسكنها بيتا متداعيا قريبا من كنيسة القديس دميانس، عند مدخل المدينة. فلحقتها اختها اغنس وبعض الفتيات، ليعشن معها حياة الفقر الشديد والمحبة والتقوى. فكنّ اولى الراهبات الفرنسيسيات (الكلاريس).

16 آب: القديس اسطفانس، ملك المجر (969–1038)

وُلد في المجر. قَبل سر العماد، ثم نُصب ملكا على المجر عام 1000. فحكم البلاد بالعدل والتقوى والسلام، مراعيا شريعة الكنيسة على اوفى الوجوه، وساعيا وراء خير الرعية. انشأ الاسقفيات العديدة، وعمل على ازدهار الحياة الكنيسة، وبنى عددا من المزارات التي اقبل عليها الشعب المجري بحب كبير.

20 آب: القديس برناردس، رئيس الدير ومعلم الكنيسة (1090–1153)

وُلد في فرنسا، ونشأ على التقوى. التحق رهبانية سيتو. ثم صار رئيسا لدير كليرفو. كان مستشارا للبابوات والملوك. كان مغرما بالعزلة، لانها وسيلته الى التوبة والصلاة والتعمق في سر الله، ورجل عمل لا مثيل له، ورجل صلاة عنده حب الله فوق كل شيء. جدد الاديار، ونشر في اوروبا السلام، وله مؤلفات كثيرة في اللاهوت والتصوف ومواعظ عن العذراء.

25 آب: القديس لويس ملك فرنسا (1214–1270)

هو لويس التاسع ملك فرنسا. كان في حياته المسيحية مثال الانسان العلماني الملتزم بمبادىء الانجيل. كان زوجا حنونا، ووالدا غيورا على تربية اولاده الاحد عشر على الحياة المسيحية، وملكا محبا للعدل والسلام، يعيش ايمانه المسيحي يوما فيوما، على التواضع والوداعة والصلاة وخدمة الفقراء. ومات بالقرب من تونس.

4 تشرين الاول: القديس فرنسيس الاسيزي (1182–1226)

هو، على ما قال احد البابوات "اقرب صورة الى المسيح". وُلد في اسيزي. اهتدى، بعد شباب طائش، الى المسيح، فترك من اجله كل شيء من دنياه، ليكون كله لله. فاتخذ حياة الفقر عروسا، ليقتفي آثار المسيح، على اوفى الوجوه. دعا الناس الى حب الله، وهو يطفح فرحا وبساطة وحبا للمسيح وشغفا بالكنيسة. جمع من حوله بعض الاتباع، ووضع لهم القواعد التي استوحاها من الانجيل وصادق عليها الكرسي الرسولي. وأنشأ كذلك رهبانية للنساء، و "الرهبانية الثالثة" من العلمانيين التائبين، وكان قد حج الى الاماكن المقدسة. وقد قضى فيها وفي سوريا ومصر الاشهر من 1219–1220. ظل رهبانه يحرسون الاماكن المقدسة حتى سنة 1342، حيث وافق البابا اكليمنض السادس، ببراءة بابوية، على وجود الفرنسيسكان هذا، وعلى ان يكون اولئك حراس الاماكن المقدسة باسم العالم الكاثوليكي.

6 تشرين الاول: القديس برونو، الكاهن (1035–1101)

وُلد في كولونيا. درس في باريس ثم علّم فيها اللاهوت. لكنه مال الى الخلوة. فاعتصم في شارتروز. وهناك انشأ رهبانية الشارتروزيين، ودعوتهم قائمة على العزلة والتأمل والقليل من الحياة الجماعية المشتركة. دعاه البابا اوربانوس الثاني الى روما، وكان له معينا في تلك الازمنة العصيبة.

16 تشرين الاول: القديسة ادفيجس، الراهبة (1174–1243)

كانت من اشراف بولندا، عاشت حياة ايمان. ورُزقت سبعة اولاد. بعد ترملها، دخلت ديرا للراهبات ترأسه ابنتها، وكانت كثيرة الاحسان الى الفقراء والمرضى. وانشأت الكثير من المستشفيات. تألمت في حياتها كثيرا، اذ فقدت من اولادها ستة، وماتت بعد بكرها بقليل.

15 تشرين الثاني: القديس البرتس الكبير، الاسقف ومعلم الكنيسة (1206–1280)

وُلد في بافييرا، على الدانوب. درس في بادوفا وباريس. دخل الرهبانية الدومينيكية، فكان الواعظ البليغ ومعلم عصره. يكفيه فخرا ان كان القديس توما الاكويني من تلامذته. فلما بلغه نبأ وفاته بكاه كثيرا. كتب الكثير في الامور الدينية والمدنية، متبحرا في نواميس الطبيعة، ليكتشف فيها يد الخالق. اقيم اسقفا على راتزبون، فعمل على توطيد السلام بين الشعون والمدن.

16 تشرين الثاني: القديسة مرغريتا، الملكة الاسكتلندية (1046–1093)

وُلدت في المجر، حيث كان والدها منفيا. وتزوجت من ملكوم الثالث ملك اسكتلندا. فانجبت ثمانية اولاد. كانت مثال الوالدة القديسة والملكة، بما طبعت عليه من طيب وحكمة. فعملت كثيرا على النهضة الروحية في شعبها. وماتت بعد زوجها بايام قليلة.

16 تشرين الثاني: القديسة جرترودا، البتول (1256–1302)

كانت راهبة في احدى اديار المانيا، حيث درست الادب والفلسفة. لكن الرب ما عتم ان "اخذها" ورفعها اليه، واقامها بالقرب منه". فامضت الحياة على اتحاد وثيق بالله، واسترسال في الصلاة، وتامل عميق في الكتاب المقدس، ومطالعة كثيرة لآباء الكنيسة. كتبت في اختباراتها الشخصية، وتأملاتها في المسيح على الصليب.

17 تشرين الثاني: القديسة اليصابات، ملكة المجر (1207–1231)

وُلدت في المجر. وتزوجت وهي في الرابعة عشرة من لويس الرابع التورنجي، فانجبت اربعة اولاد، وعاشت مع زوجها حياة صلاة وتأمل في الامور السماوية. مات زوجها وهي حبلى، فآثرت ان تعيش على الفقر. وأنشأت مستشفى، وجعلت تخدم فيه المرضى حتى ماتت قبل اوانها بذلا وعطاء.

قديس مثال للحوار المسيحي الاسلامي

رايموند لل Raymond Lule (1235–1315)

وُلد في جزيرة ماجوركا في سنة 1235. استحق عن جدارة لقب "بطل الحروب الصليبية" لأنه اختط لنفسه خطة جديدة وفريدة في مواجهته للعرب والمسلمين. فلئن كان فرسان الحملات الصليبية، قد تعاملوا مع اهل الشرق بشريعة العين بالعين، وتسلحوا في حربهم بالسيوف والرماح، وجدنا فارسنا الهمام، يتسلح بانجيل المحبة والسماح، اما الميدان الذي اختاره لنفسه، فكان بلدان الشمال الافريقي.

كان النزاع بين المسلمين والمسيحيين، لا من اجل امتلاك الارض المقدسة في فلسطين، بل من اجل السيادة العالمية، وكان نفوذ الاسلام قد بلغ اوجه في القرن الثالث عشر الميلادي، ومنذ القرن الثامن، كان اكثر من نصف بلاد الاندلس، قد خضع للحكم الاسلامي، واكتسح الغزو العربي امامه الكنائس المسيحية في بلدان الشمال الافريقي، واعتنق الاسلام الوف من المسيحيين الاقباط في مصر.

وفي عام 1291، تلقت اوروبا انباء سقوط عكا، وانهيار القوة المسيحية في فلسطين، وكانت افريقيا الشمالية كلها قد دانت للفاتحين. وكانت عوامل الحقد والغيظ تعتمل في صدور كل من المسيحيين الاوروبيين والمسلمين.

في هذا الجو المشحون بشحنات ناسفة من الكراهية والغضب، وتربص كل من الفريقين بالآخر، تسامى "ريموند لل" فوق عصره، وقرر ان يتخطى كل عوائق الكراهية ومرارة النفس، ويتقدم وهو اعزل من كل سلاح، سوى سلاح المحبة والعطف والاخوة الانسانية، يمد يد المحبة، نحو من حسبتهم اوروبا في ذلك الوقت اعدى اعداء المسيحية. ولا شك في ان هذه الخطوة كانت تتطلب شجاعة فائقة، اذ كيف يجرؤ شخص اعزل، على التفكير في اقتحام امنع حصون العالم الاسلامي في افريقيا في ذلك العصر.

لم يكن متهورا ولا مندفعا كما قد يتراءى للبعض، لكنه كان يعلم جيدا ما هو مقدم عليه، وكان يعرف تماما من هم العرب، الذين سوف يواجههم في افريقيا الشمالية. فقرر ان يعد نفسه اعدادا يؤهله للقيام بمهمته خير قيام، اذ كان قد احس ان الامر يتطلب رجلا مدرب العقل، مروض العاطفة، له غيرة قوية، حتى يتسنى له لقاء المسلمين في ميدان الفكر، الذي كانوا يمسكون بزمامه في تلك الفترة من الزمان. وقد اعد نفسه اعدادا وافيا لعلمه، باتقانه اللغة العربية، ودراسة الفلسفة المسيحية وعلوم الجغرافيا التي كان العرب يضربون فيها بسهم وافر.

وكان "ريموند" قد سمع في كنيسة الفرنسيسكان الصغيرة في بالما، قصة "فرنسيس الاسيزي"، والمغامرة التي قام بها من اجل المسيح، وبينما كان يصغي الى تلك القصة، قرر "ريموند" ان يحذو حذو "فرنسيس"، في عالم التجرد، عالم السلام والمحبة والاخوة، لكسب قلوب العرب والمسلمين، وكان قد رأى فرسانا كثيرين يذهبون الى الاراضي المقدسة في

فلسطين، حاسبين انهم قادرون على تحريرها بقوة السيف، لكنهم اخيرا كانوا يهلكون قبل تحقيق اهدافهم، فاقتنع تمام الاقتناع بان غزو الاراضي المقدسة لن ينجح الا بالطريقة التي اتبعها المسيح ورسله، طريق المحبة والتضحية.

قرر ريموند ان يتعلم قبل كل شيء اللغة العربية، ليعرف كيف يتفاهم مع العرب، ويدرس عاداتهم واخلاقهم واساليب حياتهم، ويقرأ القرآن وكتب الحديث. ولهذا الغرض استأجر لنفسه دارا كبيرة في "بالما" واكب على دراسة الكتب الخطية تحت اشراف عبد عربي اشتراه لكي يعاونه في دراساته، وظل على هذه الحال تسع سنوات، يناضل مع اللغة العربية، في صبر ومثابرة، حتى ملك ناصيتها وتمكن منها ومن فنونها.

سافر "ريموند" بعد ذلك الى باريس للدرس والدعاية لمشروعه وبعثته، وليثير حماس الناس لمهمته. كما راح ينتقل كثيرا في عواصم اوروبا الكبرى يدعو الناس لمعاونته في هذه الحملة، ويستميلهم الى هذا النوع الجديد من الجهاد السلمي لكسب العرب.

رحب به اهل جنوه، عندما رأوه يترقب قيام سفينة تمخر به العباب الى افريقيا. وظن اغلب الناس، ان "ريموند لل"، يقوم بمخاطرة غير مأمونة العواقب، بل ان بعضهم اتهمه بالجنون، لأنه قرر الذهاب بمفرده الى ارض الاعداء، لاستمالتهم اليه بنداء المحبة، بدلا من استخدام السيف، وكانت الاغلبية الساحقة — وضمنهم زعماء الكنيسة وقادتها — ترى ان الحرب هي انجع وسيلة.

وبعد ان حجز لنفسه مكانا على احدى السفن، سيطر عليه الخوف والجزع، وغادرت السفينة الميناء بدونه، وبعد ذلك وقع فريسة لنوبات من الخزي وتأنيب الضمير، واستولى عليه شعور طاغ بالندم، لأنه خيب امل سيده فيه.

وبعد قليل عاودته شجاعته، وعندما علم من اصدقائه، ان هناك سفينة توشك ان تبحر الى تونس، عزم على السفر عليها، غير انه اصيب بمرض شديد، عاقه عن السفر هذه المرة ايضا.

وعندما علم بموعد ابحار سفينة ثالثة، صمم على السفر مهما كلفه الأمر، وبعد اقلاع السفينة، صلى وطلب من الله ان يمنحه القوة اللازمة للقيام بمهمته، وقد سجل احساسه بعد ذلك فقال: "من تلك الساعة، اصبحت انسانا جديدا، ولم يعد بي اثر للحمى ولم يروادني مطلقا ادنى احساس بالخوف". وعندما نزل ريموند في تونس، قصد توا الى المسجد الكبير في مدينة تونس، وكان يُعرف بمسجد "شجرة الزيتون"، والى جانب المسجد، وقعت عيناه على علماء ومشايخ ذوي لحى بيضاء، يكبون على دراسة القرآن، ويتباحثون في الاحاديث والسنة النبوية، وقد ادهش اولئك الرجال، ان يروا رجلا غريبا يأخذ مكانه بينهم بغير سابق معرفة. وراح يحدثهم في شؤون الدين بلغة عربية فصحى، ويتعمق في حديثه عن طبيعة الله وذاته وصفاته، ويقارعهم حجة بحجة ودليل بدليل. فالقوا عليه الايادي، واخذوه الى السلطان قائلين انه انسان غريب خطر الشأن.

فأمر السلطان بالقبض عليه، وطرحه في سجن مظلم. غير ان شيخا كريما من شيوخ المسلمين، ممن اعجبوا بفصاحة الرجل واخلاقه واقواله، توسط له لدى السلطان، وطلب اطلاق سراحه. وفعلا قرر السلطان ترحيله من البلاد، وبعد اخراجه من السجن، اخذوه في حراسة مجموعة من الجند الى الميناء، ووضعوه على ظهر السفينة التي كانت قد جاءت به، وكانت على وشك الابحار الى جنوه، وقدم اليه الجنود تحذيرا من العودة الى تونس، حتى لا يعرض ذاته للرجم بالحجارة.

لكن الرجل الذي تردد مرة قبل الابحار من جنوة، وجد في نفسه الجرأة على الهرب من السفينة، والعودة مرة اخرى، الى نفر قليل من الذين كانوا قد احبوه واكرموه سرا. وهناك بقي شهورا قليلة، مختفيا بين ارصفة الميناء، يقوم بخدمته في محبة كاملة. وبعد ان قام متخفيا بكل ما يستطيع انسان ان يعمله، عاد الى ايطاليا، وراح يحرض الناس هناك، على التقرب الى العالم الاسلامي.

وظل "ريموند لل" سنوات طوالا، يتنقل بين المدن والموانىء الواقعة على الشواطىء الافريقية للبحر المتوسط. فتحمل العديد من الاخطار، التي كان يتعرض لها المسافرون في تلك الايام، بايدي القراصنة في البحار، وفي الغابات المظلمة، التي يكمن فيها اللصوص والوحوش الضارية.

وفي الثمانين من عمره، قام بمغامرته الاخيرة، وسافر الى ميناء صغير في غرب تونس، كان قد زاره من قبل، وكان له فيها اصدقاء واتباع. وبعد ما قضى بضعة شهور في بيت صديق له آواه واخفاه، وسهل له القيام بخدمته سرا،

احس ريموند انه قد آن الاوان، لكي يجاهد علانية، ويذيع جهرا، الرسالة التي كان ينادي بها في السر، ولو دفع حياته ثمنا لذلك.

وفجأة سمعت الجموع صوتا يتصاعد من وسط ضجة سوق البلدة، وكان ذلك الصوت، هو صوت "ريموند"، الذي كان الآن قد صار شيخا حطمته السنون، وراح يدعو الناس الى محبة الله، فاحاط به جمهور من الناس، وهجم عليه بعضهم، واخرجوه بالقوة الى خارج السوق، واخذوه الى ساحة خارج البلدة، حيث رجموه بالحجارة، ونال اكليل الشهادة.

ولئن كانت خاتمة "ريموند" قد اصطبغت بهذه الصبغة المأساوية الا انه حقق من النجاح اكثر مما كان يفكر، لأنه بشجاعته ومحبته، فتح عيون اهل اوروبا في ذلك العصر، على اسلوب جديد، هو اسلوب المحبة والمسالمة، وهذا هو اقوم السبل لكسب من تحسبه عدوك، وانك بالحب، يمكنك ان تحقق ما تعجز عن تحقيقه بالحرب. (من كتاب "تاريخ المسيحية: المسيحية في العصور الوسطى" جزء 2، تأليف جاد المنفلوطي، ص. 124-130).

الفصل الثالث والثلاثون

البابوية من القرن الثاني عشر وحتى الثالث عشر

مقدمة

وضعت معاهدة ورمز Worms حدا للنزاع بين السلطة الزمنية والكهنوت او ما عُرف بحرب التقليد investiture. ستدوم هذه المدة من السلام ما يقارب الخمس والثلاثين سنة 1122-1157. الا ان الطرفين خرجا ضعيفين من هذا الصراع. فقد اضطر كل طرف الى عمل التنازلات وإعطاء الامتيازات للاشراف والاسياد والاقطاعيين لكسب ولائهم وتأييدهم. وتبيّن لاحقا ان هؤلاء غير مستعدين للتضحية بهذه التنازلات والامتيازات. وهكذا بينما تخلصت البابوية من نير الامبراطور، رأت نفسها تقع في ايدي فئات العائلات الرومانية الشريفة المتنازعة والمتنافسة.

تزامن انحطاط الامبراطورية الذي بدأ مع موت هنري الخامس، مع ذروة الازدهار التي بلغتها الكنيسة. ففي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حاول الباباوات ان يقوموا بدور الحكم في اوروبا، فدافعوا عن حقوق الامم والبلدان بوجه مزاعم الامبراطور ومطامحه في جمع السلطتين السياسية والبابوية.

بدأت الأسر الرومانية النبيلة والقوية باستخدام نفوذها للتأثير على انتخاب البابوات وعلى مواقفهم السياسية، مما سيؤدي الى ظهور ما يُدعى ب"البابا المضاد".

أ) البابوية من هونوريوس الثاني الى اربانوس الرابع 1124-1154

1- البابا هونوريوس الثاني (1124-1130)

عندما توفي البابا كليستوس الثاني (13 كانون اول 1124)، كانت العائلتان الكبيرتان المتنافستان هما عائلة فرنجيباني Frangipani، وعائلة بيرليوني Pierleoni؛ كانت الاولى تميل الى مهادنة سياسة الامبراطور الالماني، بينما كانت الثانية تميل الى الاتجاه الشعبي نحو حكومة قومية. وكانت كل واحدة تدّعي فرض مرشحها للبابوية؛ فبينما رشحت عائلة فرنجيباني الكردينال لامبير دوستي Lambert d'Ostie، كان الكردينال ساكسو Saxo مرشح عائلة بيرليوني.

أَبعد الكرادلة كلاً من المرشحين، واختاروا الكردينال تيوبولد Theobald، واتخذ اسم البابا شليستينوس الثاني. وكان الكرادلة يأملون بذلك تجنب الانشقاق في الكنيسة وانتخاب بابا مضاد. ولكن في الوقت الذي اخذ الكرادلة ينشدون نشيد "اللهم نمدحك" لاعلان البابا الجديد، قامت عائلة فرنجيباني باختار بابا اخر في شخص الكردينال لامبير دوستي، الذي رفض ان يلعب لعبة العائلات المتنافسة، وان يكون بابا غير قانوني. واخيرا بعد خمسة ايام من الفوضى، تنازل البابا شليستينوس الثاني، واتفق الجميع على انتخاب الكردينال لامبير دوستي الذي قَبِل، واتخذ اسم البابا هونوريوس الثاني.

حبرية البابا هونوريوس الثاني (1124-1130)

وُلد البابا هونوريوس الثاني Lambert Scannabecchi في مدينة فيانيانو Fiagnano، قرب ايمولا، في ايطاليا، من عائلة مزارعين متواضعة، ووصل بقواه الذاتية، الى اعلى الدرجات. كان تقيا ومثقفا، كما كان مستشارا للبابا كليستوس الثاني، ودبلوماسيا ومفوضا ماهرا، ومساهما في ابرام معاهدة ورمس. وبرهن خلال حبريته الكثير من الحكمة والمهارة والقوة المعتدلة. دامت حرية هونوريوس الثاني خمس سنين وشهرين. اعقب انتخابه المضطرب فترة من الهدوء، وان كان تحت رقابة عائلة فرنجيباني.

حاول البابا هونوريوس، في الوضع الذي كان فيه، ان يقوي موقع الكنيسة، وعلى تشجيع عملية الاصلاح في الكنيسة. الا انه وجه اكثر جهده الى المشاكل الخارجية، تاركا القضايا الداخلية لوقت لاحق.

بسبب الاضطراب والفوضى التي كانت منتشرة في روما بسبب صراع العائلات الرومانية المتنافسة، التجىء هونوريوس الى دير القديس اندراوس، حيث توفي في 14 شباط سنة 1130، ودُفن في مقبرة الدير، ثم نُقل جثمانه سرا الى بازليكا اللتران بعد انتخاب خليفته.

2- حبرية البابا انوسنت الثاني 1130-1243، وانشقاق انكليتوس الثاني 1130-1138

مات البابا هونوريوس في 14 شباط 1130، وتجنبا للقلاقل والاضطرابات التي كان الكرادلة يتوقعوها بسبب اطماع العائلات الرومانية المتنافسة فرنيباني وبيرليوني، وكولونا Colonna، واورسيني Orsini، اجتمع اربعة عشرة كردينالا (او ستة عشر)، اربعة منهم كرادلة-اساقفة، وقَبل ان ينتشر خبر موت البابا هونوريوس، انتخبوا الكردينال الشماس، غريغوريوس بابارسكي Grégoire Papareschi، الذي اتخذ اسم انوسنت الثاني.

اجتمع بعد ظهر نفس اليوم، الكرادلة الاخرون، وعددهم عشرون او اربعة وعشرون، وانتخبوا تحت اسم انكليتوس الثاني، الكردينال-الكاهن، بيرليوني. وتم تتويج الاثنين في يوم 23 شباط 1130، انوسنت الثاني في كنيسة مريم الجديدة، وانكليتوس في بازليكا القديس بطرس.

اتضح سريعا لانوسنت الثاني بعد انتخابه، ان غالبية الأسر النبيلة التي تم شراؤها بالنقود من قِبَل عائلة بيرليوني، لم تكن في صفه، فالتجىء الى دير بلاديوم تحت حماية عائلة فرنجيباني. ولما انضمت هذه العائلة الى انصار انكليتوس، التجىء الى قصر في قلعة الترانستفيره Transtevere تعود الى عائلته.

كان انوسنت الثاني مقتنعا بانه هو البابا القانوني، وبما ان الحل لن يأتي من روما، التجىء الى حكم الكنيسة الجامعة، التي طلب حكمها. وبما انه لم يكن في أمان في ايطاليا، قرر الذهاب الى فرنسا، كما فعل عدة باباوات من اسلافه. فوصل اليها البابا في 11 ايلول 1130، في الوقت الذي اعلن مجمع Etampes الذي انعقد في فرنسا لدرس هذه القضية، تأييده لانوسنت الثاني.

رأى مجمع Etampes ان المتنافسين يدّاعيان انه تم انتخابهم من قِبَل الاكثرية، وكان هذا صحيحا من وجهة نظر كل واحد منهما. فانكليتوس ادّعى انه حصل على اصوات اكثرية الكرادلة، بينما ادّعى انوسنت انه حصل على اربعة اصوات من ستة اصوات لها حق الانتخاب، اي الكرادلة-الاساقفة. ومن جهة ثانية فانوسنت تم انتخابه الاول، وحسب القوانين يكون البابا الشرعي الوحيد، ما لم يتم اثبات عكس ذلك.

للخروج من المأزق، أُقترح، اما القيام بتحقيق، او بابعاد الاثنين، والعمل على اجراء انتخاب جديد. الا ان الاقتراحين لم يكونا يخليان من المخاطر بسبب حالة البلاد المضطربة. قرر مجمع Etampes، اللجوء الى رئيس دير كليرفو، القديس برنارد، واتخاذه حكما. قَبِل القديس برنارد. وبما ان نقطة الاكثرية فيها نوع من الغموض، فقد نقل القضية الى ارضية ثانية، وهي ارضية "القيمة الشخصية" la valeur personnelle، لكل من المدّعيين. واقترح اختيار من هو الاكثر استحقاقا، واكثر ضمانا. واتفق الجميع على ان انوسنت هو الافضل، اذ كان ذا سمعة نزيهة، بينما كان منافسه تدور حوله في فرنسا وايطاليا اشاعات غير اخلاقية، ليست في صالحه. فصدّق المجمع والملك على حكم برنارد وايدوا انتخاب البابا انوسنت الثاني.

بعد ان مكث انوسنت بعضا من الوقت في دير كلوني انتقل الى كليرمونت، حيث رَئِس مجمعا في 18 تشرين الثاني 1130، وهناك عَلِم بواسطة سفراء لوثير الثاني، ان مجمعا عُقد في المانيا بأمر الملك، اعلن تأييده له، على نفس مبدأ مجمع Etampes.

وصل البابا انوسنت الثاني في 13 كانون ثاني 1130، الى شارتر، والتقى بملك انكلترا، هنري الاول، الذي قدم تأييده الى البابا انوسنت. وهكذا على أثر كنيسة فرنسا، اعترفت كنائس المانيا وانكلترا بالبابا انوسنت الثاني بابا شرعيا؛ وأُعتبر انتخابه الذي تم بصورة غير قانونية، قد تم تصحيحه باجماع الكنيسة الكاثوليكية. ولم يبقى للبابا المضاد، الا ملك النورمان روجر الثاني ملك صقلية، المحروم، ودوق اكيتين Duc d'Aquitaine، تحت تأثير الاسقف جيرارد دانكوليم، المبعوث البابوي السابق، الذي استغنى انوسنت الثاني عن خدماته وعزله.

طلب البابا من لوثير الثاني، ملك المانيا، ان يقوم بحملة على ايطاليا (1132-1133)، أدت الى اعادة انوسنت الثاني الى روما، ولكن ليس الى كنيسة القديس بطرس، حيث كان منافسه انكليتوس يقيم. وفي روما توج البابا لوثير الثاني امبراطورا في كنيسة اللتران. وطلب لوثير من البابا اعادة حق الامبراطور في التقليد الكهنوتي، على مثال الملوك اسلافه، الا انه امام الاعتراضات التي اثارها برنارد والاساقفة الالمان، تراجع لوثير عن طلبه هذا.

نهاية الانشقاق (1139)

ترك لوثير ايطاليا قبل حلول الصيف، خوفا من الحر الشديد، وعاد الى المانيا، دون ان يتم حل قضية انكليتوس الثاني، اذ اقام البابا انوسنت الثاني في اللتران، بينما استمر انكليتوس مقيما في كنيسة القديس بطرس. فرأى انوسنت في هذه الحالة، انه من الافضل له ان يبتعد عن روما، ليتجنب حربا اهلية. فانتقل الى بيزا، ليجعل منها مقاما له حتى يستعيد روما. وعاد القديس برنارد الى فرنسا لكسب تأييد من تبقى من مؤيدي انكليتوس. ثم ذهب الى المانيا، لتهدئة الخواطر هناك واعادة السلام فيها بين الاطراف المتنازعة، كي يتسنى للامبراطور لوثير الثاني، القيام بحملة ثانية على ايطاليا لاعادة النظام اليها. فنجح في التوفيق بين الاطراف.

وفي سنة 1137 استطاع الامبراطور لوثير الثاني ان يدخل روما ثانية ويحتلها. الا ان موت انكليتوس بعد ذلك بقليل، في كانون الثاني 1138، لم يحل الأزمة. فما ان غادر لوثير روما حتى قام مؤيدو انكليتوس باختيار خليفة في شخص الكردينال غريغوريوس باسم فكتور الرابع، الا انه لحسن الحظ كان هذا لوقت قصير. فبفضل تدخل برنارد اعتزل وخضع البابا المضاد للبابا انوسنت.

مجمع اللتران الثاني والمسكوني العاشر

في نهاية عام 1138، وعلى أثر انتهاء الانشقاق، فكر انوسنت القضاء الكامل على ما تبقى من الانشقاق بعقد مجمع في اللتران في 4 نيسان 1139. حضر هذا المجمع بين خمسمئة الى الف من رجال الدين.

اصدر هذا المجمع ثلاثين قانونا، مجددا القوانين القديمة ضد السيمونية، وزواج الكهنة والاكليروس والرهبان والراهبات، وضد غيرها من المساوىء، مثل غنى وترف رجال الاكليروس. وقرر المجمع ايضا ان الرسامات التي قام بها البابا المضاد انكليتوس الثاني وغيره من المنشقين والهراطقة هي باطلة. كما وأُدينت في هذا المجمع ضلالات بيير دي برايس Pierre de Bruys وارنولد دي بريشيا Arnould de Brescia؛ وتم حرم روجر الثاني ملك صقلية حامي الانشقاق.

السنوات الاخيرة لحبرية انوسنت الثاني (1139-1143)

ما ان اختتم مجمع اللتران اعماله، حتى عَلِم انوسنت الثاني ان عدوه الملك روجر الثاني قد عاد واحتل جزءا من الولايات البابوية. فجهز البابا حملة عسكرية للدفاع عن حقوق البابوية. ولكن لسوء الحظ انهزم جيشه امام روجر الثاني، وأُسر البابا نفسه. واضطر انوسنت لاستعادة حريته بالاستجابة الى كل مطالب المنتصر. فوقع في 25 تموز 1139 على معاهدة منيانو Miniano، ورفع الحرم عن روجر الثاني، واعترف به بلقب ملك صقلية. والتزم الملك مقابل ذلك بدفع ضريبة سنوية من المال.

عاد انوسنت الثاني الى روما بعد تحريره، الا انه كان بانتظاره مشاكل كبيرة. وكانت نهاية حبريته نهاية مضطربة، قامت فيها الثورة في روما بزعامة ارنولد دي بريشيا. وستفتح هذه الثورة صراعا سيدوم اربعين سنة. مات انوسنت الثاني في 24 ايول 1143 دون ان يستطيع ان يوقف هذه الحركة التمردية.

3- حبرية البابا شلستينوس الثاني 27 ايلول 1143 – 8 اذار 1144

ثلاثة ايام بعد موت انوسنت الثاني، أُنتخب الكردينال–الكاهن غي دي كاستللو Guy de Castello بابا في 27 ايلول 1143 باسم شلستينوس الثاني. كان هذا الاختيار موقفا، اذ اتصف هذا البابا، التلميذ السابق لابيلارد، بعلم غزير وحب للمصالحة. وكانت هذه الصفات ضرورية في وقت تعرض فيه الكرسي الرسولي الى كثير من المشاكل والافكار الثورية. الا ان ملكه كان قصيرا، لم يتسنى له ان ينجز شيئا، اذ مات في 8 اذار 1144، بعد خمسة اشهر من حبريته.

4– حبرية البابا لوشيوس الثاني Lucius، 12 اذار 1144 – 15 شباط 1145

انتخب الكرادلة، بعد اربعة ايام من موت البابا شلستينوس الثاني، الكاردينال–الكاهن، جيرارد كاشيانيمشي Gerardo Caccianemici، واتخذ اسم لوشيوس الثاني. وتابع هذا البابا سياسة سلفه التصالحية. فدخل في تفاوض مع ملك صقلية روجر الثاني، الذي اظهر رغبته في البدء في الرجوع عن الشروط التي فرضها على البابا انوسنت الثاني، في معاهدة منيانو، الا انه عاد وغير موقفه، وهاجم الولايات البابوية. وامام عجز البابا عن المقاومة، اضطر الى طلب هدنة.

تعرض هذا البابا بالرغم من مهارته السياسية الى عدة انتكاسات في سياسته. ففي حبريته وصلت الأزمة الداخلية التي تعرضت لها سلطة البابوية الزمنية، بتمرد اهل روما، تحت حبرية انوسنت الثاني وشلستينوس الثاني، الى ذروتها. فعدم نجاح سياسة البابا في صقلية، شجعت اهل روما في مواصلة حركتهم الثورية.

وذهب الرومانيون، تحت تأثير افكار ارنولد دي بريشيا، وادّعوا ان الكنيسة لكي تتطهر، عليها ان تعود الى فقر الكنيسة في القرون الاولى، وان تكتفي لمعيشتها بتقادم المؤمنين، وعرضوا على البابا ان يتنازل عن سلطته الزمنية، وعن كل حقوقه الى رئيس مجلس الشيوخ.

رفض البابا لوشيوس هذه المطالب رفضا قاطعا. واستعد للقتال، والتجيء الى ملك المانيا، وتواسط القديس برنارد للبابا، وكتب لكونراد ليشجعه على مساندة الكرسي الرسولي ضد الغاصبين. الا ان كونراد الذي لم يتوج بعد امبراطورا، كان يريد ذلك، الا ان الظروف الداخلية في المانيا منعته من القيام بذلك. ولما رأى البابا انه لا يستطيع الاعتماد على كونراد، جهز جيشا بابويا حاصر به مبنى الكابيتول، مقر مجلس الشيوخ. الا ان جيش البابا ارتد امام هجمات الرومانيين، واصيب البابا نفسه برصاصة اثناء تشجيعه لجنوده. ومات البابا لوشيوس بعد عدة ايام جراء اصابته، في 15 شباط 1145، ولم يملك سوى احد عشر شهرا.

5– حبرية البابا اوجينيوس الثالث Eugène 1145– 1153

اجتمع الكرادلة في اليوم نفسه لموت البابا لوشيوس الثاني، وانتخبوا بالاجماع، تحت اسم اوجينيوس الثالث، رئيس دير Saint-Paul-Trois-Fontaines، وكان هذا تلميذا سابقا للقديس برناردس، ادار ديره بحكمة وعزم.

اراد الكرادلة يهذا الانتخاب السريع، تجنب بكل ثمن، انتخاب بابا مضادا، الذي من شأنه ان يكون كارثة، في وقت كانت فيه السلطة الزمنية في روما بايدي المتمردين.

طلب مجلس الشيوخ من البابا الجديد مصادقته على الحقوق التي اغتصبوها لانفسهم. اجاب البابا بانه سيحرم كل من يحاول الطعن في انتخابه. وخوفا من ثورة شعبية، ترك روما سرا، وانتقل مع الكرادلة الى دير فارفا Farfa، حيث تم هناك تتويجه بابا في 18 شباط 1145. انتقل بعدها الى فيتربو حيث بقي فيها تسعة اشهر، قام خلالها وبالاتفاق مع معلمه القديس برنارد باعداد برنامج حبريته، الذي يمكن تلخيصه بالنقاط التالية:

– الصراع ضد المتمردين في روما؛ – اعادة الحملات الصليبية؛ – متابعة الاصلاح الكنسي؛ – الدفاع عن العقيدة القويمة ضد التعاليم الهرطوقية؛ – تشجيع العلوم الكنسية.

كان الصراع ضد المتمردين من اهم المهام. فمنذ خروجه من روما، عمت الفوضى فيها، وقام مجلس الشيوخ بطرد محافظ روما، الذي كان يمارس السلطة باسم البابا. واعتقد الشعب ان كل شيء مباحا، فهجم على قصور الاغنياء والنبلاء، وبيوت الكرادلة والاكليروس ونهبوها. ولم يسلم من ذلك حتى الكنائس ومنها كنيسة القديس بطرس، مما اثار

نقمة هذه الفئات ومؤيدي الحفاظ على النظام، ومن تبقى من مؤيدي البابا. وحاول القديس برنارد برسائله اثارة حماس كل معارضي النظام الجديد في روما، كما واصدر البابا حرمانا ضد مجلس الشيوخ.

امام هذه الظروف، اقترح مجلس الشيوخ على البابا الدخول في مفاوضات. وتم الاتفاق على اعادة السلطة الزمنية الكاملة للبابا، واعادة محافظ المدينة، والغاء منصب رئيس مجلس الشيوخ. وقَبِل البابا المحافظة على مجلس الشيوخ، على ان يتم انتخابه من قبل الشعب، والحصول على تصديق البابا.

غادر البابا فيتربو، بعد هذا الاتفاق في 20 كانون الاول 1145، ودخل روما واستقبله الشعب بمظاهر الفرح والبهجة، زادها ما وزعه البابا من اموال وعطايا كما كانت العادة عند تتويج البابا.

وكان ارنولد دي بريشيا، قد عاد الى روما قبل وقت قليل من عودة البابا. فقد التقى ارنولد البابا في فيتربو، وطلب من البابا العفو. فمنحه البابا العفو، وفرض عليه اعمال التوبة المعتادة: الصيام، والصلوات، والحج الى كنائس روما الرئيسية، قَبِلَها ارنولد بكل تواضع وعاد الى روما. الا ان توبته، وان كانت صادقة، لم تكن عميقة، وقصيرة الامد. فاستيقظت فيه روح الثورة من جديد، وعاد الى مضايقة الاكليروس، وهاجم شخص البابا، الذي وصفه بانه مشغول "بتسمين نفسه، وتعبئة محفظته" بدل الاهتمام بواجباته الرسولية. وعارض من جديد شرعية السلطة الزمنية للبابوية، وادّعى ان البابا لا يستحق الاحترام والطاعة من اتباعه. واهاب بالرومان، وهو واقف على اخربة المدينة، ان ينبذوا حكم رجال الدين، ويعيدوا الجمهورية الرومانية.

افتتن الشعب بحماسه، فثار وتمرد من جديد، واختار له قناصل وحكام، واقام هيئة من الفرسان ليكونوا قادة في جيش اقليمي للدفاع عن الجمهورية. وسكر اتباع ارنولد بخمرة هذا النصر، فلم يكتفوا بنبذ سلطة الباباوات الزمنية، بل نبذوا ايضا سلطة اباطرة الدولة الرومانية الشرقية الالمانية في ايطاليا. ثم ذهبوا الى ابعد من هذا، فقالوا ان الجمهورية الرومانية يجب الا تحكم ايطاليا وحدها، بل ان تحكم العالم، كما كانت تحكمه في الزمن القديم. واعادوا بناء الكابيتول، واستولوا على كنيسة القديس بطرس، واحالوها الى قلعة، واستولوا على الفاتيكان، وفرضوا الضرائب على الحجاج. وعاد ارنولد مرة ثانية، ولمدة عشر سنين سيدا لمدينة روما.

رأى البابا اوجينيوس امام هذا الوضع المتأزم، انه من الافضل مغادرة روما، فتركها من جديد سنة 1146، وانتقل الى فيتربو وبيزا. وفي بداية عام 1147، ذهب البابا الى فرنسا، حيث عقد مجمعا في باريس، ومنها انتقل الى المانيا، ولم يعد الى روما الا في تشرين ثاني عام 1149، بعد ان خضع اهل روما له، واحتفل بعيد الميلاد في كنيسة اللتران. الا انه اضطر مرة ثالثة، لمغادرة روما عام 1150، اثر تمرد ثالث.

وتوفى البابا اوجينيوس في تيفولى، خارج روما، في 8 تموز 1153، دون ان يستطيع ان يقضي على التمرد في روما.

6- حبرية البابا انستاسيوس الرابع (12 تموز 1153- 3كانون اول 1154).

انتخب مجلس الكرادلة، في 12 تموز 1153، الكردينال-الاسقف كونراد دي سوبروا Conrad de Suburra، بابا، باسم انستاسيوس الرابع. وكان هذا عند انتخابه طاعنا في السن. اراد الملك فردريك، ان يستغل ضعف هذا البابا، وحاول اعادة الحكم الالماني الى ايطاليا، بعد ان طردهم منها النورمان. بحجة رغبته في ان يُتوج امبراطورا في روما، جهز حملة ضد ايطاليا، بدأت في تشرين اول 1154، الا ان وصل الى ايطاليا، حتى جاءه نبأ وفاة البابا، الذي توفيّ في 3 كانون اول 1154، بعد سبعة عشرا شهرا من حبريته.

ب- الفترة الثانية من صراع الامبراطورية والكهنوت

البابوية والامبراطورية من البابا ادريانوس الرابع الى البابا انوسنت الثالث 1154-1198

حالة المانيا قبل مجيء فردريك بربا روسا

اسس كونراد الثالث اسرة هوهنشتاوفن الصوابية، اقوى اسرة ملكية في تاريخ المانيا، بعد ان انتهت الاسرة الفرنكونية بموت هنري الخامس. الا ان مُلك كونراد كان حافلا بالصراع الدائم بين الحزبين المتنافسين: حزب الولف Welfs البافاريين، وحزب الجلف Guelfes او Gibelins، انصار عائلة هوهنشتاوفن.

. وتقول احدى الروايات القديمة، انه لما Weisbergحاصر جيش آل هوهنشتاوفن البافاريين في بلدة ويزبرج قِبل حزب الولف المنهزمين استسلام المدينة على ان يؤمّن النساء وحدهن من القتل، وان يسمح لهن بمغادرتها ومعهن كل ما يستطعن حمله، خرجت النساء القويات الاجسام وهن يحملن ازواجهن على ظهورهن. وعُقدت هدنة في عام 1142، حين خرج كونراد للحرب الصليبية، ولكن كونراد اخفق في غرضه وعاد يجلله العار. وخيل الى الناس ان بيت هوهنشتاوفن قد تلطخ اسمه بالعار، حين جلس على العرش اعظم رجل من رجال هذه الاسرة، فردريك الاول.

فردريك الاول بربا روسا 1152–1190

كان فردريك الأول في سن الثلاثين حين اختير ملكا. ولم يكن رجلا مهيب الطلعة، فقد كان قصير القامة، ابيض البشرة، اصفر الشعر، ذا لحية حمراء اكسبته في ايطاليا اسم بربا روسا Barbarossa، ولكنه كان ذا عقل صاف وعزيمة ماضية؛ وقضى حياته في العمل لخير الدولة، واعاد المانيا الى زعامة العالم المسيحي، وان كان قد مُني بكثير من الهزائم. واذ كان يجري في عروقه دم آل هوهنشتاوفن وآل ولف جميعا، فقد نادى بسلم في البلاد، وصالح اعداءه، وهدأ اصدقاءه، وقضى بشدة على المنازعات والاضطرابات، والجرائم، يصفه معاصروه بدماثة الخلق، وباستعداده الدائم للابتسام ابتسامة رقيقة جذابة، وان كان شديد الوطأة، حتى كانت قسوة قوانينه الجنائية عامل في تقدم الحضارة في المانيا. وكان الناس يثنون بحق على حياته الخاصة لما عُرف عنه من تمسكه باهداب العفة والفضيلة، وان كان قد طلق زوجته الاولى لقربها اليه من ناحية العصب، وتزوج بوريثة كونت برغندية، فنال بهذا الزواج مع عروسه مملكة. كما انه كان تقيا ورعا، يحضر القداس الالهي يوميا. وكان يعامل خدامه معاملة حسنة، يعطي الفقراء والجمعيات الرهبانية عُشر دخله. ومع انه كان اندفاعيا وعنيفا في ساعات الغضب، الا انه كان سياسيا محنكا. الا ان اهم ما اتصف به هو طموحه المفرط.

اوحى، هذا الطموح الزائد، لفردريك افكاره السياسية. اراد فردريك، وعلى مثال الامبراطور شارلمان واتون الكبير، استعادة بالكامل للسلطة الامبراطورية، وان يعيد بناء الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة بكل ابهتها وعظمتها. كوريث للقياصرة، اراد ان يمارس السلطات التي منحها الحق الروماني للاباطرة القدماء. والقانون الروماني الموجود في شرائع جستنيان، اعلن ان "كل ما يرغب به الامير يصبح قانونا".

7 – البابا ادريانوس الرابع 1154–1159

في اليوم التالي لموت البابا انستاسيوس الرابع، تمّ انتخاب الكردينال الانكليزي نقولا بركسبير Nicolas Breakspeare باجماع الاصوات تحت اسم البابا ادريانوس الرابع.

وُلد هذا البابا في انكلترا في Herefordshire من عائلة فقيرة. دخل والده في الرهبنة، ولم يعتني بولده الا بتوجيه النصائح له، مما اضطره نقولا الى التسول والاستجداء ليكسب رزقه اليومي. انتقل الى فرنسا، وهناك مر في عدة مراحل من حياته العملية، الى ان وصل الى افنيون، ودخل دير سان ريف كخادم. الا ان همته ونشاطه في العمل، وحيويته وذكائه، لفتت اليه الانظار، فقُبِل في سلك الرهبنة، وبدأ دراسته في اللاهوت. أُنتخب عام 1137 رئيسا للدير، الا ان الاصلاحات التي اراد ادخلها لم تعجب بعض الرهبان، فنشروا حوله الاتهامات والاشاعات. الزمه الدفاع عن نفسه الذهاب الى روما، فلفت نظر البابا اوجينيوس الثالث، فاستبقاه وجعله كردينالا–اسقفا لالبانو Albano.

طلب الرومانيون من البابا ادريانوس، بتأثير من ارنولد دي بريشيا، التخلي عن سلطاته الزمنية. رفض البابا، ودخل في صراع معهم، واصدر حرمانا ضد مدينة روما. ولما اختفت الاحتفالات الدينية وقل عدد الحجاج الى روما، شعر اهل روما وطأة ذلك الحرم على مصالحهم وتجارتهم واعمالهم، اجبروا مجلس الشيوخ على الخضوع للبابا، والتخلي عن ارنولد دي بريشيا ونفيه. فرفع البابا الحرم واحتفل بعيد الفصح (اذار 1155) في كنيسة اللتران، وانتقل من بعدها الى مدينة فيتربو.

فردريك بربا روسا وادريانوس الرابع

بعد ان استطاع فردريك فرض النظام في امور المانيا الداخلية، خرج الى ايطاليا على راس قوة كبيرة من جيشه. وفي بافي Pavie، منحه اللومبارديون تاج الملك، وتابع سيره نحو روما، بعد ان دمر ونهب في طريقه عدة مدن وقفت الى جانب مدينة ميلانو ضده.

كان فردريك يتوق الى ان يتوجه البابا امبراطورا. وكان قد وعد البابا اوجينيوس الثالث ان يساعده على الرومان المتمردين، والنورمان المشاكسين، اذا حقق البابا رغبته. وقَدِم الملك الشاب الفخور الى مدينة سوتري Sutri القريبة من رومة، حيث التقى بالبابا ادريانوس الرابع البابا الجديد. اراد فردريك ومنذ اللقاء الاول، ان يظهر استقلاله وسموه على البابوية، فاغفل العادة المتبعة القاضية بأن يمسك الحاكم الزمني زمام جواد البابا وركابه ويساعده على النزول. فنزل ادريانوس الى الارض من غير معونة، وأبى على فردريك "قبلة السلام" وتاج الامبراطورية، الا اذا ادى فردريك هذه العادة. وظل اعوان البابا والملك يومين كاملين يتناقشون في هذه المسألة، ويجعلون تاج الامبراطورية معلقا على اداء المراسيم الشكلية، حتى خضع فردريك اخر الأمر، فانسحب البابا وعاد الى المدينة ممتطيا صهوة جواده، وامسك فردريك بزمام فرس البابا.

استقبل البابا فردريك في 28 حزيران 1155، وتم تتويجه امبراطورا. وما ان عاد فردريك الى مخيمه خارج المدينة، حتى هجم بعض المتمردين على كنيسة القديس بطرس، وفتكوا بمن بقيّ فيها من جنود فردريك؛ فما كان من فردريك الا ان عاد الى المدينة، وقامت معركة عنيفة دامية، انتهت بهزيمة الرومانيين. قبض الامبراطور بعد هذه المعركة على ارنولد دي بريشيا زعيم المتمردين، واسلمه الى حاكم المدينة، الذي شنقه، واحرق جثته، ونثر رمادها في البحر، خوفا من ان يصبح قبره هدف تكريم ومحج تقديس من اتباعه.

بداية الصراع

غادر فردريك بربا روسا ايطاليا، دون ان يقدم للبابا المساعدة ضد النورمانديين. فاثار البابا استياء الامبراطور بعقده معاهدة ولو مكرها مع النورماندي غليوم، ملك صقلية، دون الرجوع الى الامبراطور، كما كان يطلب فردريك، اذا كان يعتبر البابا تابعا له حسب نظريته. واثار الامبراطور استياء البابا، بان اوقف رئيس اساقفة لوند Lund بحجة انه اراد ان يسحب كنائس الشمال من سلطة رئيس الكنيسة الاولى في المانيا، رئيس اساقفة همبرغ Humburg. ولما تأخر الامبراطور في اطلاق سراحه، كتب له البابا رسالة، يتعجب من رد جميل الامبراطور للبابا الذي منحه هدية beneficium التاج الامبراطوري و "استعداده بمنحه هدايا اخرى". وفُسرت كلمة beneficium للامبراطور بمعنى اقطاعية Fief، كان من جرائها ان الامبراطور غضب، وطرد المبعوثين البابويين، ويقال بانه فكر، بفصل كنيسة المانيا عن روما، وجعلها كنيسة مستقلة برئاسته. الا ان البابا ارسل له رسالة اخرى هادئة، اوضح فيها ما عنى بكلمة beneficium.

الا ان التسلط الامبراطوري، سرعان ما ادى الى بدء الصراع المنتظر. ففي رحلته الثانية الى ايطاليا، عام 1158، ليخضع البلاد الثائرة، استدعى الى بلاط رونكاليا Roncaglia، فقهاء القانون، وسره ان يعرف منهم ان القانون الروماني القديم الذي وُجد في امالفي، يجعل من الامبراطور صاحب السلطة المطلقة على جميع اجزاء الامبراطورية والممالك التي فيها، وتخوله حق تعديل الحقوق الشخصية او الغائها، اذ رأى في تعديلها مصلحة الدولة. فاثارت قرارات فردريك الاستبدادية الاساقفة الايطاليين والحبر الروماني. فمن التابعين للبابا، هل سيرضى هؤلاء الاساقفة ان يصبحوا اتباعا للامبراطور يؤدون له قسم الولاء؟ زد على ذلك، ان الامبراطور ادّعى السلطة على كورسكا، احدى ولايات البابا، كما وفرض الضرائب على اراضي الكنيسة. اعترض البابا على هذه الاجراءات، فدعى الامبراطور الى عقد محكمة للتحكيم. رفض البابا ذلك رفضا مطلقا. فعقد الامبراطور اتفاقيات مع عائلات روما المتمردة على حكم البابا، بينما تحالف البابا مع مدن ميلانو وبريشيا وبلايزنس (الحلف او العصبة اللمبارديّة). ولاحت الحرب على الابواب.

ضغط الكرادلة على البابا لكي يحرم الامبراطور، ولكن قبل الاقدام على ذلك، ارسل البابا انذارا اخيرا للامبراطور (24 حزيران 1159). اجاب عليه فردريك برسالة غطرسة، عبر فيها عن ارائه المتطرفة بشأن السلطة الامبراطورية. وعندما وصلت الرسالة الى البابا ادريانوس، كان هذا البابا قد توفي في الاول من ايلول سنة 1159 في انياني، دون ان يقطع العلاقات مع الامبراطور بالحرمان.

8- حبرية البابا اسكندر الثالث 1159-1181

كان انتخاب بابا جديدا، في هذه الظروف الصعبة، موقفا حساسا: ماذا سيفعل الكرادلة؟ قبول تسلط السلطة الامبراطورية، واختيار مرشح الامبراطور، ويعيدوا الوئام والمصالحة بين الكهنوت والامبراطورية؟ او اختيار مرشح اخر، ويستمروا في الصراع القائم؟ بعد مداولات استمرت ثلاثة ايام، استقر الرأي على الاختيار الثاني، واختاروا باكثرية كبيرة، 24 صوتا من 27، الكردينال رولاند باندينللي Roland Bandinelli، واتخذ اسم اسكندر الثالث.

يعود اسكندر الثالث بأصله الى مدينة سيينا Sienne؛ عُيّن كردينالا–كاهنا على كنيسة القديس مرقس عام 1151، ومن ثم امين سر الكنيسة الرومانية عام 1153، وكان الرجل الاكثر كفاءة في ان يقف في وجه مطامع الامبراطور. كان معروفا بثبات طبعه، وصرامة اخلاقه، كما وبعلمه وثقافته الواسعة، وخصوصا في المجال القانوني، جعله قادرا ان يرد على هجوم قانوني الامبراطور، وان يفند اراءهم. مع مثل هذا البابا كان منتظرا ان يستمر ويطول الصراع بين الامبراطور والكهنوت.

بدء هذا الصراع حالا بعد انتخاب البابا، لانه ما عتم ان لبس الكردينال رولاند الثياب الحبرية، حتى هجم عليه مرشح الامبراطور الكاردينال اوكتفياني Octavian Maledetti، الذي حصل على ثلاثة اصوات، واختطف الوشاح البابوي، وجعله على كتفيه، في اللحظة التي انفتحتت فيها ابواب الكنيسة، ودخل اليها حشد من الشعب والجنود، فاعلنوا اوكتفياني بابا باسم فكتور الرابع.

التجيء اسكندر الثالث مع مؤيديه الى قلعة القديس بطرس، حيث حاصرهم انصار فكتور الرابع مدة ثمانية ايام. الا ان الشعب بقيادة اودون Odon Frangipani، حرره، بعد ان عَلِموا بما فعله فكتور الرابع، فتخلو عنه، وايدوا البابا اسكندر الثالث.

بعد ان تُوّج البابا اسكندر في مدينة Nymphe انتقل منها الى مدينة Terracini، ومن هناك اصدر حرمانا ضد البابا المضاد فكتور الرابع، الذي هو ايضا تم تتويجه في الرابع من تشرين اول. وبذلك عاد الانشقاق في الكنيسة الغربية.

وتدهورت العلاقات بين الامبراطور والبابا اسكندر الثالث بشكل خطير، اذ كان هذا البابا الساعد الايمن للبابا الراحل، واصر على تنفيذ مطالب سلفه. وسنحت الفرصة للبابا، حينما بدأت المدن اللمباردية تتكتل ضد الحكم الالماني بزعامة مدينة ميلانو سنة 1167، وانضمت البابوية الى ذلك الحلف. واحرزت القوى اللمباردية–البابوية نصرا حاسما في موقعة لينانو Legnano سنة 1176. فاذعن الامبراطور لمشيئة البابا والمدن اللمباردية، وتم تحرير الاجزاء اللمباردية، وكذلك البابوية، فيما عُقدت بين الامبراطور واعدائه معاهدة كونستانس سنة 1173.

اعترف فردريك بهذه المعاهدة بالبابا اسكندر الثالث، ووعد بان يعيد الى كراسيهم كل الاساقفة الذين يطلب البابا اعادتهم. ومن جهته وافق البابا على منح البابا المضاد (الذي كان في ذلك الوقت كليستوس الثالث، وهو البابا المضاد الثالث بعد فكتور الثالث وباسكال الثالث)، ديرا ليقيم فيه، ولكرادلته شغل المراكز التي كانت لهم قبل الانشقاق. وتعهد الامبراطور ايضا باعادة كل ما استولى عليه من ممتلكات الكنيسة. وحلف اليمين مع امرأته، على البقاء بسلام مع الكنيسة، والمحافظة على السلام لمدة 15 سنة مع ملك صقلية، وهدنة لمدة 6 سنوات مع اللمبارديين.

رفع الحرم عن الامبراطور

وفي 23 تموز، حضر الامبراطور الى فينسيا Venise، حيث استقبله كرادلة البابا ليتسلموا منه اعترافه بالخضوع، ولرفعه الحرم عنه. انتقل بعدها فردريك بمسيرة احتفالية الى كنيسة القديس مرقس، حيث كان البابا ينتظره محاطا بالكرادلة والاساقفة. ركع الامبراطور امام البابا، حسب العادة، وقبّل رجلي البابا. فانهضه البابا وباركه واعطاه قبلة السلام، بينما كانت الجموع ترنم نشيد "اللهم نمدحك".

وفي يوم 25 تموز عيد القديس يعقوب، وبعد القداس الذي حضره الامبراطور فردريك، امسك بركاب حصان البابا ليركبه. وهكذا بعد مئة سنة على حادثة كنوسا، التي فيها خضع الامبراطور هنري السادس، خضع امبراطور المانيا المهزوم امام البابوية.

مجمع اللتران الثالث

بعد ان تم عقد الصلح بين فردريك والبابا، عاد اسكندر الثالث الى انياني Anagni في منتصف شهر تشرين اول 1177. بعد مدة دعاه الرومانيون الى العودة الى روما. فعاد اليها في 12 اذار 1178، واهتم حالا بدعوة مجمع

كبير، هدفه تهدئة المسيحية، ومنع عودة الانشقاق في البابوية، باجراءات اصلاحية وادارية. وتنبع اهمية هذا المجمع وفي هذه الفترة، كون البابا المضاد كالستوس الثالث، استمر في الانشقاق، ولما خضع اخيرا (29 آب 1178)، قام بعض البارونات باختيار خليفة له، اي بابا مضاد اخر في شخص لاندو سيتيني Lando Sitini، من عائلة فرنجيباني، تحت اسم انوسنت الثالث (29 ايلول 1178).

افتتح المجمع اعماله في 5 اذار 1179، برئاسة البابا، حضره حوالي ثلاثة الى اربعة مئة اسقف وعدد كبير من رؤساء الاديار، وغيرهم من اصحاب الرتب الكنسية، ينتمون الى جميع الدول المسيحية في الغرب. مثّل الشرق في هذا المجمع ممثل عن بطريرك القدس الصليبي، في شخص بطرس، رئيس دير القبر المقدس، وغيوم دي تير، مؤرخ الحروب الصليبية، والبرتس، اسقف بيت لحم، وهراكليوس، رئيس اساقفة قيصرية.

دام المجمع 15 يوما، حتى 19 اذار، ولم يعقد الا ثلاثة جلسات، تمّ في اخر جلسة نشر 27 قرارا، واهم ما جاء فيها:

– للحيلولة دون استمرار الانشقاقات البابوية، تمّ الاقرار، انه في حالة عدم الاتفاق بين الكرادلة، يتم اعتبار منتخب قانونيا، من يحصل على ثلثي الاصوات، والذي لم يحصل الا على الثلث، ويدّعي لنفسه المرتبة البابوية، يحرم هو ومن يعترف به، ويُعزل من كل الرتب (قانون 1).

– اعتُبرت الرسامات التي تمت على يدي البابا المضاد اكتفياني، ويوحنا الثاني والعشرين، باطلة، وتم سحب المناصب والامتيازات من الذين حصلوا عليها منهم (قانون 2).

– مُنع قبول الاموال مقابل تنصيب اسقف او رئيس دير او كاهن في كراسيهم الابرشية او في كنائسهم؛ كما ومُنع قبول الاموال مقابل مراسيم الدفن والزواج، ومنح أي من الاسرار الاخرى (قانون 7).

– ومنُعت من جديد السيمونية وتسري الكهنة (اي العيش مع النساء) Concubinage (قانون 8 و 11).

– وأُخذت اجراءات في صالح المؤسسات التعليمية والخيرية. وطُلب من كل اسقف فتح في كاتدرائيته مدرسة مجانية لتعليم الاكليروس والاولاد الفقراء (قانون 18).

– وُضعت كنائس وكهنة في خدمة البرص (قانون 23).

– واصدر قانون 27 الحرم ضد الهراطقة الالبجينيين، وطلب من الامراء وكل المؤمنين ان يحاربوهم ويصادروا املاكهم واحالتهم الى العبودية.

وقرر المجمع في نهايته، سجن البابا المضاد، انوسنت الثالث، في دير كافا Cava. وهكذا انتهى الانشقاق البابوي الذي دام 20 عاما.

موت البابا اسكندر الثالث

لم ينعم البابا طويلا من هذه النتائج السعيدة، فقد قامت حركة تمردية جديدة اجبرته على ترك روما (1179). وهكذا مات هذا البابا المجاهد منفيا في Civita Castellana، في 30 اب 1181، بعد ان دافع بشجاعة من اجل حرية الكنيسة وايطاليا.

يستحق البابا اسكندر الثالث ان يظهر اسمه بجانب غريغوريوس السابع واربان الثاني.

9– حبرية البابا لوشيوس الثالث 1181–1185

خلف الكردينال اسقف اوستي، هوبولد الوشينغولو Hubald Allucingolo، البابا اسكندر الثالث، في الاول من ايلول 1181، واتخذ اسم البابا لوشيوس الثالث. وكان البابا الجديد طاعنا في السن، صاحب نوايا حسنة، وميالا للمصالحة، الا ان هذا لم يمنع اهل روما من خلق المشاكل له منذ بدء حبريته، بمطالبهم الثورية، مما اضطره الى مغادرة روما، واقام في فيرونا.

اراد هذا البابا اغتنام فرصة وجود الامبراطور في فيرونا، بعقد مجمع عام، لبحث بعض الامور المعلقة. الا انه لم يتمكن من الوصول الى اتفاق مع الامبراطور، الا باصدار حرمانا ضد بعض الهرطقات في الرابع من تشرين ثاني 1184. بنفس اليوم، طلب بطريرك اورشليم هراكليوس، من رؤوساء جمعيات الفرسان الرهبانية، بان يرسلوا معونة

عسكرية الى الملك بدوان الرابع، ملك القدس. واستعد الامبراطور فردريك بهذا، وبدأ في عيد الميلاد التحضير لهذه الحملة. وبقيت الكثير من المشاكل عالقة بين الامبراطور والبابا. ومات البابا في فيرونا في 25 تشرين الثاني 1185.

10- حبرية البابا اوربانوس الثالث 1185-1187

في اليوم نفسه لموت البابا لوشيوس الثالث، انتخب الكرادلة بالاجماع، تحت اسم اربانوس الثالث، رئيس اساقفة ميلانو، همبير Humbert من عائلة كريفللي Crivelli، واحدة من اكثر العائلات التي تعرضت للأذى من الامبراطور فردريك، والاكثر كراهية له. كان للسرعة التي تمّ فيها الانتخاب، واختيار المرشح المذكور، تشير الى مدى الاستياء من سياسة الامبراطور. فكان من المنتظر ان تدخل الامبراطورية والكهنوت في صراع مرة اخرى في اول مناسبة.

وجاءت هذه المناسبة سريعا، في 25 كانون ثاني 1186، بمناسبة زواج الملك هنري الرابع (ابن فردريك) مع الاميرة كونستانس، وتتويجهما على يد بطريرك اكويلا والاساقفة الالمان.

لم تكن الاميرة كونستانس بجميلة او صبية، فقد كانت تكبر هنري بعشرة سنين، ولكن كونها عمة (او خالة) الملك غيوم الثاني، ملك الصقليتين، وبما ان هذا لم يكن له وريثا، فكانت الاميرة كونستانس هي الوريثة المنتظرة لهذه المملكة. ورأت عائلة هوهنشتاوفن في هذا الزواج السياسي، الأمل ان تضع يوما يدها على كل ايطاليا الجنوبية، وتحقق بهذا طموحاتها. فبعد ان سيطر فردريك على الشمال والجنوب الايطالي، واستتباب الامور الداخلية في المانيا، اصبح باستطاعته ان يحاصر الولايات البابوية، ويضع البابا تحت رحمته وسيطرته.

فَهِم اربان الثالث نتيجة هذا الزواج، ورأى خطره، فعزل واوقف بطريرك اكويلا من منصه، وكل الاساقفة الذين شاركوا بعقد الزواج ومراسيم التتويج، واتهم الامبراطور بأنه عمل على الغاء الاديرة الرهبانية بحجة الاصلاح، دون ان يؤسس غيرها، وبأنه مغتصب ممتلكات الكونتيسة ماتيلد، التي منحتها للكنيسة؛ ورفض رودلف، مرشح الامبراطور، اسقفا على تريف، وعيّن مكانه اسقفا اخر.

دخل الامبراطور في ثورة غضب عارمة، امام اجراءات البابا هذه، وفيما كان ابنه ينهب ويدمر الريف الايطالي، ويسيء معاملة الاكليروس الذي ناصر البابا، حاصر فردريك البابا في مدينة فيرونا، ومنع الاساقفة الالمان من الاتصال به، وضغط عليهم، فارسلوا الى البابا رسالة، اعلنوا فيها تأييدهم للامبراطور، وطلبوا منه ان يكون اكثر تصالحيا.

لم يسمع البابا اوربان الثالث، لهذا النداء، وبقي ثابتا في موقفه، وقرر حرمان الامبراطور. لكن اهل فيرونا رجوه ان لا يفعل هذا حتى لا يتعرضوا لرد فعل الامبراطور، فانتقل منها الى مدينة فينسيا، لكن الموت عاجله وهو في الطريق، فمات في فرارا Ferrara في العشرين من تشرين اول 1187.

11 – حبرية البابا غريغوريوس الثامن 1187

اختار الكرادلة في اليوم التالي لموت اوربانوس الثالث وبالاجماع ايضا، امين سر الكنيسة، البرت دي بنفان Albert de Bénévent، باسم البابا غريغوريوس الثامن، وكان معروفا عنه انه عاقل وحكيم، ومخلصا للامبراطور. اراد الكرادلة بهذا الاختيار العمل على تدشين عهد من السلام بين الكنيسة والامبراطورية. لكن غريغوريوس الثامن لم يملك سوى ثمانية اسابيع، لم تسمح له بعمل اي شيء يذكر، الا تحضيره الطريق نحو المصالحة. جاءت قبل وقت قليل من انتخابه، اخبار سقوط القدس في يد صلاح الدين، فعمل على تنظيم حملة صليبية جديدة، ومات في بيزا في 17 كانون اول 1187.

12- البابا كليمنضوس الثالث 1187-1191

كان خليفة غريغوريوس الثامن، هو الكاردينال باولو سكولاري Paolo Scolari، الذي اخذ اسم كليمنضوس الثالث. كان كردينالا على بالسترينا، مدينة آل كولونا الحصينة. جرى انتخابه في بيزا. تبع مثال سلفه سياسة المصالحة، وبدأ بالتقرب من الرومانيين، لكونه من اهل روما، وعاد اليها في شباط 1188، وبقي فيها حتى وفاته في 20 اذار 1191. استطاع هذا البابا ان ينهي الصراع بين الامبراطور والكرسي الرسولي.

من اهم اعماله هو تنظيمه للحملة الصليبية الثالثة. الا ان هذه الحملة المنظمة اكثر من سابقتها، لم تحصل على نتائج تذكر. اذ ان هدف الحملة، وهو تحرير القدس، لم يتم. الا ان المسيحيين والمسلمين، خرجوا منها بفائدة،

وهي انهم بدأوا يتعرفون على بعض، ولم يعد بينهم ذلك الحقد القاتل. فلأول مرة، وبفضل العلاقات التي قامت بينهم، بين معركة واخرى، تعودوا على فكرة التفاوض والحصول بواسطة المباحثات على ما كان متعذرا الحصول عليه الا بالصراعات الدامية.

لم يعش كليمنضوس الثالث ليرى نتيجة الحملة الصليبية التي كان من اهم منظيمها، فقد مات في 20 اذار 1191.

13- حبرية البابا شلستينوس الثالث 1191-1198

اختار الكرادلة خليفة لكليمنضوس في شخص الكردينال-الشماس هياسنت بوبو اورسيني Giacinto Bobone Orsini، واتخذ اسم شلستينوس الثالث. وكان اختيار هذا البابا الطاعن بالسن، والضعيف وغير الثابت، ليقف في وجه امبراطور شاب متحمس وعنيف، دلالة على ان المجلس البابوي كان مستعدا للتنازل حتى النهاية، على أمل، ان يقوم الملوك والامراء بحملة صليبية ضد الخطر الاسلامي.

وكان هنري السادس، الذي كان قد تولى العرش سنة 1190، في السادسة والعشرين من عمره، وقد ورث عن ابيه غطرسته وطموحه، وكان يحلم بتأسيس امبراطورية مسيحية واسعة تكون اكبر من امبراطورية شارلمان. ولتحقيق ذلك، كان عليه ان يفرض سيطرته ليس فقط على ايطاليا وسائر الدول الاوروبية الاخرى، وانما ايضا على الامبراطورية الشرقية.

حاول في المقام الاول ان يُلحق بالامبراطورية الدول الاوروبية الاخرى: فقد قَبِل ملك انكلترا، ريتشارد قلب الاسد، الذي عاد من الحرب الصليبية، وسقط اسيرا بين يدي هنري، ولاستعادة حريته، رضي بان يقسم له تبعية مملكة انكلترا. وعندما توفي ملك صقلية، غليوم الثاني، دون ولد في عام 1189، ورث هنري السادس مملكته بواسطة زوجته الامبراطورة كونستانس، فاحتلها وفعل فيها الفظائع. وفي ايطاليا الشمالية، كانت الحالة ملائمة لتدخل الامبراطور: فقد ضعفت المدن بالخلافات الداخلية، وانقسمت العصبة اللمباردية الى فريقين متخاصمين. فاستفاد هنري من هذه الخلافات ونجح في فرض جزء من السلطة الملكية عليها، واستطاع بذلك ان يهدد سلطة البابوية داخل ولاياته.

بعد ان ارتكب هنري كل هذه الفظائع، تصنع التوبة، ليتقرب من البابا، الذي قطع علاقاته معه. وفي مجلس باري سنة 1195، تعهد هنري بالقيام بحملة صليبية، لمحاولة استرداد الارض المقدسة، الا انه كانت حيلة ليمد سلطانه ايضا على الامبراطورية الشرقية، وعلى الممالك المسيحية الصليبية في الشرق.

لم يتسنى لهنري السادس الوقت لتحقيق حلمه، ومات بعد بضعة ايام من ذهاب الصليبيين الى الشرق في 28 ايلول 1197، اثر حمى خبيثة، حسب بعض المؤرخين، او مسموما من زوجته، الامبراطورة كونستانس، انتقاما لعائلاتها التي ابادها هنري السادس، حسب مؤرخين اخرين.

اما البابا شليستينوس فقد مات في 8 كانون ثاني 1198، عن عمر يناهز 92 سنة. لاقت حبريته التي دامت سبع سنين مشاكل عديدة، ليس فقط من ناحية امبراطور المانيا، وانما ايضا من قِبَل ملوك اخرين. مع ذلك وبالرغم من المشاكل العديدة الخارجية، قام البابا شليستينوس بقيادة الكنيسة بغيرة.

الفصل الرابع والثلاثون

اوج السلطة البابوية (1198–1216)

أ– حبرية انوست الثالث

1– حبرية البابا انوسنت الثالث

الانتخاب

في اليوم نفسه الذي مات فيه البابا سلستوس الثالث (8 كانون ثاني 1198)، اختار مجمع الكرادلة، وفي الجولة الثانية، الكاردينال لوتير دي ساني Lothaire de Segni، الذي اتخذ اسم البابا انوسنت الثالث.

وُلِد هذا البابا عام 1160 او 1161، من عائلة كونتي، وكان له من العمر سبعة وثلاثون عاما، عندما اعتلى السدة البابوية. وقد عبر الكرادلة بانتخاب الاصغر سنا بينهم، عن رغبتهم ان يكون رأس الكنيسة، رجل مليء بالحماس والطاقة، حتى يكون قادرا على الدفاع عن مصالح العالم المسيحي ضد الاخطار التي كانت تهدده سواء من الداخل اومن الخارج.

الرجل

لا شك ان البابا انوسنت الثالث، كان هو الرجل المطلوب. ورث عن عائلته النبيلة والعسكرية روح العمل والقتال؛ بالرغم من صحته العليلة، الا انه كان ذا قدرة على العمل لا تنضب، بحيث كان يعمل ساعات طويلة، يبحث ويدرس القضايا ويقرر بنفسه، شاهد على ذلك مراسلاته الواسعة والتي لم يبقى منها الا جزء بسيط.

وجمع الى القدرة الفائقة على العمل، معرفة وعلم واسع. فهو تلميذ سابق لكليات باريس وبولونيا، وكان واحدا من علماء زمانه في اللاهوت والقانون. وقد برهن على ذلك بنجاحه في كل المهمات التي عهد اليه بها عمه البابا كليمنضوس الثالث، واظهر فيها، مع كونه لا يزال شابا، مهارة وحنكة.

استغل الوقت الذي فيه ابعده البابا شلستينوس الثالث عن مسرح الكنيسة، بسبب منافسة بين العائلات النبيلة، ليظهر فيها موهبته ككاتب، وألف عدة مؤلفات من بينها كتاب "تأمل العالم"De contemptu mundi، الذي لاقى شهرة واسعة، والذي فيه وصف الكاتب العالم بنظرة تشأومية، ملفتا نظر القُراء، انه بوسعه ايضا ان يكتب كتابا معاكسا عن نفس الموضوع ولكن بنظرة تفاؤلية.

وكانت طباعه على مستوى ذكائه. وكان على مثال البابا غريغوريوس السابع، يملك روحا قتالية. كان الرجلان، خُداما امناء ومتفانين لمصالح الكنيسة، ويعملان على انتصارها، الا انهما اختلفا في طريقة الوصول الى هذا الهدف. فكان انوسنت الثالث يذهب مباشرة الى الهدف، دون الاهتمام بالظروف ولا العوائق، بينما كان غريغوريوس، اكثر ليونة واعتدلا، يعرف كيف يغتنم الظروف ويجتاز العوائق.

زد على ذلك ان كلا الرجلين كانا – من الناحية الاخلاقية – معروفين بحياة التقشف، وبحياة الاخلاقية لا غبار عليها.

افكار وبرنامج البابا انوسنت الثالث

1) ظهرت فكرة انوسنت عن عظمة الكرامة البابوية، والتي ميّزت اعمال حبريته في مراسلاته وخطبه وعظاته، وخصوصا في العظة التي القاها في كنيسة القديس بطرس يوم تتويجه (22 شباط 1198). فقد اعلن صراحة تقدمية prééminence السلطة البابوية. بنى انوسنت هذه التقدمية على اولوية القديس بطرس. فالبابا هو وريث امير الرسل، وهو "نائب المسيح" أي ممثل الله علىالارض، والوسيط بين الله والبشر. وتمتد السلطة البابوية ليس فقط على الكنائس، وانما ايضا على دول العالم المسيحي، وتتقدم كل كرامة حتى على الملوك.

يقول انوسنت في وصف مركزه البابوي:

"الى البابا يقال في شخص النبي: قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب والممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتبني وتغرس"(ارميا 1:10).

والى البابا يقال ايضا في شخص الرسول: واعطيك مفاتيح ملكوت السموات...(متى 16: 19).

هكذا دعى اخرون لجزء من المسؤولية، لكن بطرس وحده اتخذ لنفسه كمال القوة.

انت اذن ترى من هو هذا الخادم المعين رئيسا على اهل البيت.

انه حقا نائب يسوع المسيح، خليفة بطرس،

ممسوح من الرب، اله فرعون، وسيط بين الله والانسان،

ادنى من الله لكن اعلى من الانسان، الذي يحاكم الجميع ولا يحاكمه احد"

Quoted by Ozment Steven: The Age of Reform, 1250-1550, p. 143).

والبابا انوسنت الثالث هو الذي قال:

"خالق الكون عمل النورين العظيمين في جلد السماء، النور الاكبر (الشمس) لحكم النهار، والنور الاصغر (القمر) لحكم الليل. وبنفس الطريقة عن جلد الكنيسة الجامعة، التي يقال عنها السماء، عين الله مقامين عظيمين، الاعظم (الكنيسة) لمسؤولية الحكم على الارواح (هؤلاء كما لو كانوا النهار)، والاقل (الدولة) لمسؤولية الحكم على الاجساد (هؤلاء كما لو كانوا الليل). هذان المقامان هما السلطان البابوي والقوة الملكية. اكثر من ذلك فان القمر يستمد نوره من الشمس وهو في الحقيقة ادنى من الشمس في الحجم والنوع، وبنفس الطريقة تستمد القوة الملكية مقامها من السلطة البابوية". (Quoted by Bettenson, Docuements of the CHRISTIAN CHURCH, pp. 157-158).

بينما لا يحكم الملوك الا على ممالك خاصة، البابا وحده يملك ملء السلطة، فيعود اليه اذن توحيد السياسة، نظرا لان كل المالك والدول هي جزء من مجتمع اكثر اتساعا، أي المجتمع المسيحي الذي يرئسه البابا.

2) من فكرة البابا انوسنت الثالث الكبيرة هذه عن وظيفته، نبع برنامجه الذي حدده منذ بداية حبريته: فكرئيس زمني وروحي للمسيحية فقد حدد هدفين:

(1) ففي المجال الزمني والسياسي: اراد اعادة سلطة الكرسي الرسولي الى روما وفي الولايات البابوية، ورفع هيبة الكرسي الرسولي الى اقصى درجة بين الامم المسيحية في ايطاليا والمانيا وفي كل اوروبا.

في ايطاليا، كان من حظ البابا ان الامبراطور هنري السادس الذي تمت له السيادة على ايطاليا وصقلية قد مات في عام 1197، وترك عرش الامبراطورية لابنه فردريك الثاني، وكان هذا طفلا في الثالثة من عمره. انتهز انوسنت هذه الفرصة السانحة، فطرد رئيس بلدية روما الالماني من منصبه، واخرج الموظفين الالمان من اسبوليت، وبروجيا. وتقبل خضوع تسكانيا، واعاد حكم البابا في الولايات البابوية، واعترفت به ارملة هنري السادس سيدا على الصقيليتين، وقَبِل هو ان يكون وصيا على ابنها، ولم تمض عشرة شهور حتى كان انوسنت سيد ايطاليا بلا منازع.

ولما انتهى انوسنت من عمله في ايطاليا وجه انتباهه الى الممالك الاخرى، وخصوصا الى **المانيا**. في هذا الوقت قامت حرب لاجل اهلية الامبراطورية بين فيليب الصوابي واتون السكسوني. فطلب الاثنان المعونة من البابا. وبعد ما درس انوسنت الموضوع شكليا، اعترف بأتون امبراطورا سنة 1201. وفي سنة 1209 وضع عليه في روما التاج الامبراطوري. وعد اتون لدى انتخابه وتتويجه، ان يحافظ على حقوق وامتيازات الكرسي الرسولي وان يضيف الى المقاطعات الكنسية املاكا جديدة في ايطاليا وغير ذلك. الا ان اتون لم يفي بوعوده بعد تتويجه مما أدى الى نشوب نزاع بينه وبين البابا.

مارس انوسنت في اوروبا نفوذا كبيرا. فتدخل ايضا في **فرنسا** حين طلق فيليب–اوغست امرأته ليتزوج اغنيس دي ميراني. وبهذا الموضوع، كتب البابا الى الملك يقول له: "ان العزة الملكية لا تخولك التعالي على واجباتك المسيحية". ودام النزاع اربع عشرة سنة. فبعد موت اغنيس، خضع الملك وعاد الى الحظيرة.

وفي **انكلترا**، تدخل البابا فخلع يوحنا "الخالي من الارض" (Jean Sans Terre)، مغتصب املاك الكنيسة، واعطى فيليب–اوغست التاج، فرده الى يوحنا حين اقرّ بأنه تابع لملك فرنسا والتزم بأن يدفع له جزية.

وتدخل ايضا في **المجر**، وفي **الدنمراك**، وفي **قشتالة واراغون** (اسبانيا). وعرف انوسنت ان يكون "الاسقف الكوني" الحقيقي. فقصاده كانوا يجوبون اوروا باستمرار، يبلغون القرارات الحبرية المليئة حكمة، وروحا مسيحيا وسخاء نفس.

(2) **في المجال الديني**، العمل على نشر وحفظ الايمان، واحياء الحرب الصليبية ضد المسلمين: الاولى أُعلنت في 1199، كانت نهايتها مؤسفة، وكان هدفها الاستيلاء على مصر، الا ان تسلط البندقية ومطامع الأمراء غيرت وجهتها. فالجيوش المسيحية المعدة لنشر الايمان بين المسلمين، ولتحرير الاماكن المقدسة، توجهت الى القسطنطينية فاحتلتها في 1204، وأنشأت "امبراطورية الشرق اللاتينية" المصطنعة التي دامت سبعا وخمسين سنة. وكان من نتائج السياسة الحمقاء، ان حصل الانفصال النهائي بين بيزنطية والغربين، هذا الانفصال الذي عزز موقع المسلمين وسهل سقوط بيزنطية بعد قرنين ونصف قرن من ذلك التاريخ.

اما الحملة الصليبية الثانية فكانت نتيجتها اوفر خيرا من تلك للمسيحية. انها الحملة التي دعمها انوسنت الثالث ضد المسلمين في اسبانيا وجاءت صورة مسبقة مثالية عن الوحدة الاوروبية الروحية والعسكرية. الى جانب قوات قشتالة واراغون ونافارا الشجاعة حارب في معركة لاس نافس دي تولوسا Navas de Tolsa، فرسان وجنود من فرنسا وايطاليا والمانيا. وقبيل هذه المعركة الحاسمة في تاريخ الغرب فيما بعد، امر البابا بالقيام بتطوافات وممارسة الاصوام في العالم المسيحي كله. وفي 16 تموز 1212 هزم جيش المسيحيين جيش المسلمين بالرغم من ان الاخير كان خمسة اضعاف الاول عددا.

وحارب البابا انوسنت الهرطقات، ولا سيما الالبجينية. كانت الهرطقة الالبيجية ما تزال منتشرة في جنوب فرنسا. فأرسل البابا الدومنيكان ليردوا الهراطقة؛ لكن الرسالة لم تأت بنتيجة. وانكفأ البابا عن موقفه المتسامح عندما اغتال الهراطقة قاصده بيار دي كاستيلنو. ودمرت البلاد حملة صليبية استمرت ثمانية عشر عاما. ففرنسيو الشمال، بقيادة سيمون دي مونفور عصوا اوامر البابا، ونهبوا منطقة اللانغدوق، وافسحوا المجال فتغلبت روح الفنح والكسب المادي على روح الفتح الديني، فغرقت الهرطقة في الدم، وُدمج اللانغدوق بمملكة فرنسا.

وفي عهد حبريته أُسست رهبنيتان مهمتان: رهبنة الفرنسيسكان (1210) ورهبنة الدومنيكان (1215). واخيرا العمل على اصلاح الكنيسة بعقد المجمع اللتران الرابع، واصدار القرارات التي تساعد على اصلاح وتحسين اخلاق الاكليروس والشعب.

حاول انوسنت ان يلغي المساوىء التي اساءت الى البابوية. وكان هو الذي وُلد في الثراء، يعيش عيشة البساطة، طاهر اليدين في عصر تفشت فيه الرشوة في كل مكان. وما كاد يتولى منصبه حتى حرم على موظفي هيئة الكرادلة ان يتقاضوا اجرا على ما يقومون به من اعمال. وكان يحب ان يرى الكرسي الرسولي يثرى من مال العالم كله، ولكنه كان يصرف اموال البابوية بنزاهة معقولة.

مجمع اللتران الرابع

رأس البابا في عام 1215 مجمع اللتران الرابع الذي عُقد في كنيسة القديس يوحنا بروما. واقبل على هذا المجمع العام اربعمائة اسقف من الغرب والشرق، واكثر من ثمانمائة من رؤساء الاديار، وعدد وافر من السفراء، وغيرهم من علية رجال الدين والمندوبين فوق العادة من جميع الامم ذات الشأن في العالم المسيحي. وكانت خطبة الانفتاح التي القاها البابا اعترافا وتحديا غاية في الجرأة اذ قال:

"أن أكبر سبب في فساد الخلق هو فساد رجال الدين انفسهم، وهذا هو مصدر كل ما في العالم المسيحي من شرور: فقد انمحى الايمان، وطمست معالم الدين... ووطئت العدالى بالاقدام، وكثر الخارجون على الدين، وجرؤ الناس على الانشقاق، وازداد غير المؤمنين قوة، وانتصر المسلمون".

شجب المجمع ضلالات يواكيم دي فيوره، وهو راهب من جنوب ايطاليا، كان يطلق نظريات مشبوهة حول تأثير اشخاص الثالوث الاقدس الثلاثة في عصور التاريخ البشري الثلاثة. وشجب المجمع كذلك الهرطقة الالبيجية. واعتُمدت انظمة جديدة للمدارس المسيحية، وللمحاكم الكنسية، والاسرار، والعلاقات بين المسيحيين والمغاربة. وحدد المجمع اخيرا التاريخ لارسال حملة صليبية جديدة الى الشرق.

موت انوسنت والحكم على اعماله

انعقدت، بعد المجمع العام، عدة سنودسات، في كل البلاد المسيحية، لوضع مقررات المجمع موضع التنفيذ. وقام انوسنت الثالث بنفسه بنشاط كبير في هذا الشأن، وخصوصا باشعال الحماس في النفوس لتجهيز حملة صليبية.

بعد ان بلغ انوسنت ذروة المجد في حياته اخذ ينهار مسرعا نحو منيته العاجلة. ذلك انه قد انهمك في توسيع سلطانه وادارة اعماله انهماكا دائما لم يخلد فيه قط الى شيء من الراحة، وانهك قواه وهو لا يزال في السادسة والخمسين من عمره. ومن اقواله وهو يتحسر: "ليس لدى متسع من الوقت افكر فيه في الشؤون السماوية، بل اني قلما اجد وقتا للتنفس، ولقد كرست حياتي لغيري حتى كدت اصبح غريبا عن نفسي". وفي احدى سفراته الى ايطاليا العليا، بغرض تهدئة الاوضاع بين مدينتي جنوى وبيزا، اصبته الحمى ومات في مدينة بيروزا Pérouse، في 16 تموز سنة 1216، وهو في السادسة والخمسين من عمره، بعد تسعة عشرة سنة من الحكم البابوي.

الحكم على حبرية انوسنت الثالث

تعتبر حبرية انوسنت الثالث من امجد الفترات في تاريخ البابوية. وصل الكرسي الرسولي إبان حبريته، الى ذروة مجده، سواء على صعيد حكم الكنيسة وادارتها، او على صعيد العلاقات مع ملوك وامراء البلاد المسيحية. فقد تكلم انوسنت الثالث وعمل كسيد مطلق، واوشك ان يحقق ما كانت تحلم به البابوية وتصبو اليه المسيحية من ان يصبح القوة العالمية المسيطرة.

(1) في المجال الروحي: سار انوسنت الثالث على خُطى البابا غريغوريوس السابع، وآمن على مثاله، ان الاصلاح في الكنيسة لن يتم الا اذا استطاع البابا ان يفرض سلطته في كل مكان، فأكد اكثر من غيره، على سمو سلطة الكرسي الرسولي. ففرض الحكم المطلق في الكنيسة، وجمع كل السلطات بين يدي البابا. فتدخل في كل امور الكنسية، في الكنائس المحلية وفي كل البلاد، في كل لحظة ولآي سبب. ويظهر من مراسلاته التي بلغت ستة الاف رسالة، انه اهتم بالمسائل العقائدية والتنظيمية، وحتى في المسائل القليلة الاهمية.

احبط ما بذله الحكام الزمنيون من جهود لفرض الضرائب على رجال الدين دون رضاء البابا، ورصد المال في الكرسي الرسولي لمعونة الكهنة المحتاجين، وبذل ما في وسعه لتحسين تربية رجال الدين وتعليمهم؛ وقد رفع من منزلتهم الاجتماعية حين عَرَّف الكنيسة بانها ليست جميع المؤمنين المسيحيين بل هي جميع رجال الدين المسيحيين؛ وقاوم عادة استيلاء الاساقفة او روؤساء الاديرة على العشور التي تُجمع من الابرشيات وحرمان كهنة الابرشية منها. وعمل على اصلاح ما كان في اديرة الرجال والنساء من تراخ واهمال، بأن نظم زيارات متتابعة لهذه الاديرة لمعرفة احوالها والتفتيش عليها. واستطاع بفضل ما وضعه من التشريعات ان يحدد العلاقة بين رجال الدين وغير رجال الدين، وبين الكهنة والاساقفة، والاساقفة والبابوات.ورفع من شأن المجلس البابوي فجعله محكمة قديرة للمشورة، والادارة والقضاء، حتى اضحت وقتئذ اقدر هيئة حاكمة في زمانها، وقد ساعدت اجراءاتها ومصطلحاتها على تشكيل فن الدبلوماسية وطرائقها. واكبر الظن ان انوسنت نفسه كان اعظم اهل زمانه تبحرا في القانون، وانه كان قادرا على ان يجد في المنطق والسوابق سندا قانونيا لكل قرار يصدره. وكان العلماء والمشترعون يهرعون الى "مجمع الكرادلة" حيث كان يرأس هذه الهيئة بوصفها المحكمة الكنسية العليا، ليفيدوا من نقاشها واحكامها في المسائل القانونية المدنية والدينية، وقد اسماه بعضهم "ابا القانون"Pater iuris، واسماه آخرون حبا وتفكها سليمان الثالث.

(2) في المجال الزمني: حاول فرض الكرسي الرسولي كحكم بين الملوك. واوشك في وقت ما ان يحقق هذا الحلم، فقد نفذ جزءا من خطته على أثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية في عام 1204، اذ خضعت الكنيسة اليونانية الى اسقف روما، واستطاع ان يتحدث وهو مغتبط عن ثوب المسيح غير المخيط؛ واخضع بلاد العرب وارمينية البعيدة نفسها لسيطرة الكرسي البابوي في روما؛ واستطاع ان يكون صاحب الحق في تعيين رجال الدين في مناصبهم؛ واندفع في سلسلة من المغامرات والنزاع الخطيرة انتهت بارغام رؤساء الحكومات الاوروبية على الاعتراف بسيادته عليهم سيادة لم يسبق لها من قبل مثيل. هذا في في خارج ايطاليا، اما في ايطاليا نفسها فكانت سياسته اقل من هذا نجاحا: فقد عجز فيما بذله من جهود متعددة للقضاء على الحروب القائمة بين دول المدن الايطالية، ونغّص عليه اعداؤه

السياسيون في روما حياته وجعلوها غير آمنة حتى كان في وقت من الاوقات يخشى المقام في عاصمته. كذلك افلح الملك سفير Severre النرويجي (1184-1202) في مقاومته بالرغم من صدور قرار الحرمان عليه هو وبلاده؛ وتجاهل فليب الثاني ملك فرنسا امره حين عقد الصلح مع انجلترا، وان كان قد خضع لما أصر عليه البابا من ان يعيد زوجته التي هجرها، واقتنع الفنسو التاسع صاحب ليون في اسبانيا، ان يفارق برنجاريا Berengaria التي تزوجها لانها من قريباته المحرمات عليه. واعترفت البرتغال، وارغونة، وبلاد المجر، وبلغاريا، بأنها اقطاعيات بابوية، واعطت البابا جزية سنوية، ولما رفض الملك جون أمر البابا بتعيين لانجتن Langton كبيرا لاساقفة كنتربري اضطره البابا بقرار التحريم الذي اصدره على انجلترا وبدهئه السياسي ان يضم انكلترا الى الاقطاعيات البابوية. ووسع انوسنت سلطانه في المانيا بأن اعان اتون الرابع على فيليب دي صوابيا، ثم اعلن فيليب على اتون، وحصل في كلتا الحالين على منح وامتيازات للبابوية نظير انتصاره لكلا الطرفين المتنازعين، فضلا عن تحرير الولايات البابوية مما كان يتهددها من التطويق؛ وذكّر الامبراطور ان بابا من البابوات هو الذي "نقل" السلطة الامبراطورية من اليونان الى الفرنجة، وان شارلمان لم يصبح امبراطورا الا بعد ان مسحه البابا وتوجه، وان في مقدور البابوات ان يستردوا ما منحوا. وحسبنا دليلا على سلطان انوسنت ما وصفه به زائر بيزنطي الى روما، اذ قال ان انوسنت "ليس خليفة بطرس بل خليفة قسطنطين".

* * *

هذه هي الجوانب المشرقة من حبرية البابا انوسنت الثالث، ولكن يجب الاشارة بان ممارسة مثل هذه السلطة الواسعة لم تجري دائما دون عوائق او مساوىء. من هذه المساوىء: ان الاهتمام الزائد بالامور الزمنية، حتى لهدف سام، وبنية طاهرة، لا يخلو من خطر اهمال الامور الروحية والانحراف عن الدرب الحقيقي. فقد تذمر غريغوريوس السابع قبلا بان روحه المتعبة والمثقلة بالامور الزمنية، لم تعد قادرة على الانطلاق نحو الاجواء العالية، وعبر البابا انوسنت الثالث عن نفس المشاعر كما رأينا سابقا.

تمركز السلطة الزائد في يد واحدة، جلبت مساوىء اخرى، اكثر خطرا. فمهما كانت ارادة البابا الحسنة، ومهما كانت قوة عزمه على العمل، فمن الواضح انه لم يكن في مقدوره الالمام بكل الامور، وحتى الاكثر اهمية، التي كانت تصل الى روما، مما اضطره الى الاعتماد على مكاتب البلاط البابوي او على مبعوثيه، الذين كثيرا ما تعدوا مهامهم وسلطتهم على حساب البابوية.

زد على ذلك ان القوة البابوية، كانت اكثر ظاهرية منها واقعية فاذا ما تمعنا في النتائج الحاصلة، رأينا بانها كانت غالبا على مستوى متوسط médiocres، ومرات سيئة. ففي المانيا مثلا، لا شك ان انوسنت كان ذا نفوذ وسلطة كبيرين، في الصراع الذي حصل في الامبراطورية وحول ولاية العرش، وان البابا هو الذي ساهم في انتصار مرشحه اتون، الا انه خُدع في آماله التي وضعها عليه، وجعله رهن ارادته، يحمي الكنيسة، ويحقق الوحدة بين الكهنوت والامبراطورية؛ ولكن حالما احرز التاج الامبراطوري، بدأ يعمل خلافا لوعوده تماما؛ فيما كان تتويجه للامبراطور فردريك الثاني اسوء للكنيسة.

كما واجه البابا انوسنت الثالث علاقات خطيرة مع الملوك المسيحيين، فلم يهاب فيليب من حرمان البابا، ولم يدعه يتدخل في شؤونه.

وفشلت جهوده ايضا في تجهيز حملة صليبية. فلم يطعه دائما الصليبيون...

ولكننا لا ينبغي ان نضن عليه بأنه رفع الكنيسة الى ذروة مجدها، واوشك ان يحقق ما كانت تحلم من ان تصبح دولة عالمية مسيطرة على شؤون الناس الاخلاقية. وكان هو اقدر حكام زمانه، يعمل لتحقيق اغراضه ببعد نظر، واخلاص، ومزيج من الاصرار والمرونة، وجهود لا يكاد يصدقها الانسان؛ فلما مات في عام 1216، كانت الكنيسة قد بلغت من دقة التنظيم، وعظيم الابهة، وبُعد الصيت، وقوة السلطان، ما لم تعرف له نظيرا قبل، وما لم تستمتع به بعد الا في فترات جد نادرة وقصيرة.

الا ان المؤرخين يصفون هذه الذروة بانها نسبية حملت في ذاتها عناصر او بذور انحطاطها.

ب- صراع الكهنوت من حبرية هونوريوس الثالث الى حبرية انوسنت الرابع

2- هونوريوس الثالث

ثلاثة ايام بعد موت انوسنت الثالث، في 18 تموز 1216، انتخب الكرادلة الكاردينال-الكاهن سافللي Censius Savelli، الذي اتخذ اسم هونوريوس الثالث. وكان هذا مربيا سابقا للامبراطور فردريك الثاني، وكان طاعنا في السن، طيبا ومسالما. لم يكن له نشاط ولا مواهب سلفه، ولكن لكونه عاش في صحبة انوسنت الثالث، اكتسب معرفة كبيرة للامور، وكان مطّلعا على كل مشاريعيه. وكان آمل الكرادلة في انتخابه، ان يتابع سياسة سلفه، فجاء برنامجه على ما خطه مجمع اللتران الرابع (1215): - الصراع ضد الهراطقة؛ - اصلاح الكنيسة؛ - وتنظيم الحملات الصليبية. ولكن لن يمكن تحقيق هذا البرنامج، الا اذا ساهم فيه الامبراطور ولم يضع العوائق امامه.

وكان الامبرطور فردريك شخصا وافر المواهب، يحب الآداب والفنون، ديبلوماسيا اكثر منه محاربا، الا انه كان يقف موقفا عنيفا عندما يكون الأمر دفاعا عن مصالحه. بذل جهده ليثبت سلطته على صقلية وفي جنوب ايطاليا، واستولى على سبوليتو التي كانت تخص الكنيسة، وتزوج ابنة ملك القدس، فحصل على لقب ملك القدس وعلى التاج العائد اليه، ونجح في خداع البابا بتأجيله باستمرار الشروع في الحملة الصليبية الجديدة، وبحمله البابا هونوريوس على تتويجه ملكا في 1220. وفي مطلع نفس السنة، توج ابنه ملكا على المانيا، بالرغم من انه كان قد وعد بان يكتفي بمملكة صقلية. فظهر واضحا هدفه بان يبعث امبراطورية الغرب ويستولي على ايطاليا. وكانت قد تشكلت عصبة نورمندية ضده حين توفي البابا في سنة 1227، دون ان يحقق حلمه برؤية الحملة الصليبية الموعودة.

الحملة الصليبية الخامس

غادرت الحملة الصليبية الخامسة بلاد المانيا، والنمسا، والمجر في عام 1217 بقيادة اندرو ملك المجر، وافلحت في الوصول الى دمياط الواقعة على مصب النيل الشرقي. وسقطت المدينة في ايديهم بعد حصار دام عاما كاملا، وعرض عليهم الملك الكامل سلطان مصر وسوريا الجديد ان يصالحهم على ان يسلم لهم الجزء الاكبر من بيت المقدس، ويطلق سراح الاسرى المسيحيين، ويعيد الصليب. وطلب الصليبيون ان يتقاضوا بالاضافة الى ذلك غرامة حربية، ولكن الكامل رفض هذا الطلب، وبدأت الحرب من جديد، ولكنها لم تجر كما يشتهي الصليبيون، فلم يأتهم ما كانوا ينتظرون من المدد. ثم عقدت هدنة تدوم ثماني سنين رد الى الصليبيين بمقتضاها الصليب الحق، ولكن دمياط اعيدت الى المسلمين، وجلا جميع الجنود المسيحيين عن ارض مصر.

وعزا الصليبيون هذه المأساة الى فردريك الثاني امبراطور المانيا وايطاليا الشاب، ذلك انه اقسم يمين الصليبيين في عام 1215، ووعد ان ينضم الى الجيوش المحاصرة لدمياط، ولكن المشاكل السياسية القائمة وقتئذ في ايطاليا، مضافا اليها في اغلب الظن ضعف ايمانه، لم يمكناه من ان يبر بقسمه ووعده.

3- حبرية البابا غريغوريوس التاسع 1227-1241

خلف البابا هونوريوس على الكرسي البابوي، الكاردينال هوغولن، كردينال-اسقف اوستي، في 19 اذار 1227، واتخذ اسم البابا غريغوريوس التاسع. كان هذا البابا سلسل عائلة سونيي Segni، وقريب للبابا انوسنت الثالث، وكان طاعنا في السن اذا بلغ الثمانين من عمره، ولكن مليء بالحيوية والغيرة للدفاع عن حقوق الكنيسة، مما جعل المؤرخين يقارنوه بسلفه الشهير غريغوريوس السابع. وكما ان غريغوريوس دخل في صراع بدون هوادة مع عدوه هنري الرابع، سيدخل غريغوريوس التاسع في صراع مماثل، وبنفس الارادة والحماس، ضد عدو ليس اقل خطورة، فردريك الثاني؛ وجد غريغوريوس المساندة في صراعه عند الرهبان السسترسيان، بينما سيجد غريغوريوس التاسع المساندة عند الرهبانيات المتسولة.

اول مهمة اراد غريغوريوس ان يتمها هي مواصلة العمل من اجل تنظيم الحملة الصليبية، التي نصت عليها معاهدة سان جرمانو، والتي حددت مغادرتها للشرق الى شهر اب 1227. وكان عليه اولا ان يضع حدا للاعذار التي كان يجدها فردريك في القيام بهذه الحملة. فكتب له رسالة اولى، في 23 اذار، اخبره فيها عن انتخابه، وطلب منه الالتزام باتمام نذره في اسرع وقت وبدون تأخير، وان يأخذ هو بنفسه ادارة الحملة. وفي رسالة ثانية، وجهها له في 8 حزيران، من انياني حيث كان يقيم البابا، شدد البابا على ذلك، ونبه الملك الى ان ذلك يتطلب ايضا حالة النعمة،

مشيرا الى بعض تصرفات فردريك المشينة. كما ووجه البابا برسالة الى جميع الاساقفة طلب فيها ان يشجعوا كل من نذر بحمل الصليب باتمتم نذره.

وجدت نداءات البابا استجابة. واخذ فردرديك يعد في جد، فأنشأ اسطولا عظيما، وحشد ما بين اربعين الى ستين الفا من المحاربين الصليبيين في برنديزي بقيادة لويس التورنجياني Louis de Thuringia ، لكن وباء الطاعون المروع فشا في جيشه، مات منه الالاف، وفرّت من الجيش الكثير. واصيب بهذا الوباء الامبراطور نفسه، وكبير قواده لويس التورنجياني. ومع هذا فقد اصدر فردريك امره بالرحيل، ومات لويس، وساءت حال فردريك، واشار عليه اطباؤه ومن كان معه من كبار رجال الدين بان يعود الى ايطاليا، فعمل بمشورتهم، طلبا للعلاج.

يقول بعض المؤرخين بأن مرض الامبراطور كان مفتعلا؛ لأن مرضة لم يكن خطيرا ولم يدم طويلا بعد عودته. واتخذ ذريعة موت كبير قواده لويس، وأرجأ الحملة، وعيّن قائدا اخر واعدا بالخروج الى الحرب في شهر ايار من السنة القادمة. فعاد معظم الصليبيين الى ديارهم.

لم وصلت هذه الاخبار الى البابا غريغوريوس، ثار، ونفذ صبره مع فردريك، فلم يستمع الى اقوال واعذار رسل فردريك، واعلن، من انياني، الحرمان ضد الامبراطور في 29 ايلول 1227، ووجه رسالة بابوية الى العالم المسيح، كشف فيها سوء تصرف فردريك: وعوده الكاذبة، عدم الوفاء بحلفان يمينه، وبتمثلية برنديزي ليعود ويجتمع في اصدقائه المنحرفين. وحمّل الامبراطور مسؤولية فقدان مدينة دمياط في مصر، وامر الاساقفة باعلان هذا الحكم في ابرشياتهم.

اثار قرار الحرمان غضب فردريك. فاصدره في 6 كانون اول 1227، منشورا رد فيه على اتهامات البابا، واعلن انه لم يتخلى عن فكرة الصليبية، وانه يفكر بالانضمام الى الحملة في شهر ايار من السنة القادمة. وعز ضياع دمياط الى سوء تصرف الصليبيين وخصوصا مبعوث البابا.

وفي مجمع عُقد في روما في خميس الاسرار (23 اذار 1228) جدد البابا حرمان الامبراطور وحرم كل الاماكن التي يأوي اليها.

ثلاثة اسابيع بعد الفصح قامت مجموعة من الغوغاء بقيادة عائلة فرنجيباني Frangipani، الموالية للامبراطور، باعتراض موكب البابا اثناء انتقاله من كنيسة اللتران الى كنيسة القديس بطرس، واهانة البابا، مما اضطره الى ترك روما، والذهاب الى ريتي Rieti؛ ومن هناك وجه الى الامبراطور رسالة توبيخ. وهكذا استمر ملف الصراع بين الكهنوت والامبراطورية، وسينتقل هذا الصراع الى الشرق، بخروج الامبراطور الى الحرب الصليبية.

الحرب الصليبية السادسة: حملة فردريك (1228–1229)

بعد سبعة اشهر من ذلك الوقت ابحر فردريك (1228)، وهو لا يزال مطرودا من حظيرة الكنيسة، على رأس الحملة الصليبية السادسة. فلما سمع البابا بوصوله بلاد الشأم أحل رعايا فردريك وابنه هنري من يمين الولاء لهما، وأخذ يعمل لخلع الامبراطور. عدّ نائب فردريك في ايطاليا هذه الاعمال اعلانا للحرب من جانب البابا، فهاجم الولايات البابوية. ورد غريغوريوس على ذلك بأن ارسل جيشا لغزو صقلية.

لما وصل الى فلسطين لم يلق اية معونة ممن فيها من المسيحيين، فقد وصل رهبان فرنسيسكان مدينة عكا بعد ان وصلها فردريك بزمن قليل، وحرما على كل رجل في صفوف المسيحيين ان يطيع امر الامبراطور المحروم. فاعرض هؤلاء عنه. فلما رأى الامبراطور ما فعلوا ارسل رسله الى الملك الكامل، وكان يقود جيش المسلمين في نابلس، ورد عليه الكامل ردا جميلا، واعجب فخر الدين سفير السلطان بما رآه من معرفة الامبراطور بلغة العرب وأدابهم، وعلومهم، وفلسفتهم، وشرع الحاكمان يتبادلان المجاملات والآراء، ولشد ما دهش المسيحيون والمسلمون على السواء حين وقعا في عام 1229 معاهدة اعطى الكامل بمقتضاها فردريك مدن عكا، ويافا، وصيدا، والناصرة، وبيت لحم، وجميع مدينة بيت المقدس ما عدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة المقدسة عند المسلمين. واجيز فوق ذلك للحجاج المسيحيين ان يأتوا الى هذا الفضاء ليؤدوا فيه صلواتهم في موضع هيكل سليمان، وسمح للمسلمين بمثل هذه الحقوق في بيت لحم. ونصت المعاهدة فوق ذلك على اطلاق جميع الاسرى من الطرفين المتعاقدين، وتعهد كلاهما ان يحافظ على السلم عشر سنين وعشرة شهور. وهكذا افلح الامبراطور الطريد فيما عجز عنه المسيحيون في مائة عام كاملة، والتقت الثقافتان المسيحية

والاسلامية فترة من الزمن وهما متفاهمتان، تحترم كلتاهما الاخرى ووجدتا ان في وسعهما ان يعيشا معا في صفو ووئام. واغتبط سكان الارض المقدسة المسيحيون.

ولم يجد فردريك من رجال الدين من يرضى بتتويجه ملكا على بيت المقدس، فما كان منه الا ان توج نفسه في كنيسة القيامة. واعلن اساقفة قيصرية ان وجود فردريك في القبر المقدس والمدينة قد دنسهما، فحرما اقامة الخدمات الدينية في القدس وعكا.

وترامى الى بعض فرسان المعبد ان فردريك يعتزم زيارة مكان عماد المسيح في نهر الاردن، فبعث برسالة سرية الى الكامل يقول فيها ان الفرصة قد واتته لأسر فردريك. فما كان من القائد المسلم الا ان بعث بالرسالة الى فردريك. واراد فردريك ان يرفع الحرمان عن مدينة القدس، فغادرها في اليوم الثالث بعد تتويجه، وسافر الى عكا، وفيها اخذ الشعب يلقون عليه الاقذار وهو خارج منها الى سفينته.

ولكن غريغوريوس التاسع نادى بأن تلك المعاهدة اهانة للعالم المسيحي، وابى ان يقرها. ولما رجع فردريك الى بلاده استولى النبلاء المسيحيون المقيمون في فلسطين على بيت المقدس، وعقدوا حلفا بين القوة المسيحية في آسيا، وبين امير دمشق المسلم ضد سلطان مصر المسلم (1244). واستنجد سلطان مصر باتراك خوارزم، فخف هؤلاء لنجدته واستولوا على بيت المقدس ونهبوها، وقتلوا عددا كبيرا من اهلها. وبعد شهرين من ذلك الوقت هزم بيبرس المسيحيين في غزة، وسقطت مدينة بيت المقدس مرة اخرى في ايدي المسلمين (تشرين اول سنة 1244).

ولما وصل فردريك برنديزي جهز جيشا فيها من فوره، وزحف به ليسترد المدن التي استسلمت للبابا. وهرب جيش البابا امامه، وفتحت له المدن ابوابها، ووقف فردريك عند حدود الولايات البابوية، وارسل الى البابا يدعوه الى الصلح، فاجاب البابا دعوته ووقعا سلام سان جرمانو- سبيرانو San Germano- Ceperano (1230)، والُغي قرار الحرمان، مقابل ان يقوم الامبراطور بالتعويض عن الاضرار التي سببها بالحرب. ورفرف لواء السلم الى حين.

حرمان فردريك الثاني

ساد السلام عدة سنوات، فمنح الوقت الامبراطور ليعيد تنظيم ممالكه. فرفع مملكة صقلية الى مستوى حياة عالية، وجعل منها دولة قوية مركزية، تحت ادارة حاكم مطلق، وموظفين محليين.

وفي المانيا اخمد تمرد ابنه هنري السابع، عام 1235، ووجه صراعه ضد المدن اللمباردية التي ناصرته، عازما على وضع حد لمحاولتهم الاستقلال، وفرض سلطة الامبراطورية على ايطاليا. فانهزم امامه الحلف اللمباردي عام 1237، وكان الحلف مستعدا لعقد معاهدة سلام، الا انه كان يرفض الخضوع بلا شروط. ووجد الحلف له حليفا جديدا في شخص البابا.

كان فردرديك في هذا الوقت قد اغتصب مرارا حقوق الكنيسة. فزوج ابنه الغير شرعي انزيو على وريثة عرش ساردينا، التي كانت تُعتبر اقطاعية بابوية، واعلنه ملكا عليها. اقتنع البابا امام تعديات الامبراطور الذي كان يبغي دائما الى جعل روما عاصمة للامبراطورية، ويضع البابا في موقف لا حول له فيه؛ فلم يبق امام البابا سوى الدفاع المستميت، فانضم الى العصبة اللمباردية، واصدر منشورا عاما شديد اللهجة، اتهم فيه الامبراطور بالكفر والتجديف والاستبداد، وبالرغبة في القضاء على سلطة الكنيسة، ثم حرمه في 20 اذار 1239. وامر اساقفة الكنيسة بالاعلان عن فردريك خارج عن القانون ومحروم، واعفى رعاياه من يمين الولاء التي اقسموها له. ورد فردريك على هذا برسالة بعث بها الى ملوك اوروبا ينفي فيها تهمة الكفر، ويتهم البابا بانه يريد ان يُخضع جميع الملوك لسلطان البابوية.

استفحل الصراع بين الامبراطورية والبابوية، ورأى فردريك في حرمان البابا اعلانا للحرب، فاحتل اجزاءا من الولايات البابوية. فشجع البابا اهل فيسنسا على احتلال البوليا L'Apulie، وحتى على اختيار امبراطورا اخر. الا ان ذلك لم ينجح. فقد اظهر ملوك اوروبا عطفهم على فردريك، ولكنهم لم يهتموا بما طلبه منهم من معونة. كذلك انحاز اعيان المانيا وايطاليا الى جانبه، لانهم كانوا يرجون ان يعيدوا مدنهم الى طاعتهم الاقطاعية؛ اما في المدن نفسها فقد انحازت الطبقتان الوسطى والدنيا بوجه عام الى جانب البابا، وعادا الى الوجود حزبا بيلنج ووالف Waiblin et Welf، بعد ان تحولتا الى جبلين وجلف Ghibelline et Gulf، ليدلا اول اللفظين على انصار الامبراطورية، والثاني على المؤيدين للبابوية. ولم تخل روما نفسها من هذا الانقسام، فقد كان فيها كثيرون من المؤيدين لفردريك؛ ولما ان اقترب من روما

بجيش صغير، اخذت المدن واحدة بعد واحدة تفتح له ابوابها لانها رأت فيه قيصرا ثانيا. وتوقع البابا ان يلقى القبض عليه، فاخترق العاصمة على رأس موكب حزين من رجال الدين. وتأثرت قلوب الرومان بشجاعة البابا الشيخ وضعفه، وعمد الكثيرون منهم الى اسلحتهم للدفاع عنه. ولم يشأ فردريك ان يحسم الموقف في ذلك الوقت، فمر بروما دون ان يدخلها وقضى الشتاء في فوجيا.

اراد البابا بعد مدة عقد مجمع عام في روما، كان الامبراطور قد دعى اليه سابقا ليبرىء نفسه. ولكن هذه المرة منع الامبراطور عقد هذا المجمع؛ واعترض اسطوله قافلة بحرية من جنوى تنقل الى روما مجموعة من الكرادلة والاساقفة ورؤوساء الاديرة، والكهنة الفرنسيين والاسبان والايطاليين، وحجزهم فردريك في ابوليا ليتخذهم رهائن يساوم بهم؛ وما لبث ان اطلق سراح الفرنسيسسن منهم، ولكنه اطال احتجاز الباقين، ومات عدد منهم في السجن، فارتاعت اوروبا التي طالما رأت ان رجال الدين متحصنون يجب الا يعتدى عليهم، وكُثر عدد الذين اخذوا يعتقدون ان فردريك هو المسيح الدجال الذي تنبأ بظهوره يواقيم الفلوري الصوفي منذ بضع سنين. وعرض فردريك ان يطلق رجال الدين اذا رضي البابا غريغوريوس ان يعقد معه الصلح، وان يرفع عنه الحرمان دون أي تعويضات، وهذا ما يخالف الحق القانوني، وان يواصل حملته العسكرية لاخضاع كل المدن الايطالية. ورفض البابا ذلك وظل على موقفه لا يتزجزح حتى وفاته المنية في 21 نيسان 1241، على عمر يناهز الخامسة والتسعين، في الوقت الذي بدأت فيها غزوات المنغول تهز اركان اوروبا الشرقية.

كانت حبرية البابا غريغوريوس التاسع، التي دامت اربعة عشرة سنة ونصف، سلسلة طويلة من المحن والصراعات، ونستطيع ان نقول عنه انه مات في ساحة الحرب، دون ان يضعف او يستسلم ولو للحظة.

4- حبرية البابا شليستينوس الرابع 1241

شهرين بعد موت غريغوريوس التاسع، أي في 25 تشرين اول 1241، تم انتخاب خليفة له اسقف سابين Sabine، غوديفري كاستليونه Gedefroy Castiglione، واتخذ اسم شلستينوس الرابع. وكان هذا رجلا مسالما، محبا للصلح والوفاق، ولكنه كان مريضا، فمات قبل ان يتم تنصيبه بابا، بعد ستة عشرة يوما من حبريته في 10 تشرين ثاني 1241.

5 -حبرية انوسنت الرابع 1243- 1254

رغب الكرادلة الحفاظ على استقلالهم في انتخاب البابا، فغادروا الى انياني، ولم يقبلوا البدء في انتخاب البابا، الا بعد ان يُبعد الامبراطور جيوشه التي كانت تحاصر روما، ويُطلق سراح اثنين من الكرادلة الذين اعتقلهم الامبراطور. رفض فردريك الثاني هذه المطالب، وحاصر روما ونهب ضواحيها مدة ستة عشرة شهرا، بقي خلالها الكرسي الرسولي فارغا.

اخيرا تنازل الامبراطور عن موقفه، وابعد جيوشه واطلق سراح الكردينالين. وفي 25 حزيران 1243، انتخب الكرادلة المجتمعون، الكردينال سيمبالدو فيسكي Simbaldo Fieschi، باسم البابا انوسنت الرابع.

كان هذا الاختيار موفقا، اذ كان البابا الجديد ينتمي الى عائلة قوية من عائلات جينوى، وكان قانونيا مشهورا، ومعلما سابقا للقانون في جامعة بولونيا، وكان يُعتبر صديقا للامبراطور. لذلك قال الامبراطور عندما سمع نبأ انتخابه: "اعتقد بأني خسرت صديقا بين الكرادلة، ووجدت عدوا في البابا".

شعر فردريك ان البابا الجديد، وهو لا يزال في عنفوان عمره، المحنك والماهر، لن يتنازل عن أي من حقوق البابوية، ولا عن صداقته مع اللمبارديين، ولا عن الممالكات التي اغتصبها فردريك. وبما انه هو نفسه لم يكن ايضا مستعدا للتضحية عن مكاسبه التي كانت مهمة له ليحافظ على حلقة وصل بين مملكة الصقليتين وبين المانيا، لذلك تنبأ على ان الصراع سيستمر.

بقي هذا البابا طوال حبريته امينا للافكار التي كتبها من قبل وهي: "إن الباباوات، بما هم خلفاء بيسوع المسيح، الملك الحقيقي والكاهن الحقيقي بحسب رتبة ملكيصادق، تلقوا الملكية السياسية والملكية الحبرية في الوقت نفسه، اي

السلطان الارضي والسلطان السماوي". هذه العبارة تلخص العقيدة التي جابه بها الكرسي الرسولي الامبراطورية، في صراع يائس دام احدى عشرة سنة هي سنوات حبرية انوسنت الرابع.

ان اول تدبير اتخذه انوسنت ابرامه سلاما مع فردريك في 1244. وكان القديس لويس، ملك فرنسا، قد حثّ البابا على اعتماد هذا الحل السلمي الذي ظهر عديم الجدوي. وعندما دعا فردريك البابا الى ناربي للقائه والاتفاق على جميع المسائل العالقة، رفض انوسنت الدعوة وهرب الى فرنسا حيث دعا الى عقد مجمع في ليون (1245). انزل هذا المجمع الامبراطور فردريك الثاني عن العرش وحرمه؛ وحدد قوانين المحاكمات الكنسية، كما قرر ارسال مساعدات الى المسيحيين الشرقيين. كما درس المجمع موضوع احتضار الامبراطورية القسطنطينية اللاتينية، وسقوط اورشليم وموضوع اعادة التنظيم الكنسي.

توجه الامبراطور الداهية الى لويس التاسع، القديس، فسأله ان يتدخل حَكَما بينه وبين البابا. قَبِل لويس الدعوة، الا ان فردريك لم يف بوعد من وعوده، وظل يضطهد رجال الكنيسة المخلصين للبابا، وبلغ به الأمر ان فرض عليهم ضريبة ليجمع اموالا ضخمة بهدف اعداد حرب على البابا. اما البابا فاطلق مشروع حملة صليبية ضد الامبراطور.

وبينما كان انوسنت الرابع يدعو الى حرب صليبية علىفردريك الثاني ويعرض على كل من يقاتلون الامبراطور في ايطاليا نفس المنح والمزايا التي يمنحها من يخدمون في الاراضي المقدسة، نظم لويس التاسع او القديس لويس ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة. وبذل الملك جهده للتوفيق بين انوسنت وفردريك حتى تلقى الحملة الصليبية تأييد اوروبا متحدة. لكن انوسنت رفض وساطته، وزاد على هذا الرفض ان بعث راهبا يدعى جيوفني ده بيانو كربيني Giovanni de Piano Carpini الى خان المغول الاعظم يعرض عليه اتحاد المغول والمسيحيين على الاتراك. ورد عليه الخان بأن طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول. وفشلت الحملة الصليبية على القدس.

شجع موقف البابا الحازم المدن الايطالية، فاعلنت الحرب على الامبراطور. وجاءت الحرب في البدء لصالح الامبراطور ومؤيديه، الا ان جيش مدينة بولونيا Boulogne هزم في النهاية جيش فردريك الذي كان يقوده ابنه الطبيعي، إنزو الذي وقع اسيرا (1249). وفي 13 كانون الاول 1250، مات فردريك نتيجة اصابته بمرض الزحار (ديزنطاريا)؛ وبعد ان قَبِل الحل من اسقف باليرمو، واوصى بدفع مبلغ 100 الف قطعة ذهب من اجل حملة صليبية الى الشرق، واعادة ممتلكات الكنيسة. دُفن في كاتدرائية عاصمة صقلية.

على اثر موت فردريك عاد انوسنت الى رومة، وهو يطلق الحرم تلو الحرم في كل اتجاه، ويخوّل السلطة المدنية استخدام التعذيب في محاكمة الهراطقة.

لم يصب انوسنت الرابع منزلة رفيعة كبابا، فقد انشغل بالسلطان الزمني اكثر من اهتمامه بالسلطة الروحية. غادر رومة باتجاه صقلية وغايته محاربة مانفريد والاستيلاء على الجزيرة، الا انه لفظ انفاسه في نابولي في 7 كانون الاول 1254.

ج– البابوية من اسكندر الرابع الى بونيفاس الثامن
1294–1254

نتائج صراع الامبراطورية والكهنوت

أُعتبر الصراع بين الامبراطور والكهنوت وكأنه انتهى بعد موت فردريك الثاني (1250). وكان لهذا الصراع نتائج مدمرة لكلا القوتين اللتين تصارعتا: البابا والامبراطور، وكذلك لبلديهما مسرح هذا الصراع: ايطاليا والمانيا.

1. ففي المانيا، ادى الصراع ليس فقط الى سقوط عائلة هوهنشتوفن – الهدف الذي عملت من اجله البابوية – ولكن ايضا الى هدم كل سلطة امبراطورية. فمنذ عام 1250 الى 1273، اي مدة 23 سنة، لم يعد هناك امبراطورا ولا سلطة مركزية. سيصبح الاسياد الاقطاعيون، الحكام الوحيدين. سيعرض التاج الملكي في المزاد، وسيتصارع عليه مدّعي الحق؛ ولمن عُرض عليه اعتبره خيرا لا يحسد عليه. واختفت كل سلطة مركزية، وعمت في كل مكان الفوضى السياسية والاجتماعية: وعمل كل من الاسياد الاقطاعيين، كبارا وصغارا، والاساقفة والفرسان والمدن، على ان يكونوا

مستقلين. وهكذا ستتمزق المانيا الى مجموعة من الدويلات، لا تعرف قانونا الا قانون القوة؛ بينما في بلاد اخرى مثل فرنسا وانكلترا ستتعزز السلطة المركزية وتتقوى؛ وعملت على انهاء الحروب الخاصة بها.

2. في ايطاليا، ادى الصراع الى تحريرها من التسلط الالماني. ولم تنجح عائلة هوهنشتوفن في ابقاء ايطاليا تحت حكمها كما ارادت. بالمقابل لم تتمكن اي سطلة اخرى ان تحل محلها، فلم تتحسن حال البلد. وبينما كان الامراء الغرباء يتنازعون ايطاليا الجنوبية، كانت المدن الشمالية والوسطى تتعرض الى فوضى واضطرابات وحروب بين فريق وفريق، بين حزب واخر، وبين مدينة واخرى، وفي نفس المدينة بين العائلات الشريفة المختلفة. لم ترد ايطاليا ان تكون تحت حكم الاباطرة الالمان، فوقعت بين ايدي مجموعة من الحكام الديكاتوريين اكثر تسلطا منهم.

3. بالنسبة الى البابوية، فقد انتهى الصراع بين الامبراطورية والكهنوت بانتصار كبير للبابوية.

ففي المجال الروحي: حققت البابوية برنامجها الاصلاحي الكنسي، واستطاعت ان تفرض هيبتها وسموها وسلطتها الدينية.

في المجال الزمني: في منعها اتحاد ايطاليا مع المانيا تحت حكم سلطة واحدة، عملت على تأكيد استقلالها كدولة بابوية.

ولكن هذه النتائج الجيدة كان لها وجهها الاخر: فالبابوية – في الواقع – خرجت هي الاخرى ضعيفة من هذا الصراع. فلم تزداد سلطتها الروحية ولا الزمنية، كما كان يُعتقد. فالسلاح الروحي – الحرمان والمنع – الذي استعمله الباباوات مرات كثيرة ولاسباب سياسية اكثر منها دينية، خف تأثيره؛ كما ان هيبة البابوية، التي كانت كبيرة في بداية القرن الثالث عشر، تحت حبرية البابا انوسنت الثالث، تزعزعت اركانها بقوة، حيث كثرت اوقات فراغ الكرسي البابوي (interrègne)، واعتلى اثنا عشر بابا، الكرسي البابوي في مدة اربعين سنة.

ولم يكن حال السلطة الزمنية للباباوات بافضل. فهذه السلطة، بالواقع، لم تكن دائما ثابتة وقوية. كم من مرة، منذ البابا غريغوريوس السابع، اضطر البابابوات مغادرة روما، عاصمتهم، واللجوء الى مدن ايطالية اكثر ضيافة منها: سالرنو، وانياني، وبيروزا، وحتى الذهاب الى خارج ايطاليا: رمس وسانس وليون. وبعد اختفاء عائلة هوهنشتوفن، لم تصبح روما اكثر امانا للباباوات. فقد اصطدموا بمطالب اعضاء الشيوخ بمجلس روما، الذين ارادوا ان يكونوا قوة حاكمة تضاهي سلطة البابا، مما سيدفع الباباوات الى الهرب من روما، انتظارا للهرب الاكبر في ما يُدعى "بالنفي البابلي" في افنيون.

1- حبرية البابا اسكندر الرابع 1254-1261

مات البابا انوسنت الرابع في 13 كانون اول 1254، فاوصد حاكم نابولي ابواب المدينة، ليجبر الكرادلة على البدء حالا في انتخاب بابا جديدا. فانتخبوا في 18 كانون اول الكردينال رجينالد كونتي Conti Reginald وينتسب الى عائلة سيني Segni، ومن اقرباء البابا غريغوريوس التاسع وانوسنت الثالث، واتخذ اسم اسكندر الرابع.

تميز هذا البابا بتقواه وطهارة اخلاقه، وطبعه المسالم، الا انه كان يحب المداهنة Flatérie، مما جعله غير حازم وغير قادر على اتخاذ القرارات. تابع سياسة سلفه وحاول ان يلطفها ما استطاع الى ذلك سبيلا. لذلك مرت حبريته بلا حول ولا قوة للسلطة البابوية لا في المانيا ولا في ايطاليا. فمات في مدينة فيتربو حيث التجيء هربا من ملك صقلية مانفريد، في 25 ايار ايار 1261.

2- حبرية البابا اربانوس الرابع 1261-1264

بقي الكرسي الرسولي فارغا لمدة ثلاث اشهر عقب موت اسكندر الرابع. فخطر جيوش مانفريد ملك صقلية المنتصرة، قسّمت بين الكرادلة الثمانية الموجودين في فيتربو ولهم حق الانتخاب: فالبعض كانوا يميلون الى منح التاج الملكي الى الامير الانكليزي ادموند، بينما رأى الاخرون ضرورة المصالحة مع مانفريد. ولم يتوصلوا الى اتفاق الا عندما انتخبوا بطريرك القدس، جاك بانتاليون، الذي اتخذ اسم اربانوس الرابع، وذلك في 29 آب 1261. وبما ان مانفريد كان مستوليا على ايطاليا، تخفى البابا بشكل راهب وعبر اللماردية ووصل الى بيروزا حيث اقام.

اربانوس الرابع هو ابن اسكافي وضيع من تروا Troyes، لذلك لا يُدين بوصوله الى البابوية لاحد الا الى استحقاقاته. فقد درس في جامعة باريس، ثم تدرج في الوظائف الكنسية من كاهن رعية الى بطريرك القدس. وفي القدس دخل في خلاف مع الرهبانيات العسكرية وخصوصا ال hospitaliers، فذهب الى لقاء البابا لمعالجة الموضوع، وهناك تم انتخابه بابا. بانتخابه اراد الكرادلة اختيار واحدا خارج عن دائرة الموالين الى احد الاطراف المتصارعة في الساحة السياسية والدينية. كما وعرف عنه الكرادلة صفات اخرى، فجانب تقواه ونقاوة سيرته واخلاقه، جميع ايضا حماسا لا يتنازل عن حق، وشخصية بارزة تفرض نفسها.

لم يدم حكمه طويلا لذلك لم يحقق الكثير. اخطأ حين قدم تاج صقلية الى شارل دانجو اخي القديس لويس، وألزمه ان يعترف بأنه تابع للكرسي الرسولي، وبأن لا يتدخل ابدا في شمال ايطاليا. ووعد شارل بان يفي بالالتزام. الا ان شارل، وفي عهد خلفه، خل بوعده وتدخل في لومبارديا كما تدخل في رومة نفسها، حيث حصل على لقب شيخ في مجلس الشيوخ، ليضمن لنفسه وضعا قويا ضد البابا.

اربانوس الرابع هو الذي أنشأ في 1264 عيد القربان الاقدس (جسد الرب). وكان القديس توما الاكويني مستشارا له.

توفي البابا اربانوس الرابع في بيروا في 2 تشرين اول 1264.

3- حبرية البابا كليمنضوس الرابع 1265-1268

بعد اربعة اشهر من فراغ الكرسي الرسولي، أُنتخب الفرنسي Guy Foulquois، بابا، واتخذ اسم كليمنضوس الرابع. وُلِدَ هذا البابا في فرنسا، واتم دروسه في القانون، واصبح محاميا شهيرا ومستشارا للقديس الملك لويس. دخل الحياة الرهبانية بعد وفاة زوجته عام 1247.

كانت سيرة حياته المستقيمة ومهارته الكبيرة في معالجة الامور، قد جلبت اليه الانظار، وصعد بسرعة في سلم الدرجات الكهنوتية: اسقفا لمدينة Puy عام 1256، ورئيسا اساقفة لمدينة نوربون، عام1259، وكردينالا عام 1261، ومبعوثا بابويا الى انكلترا عام 1263، حيث وُكّلت اليه مهمة تلطيف الامور واصلاحها التي تأزمت بين الملك وباروناته حول "الميثاق الكبير" Carta Magna.

وكان الكردينال غي قد عاد لتوه من فرنسا، عندما سمع نبأ انتخابه الى البابوية. وخوفا من مانفريد، حاكم ايطاليا الالماني، تخفى بزي راهب وقطع اللومبارديه، وجاء الى بيروز Pérouse، حيث كانت الاقامة المؤقتة للبابوية، بسبب الاحوال المضطربة في روما.

وكان اوربان الرابع (1261-1264)، لم يئس من الانتصار على مانفرد، طلب الى لويس التاسع ان يقبل الصقليتين اقطاعية من البابا. رفض لويس هذا العرض، ولكنه اجاز لاخيه شارل دانجو، ان يقبل هذا العرض (1264). وفي ايار عام 1265، قام شارل ليسترد ما أُعطي له، فاخترق ايطاليا على راس ثلاثين الفا من الجنود الفرنسيين، ودخل روما واحتلها.

قامت سياسة البابا كلمنضوس الرابع على تعطيل الافعال الخطيرة التي كان يحركها شارل دانجو الذي كان قد بدأ مسيرته السياسية تابعا للكنيسة، ثم صار فيما بعد عدوا لها.

اثار الاستبداد الفرنسي سخط الصقليتين، فاستنجدت بكونرادان Conradin، اخر عضو حي من عائلة هوهنشتوفن، الا ان شارل دانجو هزمه وأمر باعدامه، فنفذ الامر في باليرمو (1268) بخلاف ارادة البابا. ثم قتل شارل زوجة كونرادان واولاده. فكانت خاتمتهم المأسوية هذه احد اكثر الاحداث دموية ووحشية في هذه الحقبة.

ورغبة من البابا في توجيه شهوات شارل الى اهداف اخرى، اقترح عليه استرجاع بيزنطية وإعادة الامبراطورية اللاتينية في الشرق التي زالت حديثا. الا ان الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغس، استطاع اجتناب هذا الخطر.

توفي البابا بعد تلك الحوادث بشهر في مدينة فيتربو في 29 تشرين الثاني 1268.

الفصل الخامس والثلاثون

كنيسة القدس في العصور الوسطى

من القرن العاشر وحتى اواخر القرن الثالث عشر

في عام 969 استولى الفاطميون الشيعة في شمال افريقيا على السلطة في مصر، وبسطوا سيادتهم حتى فلسطين. وكان الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله (996-1021) اشدهم فتكا. فقد امر بايقاف الحج الى البلاد المقدسة واحرق الصلبان حيث عَلِم بوجودها. ومنعت مسيرة احد الشعانين في القدس في اسبوع الآلام. وفي 28 ايلول من عام 1000 امر الحاكم بتدمير كنيسة القيامة، بادعاء ان مراسيم "سبت النور" الفصحية ما هي الا اضاليل. وبحلول عام 1014 نهب او دمر ما يقرب من ثلاثين الف كنيسة ضمن منطقة حكم الفاطميين. ولكن بعد ذلك بقليل سمح للبطريرك نيكوفوروس ان يقيم الصلاة في خرائب كنيسة القيامة. وبعد ذلك بثلاثة عقود عرض الامبراطور البيزنطي تسريح اسرى عرب ممن كانوا في عهدته لقاء السماح بان يعيد موظفون بيزنطيون بناء كنيسة القيامة.

الكنيسة في مملكة القدس الصليبية

كانت حياة المسيحيين في الارض المقدسة ستكون اكثر احتمالا لو لم يزحف السلاجقة من الشرق. ففي عام 1070 سقطت المدينة المقدسة في ايديهم، وفي عام 1071 كسروا شوكة البيزنطيين في معركة "مانتسيكرت". لم يستطع قادة السلاجقة بالطبع تثبيت قوتهم في الديار المقدسة مع وجود النفوذ الفاطمي الذي كان يعود باستمرار. وعندما ظهرت جيوش الصليبيين امام اسوار القدس، كان قد مرّ على استعادة الفاطميين للمدينة عامان فقط.

وصل جيش الصليبيين الزاحف من انطاكيا المحتلة الى مشارف عكا في الرابع والعشرين من ايار عام 1099، وكانت قد اصبحت، بعد ان حصنها الطولونيون في القرن التاسع، مرفأ ذا شأن. وزحف الجيش ومعظمه من الفرسان والمشاة الريفيين بقيادة رايمند السانت غالي، بمحاذاة سفوح الكرمل باتجاه قيصرية. ومن ثم اتجه الى الداخل نحو الرملة، مما ادى الى هرب السكان المسلمين. ووعد الفرسان الصليبيون باعادة بناء كنيسة مار جريس تحت سلطة اسقف اللد. وانتخب الكاهن النورماندي روبرت الرويني اسقفا. ولما كان جيش الصليبيين في عمواس دعاه موفدون من بيت لحم الى مكان ولادة المسيح. فاسرع تانكرد وبالدوين الى هناك، وأستُقبلا استقبالا حافلا. وفي السابع عشر من حزيران شاهد الجيش الرئيسي المدينة المقدسة من جبل النبي صموئيل، الذي دعي منذ ذلك الحين "جبل البهجة".

ان ترقية رجل دين لاتيني الى رتبة اسقف في الارض المقدسة لم يكن متعارضا والاصول القانونية في المفهوم الشرقي للحقوق الكنسية، كما ان اللد لم تكن في يوم من الايام مركزا اسقفيا. اما الانشقاق الذي حصل بين الكنيستين الشرقية والغربية عام 1054 بوضع وثيقة الحرم على مذبح كنيسة اجياصوفيا، فكان يعني بطريرك القسطنطينية فقط. اما بالنسبة الى بطريرك القدس سيمون الذي لجأ الى قبرص، فقد احتفظ بعلاقات ودية مع المبعوث البابوي ادهيمار الذي كان قد قاد جيش الصليبيين الى انطاكيا. اما بطريرك انطاكيا يوحنا اوكسيتس فقد اسرته الحامية التركية وعرضته في قفص على النظار فوق اسوار المدينة. ولما نجح بوهيموند في جعل الضابط الارمني فيروز – الذي كان في خدمة الاتراك – يسلم المدينة عن طريق الخيانة، اعيد البطريرك الى وظيفته. وعندما احتلت مدينة "روجيا" او "سلاميا" على نهر "اورنتوس" (أي العاصي)، وعيّن كاهن من اتباع رايموند واسمه بطرس الناربوني في منصب الاسقف، كان يوحنا اوكسيتوس مستعدا لاجراء خدمة السيامة. وكان ذلك بداية وجود سلطة كنسية لاتينية، خاصة في المدن التي لم يكن فيها اساقفة في السابق.

احتلال القدس

قاومت الحامية الفاطمية في القدس كل هجوم، ووقع جيش الصليبيين في محنة. وكان قوامه 40000 مقاتل. وفي السادس من تموز رأى بطرس دزيديريوس في حلم الموفد ادهيمار الذي كان قد توفي في انطاكيا، واوّل ذلك على انه نبؤة بأن المدينة المقدسة سوف تسقط في ايدي الصليبيين خلال تسعة ايام، فأثار ذلك حماسة صوفية عارمة، وقام

المسيحيون بمسيرة زياح حول اسوار المدينة وهم حفاة، يتقدمهم الاساقفة حاملين الصلبان والذخائر المقدسة، وسط سخرية المسلمين. اما بطرس الناسك الذي تمكن بسعيه الخاص من تجنيد جيش من عامة الشعب، والتوجيه به الى البلاد المقدسة قبل الصليبيين بزمان طويل، لكنه لم يتمكن من الحيلولة دون وقوع المجزرة التي قام بها الاتراك، حيث هلك اتباعه قرب "زيفيتوت"، هذا القى موعظة على جبل الزيتون، ودعا الى المصالحة بين الفئتين المتنافستين — وقد ساعدت حاميات سفن جنوا، كانت قد وصلت الى يافا، في اقامة برجيين خشبيين، دحرج احدهما في اتجاه السور الشمالي، والاخر في اتجاه جبل صهيون. وعندما اقتحم جيش المسيحيين المدينة ذبح قرابة ثلاثين الف مسلم. اما اليهود فجُمعوا في الكنيس الكبير واشعلت فيهم النار. ويذكر المؤرخ رئيس اساقف صور "ان المدينة كانت مسرحا للمجزرة وجريان الدماء الغزيرة بحيث ان المحتلين انفسهم استولى عليهم الذعر والاشمئزاز". وبعد ذلك خلع الفرسان الصلبيون ثيابهم الملطخة، وارتدوا اردية بيضاء ودخلوا القبر المقدس.

كان ادهمار يتصور حكومة كنسية تحت سلطة البطريرك الارثوذكسي سيمون، على ان يكون هو مستشارا باعتباره الموفد البابوي. غير ان سيمون توفي في قبرص قبل سقوط المدينة المقدسة. وكانت السلطة الروحية العليا الارثوذكسية قد تبعت بطريركها الى المنفى. فلم يعد هناك النصاب القانوني لهيئة انتخابية تستطيع ان تختار بطريركا ارثوذكسيا. ولما اقترح فرسان الصليبيين انتخاب ملك، اعترضت السلطة الكنسية اللاتينية على هذا الاقتراح، بسبب اعتبارها الحملة الصليبية مهمة كنسية محضة. وعندما أُنتخب غوديفري دي بيون حاكما للمدينة المقدسة، لم يتخذ لقب ملك، بل أثر ان يسمى "حارس الاماكن المقدسة". وان دلّ ذلك على شيء فانه يدل على التسليم بأن السلطة الكنسية هي العليا في هذا المكان المقدس، ولسان حالهم يقول ليس لاحد ان يحكم ملكا حيث حمل المسيح تاج الشوك.

اول بطريرك لاتيني على القدس

اختار الصليبيون لكرسي البطريركية واحدا منهم هو ارنولف من روخيس، أُعترض على قانونية انتخابه في وقت لاحق لكونه ابنا غير شرعي. عيّن ارنولف عشرين كاهنا عند قبر المقدس، وأعيد تعليق الاجراس. كما تمّ تعيين "قانونيين" من العلمانيين في جامع عمر — والذي سمي "بهيكل الرب". اما الصخرة التي يقدسها المسلمون فقد غطت بصفائح رخامية.

لم يكن لدى المسيحيين الشرقيين أي شعور بوجود شقاق كنسي بين الشرق والغرب، بحيث لم يفكروا قط بانشاء سلطة كنسية خاصة بهم. ولم يمض وقت طويل حتى اقيمت مراكز اسقفية لاتينية اخرى في البلاد المقدسة.

عندما اقترب جيش الصليبيين كان المسلمون قد دمروا جميع الكنائس الكائنة خارج سور القدس، منها كنيسة العذراء في وادي يوشافاط، وكنيسة نياح السيدة العذراء الكائنة على جبل صهيون. وعندما زار رئيس الدير الروسي دانيل قبر العذراء عام 1106، وجد انه لا يزال خرابا. ولكن بعد ذلك بقليل وجد هناك رهبان بندكتيون مدربون على النظام يقيمون الصلاة بالمكان ليل نهار. وفي عام 1100 طلب الامير فرنر شريك غودفري في السلاح ان يدفن بجوار قبر العذارء. اعاد الصليبون بناء كنيسة نياح العذراء المتهمدمة بسرعة، وجعل منها البطريرك مكانا لاقامته. عُزل البطريرك ارنولف لان انتخابه كان مخالفا للحق الكنسي واختير داغوبرت مكانه.

واتخذ بوهيموند باعتباره سيد انطاكيا اجراء اصبح فيما بعد مقدمة للانشقاق الكنسي النهائي بين اليونانيين واللاتين. فقد اصدر امرا بطرد البطريرك اليوناني يوحنا اوكسيتس من المدينة، وعيّن مكانه اللاتيني برنار الفالنسي. انه، وان يكن البطريرك يوحنا قد تنازل عن وظيفته لدى دخوله القسطنطينية، فقد كان ذلك لصالح خليفة ينتخبه اكليروسه المنفي. وقد وضع في دير اوكسيا كتابا دفاعيا ضمنه شكاوي مرة ضد الاضطهاد اللاتيني. وهكذا نشأ التنافس بين السلطة الكنسية اليونانية واللاتينية داخل الاقطار الصليبية.

بلدوين اول ملك على القدس

خلف بلدوين اخاه غوديفري، ولحسن الحظ اتبع بلدوين سياسة كنسية اخرى بعد ان خلف اخاه في السيادة على القدس. اراد البطريرك الاورشليمي داغوبرت ان يحول دون وصول بالدوين الى السلطة، فارسل رسائل الى بوهيموند في انطاكية يدعوه فيها الى التوجه الى القدس، ولكن هذه الرسائل أُعترضت في الطريق ولم تصل الى الجهة المقصودة.

اما بالدوين الذي سارع الى مغادرة اديسا (الرها)، والذي وصل الى علمه ان البطريرك السابق ارنولف ابقى له قلعة داود، فضرب على نهر الكلب جيش المسلمين الذي استهدف اعاقته. وفي عيد الميلاد من عام 1100 قدم الولاء لداغوبرت في كنيسة الميلاد في بيت لحم وجعله يتوّجه ملكا. ولكن بالدوين لم تكن لديه مندوحة من ابقاء الكنيسة تحت رقابته الشديدة. فان الهبات والتقدمات كانت تنهال على الديار المقدسة، لكن ليس للاغراض الدنيوية. لقد اوجدت الكنيسة شبكة حسنة التنظيم في الاقطار الصليبية. ولاجل ان ينجح في السيطرة عليها كان لا يد له من ازاحة البطريرك عن وظيفته. ولما وصل الكاردينال موريس بورتو في فصح عام 1101 مبعوثا بابويا، رفع اليه بالدوين الشكوى بأن أراه رسالة داغوبرت الخيانية الى بوهيموند. منع الكاردينال داغوبرت من الاشتراك في احتفالات عيد القيامة، وقام هو نفسه بالمراسيم. اما داغوبرت فقد عُزل. وبعد مرور اربع سنوات انتهى الامر الى اعادة ارنولف الى كرسي البطريركية في القدس.

بموت بلدوين الثاني عام 1131 انقضى عهد الطلائع الصليبية الاولى. وخلف بالدوين على عرش القدس فولك الذي كان قد تزوج مليسندا ابنة بلدوين. تلا ذلك جيل من الرجال والنساء ممن نشأوا في البلاد المقدسة. اولاد امهات مسيحيات وطنيات، ولا سيما الارمنيات منهن. ووجد هذا الجيل نفسه يعيش في وسط نمط حياة شرقي. انه وان يكن الصليبيون قد حافظوا على الممتلكات المكتسبة وعلى علاقات حسن الجوار مع الامراء المسلمين، فانهم تعرضوا للضغط من القادمين الجدد المولعين بالهجوم.

حياة التنسك وتأسيس الرهبنة الكرملية

حدث في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ان انتقل التنسك الغربي الى مملكة القدس وكان قد ازدهر من جديد، بالمقابلة مع اديرة الراحة والسعة التي انتشرت في غابات اللورين وشمال ايطاليا وكلابريا. ويخبرنا يعقوب دي فتري عن ذلك بقوله: "انكر بعض الرجال القديسون العالم واختاروا، حسب ميل كل منهم، امكنة للاقامة تلائم غايتهم وتقواهم، فبعضهم مثلا ممن استهواهم مثال الرب اختاروا البقعة الصحراوية المعروفة باسم قرنطل، حيث صام ربنا اربعين يوما كي يعيشوا حياة التنسك هناك. وكانوا يخدمون الله في صوامعهم المتواضعة باسلوب كان غاية في الشجاعة. وبعضهم الآخر عاشوا حياة نسك تقليدا للناسك القديس النبي ايليا على جبل الكرمل، خصوصا في الناحية المشرفة على مدينة بورفيرا (حيفا الحالية) بقرب نبع ماء تسمى عين ايليا الكائنة على مقربة من دير القديسة العذراء مرغريتا (والذي كان يقيم فيه رهبان يونانيون)، وكانوا يقيمون في صوامع تشبه خلايا النحل، على اعتبار انفسهم نحل الرب الذي يقدم حلاوة روحية كالعسل".

فيما بعد، عندما عجز الصليبيون عن الاحتفاظ باكثر من شريط ساحلي قرب عكا، لم يبق للنساك سوى بقعة الارض الوحيدة الصالحة للحياة بموجب دعوتهم السامية، أي الكرمل. طلب هؤلاء من البطريرك الاورشليمي البرت المقيم في عكا ان يضع لهم قاعدة للسلوك، كان ذلك قبل عام 1214، ولا يدري متى على وجه التحديد، وكان سابقا يعمل اسقفا لفارتشيلي، وانتخبه قانونيو القبر المقدس بطريركا لهم في عام 1204. وفي عام 1214 قضى هذا البطريرك مطعونا في اثناء مسيرة عيد ارتفاع الصليب. وكانت قاعدة الحياة التي وضعها البطريرك البرتس منشأ الرهبنة الكرملية التي انتشرت بفضل انتشار رهبان الكرمل بعد رجوعهم في اقطار اوروبا كلها، وتهدف هذه القاعدة الى تقليد نمط حياة الرهبان الفلسطينيين في المجتمعات الرهبانية (لافرا) في القرن الخامس.

تأسيس الرهبانات العسكرية

ان اهم التجديدات وابلغها تأثيرا في الحياة الكنسية والسياسية في مملكة القدس كان تأسيس رهبنات الفرسان. ان هؤلاء الرهبان الذين انذروا الفقر والعفة والطاعة، كانوا في الوقت نفسه محاربين. لم يكونوا كسواهم يسفكون دما بشريا في سبيل مكاسب مادية، وبما انهم كانوا متمرسين في القتال وعلى اهبة الاستعداد دائما اصبحوا قوام المملكة وعمادها. ان النظام الصارم الذي كانوا يتبعونه جعل من الممكن انشاء قوة هجومية جماعية في ساحة القتال، على عكس نمط المحارب الفردي الذي كان يتبعه سادة الاقطاع.

فرسان مار يوحنا: في عام 1070 اسس مواطنون اتقياء من "امالفي" (ايطاليا) نزلا في القدس للعناية بالحجاج الفقراء. وجعل الوالي المصري انذاك الحرية لقنصل امالفي في اختيار البقعة لاقامة المبنى عليها. وقد جرى تكريس المؤسسة الاولى على اسم القديس يوحنا الرحيم بطريرك الاسكندرية، واحد رعايا قبرص في عهد الهجوم الفارسي. وكان محبوبا في القدس لأن البطريرك صفرونيوس مؤلف سيرته كان يعمل معه. اما المعلم غيرهارد الذي كان يقود رهبان امالفي القائمين على خدمة ذلك النزل، فقد طردته الحامية المصرية من المدينة المقدسة قبل ان بدأت محاصرة جيش الصليبيين للمدينة. وقد ساعد السادة الجدد بفضل معرفته للمكان، وحثهم غيرهارد على الاهتمام بمؤسسته والتبرع لا. وانضم كثير من الحجاج الى رهبان المستشفى الامر الذي مكنهم من التحرر من وصاية البندكتيين وتنظيم رهبنة مستقلة. وكان ذلك المستشغى يستقبل في القدس ما يقرب من الفي مريض للعناية الطبية يوميا. غير ان ريموند لي باي خليفة غيرهارد وجد ان العناية بالحجاج المرضى لا تكفي. كان يترتب عليهم ان يقاتلوا في سبيل ابقاء الطريق الذي يسلكه الحجاج مفتوحا. ولبلوغ هذه الغاية اصبح الان الواجب الاول يقع على عاتق الرهبان المحاربين. وبدلا من القديس يوحنا الرحيم التابع للكنيسة للكنيسة الشرقية، اختاروا البشير يوحنا شفيعا سماويا لهم.

فرسان الهيكل: ان تطور جميعة مار يوحنا لتصبح رهبنة فرسان خضع للتيار الفكري لجمعية سادة الهيكل التي تأسست بعد جيل من الزمن والتي سميت بهذا الاسم بسبب وجودها في ساحة الهيكل. لقد سطعت فكرة رهبنة الفروسية "النقية" مثلا اعلى، وقد قبل المجتمع المسيحي فكرة الفروسية الرهبانية من الناحية الخلقية. ووافقت الكنيسة على الفارس المحارب بان وضعت تحديدا للغايات التي تمكّن من شرعية استعمال السلاح. تقول المادة التاسعة من نظام الهيكليين العام: "ايها الاخوان المحترمون! الله معكم، لانكم نذرتم ان تحتقروا الدنيا الغادرة بسبب محبة الله الابدية. لا يجفلكم خوض المعركة لانها تلي خدمة العبادة مباشرة حيث تكونون مملوئين ومقدسين بقربان جسد الرب وحيث تستمدون القوة من وصايا الرب المقدسة، بل بالحري اعدوا انفسكم لتاج الشهادة". ان المنشور اللاهوتي الذي اعده القديس برنارد من كليرفو والمسمى "مدح الفرقة الجديدة" والذي يضم مادة عظته للحملة الصليبية الثانية، كان مستمدا من نظام الهيكليين. وقد تأسست هذه الرهبنة في عهد بالدوين الثاني.

الفرسان التيونيون: تعود اول خطوة في انشاء رهبنة فرسان عرقيّة الى ان الاقلية الالمانية بين الصليبيين لم تكن راغبة في ان تمتصها الحضارة الفرنسية السائدة في المملكة الصليبية. وكان من نتائج ذلك ان تأسس مستشفى الماني بادارة جمعية مار يوحنا. ولم تتأسس رهبنة الفرسان الالمانية الا بعد ان هبّت اوروبا المسيحية الى الحملة الصليبية الثالثة، وساند فريدريك امير مقاطعة شفاين الخطوات الاولى وايدها البابا كليمنس الثالث في عام 1191. وسار الالمان على قاعدة الهيكليين.

الكنيسة والرهبانيات العسكرية:

بما ان الرهبان الفرسان لم يكونوا يدينون بالطاعة الا للبابا، لم تنشأ خلافات مع الملك، انما حصلت توترات مع السلطة الدينية المحلية. ولم يتأخر البابوات عن منح المزيد من الامتيازات لرهبان الفرسان باستمرار. بدأ ذلك بالرسالة التي اصدرها البابا باسكال الثاني عام 1113 لصالح رهبنة مار يوحنا، ورسالة البابا اينوشنسيوس الثاني عام 1139 للهيكليين. اما الاستفادة من هذه الامتيازات فكانت بمثابة تجربة مستديمة بالنسبة الى الرهبنة. وهكذا يسمح بان يلتحق بها نبلاء مقيمون دون ان يقسموا قسم الرهبنة، ممن كانوا في السابق يحسنون الى الكنيسة، اما الآن فانهم ينفقون على رهبنة الفرسان. وصارت الرهبنة تدّعي حقوقا كنسية وجعلت تسلب الطوائف المحلية دخلها. وعند الدفن كان الناس يؤثرون مقبرة رهبنة مار يوحنا. اما البطريرك الذي كان قد بارك المجموعة الاولى للهيكليين املا في مساندة الرهبنة لسلطته، اصيب بخيبة امل عندما لاحظ انه لم يعط اية صلاحيات لاصدار تعليماته وقد ورد سيل من الشكاوي ضد هذه الرهبنة الى مجمع اللاتران الثالث عام 1179.

لقد وجدت فروسية القرون الوسطى هويتها في رهبنة الفرسان. وكانت الرهبنات تجند اعضاءها ايضا من طبقات النبلاء المتوسطة في اوروبا، وكانوا يرون من خلال الالتحاق بالرهبنة مجالات للصعود. ولم يطل الوقت حتى ابتاعوا بيوتا في الغرب، غير ان مراكز القيادة كانت منحصرة في الديار المقدسة. ان الفرسان الذين كانوا مقيمين في المملكة والبالغ

عددهم حوالي 670 فارسا، والذين كان من واجبهم القيام بالخدمة العسكرية، لم يكن بامكانهم ابدا ان يلبوا متطلبات الحرب الدائمة. جعل فرسان الرهبنة يحتلون قلاع الصليبيين شيئا فشيئا. وبدأ ذلك عندما سلّم الملك فولك قلعة جيبيلين الى رهبنة مار يوحنا عام 1137. وفي عام 1152 سلّمت غزة الى الهيكليين واخيرا ايضا عسقلان. وكانت قلاع القرن الثالث عشر الجديدة كلها ملكا للرهبنة، واصبحت المملكة افقر من ان تقوم بتشييد ابنية جديدة وتنفق على صيانتها. فقلعة الحجاج التي بوشر في بنائها في عام 1218، وصفد التي اقيمت في عام 1240 كانتا قلعتي ملك الهيكليين.

اديرة النساء

قامت نساء البيت المالك بدور مهم، فالمملكة مليساندة انصرفت في كبرها الى الاعمال الصالحة، اما اختها الصغرى جوفيتا التي لم توفّق في العثور على زوج فدخلت دير القديسة حنة وأسس بسببها دير قرب العيزرية على سفح جبل الزيتون، تخليدا لذكرى العازر واختيه، وقد اصبح بفضل الكروم في اريحا اغنى اديرة الارض المقدسة. اما جوفيتا التي اختيرت لتصبح رئيسة الدير وهي ابنة اربع وعشرين سنة، فقد احتلت في خلال حياتها الطويلة مركزا مرموقا، وقد ربّت في ديرها ابنة ابن اخيها (او ابنة ابنة اخيها او اختها) والتي صارت فيما بعد الملكة سيبيل.

الرهبان الارثوذكس

تابعت مجموعة الرهبان الارثوذكس في دير مار سابا مسيرتها دون ان تتأثر بالوجود اللاتيني. وحوالي عام 1163 اعيد تأليف طائفة من رجال الدين الارثوذكس اليونانيين عند القبر المقدس. وكان وراء هذه الخطوة النفوذ المتنامي للامبراطور البيزنطي مانويل الاول كومينيوس (1143-1180)، والذي كان قد بدأ بعد سقوط الرها، هذا وقد ارسل الامبراطور فنيي فيسفساء الى البلاد المقدسة.

عندما وصل الصليبيون الى البلاد وجدوا المسيحيين الارثوذكس – يونانيين كانوا او عربا – تحت رعاة كنيستهم. اما الكنائس غير الخلقيدونية التي صادفوها في البلاد فكانت غريبة عنهم تماما. كان المسيحيون الارمن والسوريون اليعاقبة من انطاكيا والرها يفوقون الروم الارثوذكس عددا الا في المدن الساحلية. ان فرسان الصليبيين الذين كان احترامهم فرضا لازما ابقوا هذه الكنائس خالية من أي نفوذ للسلطة الروحية اللاتينية. وبما ان الكاثوليكوس الارمني (أي بطريركهم وكان انذاك في كيليكية)، وبطريرك اليعاقبة (وكان يقيم عادة في ماردين او دياربكر) كان الوصول اليهما سهلا، وبما ان لهذين الزعيمين الكنسيين سلطة على المسيحيين الكائنين تحت السيادة الاسلامية، كان الحكام الصليبون يتجهون الى الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الاساقفة الارمن واليعاقبة، فقد اظهروا لكنائسهم تسامحا لكنائسهم تسامحا واسع النطاق.

لكن الوضع في مملكة القدس كان يختلف اختلافا كليا. فقد كان من المتعذر الوصول الى أي من الكاثوليكوس او البطاركة الغير خلقيدونيين. وكان عدد المؤمنين المنتمين لهذه الكنائس في بادىء الامر ضيئلا للسبب الآتي: لما كان الاقباط يحتلون مركزا مرموقا بسبب امتداد السيادة الفاطمية من مصر الى البلاد المقدسة، فقد اضطروا الى النزوح الى مصر عندما شرع جيش الصليبيين في مهاجمة المدينة المقدسة، ورحل بعضهم مع الجيوش المصرية، وكان بينهم ايضا يعاقبة سوريون. وهكذا دخلت طوائف القدس غير الخلقيدونية تحت سلطة البطريرك اللاتيني، وفقدت جميع حقوقها في كنيسة القيامة. وتحوّل كثير من الاديرة السورية الى حوزة اللاتين. وتسلم الفارس غوفيير الاراضي التي كانت ملكا للاقباط. غير ان نظرة الصليبيين الى الاقباط نظرة عداء، وطردهم من البلاد المقدسة بسبب انحيازهم الى جانب الجيوش المصرية لم تدوما ما لا نهاية له. فقد عاد الاقباط الى الملكة وحصلوا على قسم كبير من ممتلكاتهم السابقة بفضل توسط الملكة مليسندا.

وعندما جاءت جيوش الايوبيين المصرية عام 1187 وامتلكت المدينة المقدسة واجزاء واسعة من البلاد، كان بين هذه الجيوش كثير من الاقباط، الامر الذي اوجب تعيين اسقف قبطي في القدس. ولم يكن لغاية هذا التاريخ للكنيسة القبطية طوائف خارج مصر. اما نشوء المستوطنات في فلسطين وسوريا فكان ظاهرة جديدة. وهكذا عيّن البطريرك القبطي كيريلوس الثالث ابن لقلق (1235-1243) اسقفا قبطيا في القدس عام 1237، الامر الذي اثار احتجاج البطريرك السوري اليعقوبي اغناطيوس (1222-1252) فقال: "نحن نعتنق الايمان نفسه وقد كان هناك دائما اسقف سوري في القدس خاضع لبطريكية انطاكيا فلماذا هذا التجديد؟" اجاب البطريرك القبطي كيريلوس:

"ليس لديكم في دير السريان في صحراء مصر سوى طائفة صغيرة قوامها اربعون راهبا، وقد عينتم لهم رئيس دير. فلماذا تعترضون على تعييننا اسقفا للطائفة القبطية في القدس والساحل الفلسطيني كله؟" ومن هذا نستنتج ان المبدأ القانوني القائل "لا يكون في المكان الواحد اسقف واحد" لم يعد معمولا به بسبب الانشقاق الكنسي، غير ان اليعاقبة السريان لم يزالوا يعتبرون انفسهم والاقباط يكونون كنيسة واحدة. اما القبطي كيريلوس فشك في صحة هذا المبدأ، لأن الاختلافات الثقافية واللغوية كانت تشكل صعوبة في سبيل العناية الروحية بالاقباط في البلاد المقدسة.

وقام البطريرك السرياني بعمل مضاد بأن رفع الراهب الاثيوبي توما ال منصب (ايون) متروبوليت اثيوبيا، وان تكن سياسة المتروبوليت الاثيوبي هي من خصائص كرسي الاسكندرية من ناحية الحقوق الكنسية. وهكذا وجد متروبوليتان اثنان في آن واحد في نهاية القرن الثالث عشر في اثيوبيا. وبالطبع لم يستطع الرئيس الروحي الذي اقامه السريان الصمود طويلا.

كان الارمن من بين فئات السكان التي اكتسبت مركزا ممتازا في فلسطين بين دول الصليبيين. وترعرعت بنات امرائهم بينهم في الاسرة المالكة في القدس. فحاكم الرها ثاثول كان قد دعا بالدوين ان يتقدم بجيشه الى الرها. وزوّجه ابنته. وبما ان الصليبيين لم يكونوا يسكنون في ريف الرها، كان الارمن يكوّنون رعايا هذه المنطقة. وقد رضوا بسيادة الفرسان الاوروبيين لان بطريركهم نيرس فسّر سفر دانيال على ان الخلاص سوف يأتي من الفرنجة. هذا مع العلم ان بالدوين الاول اجبر زوجته الارمنية فيما بعد على الاعتزال في احد الاديرة. اما زواج بلدوين الثاني بالارمنية مورفيا فكان اسعد، اذ اكتسبت ابنتها مليسندا نفوذا كبيرا. فبفضل قرانها بفولك الانجوي حصل على شرف الملوكية. وعندما كانت الارض المقدسة بحاجة الى سكان مزارعين، وعد الامير ثوروس بارسال فلاحين ارمن، الا ان الكنيسة اللاتينية اصرت على ان يدفع هؤلاء ضريبة العشر كالرعايا المسلمين، وبناء عليه فشلت هذه الخطة.

وقد جاء اكبر فوج من الارمن الى القدس مع موجة اللاجئين من الرها، وكان بينهم عمال حاذقون. وكان قد اسس في عكا، ميناء فرسان الصليب الرئيسي، مستعمرة زمنية تولت التجارة مع كيليكية وبنوع خاص مع الميناء اجاس. كان للارمن نزل في عكا بقرب باب نقولا سلمه غويدو اللوسينياني في عام 1192 الى رهبنة الفرسان الالمان. واستدعى تكاثر الارمن في قيصرية فلسطين تعيين اسقف لهم. وقد اكتسب احد الحكام الاتباع المدعو "جورج الارمني" لنفسه اسما عظيما.

لما تحوّل مسجد عمر الى كنيسة تابعة لرهبنة الفرسان الهيكليين عام 1142 تقرر عقد مجمع القدس الثاني على جبل صهيون، حضر الكاثوليكوس الارمني غريغور باهلافوني الى القدس، ووقع على صيغة قانون ايمان بهذه المناسبة. واستقبل الملك امالريخ الاول الامير توروس الارمني استقبالا بهيا رائعا في المدينة المقدسة.

ودخل في مملكة الصليبيين ايضا كرجيون وروس. وبعث قائد جوقة الترنيم في كنيسة القيامة أنسو بنبأ الى باريس مفاده ان ارملة الملك الكرجي داود "الذي مملكته لنا سد في وجه الماديين والفرس"، انها قصت شعر رأسها، وارتدت ثوبا دينيا، واخذت معها ذخيرة الصليب وايضا الكثير من المال وتوجهت الى القدس بصحبة مرافقات. ووهبت قسما من الذهب الذي احضرته معها لاديرة المدينة المقدسة، ووزعت الصدقات على المعوزين والحجاج. وبناء على نصح البطريرك دخلت ديرا للراهبات الكرجيات التقيات في القدس، وبعد ذلك بقليل رضيت بان تتولى قيادة الرهبنة نزولا عن رغبة الاخوات والبطريرك".

نهاية الحكم الصليبي

في عام 1142 سقط الملك فولك عن جواده في رحلة صيد ومات متأثرا بجراحه، وعندها توجهت الملكة مليسندا بصحبة ابنها القاصر بالدوين الثالث في عيد الميلاد من عام 1143 الى كنيسة المهد في بيت لحم لكي يتوجهما بطريرك ذلك العهد وليم المسيني. وهكذا تأمنت وراثة السلطة ولكن الملكة لم يكن باستطاعتها تولي شؤون الامارات الصليبية الشمالية بنجاح.

على اثر سقوط الرها في ايدي المسلمين اصيبت اوروبا بصدمة مفزعة. فجال القديس الراهب برنارد كليرفو يعظ في المانيا وفرنسا داعيا بالحملة الصليبية. فهب الملك الالماني كونراد والحاكم الفرنسي لويس للقيام بالحملة الصليبية الثانية. وعندما واجها مضايقة الاتراك، هجرا جيشهما وفرا بحرا الى سان سيمون او عكا وثم وصلا القدس بصحبة

حاشيتيهما. وقد اضفى حضورهما على قصر الملكة مليسندا روعة خاصة. غير ان الامراء الذين تسلموا قيادة الحملة اتخذوا قرارا احمق في تشاورهم في عكا يقضي بالزحف على دمشق، وقد مني هذا الزحف بالفشل الذريع، الامر الذي تسبب في اخفاق الحملة الصليبية الثانية.

في عام 1183 تغيرت مقاييس القوى المسيحية والاسلامية في الشرق الاوسط، اذ نجد صلاح الدين يعمل في توحيد الممالك الاسلامية الواقعة بين دجلة وشمال افريقيا، بينما كان بالدوين الرابع الذي كان يحكم مملكة القدس مصابا بمرض البرص ومشرفا على الوت. وكان لا يزال في مقتبل العمر. ونفذ الامراء رغبة الملك المحتضر في ان يتولى ابن اخته سيبيل الملك خلفا له. فتوج البطريرك هيراكليوس الغلام في كنيسة القيامة. غير ان الطفل توفي ولما يبلغ بعد عامه التاسع. وعلى الاثر تسلم زمام السلطة زوج سيبيل غيدو اللوسينياني. غير انه لم يكن صالحا للقيام بواجبات الملك. فاجتمع الامراء في نابلس ووجدوا انفسهم مرتبطين بقسم مع رايموند الطرابلسي ذي الكفاية والاقتدار الذي عينه بالدوين الابرص قيما على الغلام القاصر. لكن البطريرك هيراكليوس اوصد في وجوههم ابواب القدس وتوّج سيبيل وزوجها الثاني غيدو متجاهلا قسم الامراء، وكان ذلك في يوم جمعة من عام 1186. يقول المؤرخ: "لم يسبق في القدس ان توّج ملك يوم الجمعة، ولا وراء ابواب مغلقة". وبدت توقعات لحصول الكوارث.

في عام 1187 مدد صلاح الدين فترة الهدنة مع الصليبيين ثلاث سنوات اخرى، اعقبت في فلسطين فترة من الراحة والرخاء. غير ان رينالد الشاتيلوني امير الكرك لم يقو على الامتناع عن سلب قوافل الحج المارة بقلعاه، كما قام باحتجاز سفنهم. ولم يتمكن الملك غيدو من محاسبة الامير القوي. وعلى الاثر اعلن صلاح الدين الجهاد ضد الصليبيين.

انقض جيش الصليبيين على صلاح الدين قبل طبريا في منطقة وعرة، ولكن دون جدوى، ثم انسحب الجيش ليلا الى جبل حطين، وكان قد انهكه الحر ونضوب الماء. وأمر صلاح الدين باشعال الادغال الكائنة على التل، وسبب الدخان الكثيف مضايقات لجيش المسيحيين. وبعد قتال بطولي ومحاولات فاشلة للافلات من الحصار واجه الفرسان مصيرهم المحتوم بشكل يعدو الى الرثاء. وضاعت ذخيرة الصليب المقدس التي كانوا قد حملوها معهم. وفي مساء اليوم الثاني للمعركة دمّرت الناصرة ودير جبل طابور. اما مسيحيو الناصرة الذين كانوا قد التجأوا الى كنيسة العذراء فقد قضي عليهم. وفي الثامن عشر من ايلول من عام 1187، بدأ حصار القدس حيث طوّق ستون الفا من البشر معظمهم من النساء والاطفال. لم تكن الحماية العسكرية كافية. أمل المحاصرون في ان يمنعوا وقوع الكارثة باجراء مراسيم توبة خاصة. فاخترقت شوارع المدينة مواكب بقيادة البطريرك هراكليوس. ولكن بعد بضعة ايام تمكن رواد مسلمون من مداهمة السور الشمالي في المكان نفسه الذي دخل منه الصليبيون قبل ثمان وثمانين سنة، وكانوا قد نصبوا انذاك في هذا المكان صليبا يشاهد عن عبد، وقد هوى الان وسمع لسقوطه دوي هائل. ولما كانت الحرب سجالا تفاوض صلاح الدين هو والفارس باليان الايبيليني الذي فرّ من معركة حطين وقاد الدفاع عن القدس. وتمّ الاتفاق على ان يسمح للمسيحيين اللاتين ممن دفعوا الفدية عن انفسهم بمغادرة المدينة بأمان. اما المسيحيون الالف والخمسمئة الذين لم يتمكنوا من دفع المبلغ المطلوب فقد بيعوا عبيدا.

ان محاولة الغرب المسيحي ان يستعيد مملكة القدس بعد الهزيمة المنكرة التي الحقها بهم صلاح الدين في حطين عام 1187، كانت تعتمد على الاحتفاظ بصور كاحدى مدن المملكة المحصنة ضد محاولات صلاح الدين المتكررة لمهاجمة المدينة. وبما ان المدينة لم يصلها بالبر الا شبه جزيرة ضيق ورملي ومحصن بسور عال، كان من العسير على آلات الحصار التي لصلاح الدين ان تصل اليها. بعد عشرة ايام من كارثة حطين رست السفينة التي كانت تحمل كونراد المونتيفراتي اخا زوج سيبيل الاول. ظل كونراد محتفظا بالمدينة حتى جاءت النجدة من الغرب.

توجهت الملكة سيبيل الى طرابلس. وعندما اطلق صلاح الدين المعروف بكرمه ورحابة صدره الملك غيدو بعد ان حلف هذا الاخير على العودة الى فرنسا والا يرجع الى محاربة المسلمين، اسرع الملك الى زوجته. وفي الحال اعفى احد رجال الدين الملك من قسمه معللا ذلك بان كافرا جعله يحلف تحت تأثير الضغط. بالطبع لم تكن صور لتقبل بحكم غيدو. اما مواصلته الجريئة في الهجوم على ميناء عكا لاعادته الى ايدي المسيحيين فاعقبت حروبا مريرة بين المسيحيين الذين اتتهم نجدات من جهة البحر وبين جيوش صلاح الدين المتقدمة. ثم كان لا بد من انهاء الخلافات الداخلية بين القوات المسيحية. وهكذا وجدت السلطة الكنسية المحلية نفسها مستعدة — دون مراعاة القوانين الكنسية — ان تحل ايزابيلا ابنة سيبيل وكونراد من ارتباط كل منهما بزواج سابق وان تعقد اقترانهما ببعض وذلك ليصبح كونراد

ملكا شرعيا للقدس. لم يستطع الملكان رتشارد قلب الاسد، وفيليب الفرنسي اللذان وصلا لانقاذ البلاد المقدسة، العمل معا بلا احتكاك، اذ ان فيليب كان يؤيد ارتقاء كونراد للعرش بينما ظل رتشارد مرتبطا بقضية غيدو.

ولما اعيد افتتاح عكا ونظفت الكنائس واعيد تكريسها، حل المبعوث البابوي اديلارد الفيروني مشكلة الملك على النحو الاتي: يمضي غيدو بقية حياته في الحكم ويكون كونراد خليفته. ولما غدر قاتلان بكونراد واغتالاه، اثر المقربون على ايزابيلا لتتزوج من هنري الشامبياني، لان من ينزوجها يكون له الحق في الملك.

ظل رتشارد قلب الاسد ستة عشر شهرا يحارب بشجاعة في سبيل القضية المسيحية. منذ ذلك الحين لم تشهد ارض فلسطين مجموعة رائعة من الامراء كهؤلاء. غير انهم لم يوفّقوا الا في الاحتفاظ بشريط ساحلي طوله تسعون ميلا ولم يزد عرضه على عشرة اميال. على كل حال، كانت المملكة من القوة بحيث استطاعت ان تستمر في الحكم طيلة قرن كامل.

ان معاهدة الصلح المعقودة بين قلب الاسد وصلاح الدين في الثاني من ايلول سنة 1192 منحت الحجاج المسيحيين حرية الدخول الى الاماكن المقدسة، بحيث شرعت مجموعات منفصلة من الجيش الصليبي تأتي الى القدس مجردة من السلاح وحاملة كتاب توصية. من الامور التي تبعث على الارتياح ان استطاع اسقف اللد السرياني ان يعرض في معسكر الملك الانكليزي قطعة من صليب المسيح سبق له ان انقذها. بعد ذلك بقليل اخبر رئيس دير مار الياس الارثوذكسي عن المكان الذي دفن فيه قطعة اخرى. واخيرا اعاد صلاح الدين لكنيسة القيامة ذخيرة الصليب التي كان يعرضها مرارا بقصد السخرية. وكان انذاك يطيل الاقامة في القدس كي يرتب امور ادارة فلسطين.

ولما توفي البطريرك هيراكليوس واثب خليفته عدم صلاحيته للوظيفة. انتخب كهنة القبر المقدس رئيس الاساقفة ايمار من قيصرية خليفة على كرسي البطريركية. اما الملك هنري الذي لم يكن يوافق على ذلك الانتخاب قد اعتقل المسؤولين عنه بدون اية مقدمات. لكن حقه في هذا التصرف كان منازعا فيه لأنه لم يتوج من قبل بطريرك. اما البابا فوجه اللوم الى ملك القدس على صنيعه هذا.

ان الحملة الصليبية الخامسة التي نظمها البابا انوشنس الثالث وتسلم ادراتها هو نفسه بسبب تراخي الحكام الاقطاعيين، اتجهت بجيوش الصليبيين نحو مصر. وظن الصليبيون انه اذا طُرِد المسلمون من وادي النيل فلن يكن لديهم اسطول ولا قمح. وفي عام 1218 وقف جيش الفرسان في دمياط مقابل ابن اخي صلاح الدين الملك الكامل.

القديس فرنسيس في الارض المقدسة

وقع الان حادث كا له اثار طويلة الامد بالنسبة الى الارض المقدسة. في وسط القتال في دمياط ظهر القديس فرنسيس الاسيزي في معسكر الصليبيين. وكان ذلك في عام 1219. وكان التجديد الكبير في الاجتماع الذي عقدته رهبنة الفرنسيسكان عام 1219 انه تقرر ان ينشر التبشير في بلاد غير المؤمنين. عندما وصل فرنسيس الى ميناء انكونا حيث كانت السفن مستعدة لنقل الصليبيين، كان عدد الذين ارادوا مرافقة القديس كبيرا بحيث لم يكن للجميع مكان على ظهر السفن. فخاطبهم فرنسيس بقوله: "بما ان البحارة يمتنعون عن اخذكم جميعا، وبما اني لا استطيع الاختيار لان احبكم جميعا محبة لا تفرق احدكم عن الآخر، دعونا اذا نظلب الى الله ان يعرفنا ارادته. ثم نادى صبيا كان يلعب في الميناء وجعله يشير باصبعه الى اثنى عشر اخا كيفما اتفق، فابحر واياهم الى الارض المقدسة. وكان من بينهم القانوني السابق بطرس الكاتاني والاخ برنارو احد اول الاتباع، والفارسان السابقان اللوميناتوس وليونهارت. وفي الرابع والعشرين من حزيران عام 1219 في يوم ذكرى مار يوحنا نشرت القلوع وكان هدف السفن الاول قبرص. ولما شتم الاخ برنارو اخا اخر في نوبة هياج شديد، عاقب نفسه بنفسه بان حشا فمه بروث حمار. وصل الركب عكا في منتصف تموز والتقى بعد ذلك بالقوة الرئيسية للصليبيين امام دمياط. وعندما علم فرنسيس بخطط الهجوم في فجر التاسع والعشرين من آب قال لرفقائه: "قد اعلن لي الرب في رؤيا ان المسيحيين سيمنون بالفشل، فهل اعلمهم بذلك؟ اذا فعلت تكون معاملتهم لي كأني معتوه، واذا لزمت الصمت فان ضميري سيكتني. فماذا تظن يا اخي؟" فاجاب الرفيق: "ان حكم البشر لا قيمة له، ثم انك لا يعد مختل العقل منذ اليوم فقط". فسخر الصليبيون من اعلان فرنسيس، فكلفهم الهجوم ستة آلاف قتيل.

كان قصد القديس فرنسيس ان يرد المسلمين عن طريق المحبة، لا عن طريق قتلهم، وهذا بدا للصليبيين جنونا. وحتى الكاردينال بيلاجيو الذي وصل مع تعزيزات الى دمياط لم يكن يؤيد رأي القديس او يشجعه. غير ان اسقف عكا الذي كان يكثر من التردد على معسكر الصليبيين، والذي سجل احداث ذلك العهد، يقول ان الكثيرين من سادة الاقطاع تركوا السلاح ورغبوا عن المناصب الروحية العالية كي يصيروا من الاخوة الصغار (رهبنة فرنسيس).

قرر فرنسيس ان يجتاز الى معسكر الاعداء المسلمين وكأنه جندي فار. وكان غرضه وعظهم. واخذ معه الاخ الومانوس وسار الى خط الاعداء. وكان ينشد كلمات المزمور الثاني والعشرين. وفي تلك الاثناء ظهر حرس مسلمون وانقضوا على الراهبين وضربوهما. وعندما صرخ فرنسيس باعلى صوته ذاكرا اسم السلطان، حسب المحاربون المسلمون ان القادمين مبعوثين من اجل التفاوض واحضروهما مكبلين بالاصفاد الى المعسكر. فقال فرنسيس بالفرنسية انه يريد رد السلطان الى الهدى عن طريق الانجيل. ولو قال مثل هذا في مكان اخر لكان مصيره الموت لا محالة. غير انه كان في بلاط الملك الكامل بعض المشككين ممن كانوا يتجادلون في ايهما افضل القرآن ام الانجيل. فاستدعى السلطان الاخوين الصغيرين، أي الراهبين، ولكي يوقعهما في الارتباك امر ان يفرش امام عرشه بساط عليه العديد من الصلبان. قال السلطان في نفسه، اذا وطئا الصلبان بارجلهما يكونان قد قاما بذلك الفعل الذي كان برهانا على ارتداد المسيحيين عن ايمانهم. اما اذا حاولا تحاشي البساط فعندها استطيع ان اعاقبهما بسبب العصيان. غير ان فرنسيس اخذ يقفز مرحا فوق البساط، واجاب عن تحفظ السلطان قائلا: "يجب ان تعلم انه كان على مرتفع الجلجثا صلبان عديدة، واحدة للمسيح والاثنان الاخران للمجرمين المحكوم عليهما، اما في ما يتعلق بصليبي المجرمين فالقفز فوقهما لا يحرجنا".

شعر الملك الكامل بميل نحو الفقير الصغير ودعاه لان يقيم عنده. فاجاب فرنسيس قائلا: "اني على استعداد لقبول دعوتك اذا كنت مستعدا انت وشعبك ان تقبلوا الايمان المسيحي". وعرض فرنسيس ان يجتاز اختبار النار. ومن جملة الهدايا التي قدمت اليه بسخاء، لم يأخذ شيئا سوى بوق (قرن) صار يستعمله فيما بعد في البلاد المقدسة لدعوة الناس لسماع الوعظ. ثم امر السلطان ان يعاد الراهبان باحترام الى المعسكر المسيحي.

لدى احتلال دمياط في الخامس من تشرين الثاني 1219، وذلك فضل اختراع آلة الحرب الجديدة وهي ابراج مغطاة بالجلد ومركبة على السفن. شاهد الناس القديس فرنسيس بين الصليبيين السكارى بخمرة النصر، جالسا القرفصاء بين جثث القتلى والدموع تملأ عينيه. ومن هنا ابحر الى عكا حيث كان يقيم بعض اعضاء اخويته. فالاخ اجيدزيزس الذي كان يشتاق لزيارة الارض المقدسة كان في برندزي بانتظار سفينة قلعة الى فلسطين، وكان يعمل سقاء يبيع الماء في شوارع المدينة لكسب معاشه. وفي عكا صار يشتغل في حبك السلال او حمل الموتى الى المقبرة. وفي عام 1215 زار كنيسة القيامة، وجاء بعده الياس داكورتونا الذي قام بالخدمة في الارض المقدسة بين عامي 1217-1221. وقابله هناك سيزار الشبايري0 نسبة الى مدينة شبايري تلميذ قيم الكاتدرائية كونرادفون رايفنبرج وهو واعظ صليبي كان قد اوفده البابا. وكان سيزار هذا قد فرّ من المانيا لكي ينجو من آباء الفرسان المتمررين الحاقدين لانه كان قد جند ابناءهم للحرب. كانت موعظة الياس هي التي كسبته للانضمام الى اخوية الفرنسيسكان. التقى فرنسيس بالاخوة في الارض المقدسة. وفي عكا علم ان خمسة من ابنائه ماتوا شهداء على ايدي مسلمين مغربيين. وبالمناسبة انه من المعقول جدا ان يكون فرنسيس في ذروة حماسته وهو يحمل بشارة الانجيل الى المسيحيين والمسلمين، قد مرّ عند الاماكن المقدسة دون ان يتوقف فيها.

استطاع فرنسيس بفضل وثيقة مرور زوده بها حاكم دمشق اخو السلطان الملك الكامل، ان يسافر في جميع انحاء البلاد المقدسة دون ان يلتزم بدفع الضريبة. غير انه اضطر الى ان ينهي اقامته في الشرق بصورة فجائية في صيف 1220، على اثر حضور الاخ ستيفان بوصفه مبعوثا خاصا للرهبنة، وجاء باخبار سيئة مفادها ان الكهنة في ايطاليا كانوا يقودون الرهبنة على طريق الخطأ. كان وصول ستيفان في اثناء الجلوس الى المائدة في احدى المدن السورية. وعندما سمع فرنسيس عن القواعد الصارمة التي ارادوا فرضها على ابنائه قال اول ما قال: "نريد اليوم ان ناكل لحما". غادر فرنسيس الى ايطاليا، غير ان الفرنسيسكان لم يتخلوا قط عن الواجبات الملقاة على عاتقهم في الارض المقدسة.

للمرة الثانية نجحت قوات الغرب في امتلاك القدس. ففي عام 1229 تحرك القيصر فريدريك الثاني نحو الشرق، وعادت القدس الى ايدي اللاتين عن طريق المفاوضات السلمية، بينما كانت القوات العسكرية في المؤخرة. وتأمنت بهذا للحجاج المسيحيين حقوق معينة. ويدل الخلاف بين القيصر والرفنسيسكان في عكا على مدى الاختلاف في

حكم المسيحيين على نجاح فريدريك لم يعترف البابا بمقررات "مؤتمر يافا" في 18 شباط 1229، والذي استغنى بموجبه فريدريك الثاني تجاه نظيره المسلم، عن استعادة اللتلكات اللاتينية السابقة. وكان الفرنسيسكان هم الذين حملوا رسالة البابا. وبينما كان فريديريك يتوج نفسه ملكا علىالقدس، كانت وثيقة حرمانه تتلى في عكا. ولذلك اشتد غيظ القيصر على فرنسيسكان المدينة. ففي احد الشعانين انزلهم عن منابر الوعظ وجعلهم ينطرحون امامه على الارض، نزع عنهم ثياب الكهنوت، وسيرهم في شوارع المدينة وكأنهم لصوص سجناء.

في صيف 1244 خسر المسيحيون القدس نهائيا. جاءت حشود من الفرسان الخورزميين من شرق ايران قوامها 10000 فارس الى القدس مارة بدمشق فطبريا. فسارع البطريرك اللاتيني روبرت حديث السيامة هو وزعماء الهيكليين وفرسان المستشفى الى تعزيز الحامية عناك. غير انه لما بلغت الامور مرحلة الجد لم يجرؤوا على البقاء. ففي 11 تموز اقتحم الخورزميون المدينة. وفي قتال الشوارع شقوا طريقهم الى دير مار يعقوب وقضوا علىالرهبان الارمن هناك. اما حامية قلعة القدس فصمدت في وجه الهجوم. غير انه لما تزعزع موقف المهاجمين بسبب ان الافرنج طلبوا النجدة من حلفاء مسلمين، سمح للمحاصرين باخلاء القلعةز فنزح 6000 مسيحي نحو الساحل. ولما نظروا الى خلف باتجاه المدينة وشاهدوا اعلاما صليبية على اسنة السور توهموا ان جيشت صليبيا بديلا قد جاء، فمن رجع منهم منخدعا قتل باسفل السور. ولم يصل منهم سوى 300 الى يافا التي كانت انذاك في ايدي الصليبيين. وكان هنالك كهنة لاتين متقدمون في السن الذين رفضوا مغادرة كنيسة القيامة تلبية للواجب الكهنوتي، هؤلاء قتلوا طعنا على المذبح الذي كانوا يصلون امامه.

القديس لويس في الارض المقدسة

في عام 1249/1248 قام الملك الفرنسي القديس لويس بحملة صليبية على دمياط وعكا، رافقه فيها اخوه كارل فون انجو. وكارل هذا بوصفه سيدا لنابولي وصقلية، ابتاع الحق في مُلك القدس من الاميرة الانطاكية ماريا عام 1277. وفي 30 اذار 1282 قامت ثورة دموية في صقلية سميت تهكما "الصلاة المسائية القلية" كانت سببا في اضمحلال الحلم بتأسيس نابولي قوة في البحر المتوسط تضم عكا وصور، الامر الذي كان له الاثر على المدن الصليبية. وجد روجر السان سفريني نفسه فجأة بلا ظهير فعاد الى ايطاليا بعد ان كان يحكم عكا باسم كارل الانجوي. والان حاول هوجو ملك قبرص استرجاع مملكته القائمة على البر السوري، فصادف في بيروت وصور استقبالا حسنا، انه وان يكن فرسان الهيكل من عكا يفضلون سيادة انجو والبقاء في جانب سياسة الهدنة، فان رئيس الاساقفة بوناكورسو فون غلوريا نائب البطريرك توج هنري الثاني ملكا على قبرص عام 1287.

ان المعاهدة مع المغول المستقربن في بلاد فارس، والذين كان في صفوفهم مسيحيون نساطرة،لو كتب لها ان تتم لكانت تعني بالنسبة الى قوى الغرب منح الفرصة لمملكة القدس للبقاء في حيز الوجود. غير ان السفير النسطوري ربان ساوما الذي كان يتفاوض هو وملوك الغرب والبابا، ادرك وبحق ان حكام اوروبا كانوا يخالون انتسوية خلافاتهم تأتي في منزلة الصدارة.

عندما ذبح الايطاليون القادمون الى عكا تجارا وفلاحين مسلمين، عد المماليك ذلك نقضا لاتفاقية الهدنة. وفي 6 نيسان 1291 بدأ الحصار الاخير لمدينة عكا. سارع الملك هنري الى المساعدة بارسال اربعين سفينة قبرصية، غير انه لم يتمكن من معادلة قوة المسلمين المتفوقة. وفي اثناء الهجوم على المدينة المحصنة سقط رئيس الفرسان الهيكليين وجرح وليام فون بيجو كبير فرسان رهبنة مار يوحنا، وحمل الى السفينة علىالرغم من معارضته الشخصية. اما البطريرك العجوز نقولاوس من هنابة، فانقذ مجروحا على قارب صغير. وبما انه كان رحيما سمح لكثيرن من اللاجئين بالصعود الى القارب بحيث غرق القارب بكل ما فيه. وكان عدد السفن اقل من ان يكفي لانقاذ الجميع. ولم يعف المسلمون احدا ممن صادفوهم من القتل. وبيع عدد كبير منهم في سوق العبيد، ودمرت عكا.

هربت حاميات صور وبيروت والتجأت الى السفن، واخذت معها ذخائر كاتدرائية بيروت. واحرقت اديرة الكرمل واغتيل الرهبان. اما استمرار لقب "ملك" ولقب "بطريرك القدس اللاتيني" في قبرص، فلم يغير شيئا من حقيقة الاوضاع، فقد فنيت البقية الباقية من حكم الصليبيين في فلسطين.

(من كتاب "تاريخ الكنيسة في الارض المقدسة" تأليف فريدريك هابر، ترجمة فهد ابو غزالة، ص. 92-124).

الفصل السادس والثلاثون

حالة الكنيسة في القرن الثالث عشر

وحتى الخامس عشر

ظل الدين المسيحي خلال الف عام من عهد قسطنطين الى عهد دانتي ينمو ويتكون عاما بعد عام، واخذ القديسون والشهداء يضحون بحياتهم في سبيل عقيدتهم ويضربون بذلك الامثال لمن يأتي بعدهم من المؤمنين ويورثونهم فضائلهم.

ولقد **كانت الكنيسة في اجمل صورها حين حلت بعقائدها وطقوسها الساحرة ومبادىء اتباعها الخلقية النبيلة** وشجاعة اساقفتها وغيرتهم واستقامتهم، وعدالة محاكم اسقفياتها وطهارتها، حين حلت بهذه كلها في المكان الذي تخلت عنه حكومة الامبراطورية، فكانت هي الحارس الاكبر للعالم المسيحي للنظام والسلم في العصور المظلمة (حوالى سنة 524-1079).

واوروبا مُدِينة ببعث الحضارة في الغرب بعد ان اغار البرابرة على ايطاليا وغالة وبريطانيا واسبانيا الى الكنيسة اكثر مما هي مُدِنية بها الى اية هيئة اخرى مهما كا شأنها. فقد كان رهبانها هم الذين اصلحوا الارض البور وكانت الاديرة هي التي تقدم الطعام للفقراء والتعليم للصبيان والمأوي للمسافرين، وكانت مستشفياتها هي التي تعنى بالمرضى والمعوزين. وكانت اديرة النساء هي التي تلجأ اليها الارامل ومن لا ازواج لهن فتوجه فيهن عواطف الامومة الى اغراض اجتماعية سامية، ولقد ظلت الراهبات عدة قرون يتعهدن وحدهن بتربية البنات. واذا كانت الثقافة القديمة لم يطغ عليها ويمح معالمها تيار الجهل والامية، فما ذلك الا لان الرهبان قد نسخوا الاف المخطوطات واحتفظوا بها وحافظوا على حياة اللغتين اليونانية واللاتينية اللتين كتبت بهما وان كانوا قد تركوا كثيرا من المخطوطات الوثنية تبيد على مر الزمان فقد كانت دور الكتب الكنسية في سانت جول، وفولد، ومونتى كسينو وغيرها هي التي وجد فيها الكتُّاب الانسانيون في عصر النهضة الآثار القيمة الثمينة للحضارة الرائعة التي لم تسمع قط باسم المسيح.

ولقد ظلت الكنيسة الف عام تدرب القضاة ورجال السياسة ووزراء الدولة، وكانت الكنيسة في العصور الوسطى هي عماد الدولة وسندها. ولما انقضى عهد العصور المظلمة،كانت الكنيسة هي التي انشأت الجامعات وشيدت الكاتدرائيات القوطية فاوجدت بذلك بيوتا لعقول الناس وتقواهم. وبفضل حمايتها ورعايتها جدد الفلاسفة المدرسيون ما حللوه قديما من تفسير غوامض الحياة البشرية ومآل العقل الانساني. ولقد ظل الفن الاوروبي كله تقريبا طوال تسعة قرون يتلقى الالهام والمال من الكنيسة، وحتى عندما تلون الفن باللون الوثني ظل بابوات النهضة يناصرونه ويولونه الرعاية فكانت الموسيقى في اسمى صورها ابنة الكنيسة.

واكثر من هذا كله ان **الكنيسة في عنفوان مجدها هي التي امدت دول اوروبا بالقانون الاخلاقي العام** الذي كان متبعا فيها كلها كما امدتها بنظام حكمها. وكما ان اللغة اللاتينية التي تعلمها الكنيسة في الكنائس كانت هي الآداة التي وحدت اساليب التعليم والادب والعلم والفلسفة في الامم المختلفة، وكما ان طقوس المذهب الكاثوليكي – أي العالمي – وعقيدته هي التي وهبت اوروبا الوحدة الدينية قبل ان تنقسم الى قوميات مستقلة ذات سيادة، فان الكنيسة الرومانية التي تعزو نشأتها وزعامتها الروحية الى الله سبحانه وتعالى قد طلبت ان تكون هي محكمة دولية تحاسب جميع الحكام والدول من الناحية الاخلاقية.

السلطة البابوية

وقد صاغ البابا غريغوريوس السابع مبدأ الجمهورية المسيحية الاوروبية صياغة قانونية واعترف به الامبراطور هنري الرابع حين حاول ان يعين اسقفا جديدا لميلانو. ولان البابا غريغوريوس السابع (1023- 1085) اعتبر مثل هذا التعيين من حقه وحده، فمن ثم حرم الملك هنري. وكان الحرمان يعتبر شيئا خطيرا في تلك الايام، حتى ان الملك خضع لغريغوريوس في كانوسا (1077) بعد ان وقف خرج قلعة البابا حافي القدمين لمدة ثلاثة ايام في الجو البارد لكي يتوسل الغفران. وبعد قرن من ذلك الوقت اذل امبراطور اعظم منه قوة هو فردريك بربروسا نفسه امام بابا اضعف من

غريغوريوس وهو اسكندر الثالث بعد عناد طويل ومقاومة لم تجده نفعا. وفي عام 1098 رفع البابا انوسنت الثالث سلطان البابوية ومقامها الى درجة بدا معها ان المثل الاعلى الذي كان يطمح فيه غريغوريوس وهو ان تكون الكنيسة صاحبة السلطان الاعلى على الدول من الناحية الخلقية – بدا ان هذا المثل قد تحقق الى حين.

ظهرت قوة انوسنت في ممارسة عملية. ففي مرات كثيرة ارغم الحكام المدنيين على الخضوع لاوامره. وعلى سبيل المثال حاول يوحنا ملك انجلترا (1199-1216) ان يختار شخصية معينة رئيسا لاساقفة كنتربري. لكن البابا كان لديه شخص اخر، استطاع انوسنت بقوة التهديدات البابوية مثل الحرم البابوي ان يفرض ارادته. وسار الملك يوحنا ذليلا في شوارع كنتربري حافي القدمين وركع كي يتلقى الجلدات من الرهبان. ورضي ان يدفع ضريبة سنوية للبابا مقدارها الف مارك.

وبقي الصراع سجال بين السلطتين الزمنية والدينية، كل منهما تحاول ان تكسر عن عنقها نير الاخرى.

نتائج صراع الامبراطورية والكهنوت

أُعتبر الصراع بين الامبراطور والكهنوت وكأنه انتهى بعد موت فردريك الثاني (1250). وكان لهذا الصراع نتائج مدمرة لكلا القوتين اللتين تصارعتا: البابا والامبراطور، وكذلك لبلديهما مسرح هذا الصراع: ايطاليا والمانيا.

1. ففي المانيا، ادى الصراع ليس فقط الى سقوط عائلة هوهنشتوفن – الهدف الذي عملت من اجله البابوية – ولكن ايضا الى هدم كل سلطة امبراطورية. فمنذ عام 1250 الى 1273، اي مدة 23 سنة، لم يعد هناك امبراطورا ولا سلطة مركزية. سيصبح الاسياد الاقطاعيون، الحكام الوحيدين. سيُعرض التاج الملكي في المزاد، وسيتصارع عليه مدّعي الحق؛ ولمن عُرض عليه اعتبره خيرا لا يحسد عليه. واختفت كل سلطة مركزية، وعمت في كل مكان الفوضى السياسية والاجتماعية: وعمل كل من الاسياد الاقطاعيين، كبارا وصغارا، والاساقفة والفرسان والمدن، على ان يكونوا مستقلين. وهكذا ستتمزق المانيا الى مجموعة من الدويلات، لا تعرف قانونا الا قانون القوة؛ بينما في بلاد اخرى مثل فرنسا وانكلترا ستتعزز السلطة المركزية وتتقوى؛ وعملت على انهاء الحروب الخاصة بها.

2. في ايطاليا، ادى الصراع الى تحريرها من التسلط الالماني. ولم تنجح عائلة هوهنشتوفن في ابقاء ايطاليا تحت حكمها كما ارادت. بالمقابل لم تتمكن اي سلطة اخرى ان تحل محلها، فلم تتحسن حال البلد. وبينما كان الامراء الغرباء يتنازعون ايطاليا الجنوبية، كانت المدن الشمالية والوسطى تتعرض الى فوضى واضطرابات وحروب بين فريق وفريق، بين حزب واخر، وبين مدينة واخرى، وفي نفس المدينة بين العائلات الشريفة المختلفة. لم ترد ايطاليا ان تكون تحت حكم الاباطرة الالمان، فوقعت بين ايدي مجموعة من الحكام الديكاتوريين اكثر تسلطا منهم.

3. بالنسبة الى البابوية، فقد انتهى الصراع بين الامبراطورية والكهنوت بانتصار كبير للبابوية.

ففي المجال الروحي: حققت البابوية برنامجها الاصلاحي الكنسي، واستطاعت ان تفرض هيبتها وسموها وسلطتها الدينية.

في المجال الزمني: في منعها اتحاد ايطاليا مع المانيا تحت حكم سلطة واحدة، عملت على تأكيد استقلالها كدولة بابوية.

ولكن هذه النتائج الجيدة كان لها وجهها الاخر: فالبابوية – في الواقع – خرجت هي الاخرى ضعيفة من هذا الصراع. فلم تزداد سلطتها الروحية ولا الزمنية، كما كان يُعتقد. فالسلاح الروحي – الحرمان والمنع – الذي استعمله الباباوات مرات كثيرة ولاسباب سياسية اكثر منها دينية، خف تأثيره؛ كما ان هيبة البابوية، التي كانت كبيرة في بداية القرن الثالث عشر، تحت حبرية البابا انوسنت الثالث، تزعزعت اركانها بقوة، حيث كثرت اوقات فراغ الكرسي البابوي (interrègne)، واعتلى اثنا عشر بابا، الكرسي البابوي في مدة اربعين سنة.

ولم يكن حال السلطة الزمنية للباباوات بافضل. فهذه السلطة، بالواقع، لم تكن دائما ثابتة وقوية. كم من مرة، منذ البابا غريغوريوس السابع، اضطر الباباوات مغادرة روما، عاصمتهم، واللجوء الى مدن ايطالية اكثر ضيافة منها: سالرنو، وانياني، وبيروزا، وحتى الذهاب الى خارج ايطاليا: رمس وسانس وليون. وبعد اختفاء عائلة هوهنشتوفن، لم

تصبح روما اكثر امانا للباباوات. فقد اصطدموا بمطالب اعضاء الشيوخ بمجلس روما، الذين ارادوا ان يكونوا قوة حاكمة تضاهي سلطة البابا، مما سيدفع الباباوات الى الهرب من روما، انتظارا للهرب الاكبر في ما يُدعى "بالنفي البابلي" في افنيون.

تزايد الشعور القومي

وقرب اواخر العصور الوسطى، بدأت قوى جديدة تأخذ مكانها في الميدان، اذ بدأت كل من انكلترا وفرنسا، تبرزان كقوتين مؤثرتين على المسرح السياسي، في اوروبا الغربية، بعد ان توحدت شعوبهما تحت حكم بعض الملوك الاقوياء، وبدأ يتزايد الشعور القومي بين الشعبين الانكليزي والفرنسي، وراحا يرفضان كل تدخل خارجي في شؤونهما، حتى ولو كان هذا التدخل من جانب الكنيسة. وقد حذا الشعب الالماني حذو الشعبين الانكليزي والفرنسي، وكان تزايد هذا الشعور القومي، بين الشعوب الاوروبية، واحد من العوامل التي ادت الى ثورة هذه الشعوب، ضد سلطان الكنيسة، باعتبرها قوة اجنبية تتدخل في شؤونهم الداخلية.

صراع على السلطة

مضى عهد طويل، والكنيسة تمارس سلطانها ووصايتها على الملوك والامراء، وشعوبهم من ورائهم، فاستقر في اذهان رجال الدين، ان هذه الوصاية حق من حقوق السيادة، التي لا تنازع، وامر مسلم به، لا مجال للخروج عليه. لكن جاء الوقت، الذي جلس فيه على عرش انكلترا الملك "ادوارد الاول"، وعلى عرش فرنسا الملك "فيليب الرابع" الملقب "فيليب الجميل". وفي عهدهما ثار سؤال خطير: أي السلطتين اولى بمباشرة السلطات المدنية، الكنيسة ام الدولة؟ هل من حق الملك ان يفرض ضرائب على ممتلكات الكنيسة ام لا؟ وكانت هذه بداية عصر جديد...

أ) حالة الكنيسة الغربية في اواخر العصور الوسطى

كانت قوة الاكليروس سببا في قوة الكنيسة وامتداد سلطانها، وكانت عظمة رجال امثال هلدبراند وانوسنت الثالث، سببا في خضوع الحكام لهم. ولكن الان، في فترة اواخر العصور الوسطى، تبدل الحال، وبعد النهضة العارمة، التي اشتعلت جذوتها في الكنيسة، على ايدي رهبان دير كلوني، وغيرهم من اعضاء الانظمة الرهبانية الاخرى، انحسرت الموجة، وعاد الفساد يضرب اطنابه من جديد، ويقبض على الزمام.

حالة الاكليروس:

فبين الاكليروس، عم الفساد، واصبح رجال الدين في حالى يرثى لها، واصبحت المباذل التي يرتكبونها على كل لسان، وارتفعت بعض الاصوات تشجب تصرفاتهم، وتدين اعمالهم، لكنهم تمادوا في غيهم، معتمدين على ما لهم من سلطان، استطاعوا به ان يسكتوا اصوات معارضيهم ومنتقديهم. وقد لعبت الاموال الطائلة، التي اتخمت بها خزائن رجال الدين وجيوبهم، دورا كبيرا، في اهمالهم لواجباتهم الراعوية، وترديهم في هاوية الشر والفساد، لانه اصبح في مقدورهم تحقيق كل ما يطلبون.

انه من التجني على الحقيقة والتاريخ القول انه لم يكن بين رجال الدين في تلك العصور افاضل وقديسون، لكن الغالبية العظمى من رجال الدين كانت على الصورة التي رسمناها، واصبح الفساد هو الطبع الغالب والسمة الممبزة لهم، لا فرق بين كاهن واسقف. وفي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، زاد الفساد بصورة اثارت عليهم الرأي العام، وقد وصف سكرتير البابا "بندكتوس الثالث عشر" حال رجال الدين بقوله: "ان واحدا من الالف منهم فقط، هو الذي كان يواظب على القيام باعباء خدمته".

حال الرهبان:

وقد قاوم الرهبان حالة الانحطاط الخلقي التي سادت في ذلك الزمان، لكن الى حين، ولم يلبثوا، حتى اصبحوا هم في اديرتهم، يعانون من الحال عينه، واصبح الكثيرون من الرهبان، مستعبدين لخطايا عديدة، مدمنين للخمر، واصبح الكثيرون منهم موضع هزء وسخرية، بسبب مباذلهم.

حتى الانظمة الحديثة، انظمة "الرهبان المتسولين"، هذه الانظمة التي ظلت زمانا طويلا تقود ركب الصلاح والاصلاح، لم تلبث ان استسلمت وجرفها التيار. لكن الامر لم يخل من وجود مجموعات بقيت متمسكة بعهودها، ونذورها الرهبانية، ومثلها العليا.

حال الشعب:

وكنتيجة حتمية ومنطقية لانشغال الكهنة بمصالحهم الشخصية، واهمال واجبتهم الراعوية، انحط حال الشعب، وخاصة وان الوعظ في الكنائس كان نادرا، لجهل معظم الكهنة. وقد ادى هذا الى جهل الناس بتعاليم الدين، فالقداس كان يتلى باللغة اللاتينية التي كانت غير مفهومة للعامة، بل يمكن القول ان بعض الكهنة كانوا يرددون الصلوات وهم لا يعون ما تقول، لكنهم حفظوها من كثرة ما رددوها، والمصدر الوحيد لتعليم الناس، كانت مواعظ الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان، الذين كانو في هذه الفترة من الزمان، قد فتر حماسهم، وخفتت اصواتهم.

وقد ظهر عجز الكنيسة وفشلها، في عدم قدرتها على مواجهة الحاجات المتزايدة للشعب، الذي كان ينمو بمعدلات كبيرة. فابتداء من القرن الثاني عشر، زاد عدد السكان في مدن اوروبا زيادة كبيرة، الامر الذي كان يتطلب مضاعفة الجهود والخدمات التي تقدمها الكنيسة لهم. لكن حدث العكس، اذ ان اهتمام الكهنة بمصالحهم الشخصية، ادى الى عدم الاهتمام بحاجات الناس، وكان هناك عجز واضح وملموس، في اعداد الكنائس والكهنة في العديد من الاماكن. وعاشت آلاف مؤلفة من الفقراء، لا تجد من يقدم لها شيئا من احتياجات الروح او الجسد، بعد ان طغى حب المال على الكهنة، فتوقفوا عن بذل العطايا والاعانات، التي كانوا يقدمونها للناس في فترات سابقة.

ثم ان تركيز الاهتمام في العبادة على ممارسة الاسرار، والالتجاء الى القديسين، وطلب شفاعتهم، وشراء الغفران بالمال، كل هذه ادت الى انحطاط الحالة الروحية بين الناس، وعدم اهتمامهم بالتدقيق في سلوكهم وحياتهم اليومية، فتفشت بينهم الشرور، وعم الفساد واستشرى.

كذلك ادى سلاح الحرم الذي كان في ايدي الكهنة، سيفا مسلطا على رقاب من لا يقدم لهم فروض الطاعة والولاء، هذا السلاح ادى بالناس الى حالة من الخضوع والخنوع، واللامبالاة بما يجري في دنيا الاكليروس، لان كلا يريد ان "ينفد بجلده" من الحرم والتكفير الذي كان يجعل دم المحروم مباحا، ويوجب على كل من وجده ان يقتله، وان يستولي على املاكه وامواله، ومن يفعل هذا، كان يعتبر نفسه يؤدي خدمة عظمى لله.

وهكذا نرى ان الكنيسة في اواخر العصور الوسطى، وجدت نفسها عاجزة تماما عن تقديم العلاج للمشاكل العديدة، التي كان يعاني منها الشعب في تلك الفترة. ناهيك عن حالة اولئك الذين كانوا معتبرين "وكلاء اسرار الله"، اضف الى هذا نوع الديانة التي كانت تقدمها الكنيسة للناس، اذ اكتفت الكنيسة بذلك التنظيم الرائع وابتعدت عن التعليم. زد على ذلك ان الناس في خوفهم ورعبهم، كانوا يعيشون في تلك الايام، خاضعين للكنيسة لا خضوع الطاعة القلبية، بل خضوع الخوف الذليل، لهذا عندما دارت الدائرة، وارتفعت الاصوات محتجة من الاقلية القليلة، التي وجدت في ذاتها الشجاعة لكي تفعل هذا، وجدت هذه الاصوات قاعدة عريضة تساندها وتؤيدها.

ب) الكنيسة الشرقية في هذه الفترة

قبل عام 1054 بقليل، كان قد تم الانفصال بين الشرق والغرب، وكانت الكنيسة الشرقية او اليونانية، قد انفصلت عن الكنيسة الغربية، وكان بطريرك القسطنطينية، هو رئيس الكنيسة الشرقية، لكن نفوذه، لم يبلغ الحد الذي بلغه نفوذ بابا روما، الذي كان يرأس الكنيسة الكاثوليكية.

ورغم وجود بعض اوجه الاتفاق في نظام العبادة بين كلتا الكنيستين، الا انه كانت هناك بعض الاختلافات. فمثلا كانت الكنيسة اليونانية (الشرقية) تنادي بالاسرار الكنسية، كما كانت تعمد الاطفال بالتغطيس، وتفرض على المعترفين بعض الفرائض التي يؤدونها تكفيرا عن الخطايا التي ارتكبوها، لكنها كانت تختلف عن الكنيسة الغربية، في صيغة الحل الذي كان يتلوه الكاهن على المعترفين، اذ كان كهنتها يعلنون صراحة انه لا سلطان لهم لغفران الخطايا، وان الله وحده هو الذي يستطيع ان يغفر للناس خطاياهم، وان كل ما يقومون به، هو فقط اعلان غفران الله لخطايا

المعترفين، الذين يؤدون ما يشير عليهم به آباء اعترافهم، وبالتالي لم تكن الكنيسة الشرقية، تعتبر ذاتها وسيطة بين الله والناس.

وقد اتسمت الخدمة والعبادة في الكنيسة اليونانية، بالعديد من المظاهر والحركات، مثل اضاءة الشموع، والسجود، والركوع، وتقبيل الانجيل، وكان الكهنة يرتدون في اثناء الخدمة، ثيابا زاهية متعددة الالوان، وكان القصد من هذا كله، هو اضفاء شيء من الجلال على الخدمة، لزيادة تأثيرها في النفوس.

وكأختها الغربية، لم تهتم الكنيسة الشرقية بالوعظ، غير انها كانت تشجع الناس على قراءة الكتاب المقدس، كما اتمت ترجمة الكتاب المقدس الى كثير من اللغات القومية، التي كانت تستخدمها في العبادة، على عكس الكنيسة الغربية، التي كانت اللغة اللاتينية فقط هي لغة العبادة الوحيدة فيها.

في مجال عبادة الصور والقديسين، كانت الكنيسة الشرقية اكثر تطرفا وتمسكا بها من الكنيسة الغربية. وقد اختلطت العبادة بالاساطير في الكنيسة الشرقية، بصورة اكثر مما كان في الكنيسة الغربية، وهذا ملحوظ بصورة محسوسة، بين اتباع هذه الكنيسة، من الروس واليونانيين.

وسمحت الكنيسة اليونانية للاكليروس بالزواج قبل الرسامة، ومعظم كهنتها كانوا من المتزوجين، اما الاساقفة، فلم يكن مسموحا لهم بالزواج، ولهذا السبب، كانوا يختارونهم دائما من بين الرهبان. لكن الرهبان في الاديرة التابعة للكنيسة الشرقية، لم يبلغوا ما بلغه الرهبان في الغرب، الذين كانوا رسل الدين والحضارة في بلدان اوروبا.

نشاط الكنيسة الشرقية

كان نشاط الكنيسة الشرقية محدودا في غرب آسيا، بسبب انتشار الاسلام، فلم تستطع ان تفعل شيئا لنشر الدين المسيحي هناك. الا انها في القرن الحادي عشر الميلادي، تمكنت من القيام ببعض النشاط التبشيري، في المناطق الوثنية من روسيا. الا ان تلك الجهود ضاعت هباء، عندما اجتاح المغول روسيا، وخربوها في القرن الثالث عشر، وحالوا دون انتشار المسيحية هناك.

وقد احاطت بالكنيسة الشرقية ظروف صعبة، ووقفت امامها عقبات جسام، لكن هذه كلها، لم تكن السبب الوحيد في توقف نشاطها، وانما السبب الرئيسي في هذا، هو افتقارها الى روح التقدم والتطور. ان هذه الكنيسة الشرقية كنيسة محافظة لا تحب التغيير.

ولم تعدل الكنيسة اليونانية شيئا، بعد التعديل الطفيف الذي ادخلته على العقيدة ونظام العبادة في القرن الثامن، سوى التعديل الذي ادخلته على الرئاسة، بسبب العوامل السياسية الضاغطة التي أدت الى ادخال هذا التعديل.

الكنيسة النسطورية

واصلت الكنيسة النسطورية التقدم والانتشار، وحازت شهرة كبيرة، في خلال هذه الفترة من العصور الوسطى. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، كانت هناك سبعون ابرشية خاضعة للبطريرك النسطوري، وهذه الابرشيات، كانت تضم جموعا غفيرة من المسيحيين المنتشرين بين اديسا في سوريا، وبكين في بلاد الصين، ومن سيبيريا في روسيا حتى جنوب بلاد الهند.

الفصل السابع والثلاثون

في حلبة الصراع

بين الامبراطورية والكهنوت

بعد ما عانت الكنيسة، الكثير من المتاعب، في عصور سابقة، وبعد ما تعرضت له من خسارة، بفقدانها للكثير من سلطاتها وهيبتها، جلس على الكرسي البابوي، رجل عظيم طموح، هو البابا "بونيفاس الثامن"، الذي كان من نفس مستوى عظمة وطموح هلدبراند وانوسنت الثالث. وكان يطمع في ان يعيد للكنيسة هيبتها، ويحقق لها اكثر مما تحقق في عهد سلفيه العظيمين.

وكان يرمي الى احكام قبضته على زمام كل من السلطتين الزمنية والدينية، صحيح ان الكنيسة كانت عادة هي المسيطرة لانها كانت قوة جامعة، بينما القوات المدنية كانت منقسمة ومبعثرة. ومع ذلك كان هناك نوع من التفاهم بان سلطة الكنيسة تقتصر على الشئون الروحية، بينما كانت سلطة الدولة معنية فقد بالامور المدنية والسياسية. هذا المبدأ المتعلق بالعصور الوسطى، مبدأ "السيفين" او القوتين احداهما الكنيسة والاخرى الدولة — شرعت البابوية في انتهاكه اكثر فاكثر. وبلغت الامور قمة التحدي لما انكر البابا بونيفاس الثامن (1294-1303) حق الملوك في فرض ضريبة على الاكليروس، ووضع بيانات تطالب بالسلطة المطلقة للبابوية على كل الناس وفي جميع الشؤون. واعاد تعريف مبدأ "السيفين" في مرسوم بابوي يسمى "Unam Sanctam":

> "السيفان الروحي والمادي كلاهما في سلطان الكنيسة. لكن الثاني يجب ان يستخدم للكنيسة، الاول بوسطته، أي بوسطة الكاهن، الثاني بواسطة الملوك وقادة الجيش ولكن بمشيئة الكاهن وموافقته. اذن احد السيفين يكون تحت الاخر، والسلطة الدنيوية تخضع للروحية... وعلى هذا فان اخطأت السلطة الارضية تحاكمها القوة الروحية، لكن اذا اخطأت القوة الروحية يدينها الله وحده لا الانسان... لان هذه السلطة مع كونها سلمت لانسان ويمارسها انسان، لكنها سلطة الهية. اكثر من ذلك، نحن نصرح، ونقرر، ونعلن انه على وجه الاجمال، لا بد وان يخضع للبابا كل مخلوق بشري يريد الخلاص" (Quoted by Hohnson Paul: A CHRISTIANITY, Athaneum, New York, 1977, p. 191).

وعندما حاول البابا "بونيفاس الثامن" تنفيذ خطته، واجه مقاومة عنيفة من اثنين من اقوى ملوك اوروبا في ذلك القوت، هما "ادوارد الاول" ملك انكلترا، وفيليب الرابع ملك فرنسا، اللذين تصديا له بكل قوة، ومن ورائهما جبهة متماسكة من امتين متحدتين.

وقد افلحا في منع البابا من التدخل في شؤون بلديهما، وبعد مقاومة لا تذكر، اضطر البابا للاستسلام. ولم يمض سوى وقت قصير، حتى نشب خلاف آخر، بين البابا وفيليب الرابع، فلجأ البابا الى استخدام سلطانه، واصدر قرارا بحرمان فيليب وقطعه من عضوية الكنيسة، ووجه اليه انذارا بعزله من العرش، لكن الملك لم يعر الامر اهتماما، بل اكثر من هذا، امتنع عن ارسال الجزية الى روما كالمعتاد. وبعد ذلك ارسل الملك فيليب الرابع "نوجريه" للقبض على البابا، وبمعرفة بعض افراد اسرة كولونا، التي كان بينها وبين البابا عداء شخصي، استطاع خادم الملك ان يفاجيء البابا في قصره، فوقع اسيرا تحت رحمتهم لمدة ثلاثة ايام ثم اطلقوه، وبعد ذلك بقليل مات البابا بونيفاس الثامن. وكان "دانتي" خصما سياسيا للبابا، لكنه علق على هذا الحادث بقوله: "عندما دخل القوم قصر البابا، واسروه وسخروا منه، كان هذا العدوان واقعا على المسيح، الذي استهزىء به مرة ثانية".

ومما له دلالة ان الجمهور الفرنسي ساند مليكه ضد البابا، الامر الذي سبب صدمة قاسية للبابوية. وكان ايضا علامة واضحة ان الدول القومية العلمانية في اوروبا تتقدم وتدرك مدى قوتها. لم تعد تقبل ان تنحني في ذل للسلطة البابوي.

الفصل الثامن والثلاثون

البابوات في افنيون

1309-1377

1- الاسر البابلي

حرم بندكتوس الحادي عشر (1303-1304) خليفة بنيفاس الثامن نوجارت، وسيارا كولنا، وثلاثة عشر غيرهما من الرجال رآهم يقتحمون القصر في اناني. ومات بندكتوس بعد شهر من ذلك الوقت في بروجيا. وربما كان احد الجبلين الايطالين قد دس له السم. ثم وافق فليب على ان يؤيد برتراند ده جو Bertrand de Got رئيس اساقفة بوردو للجلوس على كرسي البابوية اذا نهج سياسة المصالحة، وعفا عمن حرموا من الدين لهجومهم على بنيفاس، وسمح بان تجبى من رجال الدين الفرنسيين ضريبة دخل سنوية مقدارها عشرة في المائة مدة خمس سنين، وان يعيد افراد اسرة كولنا الى مناصبهم ويرد اليهم املاكهم. وان يشهر بذكرى بنيفاس. ولسنا نعرف الى أي حد وافق برتراند على هذه المطالب، وكل ما نعلمه انه اختير بابا، وتسمى باسم كلمنضوس الخامس (1305). وانذره الكرادلة بانه لن يكون آمنا على حياته في روما، فنقل كلمنضوس كرسي البابوية الى افنيون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون، في خارج الحد الشرقي لفرنسا وعلى بعد قليل منه (1309) وانتقل اليها بعد تردد قليل، وربما كان ذلك ايضا بعد ان وصله اقتراح مريح من فليب. وهكذا بدأ "الاسر البابلي" للبابوات الذي دام ثمانية وستين عاما واستسلام البابوية لفرنسا، بعد ان حررت نفسها من المانيا.

كلمنضوس الخامس 1305-1314

وكان كلمنضوس هذا رجلا فرنسيا، وكان قبل ان يجلس على كرسي البابوية اسقف لبوردو، وكان الفضل في اختياره لمنصبه عائدا الى فليب الرابع ملك فرنسا الذي اثار دهشة العالم المسيحي بهزيمة البابا بنيفاس الثامن، والقبض عليه واذلاله، ومنع الطعام عنه حتى كاد يميته جوعا. ولم يكن كلمنضوس ليأمن على حياته في روما، بسبب ما كان فيها من فوضى بسبب المنازعات العائلية فيها، زد على ذلك، ان الكرادلة الفرنسيين كانوا يؤلفون وقتئذ اغلبية كبيرة في المجمع المقدس ويأبون ان يضعوا انفسهم تحت سلطان ايطاليا. ولهذا كله اقام كلمنضوس بعض الوقت في ليون وبواتييه، ثم اتخذ مقامه في افنيون القائمة على الضفة الاخرى لنهر الرون المقابلة لارض فرنسا كما كانت في القرن الرابع عشر، وكان يرجو بذلك ان يكون اقل خضوعا لفليب في اقليم يمتلكه ملك نابولي بوصفه كونت بروفانس.

واخذ كلمنضوس الخامس يعمل في صبر وأناة، فلم يخضع لفليب الرابع الا اقل ما يستطيع من الخضوع، وكان فليب هذا يصلت فوق رأس كلمنضوس سيف التهديد، بان يكشف للعالم عن سلوك بنيفاس الثامن ومعتقداته الدينية بعد ان توفى هذا البابا. واشتدت حاجة البابا الى المال فاخذ يبيع الرتب الكهنوتية الى من يعرض فيها اغلى الاثمان، ولكنه كان يوافق موافقة ضمنية على التقارير القاسية التي يقدمها عمدة انجير Angers واسقف مندي Mende لمجلس فينا (1311) عن اخلاق رجال الدين واصلاح الكنيسة. وكان هو نفسه يحيا حياة مقتصدة طاهرة، ويلتزم اسباب التقوى في غير تظاهر ولا مباهاة، وحمى ارنلد اللانوفي Arnoldo of Villanova الطبيب العظيم من الاضطهاد لخروجه على اصول الدين القويم، واعاد تنظيم الدراسات الدينية في جامعة منبليه على اساس النصوص اليونانية والعربية، وحاول ان ينشيء كراسي للغات العبرية والسريانية والعربية في الجامعات — وان لم يفلح في هذه المحاولة وكان مما ضاعف متاعبه ان اصيب بمرض شديد الالم — يظن انه سرطان الامعاء والمعدة — اضطره الى تجنب الاختلاط بالناس، وقضى عليه في عام 1314. ولو انه عاش في بيئة خير من بيئته لكن مم ازدانت بهم الكنيسة.

يوحنا الثاني والعشرون 1316-1334

واعقبت موته فترة خلا فيها كرسي البابوية من شاغله ضربت فيها الفوضى اطنابها، وكشفت عن طبيعة ذلك العصر ومزاجه. وكتب دانتي الى الكرادلة الطليان يحرضهم على ان يصروا على اختيار بابا ايطالي وعلى اعادة مقره الى روما. ولكن عدد الكرادلة الايطاليين لم يكن يتجاوز ستة، فلما انعقد المجمع المقدس في حجرة مقفلة* في كربنتراس Carpentras القريبة من افنيون احاط به الغوغاء من اهل غسقونية واخذوا يصيحون: "الموت للكرادلة الايطاليين!" وهوجمت بيوت اولئك الكرادلة، واشعل المتجمهرون النار في البناء الذي انعقد فيه المجمع المقدس، وفتح الكرادلة لانفسهم ممرا في الجدار الخلفي، وفروا من الغوغاء والنيران. ولم تبذل اية محاولة اخرى لانتخاب البابا مدة سنتين، ثم رفع

* جرت العادة منذ عام 1274 ان تغلق على الكرادلة الحجرة التي يعقدون فيها المجمع المقدس لاختيار البابا واشتق من هذاه العادة اسم المجمع نفسه (Con-Clave ومعناه بمفتاح).

الكرادلة اخر الامر في اجتماع لهم عقد في ليون بحماية الجنود الفرنسيين الى كرسي البابوية رجلا كان وقتئذ في الثانية والسبعين من عمره، لا يكاد يخطىء من يظن انه لن يطول به الاجل، ولكنه قدر له ان يحكم الكنيسة ثمانية عشر عاما بحماسة، وارادة حديدية، يعقوب دي اوسا Jacques d'Ossa، واتخذ لنفسه لقب يوحنا الثاني والعشرون.

ولد يوحنا الثاني والعشرون في كوهور Cohors من اعمال جنوبي فرنسا، عام 1242، وكان ابوه اسكافيا. وكان يوحنا قد درس القانون المدني والكنسي بحماسة قربته من قلب الملك. واختاره بنيفاس الثامن بناء على توصية الملك اسقفا لفريجو Frejus ورفعه كلمنضوس الخامس الى كرسي افنيون، وجعله كردينالا سنة 1312. وقد قدر لابن الاسكافي هذا ان يصبح من اعظم البابوات قوة وامضاهم عزيمة.

واظهر يوحنا من القدرات ما يندر اجتماعه في انسان: اظهر جدا في الدراسة، ومهارة في الادارة، واقام من بابوية افنيون بزعامته نظاما بيروقراطيا قديرا، وان كان لا يخلو من بعض الفساد، وجمعت طائفة من الموظفين الملمين بالشئون المالية ادهشت القائمين على وزارات المالية في اوروبا، وحسدوها على كفايتها في جمع الايرادات.

واشتبك يوحنا في نحو اثني عشر نزاعا كبيرا تطلبت منه الاموال[1]، فحذا حذو سلفه في بيع المناصب الكهنوتية. واستطاع بعدة اساليب مختلفة ان يملأ خزانة البابوية بالمال وصفائح الذهب والجواهر. وكانت حجته في جمع الاموال ان البابوية قد فقدت الكثير من اموالها المستمدة من ايطاليا، وان عليها ان تنشيء وظائفها وموظفيها، وخدامها من جديد، مع ان عاداته الشخصية كانت تنزع الى التقشف والزهد في الطعام والشراب.

وكان مع هذا كله يناصر العلوم، واسهم في انشاء مدارس للطب في بروجيا وكوهور، واعان الجامعات، وانشاء كلية لدراسة اللغة اللاتينية في ارمينية، وشجع دراسة اللغات الشرقية لسبيل البشارة في افريقيا واسيا. ونظم السلطة الكنيسة في الابرشيات مقطعا الابرشيات الكبيرة الى عدة ابرشيات، مكثرا الاساقفة لرعايتها. وحارب الهراطقة وشجع محاكم التفتيش لملاحقتهم ولكن بمراعاة العدل والانصاف والرحمة. وحارب الكيمياء القديمة الزائفة والسحر، وكان يقضي الايام والليالي في الدراسات العلمية.

وختم البابا يوحنا الثاني والعشرون حياته متهما اولا بالفساد بسبب "محاباة الاقارب" Népotisme. وبالخروج عن دين متهما في قضية "الرؤية السعيدة" La Vision béatifique. ولعل الذي دعا يوحنا ان ينشر على الناس ان انسانا ما — حتى ام الله نفسها — لا يستطع ان يرقى الى مرتبة "الرؤية السعيدة" الا في يوم الحساب، لعل الذي دعاه الى هذا رغبته في ان يقاوم انتشار نوع من التصوف يدعى الآخذون به الاتصال المباشر بالله. وقامت عليه ثورة بين من يدعون العلم بشؤون الدار الاخرة، ونددت انها مخالفة للدين، وامره فليب السادس ملك فرنسا ان يعود في آرائه الدينية الى الصراط المستقيم، ولكن المعمر الداهية الذي كان وقتئذ قد بلغ سن التسعين افسد عليهم جميعا امرهم بان مات في عام 1334، لكن ليس قبل ان يعلن ايمانه في الليلة السابقة لموته بتصريح بقي غامضا يقول فيه: "نؤمن ونعترف ان نفوس الموتى الطاهرة هي في السماء، في الجنة، وتنعم مع المسيح وبصحبة الملائكة برؤية الله وجها لوجه، حسب استعداد كل نفس". بالرغم من كل هذا يبقى البابا يوحنا الثاني والعشرون من اعظم بابوات افنيون.

بندكتوس الثاني عشر 1334–1342

وكان الذي خلف البابا يوحنا الثالث والعشرون، جاك فورنييه، رجلا لطيف المزاج. اتخذ لنفسه لقب البابا بندكتوس الثاني عشر، ولقب ايضا "بالبابا الابيض" لمحافظته على لباس الثوب الابيض، ثوب جمعيته الرهبانية السترسيين. وكان ابن خباز، طويل القامة، ذا صوت رخيم، مثقف تقي، تمتلكه غيرة قوية على الكنيسة وعلى الايمان، حارب الهراطقة وقاومهم بواسطة محاكم التفتيش، الا انه راعى العدل والانصاف والرحمة، ولم يحكم الا على القليل. شهد له بانه كان ذا اخلاق حميدة، منزهة. كان مصلحا عظيما ولكن سياسيا سيئا. قاوم اغراء توزيع المناصب الكنسية على اقاربه، ونال شرف عداء الناس له بان اختار لهذه المناصب الاكفاء الجديرين بها، لا من يشترونها بالمال، وقطع دابر

[1] من هذه النزاعات: نزاعه مع الفرنسيكسان بين الروحانيين Spirituels والاصلاحيين Conventuels. ونزاعه مع الملك لويس البفاري Louis de Bavière حول الصراع الدائم بين السلطة الزمنية والروحية حول تعيين الملوك والاباطرة. ومع "البابا المضاد" نفولا الخامس.

الرشوة والفساد في جميع فروع الادارة الكنسية. وكسب عداء الرهبان المتسولين بدعوتهم الى اصلاح طوائفهم، ولم تعرف عنه القسوة او اراقة الدماء في حرب، ولهذا ابتهجت جميع قوى الفساد لموته المبكر في عام 1342.

كليمنضوس السادس 1342–1352

وانحدر كلمنضوس السادس من بيت شريف في ليموزين Limousin. وقد الف الترف، والمرح، والفنون. اختاره الكرادلة لوداعته، ولسهولة التعمل معه، ذوقه العالي الشبيه بالاسياد، مما يغير الوضع الصارم الذي انتهجه بندكتوس الثاني عشر. ولم يكن يستطيع كليمنضوس السادس ان يفهم لم يكون البابا جادا صارما اذا كانت خزائن البابوية عامرة بالمال. وكاد كل ما جاءه يطلب وظيفة ان ينالها، لانه كان يقول ان احدا يجب الا يخرج من عنده غير راض، واعلن في وقت ما ان كل رجل من رجال الدين يفد اليه في خلال شهرين سينال نصيبا من رفده، ويقدر شاهد عيان عدد من وفدو عليه بمائة الف. واجزل العطاء للفنانين والشعراء، واحتفظ باسطبل من الجياد الكريمة يضارع اكبر اسطبل اخر في العالم المسيحي، واجاز للنساء ان يدخلن البلاط البابوي واختلط بهن. وترامت طيبة كلمنضوس الى اهل روما فبعثوا اليه يرجونه ان يعود الى روما، ولم ير الخير في هذا ولكنه ترضاهم بان اعلن ان العيد الذي قرر بنيفاس الثامن في عام 1300 ان يقام في كل مائة عام يجب ان يقام كل خمسين عاما. وابتهجت روما حين سمعت هذا الخبر، وخلعت رينسو، واعادت خضوعها السياسي للبابوية.

واصبحت افنيون في عهد كليمنضوس السادس الحاضرة الدينية للعالم اللاتيني، وكذلك حاضرة سياسيته وثقافته وملذاته وفساده. واتخذت الاداة الادارية للكنيسة وقتئذ صورتها الواضحة المحددة، فكان لها مجلس رسولي (Camera apostolica) يشرف إلى شؤونها المالية، يرأسه حاجب بابوي (Camerarius) لا يعلو عليه في المنزلة الا البابا نفسه، ثم ديوان التوقيعات (Cancelleria) وله سبعة دوائر يديرها كردنال نائب عن البابا ويشرف على مرسلات الكرسي البابوي الكثيرة المعقدة، ثم مجلس القضاء البابوي المكون من رجال الدين وغير رجال الدين المتضلعين في قانون الكنيسة، ويشمل ايضا مجمع الكرادلة — المكون من البابا وكرادلته والذي كان بمثابة محكمة استئناف، ثم مجلس التوبة الرسولي — وهو هيئة من رجال الدين تنظر في شؤون الزواج، والحرمان من حظيرة الكنيسة، ويستمع الى اعترافات من يطلبون الغفران البابوي.

واراد بندكتوس الثاني عشر ان يوجد مسكنا للبابا واعوانه، ولتلك الوزارات، والهيئات والموظفين والخدم، فبدأ بتشييد قصر البابوات، وطائفة من الابنية القوطية الطراز — تشمل حجرات للنوم، وابهاء للمجالس، واماكن للصلاة، ومكاتب — وتضم فناءين كبيرين، وتحيط بها اسوار قوية منيعة. ولما لم يفكر كليمنضوس السادس بالعودة الى روما، تابع تشييد القصور والابنية وغيرها، مما افرغ الخزائن البابوية. ولما ان توفي هذا البابا في 6 كانون اول 1352، على اثر نزيف دموي، سببه انفجار ورم داخلي، ترك وضع مالي سيء جدا، عانى منه خلافائه البابوات.

(كتاب "قصة الحضارة" ويل دورانت ، الجزء 18، ص. 89-102)

2– الطريق الى روما

وكانت منزلة الكنيسة في ايطاليا اقل منها في أي بلد آخر. وكان من اسباب ذلك ان بندكتوس الثاني عشر اراد ان يخفض شوكة لويس صاحب بافاريا الثائر فايد عام 1342 جميع السلطات التي انتحلها طغاة المدن اللبمارديةمتحديا بذلك دعاوي الامبراطورية. وثار لويس لهذا العمل فايد من قبل الامبراطورية الطغاة الذين اغتصبوا الولايات البابوية. وسخرت ميلان من البابوات علانية، ولما ان ارسل اليها اربان الخامس في عام 1362 مندوبين يحملان قرارات الحرمان للفسكونتي ارغمهم برنابو Bernabo على ان يأكلوا القرارات بما فيها من رقوق، وخيوط حريرية، واختام من الرصاص، وكانت صقلية منذ عام 1282 قد ظلت تعادي البابوات جهرة.

انوسنت السادس 1352–1362

قرر الكرادلة ان ينتخبوا بابا يقضي على الفساد الذي استشرى في افنيون وبنفس الوقت لا يكن له من القوة، بحيث تكون القرارت بايدي مجلس الكرادلة مجتمعين. ووقع اختيارهم على كردينال اوستيا Etienne Aubert، وتم انتخابه في 18 كانون اول عام 1352، واتخذ لنفسه لقب انوسنت السادس. ويكاد انوسنت هذا ان يكون نموذجا طيبا

للبابوات. ذلك انه بعد ان حبا عددا قليلا من اهله ببعض المناصب اعتزم ان يقف سيل المحسوبية الكهنوتية والفساد، وقضى على مظاهر الترف والفخفخة والاسراف في البلاط البابوي، واقصى الجيش العرمرم من الخدم الذين كانوا يحيطون بكليمنضوس السادس، وطرد العدد الجم من طلاب المناصب، وامر كل كاهن ان يقيم في مقر عمله، وعاش هو نفسه معيشة الاستقامة والاعتدال. وكان يعتقد ان السبيل الوحيد لاعادة سلطان الكنيسة هي تحريرها من سلطان فرنسا، وعودة البابوية الى ايطاليا. ولكن الكنيسة اذا خرجت من فرنسا يتعذر عليها الاحتفاظ بكيانها بغير الايراد الذي كان يصل اليها من الولايات البابوية، مع ان انوسنت نفسه رجل سلم فقد رأى ان لا سبيل لاستعادة تلك الولايات الا بالحرب.

وعهد بهذه المهمة الى رجل اوتى ايمان الاسبان وحماستهم، ونشاط الدومنيكان وفروسية عظماء قشتالة. ذلك هو جيل الفارز كارلو ده البرنوز Gil Alvarez de Albernoz. وكان جيل هذا جنديا في جيش الفنسو الحادي عشر صاحب قشتالة، ولم ينقطع عن الحرب بعد ان صار كبير اساقفة طليطلة. والآن وقد اصبح الكردنال اجديو دالبرنوز Egidio d'Albornoz فقد صار قائدا بارعا. وقد اقنع جمهورية فلورنس – وكانت وقتئذ تخشى الطغاة وقطاع الطرق الذين كانوا يحيطون بها – ان تمده بما يلزمه من المال لتنظيم جيش. وافلح بالمفاوضات البارعة، الشريفة رغم براعتها، لا بالقوة، ان يخلع الطغاة الصغار الذين اغتصبوا الولايات البابوية طاغية بعد طاغية، ووضع لهذه الولايات "الدساتير الاجيدية" (1357) التي ظلت قانونها الاساسي حتى القرن التاسع عشر، والتي كانت حلا وسطا عمليا بين الحكم الذاتي والولاء للبابوية. وتغلب على جون هوكوود John Hawkwood المغامر الانجليزي الذائع الصيت، واسره، وقذف في قلوب زعماء عصابات المغامرين الخوف من مندوب البابا ان لم يكن من الله، واستعاد بولونيا من رئيس اساقفتها المتمرد، واقنع امراء ميلان ان يعقدوا الصلح مع الكنيسة، وتهيأت بذلك السبيل لعودة البابوات الى ايطاليا. وتوفي البابا انوسنت السادس في 12 ايلول 1362.

اربان الخامس 1362–1370

وواصل اربان الخامس سياسية انوسنت السادس الصارمة الاصلاحية. وبذل كل ما في وسعه لاعادة النظام والامانة الى رجال الدين والى البلاط البابوي، وقضى على خداع المحامين، وجشع المرابين، وابتزازهم اموال المدنيين، وعاقب من يتجرون بالمقدسات وبالمناصب الكهنوتية، وضم الى خدمته رجالا من ذوي الاخلاق الممتازة والعقول الراجحة، وانفق من ماله الخاص على الف طالب في الجامعات، وانشأ كلية جديدة في منبيليه، وكراكوفي (بولونيا) وفيينا، وامد بالمال كثيرين من العلماء والفنانين.

واراد ان يتوج اعماله البابوية فاعتزم ان يعيد مقرها الى روما. وارتاع الكرادلة حين علموا بهذه النية، لان الكثيرين منهم كانت اصولهم ومواضع حبهم في فرنسا، وكانوا مكروهين في ايطاليا، وتوسلوا اليه الا يلقى بالا الى مطالب القديسة كاترينا او الى بلاغة بترارك. وشرح لهم اربان الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها في فرنسا – التي كان مليكها اسيرا في انجلترا، وجيوشها محطمة، والانجليز يستولون على اقاليمها الشمالية، ويقتربون يوما بعد يوم من افنيون. ترى ماذا تعمل انجلترا اذا انتصرت على البابوية التي كانت تخدم فرنسان وتمدها بالمال؟

ونفذ البابا ما اعتزمه فابحر من مرسيليا في اليوم الثلاثين من نيسان عم 1367 تحرسه عدة سفن شراعية ايطالية مفعمة قلوب من فيها بهجة. ودخل روما في السادس عشر من شهر تشرين اول وسط مظاهر الترحيب، من العامة ورجال الدين والاشراف. وامسك الامراء الايطاليون بزمان الحصان الابيض الذي كان يمتطيه، وانطلق لسان بترارك بالشكر للبابا الفرنسي الذي جرؤ على الاقامة في ايطاليا. وكانت روما وقتئذ مقفرة وان كانت سعيدة: افقرها انفصالها الطويل الامد عن البابوية، وهجر المصلون نصف كنائسها وتهدمت، وتخربت كنيسة القديس بولس، وكانت كنيسة القديس بطرس توشك ان تنهار في اية لحظة، وقصر لاتيران قد دمرته النار منذ عهد قريب، والقصور لا تقل تهدما عن المساكن الصغيرة، وانتشرت المستنقعات فحلت محل البيوت، وتكدست الاقذار في الشوارع والميادين. واصدر اربان الاوامر ببناء القصور البابوية ورصد لها الاموال. ولم يطق صبرا على منظر روما، فاتخذ مسكنه في مونتى فياسكوني Montefiascone. ولكن ذكريات افنيون وترفها وفرنسا المحبوبة اقضت مضجعه ونغصت عليه حياته. وتنبأت القديسة بردجت Ste. Bridget السويدية ان البابا سيموت من فوره اذا غادر ايطاليا، وعمل الامبراطور شارل الرابع على تقويمة

عزيمته، فايد استعادة البابا لايطاليا الوسطى، وجاء خاشعا الى روما (1368)، ليقود جواد البابا من كنيسة القديس انجيلو الى كنيسة الرسول بطرس، ووقف على خدمته اثناء القداس. وتوجه البابا في حفل خيل الى الجمع المحتشد انه يحسم النزاع القديم بين الامبراطورية والبابوية.

كانت السنتان اللتين قضاهما في روما سيئة وحزينة بالنسبة الى البابا، وعادت الاضطرابات في الولايات البابوية، وعاد المغامر جون هاوكود John Hawkod مع عصابته في مهاجمة البابا، ولما لم يجد مساعدة من الرومانيين، اقلع اربان الى مارسيليا، في اليوم الخامس من ايلول عام 1370 ولعله بعمله هذا قد خضع الى رغبة كرادلته الفرنسيين، وادعى انه يريد اعادة السلام بين انجلترا وفرنسا. ووصل في السابع والعشرين من هذا الشهر نفسه الى افنيون حيث وافته المنية في التاسع عشر من كانون الاول، وهو يرتدى ثياب راهب بندكتيني، ويرقد على اريكة حقيرة، وكان قد امر ان يسمح لكل من شاء بالدخول عليه، حتى يستطيع الناس جميعا ان يروا ان عظمة اجلّ الناس مقاما ليست الا بهرجا كاذبا قصير الامد. ومات برائحة القداسة، لذلك اعلنه البابا بيوس التاسع قديسا في 10 اذار 1870.

غريغوريوس الحادي عشر 1370–1378

عشرة ايام بعد وفاة البابا اربان الخامس، انتخب الكرادلة باجماع الاصوات، بيير روجر دي بوفورت Pierre Roger de Beaufort، الذي اتخذ لنفسه لقب غريغوريوس الحادي عشر. وكان كليمنضوس السادس البابا قد عين غريغوريوس الحادي عشر ابن اخيه كردنالا وهو في الثامنة عشرة من عمره، ورسم كاهنا في التاسع والعشرين من كانون الاول عام 1370، ثم اختير بابا في الثلاثين من كانون الاول في سن التاسعة والثلاثين. وكان غزير العلم، مولعا بشيشرون. وقد جعلته الاقدار رجل حرب وكفاح، وقضى مدة بابويته في اخماد الثورات العنيفة. ذلك ان اربان الخامس كان يخشى الا يثق البابا الفرنسي بالايطاليين، فاختار عددا كبيرا من الفرنسيين مندوبين عنه لحكم الولايات البابوية. ووجد هؤلاء الحكام انفسهم في بيئة معادية لهم فشادوا الحصون لمقاومة الشعب، وجاءوا باعوان لهم كثيرين من الفرنسيين، وفرضوا ضرائب باهظة، وآثروا الغطرسة على الكياسة والدهاء. وحدث ان اخذ ابن اخ للمندوب البابوي في بروجيا يطارد امرأة متزوجة مطاردة بلغ من عنفها ان سقطت المرأة من نافذة وقضت نحبها وهي تحاول الفرار منه. ولما جاء وفد الى المندوب البابوي يطلب اليه عقاب ابن اخيه رد عليه بقوله: "علام هذه الجلبة كلها؟ هل تظنون ان الفرنسي مش رجل؟".

واثار مندوبو البابا بوسائل كثيرة ومتنوعة كراهية الشعب الى حد دفع كثيرا من الولايات الى الانقضاض عليهم في سنة 1375 واحدة بعد الاخرى. ورفعت القديسة كاترينا صوتها نائبة عن ايطاليا فالحت على غريغوريوس ان يعزل اولئك "الرعاة الاشرار الذين يسممون حديقة الكنيسة ويعيثون فيها فسادا". وتزعمت فلورنس هذه الحركة وهي التي كانت في العادة حليفة البابوية، ونشرت راية حمراء كتبت عليها باحرف ذهبية كلمة الحرية. فلم يحل عام 1376 حتى لم يبق مواليا للبابا من مدن ايطاليا الا واحدة بعد ان كان عدد المدن التي تعترف للبابا بزعامته المدنية والروحية اربعا وستين مدينة في عام 1375، وخيل الى العالم ان جميع ما عمله البرنوز قد ذهب ادراج الرياح، وان البابوية قد خسرت مرة اخرى جميع ايطاليا الوسطى.

واتهم غريغوريوس، بايعاز من الكرادلة الفرنسيين، اهل فلورنس بانهم يتزعمون الثورة عليه، وامرهم بالخضوع الى المندوب البابوي، فلما عصوا امره حرمهم من الدين، ومنع اقامة الخدمات الدينية في مدينتهم، واصدر مرسوما يعلن فيه ان جميع الفلورنسيين خارجون عن القانون، واحل لاي انسان في أي مكان ان يستولي على املاكهم ويتخذهم ارقاء. وحاق خطر الاخيار بصرح التجارة والمال الفلورنسي كله، واعتقلت انجلترا وفرنسا من فورهما من فيهما من الفلورنسيين واستولتا على املاكهم. وكان رد فلورنس على هذا ان صادرت جميع املاك الكنيسة الموجودة في اراضيها، وهدمت مباني محكمة التفتيش، واغلقت ابواب المحاكم البابوية، وزجت في السجن، وشنقت في بعض الاحيان، الكهنة المعاندين، وبعثت بنداء الى اهل روما تدعوهم فيه ان ينضموا الى الثورة، ويقضوا على جميع ما للكنيسة في ايطاليا من سلطة زمنية. وبينما كانت روما لا تزال تتردد في الامر، اذ قطع غريغوريوس لزعمائها وعدا صريحا بان يعيد البابوية الى روما اذا ظلت موالية له، وقبل اهل روما هذا الوعد واعتصموا بالسلم.

وكان البابا في خلال ذلك قد سير الى ايطاليا قوة من الجنود البريطانيين المرتزقة الجفاة بقيادة "الكردينال المندوب البابوي روبرت من اهل جنيفا". وخاض روبرت غمار الحرب بوحشية لا يكاد يصدقها عاقل، من ذلك انه لما استولى على كازينا Casena بعد ان قطع على نفسه عهدا بالعفو عن اهلها قتل بالسيف كل من كان فيها من رجال ونساء واطفال. وكان جون هوكودك يقود جنود المرتزقة في خدمة الكنيسة، فذبح هو الآخر في فائنسا Faenza اربعة آلاف من اهلها لارتيابه في ان البلدة تريد الانضمام الى الثورة. وارتاعت القديسة كاترينا السينائية من هذه الاعمال الوحشية، ومن مصادرة الاملاك من الجانبين، ومن انقطاع الخدمات الدينية من جزء كبير من ايطاليا، فكتبت الى غريغوريوس تقول:

"نعم ان عليك ان تسترد الاملاك التي خسرتها الكنيسة، ولكن عليك اكثر من هذا ان تسترد جميع الخراف التي هي كنز الكنيسة الحقيقي والتي تحل بها الفاقة بحق اذا خسرتها... عليك ان تضرب الناس بسلاح الصلاح، والحب، والسلم. فان فعلت كسبت به اكثر مما تكسب بسلاح الحرب. وانا حين اسال الله عن خير الطرق لنجاتك، واعادة الكنيسة الى حالها الاول، وعودة العالم اجمع، لا اجد جوابا غير كلمة السلم! السلم! فبحق المنقذ المصلوب عد الى السلم!".

ودعتها فلورنس الى ان تكون مع وفدها المرسل الى غريغوريوس. فقبلت الدعوة، وسافرت، وانتهزت هذه الفرصة لتندد باخلاق افنيون، وبلغ من صرامتها في هذا التنديد ان طالب الكثيرون بالقبض عليها، ولكن غريغوريوس بسط عليها حمايته، ولم يكن لسفر البعثة نتيجة عاجلة، ولكن غريغوريوس حين ترامى اليه ان روما تنضم الى الثورة اذا لم يعجل بالمجيء اليها اقلع من مرسيليا ووصل الى روما في السابع عشر من كانون ثاني سنة 1377، وربما كان من اسباب سفره انه تأثر بدعوة كاترين. ولم يرحب بعودته جميع الاهلين لان نداء فلورنس اثار في هذه المدينة المنحلة ذكريات للجمهورية قديمة، وجاءت الاخبار الى غريغوريوس ان حياته غير آمنة في عاصمة العالم المسيحي القديمة، فانتقل منها الى انانى في شهر ايار.

وكأنه الآن قد خضع آخر الامر الى رجاء كاترين، فتحول من الحرب الى الدبلوماسية. واخذ عماله يشجعون الجماهير في المدن على ان يقيلوا حكوماتهم المتمردة. وكانت تلك الجماهير تتوق الى مصالحة الكنيسة، ووعد جميع المدن التي تعود الى الولاء به بان تكون لها حكومة ذاتية تحت رئاسة نائب عن البابا تختاره هي بنفسها. وقبلت المدن هذه الشروط واحدة تلو الاخرى. واتفقت فلورنس مع غريغوريوس في عام 1377 على ان يحكم برنابو فيسكونتي في النزاع القائم بينهما. واقنع برنابو البابا بان يهبه نصف الغرامة التي قد يفرضها على فلورنس، فلما وافق على ذلك امر المدينة ان تؤدي للكرسي المقدس غرامة قدرها 800000 فلورين (20 مليون دولار). ورأت فلورنس ان حلفاءها قد تخلوا عنها فخضعت لهذا الامر وهي كارهة مغضبة، ولكن البابا اربان السادس خفض الغرامة الى 250000 فلورين.

ولم يعش غريغوريوس حتى يشهد نصره، فقد عاد الى روما في السابع عشر من كانون ثاني عام 1377، وكان يعاني الام المرض حتى وهو في افنيون. وتأثر بالشتاء الذي قضاه في ايطاليا الوسطى، واحس بدنو اجله، وخشي ان يقطع النزاع القائم بين فرنسا وايطاليا للسيطرة على البابوية اوصال الكنيسة، فاعد العدة في التاسع عشر من اذار عام 1378 لاختيار خلفه على الفور، وتوفى بعد ثمانية ايام (23 اذار 1378) من ذلك الوقت وهو يحن الى ارض فرنسا الجميلة. (ويل دورانت "قصة الحضارة" الجزء 18 ص. 103-110)

3- وجه مضيء في الظلمة: القديسة كاترينا السيانية 1347-1380

ولدت القديسة كاترينا السيانية، وعاشت، وماتت في غرفة، لا يزال يؤخذ اليها الزائرون. وساعدت من هذه البقعة الصغيرة من الارض على تحريك البابوية وعلى البث التقوى في ايطاليا.

انضمت وهي في الخامسة عشرة من عمرها الى جمعية التوبة التابعة للقديس دومنيك. وكانت هذه الجمعية منظمة "ثلاثية" لا تتألف من رهبان او راهبات، بل تتألف من رجال ونساء يعيشون كما يعيش اهل الدنيا، ولكنهم يخصصون حياتهم قدر استطاعتهم لاعمال الدين والبر. وكانت كاترينا تعيش مع ابويها، ولكنها جعلت حجرتها اقرب

ما تكون الى خلوة الزهاد، وانهمكت في الصلوات والتأملات الصوفية لا تكاد تترك حجرتها الا للذهاب الى الكنيسة. وقلق ابواها واضطربا لتفكيرها المتصل في شؤون الدين وخشيا ان يؤثر ذلك في صحتها، فكانا يعهدان اليها باشق اعمال البيت، ولكنها كانت تؤديها بلا ملل ولا شكوى وتقول: "اني اخصص في قلبي ركنا صغيرا ليسوع". وظلت محتفظة بصفاء كصفاء الاطفال. وبينما كان غيرها من البنات يبحثن عن جميع المباهج، والشكوك، والنشوة في الحب "الدنس"، كانت هي تبحث عنها وتجدها في الخشوع للمسيح. وكانت وهي في عنفوان هذه التأملات المتزايدة اثناء عزلتها تفكر في المسيح وتتحدث اليه كأنه حبيبها السماوي، واطالت التفكير في جراح المصلوب الخمسة، كما اطال التفكير فيها القديس فرانسيس، حتى كانت تشعر بهذه الجراح في يديها وقدميها وجنبها. ونبذت كل شهوات الجسد، وكانت ترى فيها وسوسة من الشيطان، واساليب خبيثة لحرمانها من ذلك الحب الذي تنهمك فيه وحده.

وقفت ثلاث سنين لا تكاد تنصرف فيها عن وحدتها وتقواها، احست بعدها ان في مقدورها ان تخرج آمنة الى حياة المدينة، وكما انها كرست انوثتها للمسيح، فقد خصت ما انطوت عليه من حنان الامهات الى العناية بالمرضى، والمعوزين من اهل سيينا. فكانت تبقى الى آخر لحظة مع ضحايا الطاعون، وتواسي بروحها المحكوم عليهم بالاعدام من المجرمين حتى ينفذ فيهم حكم الاعدام. ولما توفى والدها وتركا لها ميراثا صغيرا، وزعته على الفقراء. وكان وجهها، وان شوهه الجدري، نعمة وبركة لكل من شاهدها. وكان الشبان ينبذون، بكلمة تصدر منها، ما اعتادوه من تحديف، كما كان الكبار يستمعون الى فلسفتها الساذجة الصادقة فتذوب منها شكوكهم. وكان من رأيها ان جميع شرور الحياة انما هي نتيجة لخبث الانسان، ولكن جميع خطايا البشر ستمحى وتزول في بحر حب الله، وستزول شرور العالم كله اذا رضى الناس ان يعتادوا حب المسيح. وآمن كثيرون من الناس، وبعثت اليها مونتى بلشيانو MONTEPULCIANO تدعوها لتزيل الخصام بين اسرتيها المتعاديتين. وكانت مدينتا بيزا ولوكا تستنصحانها، ودعتها فلورنس لان تنضم الى وفد ترسله الى افنيون، وهكذا استدرجت شيئا فشيئا الى شؤون العالم.

وهالها ما شهدته في ايطاليا وفرنسا: فقد رأت روما قذرة مهجورة، ورأت ايطاليا وقد انفصلت عن كنيسة هجرتها الى فرنسا. ورأت رجال الدين وقد فقدوا بحبهم الدنيا احترام غير رجال الدين. ووجدت فرنسا وقد خربت نصفها الحرب، وحملتها ثقتها برسالتها القدسية على ان تندد بالاساقفة والاحبار في وجوههم، وتقول لهم ان عودتهم الى روما والى الحياة الصالحة هي وحدها التي يمكن ان تنقذ الكنيسة مما هي فيه. واذ كانت هي نفسها عاجزة عن الكتابة، فقد اخذت وهي فتاة في السادسة والعشرين من عمرها تملي بلغتها الايطالية البسيطة الرنانة رسائل صارمة ولكنها يسري فيها الحب تبعث بها الى البابوات، والامراء، والحكام، وتكاد تظهر في كل صفحة من صفحاتها تلك الكلمة التي كانت تنبىء بما سيكون وهي كلمة الاصلاح. واخفقت في مسعاها مع رجال الحكم، ولكنها افلحت مع الشعب. وابتهجت حين جاء اربان الخامس الى روما، وحزنت حين غادرها، ثم عادت الى الحياة النشيطة حين جاء اليها غريغوريوس الحادي عشر. واسدت النصح الرشيد الى اربان السادس، ولكنها روعت من وحشيته. ولما ان مزق انقسام البابوية العالم المسيحي وفرقه شيعتين، كانت بين الضحايا الاولى لهذا النزاع الذي لا مبرر له. ذلك انها قللت من طعامها حتى لم يكن يزيد على بضع لقمات، واوغلت في النسك ايغالا بلغ من شدته، كما تقول القصة، ان كان غذاؤها الوحيد هو القربان الاقدس الذي تتناوله اثناء القداس. وكان من اثر هذا ان فقدت قدرتها على مقاومة المرض، كما ان الانقسام الديني افقدها ارادة الحياة، فانتقلت الى الدار الآخرة بعد عامين من هذا الانشقاق، وكانت وقتئذ في الثالثة والثلاثين من عمرها (1380).

الفصل التاسع والثلاثون

ازمة في الكنيسة – الانشقاق البابوي

1447-1378

اربان السادس 1378–1389– كلمنت السابع 1379– 1394

اعاد غريغوريوس الحادي عشر البابوية الى روما، ولكن هل تستطيع البابوية البقاء فيها؟ وكان المجمع الذي انعقد لاختيار من يخلفه مؤلفا من ستة عشر كردنالا، لم يكن منهم ايطاليين غير اربعة، وقدم اليهم ولاة الامور في المدينة معروضا يطلبون اليهم فيه ان يختاروا رجلا من اهل روما، فان لم يكن فعلى الاقل من ان يكون ايطاليا. وارادوا ان يؤيدوا هذا المطلب فاجتمعت طائفة منهم خارج الفاتيكان، وانذرت المجتمعين بانها ستقتل جميع الكرادلة غير الايطاليين اذا لم يُنتخب للبابوية احد ابناءها. وارتاع لذلك المجمع المقدس، فاسرع باختيار بارتوليو برنيانو Bartolommao Prignano (1378) كبير اساقفة باري Bari وتسمى باسم اربان السادس، ثم ولو هاربين طلبا للنجاة، ولكن روما قبلت هذه الترضية. نابولتيناني المولد، كان مشهودا له بعلمه وخصوصا في علم القانون، ذا اخلاق حميدة، متقشف، يلبس المسوح، ويصوم الاصوام الشديدة، الا انه كان شديد وصارم في معاملاته.

حكم اربان السادس المدينة والكنيسة بنشاط استبدادي عنيف، فعين هو اعضاء مجلس الشيوخ وكبار موظفى البلدية، واخضع العاصمة الثائرة المضطربة للطاعة والنظام، وروع الكرادلة بان اعلن عزمه على اصلاح الكنيسة، وانه سيبدأ هذا الاصلاح من اعلى. وبعد اسبوعين من هذا الاعلان القى عظة عامة حضرها الكردلة انفسهم، ندد فيها بفساد اخلاقهم واخلاق كبار رجال الدين، ولم يترك نقيصة الا رماهم بها. وقد امرهم فيها الا يقبلوا معاشا، وان يقوموا بجميع الاعمال التي تحال الى المحكمة البابوية دون اجور او هدايا ايا كان نوعها. ولما تذمر الكرادلة واخذوا يتهامسون مستائين قال لهم: ": اياكم وهذا اللغو". فلما احتج عليه الكردينال اورسيني قال له البابا انه ابله لا يعقل، ولما اعترض عليه كردينال ليموج Limoges هجم عليه اربان يريد ان يضربه. وسمعت القديسة كاترين بهذا، فبعثت الى البابا الثائر تحذره وتقول له: "افعل ما تريد ان تفعله باعتدال... وحسن نية، وقلب مسالم، لان التطرف يدمر ولا يبني، واني استحلفك بحق الرب المصلوب ان تكبح بعض الشيء جماح هذه الحركات السريعة التي تدفعك اليها طبيعتك". واصم اربان اذنه عن سماع هذا النداء، واعلن عزمه على تعيين عدد من الكرادلة الايطاليين يكفي لان يجعل ايطاليا اغلبية في مجلس الكرادلة.

واجتمع الكرادلة الفرنسيون في اناني Agnani، ودبروا الثورة. فلما كان اليوم التاسع من اب عام 1379 اصدروا منشورا يعلنون فيه ان انتخاب اربان باطل لانه تم تحت ضغط غوغاء روما، وانضم اليهم جميع الكرادلة الطليان، واعلن المجمع على بكرة ابيه في يوم 20 ايلول ان روبرت الجنيفي هو البابا الحق. واتخذ روبرت مقامه في افنيون وتسمى باسم كلمنضوس السابع، اما اربان فقد تمسك بمنصبه الديني الاعلى وظل مقيما في روما.

وكان الانقسام البابوي الذي بدأ على هذه الصورة نتيجة اخرى من النتائج التي اسفر عنها قيام الدولة القومية، فقد كان في واقع الامر محاولة من جانب فرنسا للاحتفاظ بعون البابوية الذي لا غنى لها عنه في حربها مع انجلترا وفي كل نزاع مقبل مع المانيا او ايطاليا. وحذت نابولي واسبانيا واسكتلندة حذو فرنسا، ولكن انجلترا، والمانيا وبولندة وبوهيميا وهنغاريا والبرتغال رضيت باربان، واضحت الكنيسة العوبة في ايدي المعسكرين المتنافسين. وبلغ هذا الاضطراب غايته، واثار ضحك الاسلام الآخذ في الانتشار وسخريته. فقد كان نصف العالم المسيحي يرى ان النصف الاخر زنادقة مجدفون، خارجون على الدين. وانقسمت الابرشيات الاديرة بين مؤيدين ومعارضي، واصبح هناك اسقفان لكل ابرشية ورئيسان لكل دير، يتنافسان ويتحاربان حتى بالسلاح حول صلاحية كل منهما.

ونددت القديسة كاترينا بكلمنضوس السابع وقالت انه هو يهوذا. واطلق القديس فنسنت فرر St. Vincent Ferrer الاسم عينه على اربان السادس. وادعت كلتا الطائفتين ان القربان المقدس الذي تقدمه الطائفة الاخرى باطل، وان الاطفال الذين تعمدهم، والتائبين الذين تتلقى اعترافهم، والموتى الذين تمسحهم، يبقون في حالة الخطيئة، ملقين في الجحيم او في المطهر اذا عاجلهم الموت. وبلغت العداوة بين الطائفتين درجة لا تعادلها الا العداوة في اشد الحروب مرارة وعنفا. ولما ان ائتمر كثيرون من كرادلة اربان الجدد عليه ليقتلوه لانه عاجز شديد الخطورة، امر بالقبض على سبعة منهم وعذبهم، ثم اعدمهم (1385).

ولما توفي البابا الصارم اربان السادس في 15 تشرين اول عام 1389، لم يأسف عليه احد من اصحابه او اعدائه.

بونيفاس التاسع 1389–1404 – بندكتوس الثالث عشر 1394–1422

ولم يحسم موت اربان السادس هذا النزاع، ذلك ان الاربعة عشر من الكرادلة الذين بقوا في معسكره اختاروا بيروا توماتشيلي Piero Tomacelli لمنصب البابوية. وتسمى بعد اختياره بونيفاس التاسع. كان هذا البابا البالغ الاربعين من العمر، وديعا متسامحا، حلو المعشر، كرس الخمسة عشر سنة من بابويته لتقوية مركز البابوية في الولايات التابعة له. اما بالنسبة للانشقاق، فكان مؤمنا ومقتنعا انه البابا القانوني، وانه لانهاء الانشقاق، ما على البابا المضاد الا ان يستقيل. ولما مات كليمنضوس السابع (1394) رشح كرادلة افنيون بيرو ده لونا Piero de Luna ليكون هو بندكتوس الثالث عشر، وكان من مؤيدي الوحدة واقترح شارل السادس ملك فرنسا ان يستقيل البابوان كلاهما، ولكن بندكتوس لم يقبل هذا الاقتراح كما وعد. فلما كان عام 1399 اعلن بونيفاس التاسع اقامة عيد اليوبيل في السنة التالية. واذا كان يعلم ان كثيرين ممن ينتظر منهم ان يقدموا للاشتراك في هذا العيد سيبقون في اوطانهم بسبب ما يسود تلك الايام من فوضى واخطار، خول وكلاءه في الاقاليم – ان يمنحوا كل ما يترتب على الحج للاحتفال بالعيد من غفران للذنوب وامتيازات لكل مسيحي يعترف بذبوبه، ويتوب، ثم يهب الكنيسة الرومانية المال الذي يتطلبه السفر الى روما. ولم يكن جباة هذه الاموال رجال دين ذوي ضمائر حية نزيهة، فقد كان كثيرون منهم يعرضون الغفران دون ان يتلقوا اعترافا ما. ولامهم بونيفاس على فعلتهم، ولكنه كان يحس بانه ما من احد غيره يستطيع ان يفيد من المال الذي جمع بهذه الطريقة احسن مما يفيده هو منه، ولم "يرو بونيفاس تعطشه الى الذهب" كما يقول امين سره وسط ما كان يعانيه من الام الحصوة المبرحة. ولما اراد بعض الجباة ان يختلسوا بعض هذا المال امكر بتعذيبهم حتى يردوه اليه. ومزقت جماهير روما الغاضبة غيرهم من الجباة لانهم سمحوا لبعض المسيحيين ان ينالوا الغفران دون ان يأتوا الى روما لينفقوا فيها نقودهم.

وبينما كانت الاحتفالات قائمة على قدم وساق، حرّضت اسرة كولنا الشعب على ان يطالب بعودة الحكم الجمهوري، فلما رفض بونيفاس الطلب، قادت هذه الاسرة جيشا مؤلفا من ثمانية الاف محارب هجمت بهم عليه. وقاوم البابا الطاعن في السن الحصار بعزيمة ماضية في سانت انجيلو، وانقلب الشعب على آل كولنا، وتفرق جيش المتمردين، وزج بواحد وثلاثين من زعماء الفتنة في غياهب السجون. ووعد واحد منهم بالعفو عنه والابقاء على حياته اذا رضى بان يكون جلاد الباقين، فرضى بهذا العمل وشنق الثلاثين الباقين ومنهم ابوه واخوه. ومات بونيفاس التاسع في الاول من تشرين اول عام 1404.

انوسنت السابع 1404–1406

وبالرغم من طلب سفراء ملك فرنسا الى الكرادلة عدم انتخاب بابا جديد، الا انهم خمسة ايام بعد موت بونيفاس التاسع اختاروا البابا انوسنت السابع، الذي وعد بان يعمل كل ما في وسعه لاعادة الوحدة، حتى ولو طلب ذلك استقالته. وشبت نار الفتنة من جديد في روما، وفر انوسنت الى فتيربو Viterbo وهجم الغوغاء من اهل روما بقيادة جيوفني كولنا على قصر الفاتيكان، واعملوا فيه السلب والنهب، ولطخوا شارات انوسنت بالوحل، وبعثروا السجلات البابوية والقرارات التاريخية في شوارع المدينة (1405). ثم تراءى للشعب ان روما اذا خلت من البابوات حل بها الخراب والدمار، فعقد صلحا مع انوسنت، فعاد الى روما ظافرا ومات فيها بعد ايام قليلة من عودته (1406).

غريغوريوس الثاني عشر1406 – 1415 – اسكندر الخامس 1409–1410

وهنا ايضا بالرغم من طلب محبي الوحدة، الى الكرادلة عدم انتخاب او تأخير انتخاب بابا جديد، حتى يتم تدارس طرق اعادة الوحدة، واختيار بابا يوافق عليه الطرفان، الا ان الكرادلة خوفا من اندلاع ثورة في روما، انتخبوا غريغوريوس الثاني عشر. ودعى غريغويوس الثاني عشر بندكتوس الثالث عشر الى الاجتماع به في مؤتمر. وعرض بندكتوس ان يستقيل اذا رضى غريغوريوس ان يقوم هو ايضا بنفس العمل. ولكن اهل غريغوريوس اشاروا عليه بالا يوافق على

هذا الاقتراح. فما كان من بعض الكرادلة الا ان انسحبوا الى بيزا، ودعوا الى عقد مجلس عام يختار بابا يرتضيه العالم المسيحي قاطبة. وحث ملك فرنسا مرة اخرى بندكتوس على ان يستقيل، فلما رفض ذلك للمرة الثانية اعلنت فرنسا عدم ولائها له، واتخذت موقف الحياد بين الطرفين المتنازعين. ولما تخلى كرادلة بندكتوس عنه فر الى اسبانيا، وانضم هؤلاء الكرادلة الى الذين تخلوا عن غريغوريوس، واصدروا جميعا دعوة الى مؤتمر يعقد في بيزا في الخامس والعشرين من شهر اذار عام 1409.

المجالس العامة

كان الفلاسفة الثائرون قد وضعوا منذ قرن اساس "الحركة المجلسية". ذلك ان وليم الاكامي William of Occam قد احتج على القول ان الكنيسة هي رجال الدين، وقال ان الكنيسة في اعتقاده هي جماعة المؤمنين، وان الكل ذو سطان على أي جزء من اجزائه. وان في مقدور هذا الكل ان يعهد بسلطانه الى مجلس عام يجب ان يكون له حق اختيار البابا او خلعه.

وقال مرسليوس Marsillius احد رجال الدين في بدوفا Padova ان المجلس العام هو عقل العالم المسيحي مجتمعا. ومنذا الذي يجرؤ بمفرده على ان يضع عقله وحده فوق هذا العقل العالمي؟ واضاف ان هذا المجلس العام يجب الا يؤلف من رجال الدين وحدهم، بل يجب ان يضم اليهم غير رجال الدين يختارهم الشعب نفسه. ويجب ان تكون مناقشاته متحررة من سيطرة البابوات.

وطبق هنريخ فن لانجنشتين Heinrich von Langenstein احد علماء اللاهوت في جامعة باريس هذه الآراء على الانشقاق البابوي في رسالة له عنوانها "مجالس السلام" (1381). وقال هنريخ في هذه الرسالة انه مهما يكن من قوة المنطق في حجج البابوات الذين يؤيدون بها سلطتهم العليا المستمدة من الله نفسه، فان ازمة قد نشأت لم يجد المنطق نفسه سبيلا للنجاة منها، وليس ثمة وسيلة لانقاذ الكنيسة من الفوضى التي اخذت تدك قواعدها الا قيام سلطة غير البابوات، تعلو على سلطان الكرادلة، وليست هذه السلطة الا سلطة المجلس العام.

وقال جان جيرسن Jean Gerson مدير جامعة باريس في موعظة له القاها في ترسكون امام بندكتوس الثالث عشر نفسه انه وقد عجزت قوة البابا وحده عن عقد مجلس عام يقضي على انشقاق البابوية، فان هذه القاعدة يجب الغاؤها في هذه الازمة الحاضرة، وان يعقد مجلس عام بغير هذه الطريقة، يعهد اليه بالسلطة التي يستطيع بها القضاء على هذه الازمة.

مجلس بيزا PISA:

وعُقد مجمع بيزا بالنظام الذي وضُع له. فقد اجتمع في الكنيسة الفخمة ستة وعشرون من الكرادلة، واربعة من البطاركة، واثنا عشر من رؤساء الأساقفة، وثمانون اسقفا، وسبعة وثمانون من رؤساء الاديرة، ورؤساء جميع جمعيات الرهبان الكبرى، ومندبون عن جميع الجامعات الكبيرة، وثلاثمائة من رجال القانون الكنسي، وسفراء من قبل جميع الحكومات الاوروبية ما عدا حكومات هنغاريا، ونابولي، واسبانيا، واسكتلندة. واعلن المجلس انه كنسي (مشروع حسب قانون الكنيسة) ومسكوني عالمي (اي انه يمثل العالم المسيحي كله) — وهي دعوة اغفلت الكنيسة الارثوذكسية اليونانية والروسية — ودعا هذا المجلس بندكتوس وغريغوريوس الى المثول امامه، فلما لم يلب كلاهم الدعوة، اعلن المجلس خلعهما، ونادى بكردينال ميلانو بابا باسم اسكندر الخامس (1409). وطلب هذا المجلس الى البابا الجديد ان يدعو الى الانعقاد مجلسا عاما آخر قبل شهر ايار من عام 1412 ثم اعلن تأجيل جلساته.

ثلاثة بابوات:

وكان هذ المجلس يرجو ان يقضي على الانشقاق البابوي، ولكن بندكتوس وغريغوريوس كلاهما رفضا ان يعترفا بسلطانه، فكانت النتيجة وجود ثلاثة بابوات بدلا من اثنين. ولم يساعد موت اسكندر الخامس (1410) على اصلاح الوضع، فقد اختار كرادلته خلفا له يوحنا الثالث والعشرين، للجلوس على عرش البابوية.

مجلس كونستانس:

وتباطأ يوحنا الثالث والعشرون في دعوة المجلس العام الى الانعقاد في بيزا اكثر ما يستطيع. ولكن سجسمند اصبح في عام 1411 ملكا على الرومان والرئيس غير المتوج، ولكنه الرئيس المعترف به للدولة الرومانية المقدسة، وقد ارغم يوحنا على ان يدعو مجلسا عاما الى الانعقاد، واختار مدنية كونستانس Constance مكانا لانعقده لتحررها من الارهاب الايطالي وقابليته للتأثر بالنفوذ الامبراطوري.

واتخذ سجسمند الكنيسة سندا له ودعامة كما فعل قسطنطين آخر من قبله، فدع جميع الاحبار، والامراء، واللوردات، ورجال القانون في العالم المسيحي الى حضور المؤتمر. واجاب الدعوة كل من كان منهم في اوروبا عدا البابوات الثلاثة واتباعهم. وبلغ عدد من لبوا الدعوة من الكثرة مبلغا اقتضى جمعهم نصف عام. ولما رضى يوحنا الثالث والعشرون آخر الامر ان يفتتح المجلس في اليوم الخامس من تشرين ثاني عام 1414، لم يكن قد قدم الا جزء صغير من البطاركة الثلاثة، والتسعة والعشرين كردنالا، والثلاثة والثلاثين من رؤساء الاساقفة، والمائة والخمسين اسقفا، والمائة من رؤساء الاديرة، والثلثمائة من علماء اللاهوت، والاربعين من مندوبي الجامعات، والستة والعشرين من الامراء، والمائة والاربعين من النبلاء، والاربعة الاف من رجال الدين، نقول انه لم يكن قد قدم الا عدد صغير من هؤلاء. ولو انهم حضروا جميعا لكان هذا المجلس اكبر المجالس في التاريخ المسيحي، ولكان اعظمها شأنا بعد مجلس نيقية (325). وبينما كان سكان كونستانس في الاوقات العادية حوالى ستة آلاف نسمة، فقد افلحت وقتئذ في ان تأوي وتطعم خمسة الاف مندوب حضروا المجلس.

وما كاد المجلس يضع جدول اعماله حتى فوجيء بانسحاب البابا الذي دعاه الى الانعقاد انسحابا شبه ما يكون بالاعمال المسرحية. ذلك ان البابا يوحنا الثالث والعشرين قد هاله ان يعلم ان اعداءه كانوا يتائهيون لان يعرضوا على المجلس سجل يحوي تاريخ حياته وجرائمه. واشارت عليه احدى للجان انه يستطيع النجاة من هذه الفضيحة اذا وافق على الانضمام الى غريغوريوس وبندكتوس وان ينزل الثلاثة عن عرش البابوية في وقت واحد، ووافق يوحنا على ذلك. ولكنه فر على حين غفلة من كونستانس متخفيا في زي سائس (20 اذار 1415) ووجد له ملجأ في قصر في شافهوزن مع فردريك ارشدوق النمسا وعدو سجسمند. ثم اعلن في التاسع والعشرين من شهر اذار ان جميع الوعود التي قطعها على نفسه في مدينة كونستانس قد ارغم عليها ارغاما بالقوة الجبرية، وانها ليست لها من القوة ما يلزمه بالوفاء بها. وفي اليوم السادس من نيسان اصدر المجلس قرارا مقدسا وصفه احد المؤرخين انه "اشد الوثائق الرسمية ثورية في تاريخ العالم":

> "ان مجلس كونستانس المقدس، الذي هو مجلس عام، والمنعقد انعقادا قانونيا في الروح المقدس، لحمد الله، وللقضاء على الانشقاق القائم الآن ولتوحيد كنيسة الله واصلاحها بما ذلك رأسها واعضاؤها — ان هذا المجلس يأمر، ويعلن، ويقرر ما يأتي: اولا، ان هذ لمجلس المقدس يمثل الكنيسة المجاهدة، ويستمد معونته من المسيح رأسا، وعلى جميع الناس مهما تكن طبقاتهم ومنزلتهم بما فيهم البابوات ايضا ان يطيعوا هذا المجلس في كل ما له صلة بشؤون الدين، وفي القضاء على هذا الانشقاق، ولاصلاح الكنيسة اصلاحا شاملا في رئاستها واعضائها. وهو يعلن كذلك ان أي انسان مهما تكن رتبته او صفته او منزلته بما في ذلك البابا ايضا، يأبى ان يطيع الاوامر والقوانين والفروض والقواعد التي يقرها هذا المجلس المقدس، او أي مجلس مقدس آخر ينعقد انعقادا صحيحا بقصد القضاء على الانشقاق او اصلاح الكنيسة، يضع نفسه تحت طائلة العقاب الحق... وستتخذ اذا اقتضى الامر وسائل اخرى للاستعانة بها في تطبيق العدالة".

انتهاء الانشقاق

احتج كثيرون من الكردلة على قرار مجمع كونستانس، فد خشوا ان يكون فيه قضاء على حق مجمع الكرادلة في انتخاب البابا. ولكن المجلس تغلب على معارضتهم. واوفد المجلس وقتئذ لجنة الى يوحنا الثالث والعشرين تدعوه الى النزول عن عرش البابوية، فلم لم تتلق منه جوبا صريحا عرض المجمع التهم الاربع والخمسين الموجهة اليه، والتي تنص على انه كافر، كاذب، متاجر بالمقدسات والمناصب الكهنوتية، خائن، غادر، فاسق، لص. وكانت هناك ست عشرة تهمة

اخرى استبعدت لشدة قسوتها. وفي اليوم التاسع والعشرين من ايار قرر المجلس خلع يوحنا الثالث والعشرين، وقبل هو القرر بعد ان تحطمت آخر الامر جميع آماله. وامر سجسمند ان يسجن في قلعة هيدلبرج طوال فترة انعقاد المجلس، وافرج عنه في عام 1418.

واحتفل المجلس بانتصاره باستعراض طاف جميع انحاء مدينة كونستانس، فلما عاد الى العمل وجد نفسه في مأزق حرج. ذلك انه اذا ما اختار بابا آخر عاد الى ما كان في العالم المسيحي من انقسام ثلاثي، لان كثيرا من اقاليمه كانت لا تزال تطيع بندكتوس او غريغوريوس. وانقذ غريغوريوس المجلس من ورطته بعمل دل على دهائه وشهامته معا، فقد وافق على ان يستقيل بشرط ان يسمح له بأن يدعو المجلس مرة اخرى ويخلع عليه الصفة الشرعية بما له من سلطة بابوية. ودعى المجلس الى الانعقاد بهذه الصفة الجديدة، وقبل استقالة غريغوريوس في الرابع من شهر تموز سنة 1415. وايد صحة من عينهم في مناصبهم، واختاره حاكما من قبل البابا على انكونا حيث عاش في هدوء طيلة السنتين الباقيتين من حياته.

اما بندكتوس فقد اصر على المقاومة، ولكن كرادلته تخلوا عنه وتصالحوا مع المجلس، ولما حل اليوم السادس والعشرون من اب خلعه المجلس، فآوى الى القصر الحصين الذي تقيم فيه اسرته في بلنسية، حيث مات في سن التسعين، وهو لا يزال يعد نفسه بابا بحق. واصدر المجلس في شهر تشرين اول قرارا يحتم دعوة مجلس عاما آخر الى الانعقاد في خلال خمس سنين. وفي اليوم السابع عشر من نوفمبر اختارت لجنة المجلس الانتخابية الكردينال اودنى كولن Oddone Colonna لمنصب البابوية، وتسمى باسم البابا مارتينوس الخامس Martin V، ورضي به العالم المسيحي باجمعه، وبذلك انقضى عهد الانشقاق الاعظم بعد فوضى دامت تسعا وثلاثين سنة.

وهكذا وصل المجلس الى غرضه الاول، ولكن نجاحه في هذه النقطة حال بينه وبين تحقيق غرضه الآخر وهو اصلاح الكنيسة. ذلك انه لما جلس مارتينوس الخامس على عرش البابوية تمسك بكل ما لها من سلطان واميتازات، فاغضب بذلك سجسمند الذي هو الرئيس الاعلى للمجلس، ثم لجأ الى المجاملة والدهاء فاخذ يخاطب كل جماعة من الجماعات القومية الممثلة في المجلس ويفاوضها في عقد معاهدة معها على حدة خاصة بإصلاح الكنيسة، وعمل على اثارة المنافسة بين طائفة والاخرى حتى اقنع كل واحدة منها بقبول اقل قدر من الاصلاح، صاغه في عبارة عامة يستطيع كل حزب ان يفسرها تفسيرا يدعي فيه انه هو الفائز، وانه صاحب الفضل في كل اصلاح. واستسلم المجلس له لأنه مل النزاع، فقد ظل يكدح ثلاث سنين، حن اعضاؤه بعدها الى اوطانهم، وشعروا ان مجلس مقدسا يعقد فيما بعد يستطيع ان يحل مشكلة الاصلاح بتفاصيل اوفى واكثر دقة من هذا المجلس. وفي الثاني والعشرين من شهر نيسان عام 1418 اعلن المجلس فض جلساته.

(ويل دورانت "قصة الحضارة" الجزء20 ص. 3-14)

الفصل الاربعون

انتصار البابوية

1447-1417

مارتينوس الخامس 1417–1431

ولد مارتينوس في عام 1368 في احدى عائلات روما القديمة والمشهورة ال كولونا Colonna . كان قد جاوز الخمسين من عمره عندما انتخب بابا. وكان قد ترك حزب البابا غريغوريوس الثاني عشر، وانضم الى حزب البابا المضاد، اسكندر الخامس وثم البابا يوحنا الثالث والعشرون. كان متعلما، ذا حكم صائب واخلاق حميدة، بسيط في معيشته، لا يحب المؤامرات، عمل جهده اثناء مؤتمر كونستانس لاحلال السلام والاتفاق بين جميع الاطراف المتنازعة، فرأى الكل فيه رجل الساعة للاصلاح المنشود.

لم يستطيع مارتينوس الخامس ان يعود الى روما بعد انتخابه مباشرة وان كان هو من اهل روما. ذلك ان الطرق الموصلة اليها كانت في قبضة براتشيو دا منتونه Braccio da Montone المغامر، ولهذا رأى مارتينوس ان بقاءه في جنيف، ثم في مانتو Mantoue، وفلورنس آمن له واسلم. ولما وصل اخيرا لروما (1420) روعته حال المدينة، وما حاق بمبانيها من خراب وباهلها من بؤس وشقاء، فقد كانت عاصمة العالم المسيحي اقل بلاد اوروبا حضارة.

كان مارتينوس قد جرى على السُنة السيئة التي جرى عليها اسلافه فعين في المناصب ذات المرتب الضخم والسلطان الكبير اقاربه من آل كولنا، فما كان ذلك الا ليقوي اسرته ليضمن لنفسه السلامة في قصر الفاتيكان. ولم يكن لديه جيش، ولكن الولايات البابوية كانت تحيط بها من كل جانب جيوش نابولي، وفلورنس، والبندقية، وميلان. وكانت هذه الولايات قد وقع معظمها مرة اخرى في ايدي جماعة من الطغاة الصغار، يسمون انفسهم نواب البابا ولكنهم كادوا في اثناء الانشقاق البابوي ان يكونون سادة مستقلين في ولاياتهم. وقد ظل رجال الدين في لمبارديا قرونا طوالا يناصبون اساقفة روما العداء. وكان فيما وراء جبال الالب عالم مسيحي مضطرب اضاعت البابوية فيه معظم ما كان لها من احترام، وكان يأبى ان يمدها بشيء من العون المالي.

وواجه مارتينوس هذه الصعاب كلها وتغلب عليها بشجاعة وقوة عزيمته. فقد اعتمد بعض المال لبناء اجزاء من عاصمته، وان كان قد ورث خزانة تكاد تكون خاوية، وافلح بما اتخذه من اجراءات قوية في طرد قطاع الطرق من رومة والطرق المؤدية اليها، وهدم حصنا للصوص في منتيلبو Montelpo، وامر بقطع رؤوس زعمائهم. واعاد النظام الى روما، وجمع في كتاب واحد قوانينها البلدية، واختار رجالا من ذوي المواهب والاخلاق الكريمة اعضاء في مجمع الكرادلة. واعاد تنظيم اداة الحكم القانونية حتى تؤدي مهمتها على احسن وجه، ولكنه لم يجد طريقة يحصل بها على ما يلزمه من المال الا بيع المناصب والخدمات الدينية. ولما كانت الكنيسة قد عاشت قرنا كاملا بغير اصلاح، ولكنها لا تستطيع البقاء اسبوعا واحدا بغير مال، فقد حكم مارتينوس ان المال الزم للكنيسة من الاصلاح. ومن اجل هذا تذرع بمرسوم كونستانس فدعا مجلسا عاما ينعقد في بافيا عام 1423. ولم يلب للدعوة الى هذا المجلس الا عدد قليل، وحتم انتشار الطاعون نقله الى سيينا، ولما عرض المجلس ان تكون له السلطة المطلقة امره مارتينوس ان ينفض، واطاع الاساقفة امره لخوفهم ان يفقدوا كراسيهم.

واراد مارتينوس ان يترضى نزعة الاصلاح فاصدر في عام 1422 قرارا بابويا، فصل فيه بعض التغيرات الرائعة في اجراءات اداة الحكم البابوية وطريقة تمويلها. من هذه لاصلاحات: 1) اجبار الكرادلة على ن يحيوا حياة صالحة، طاهرة، تحت طائل العقاب الشديد. ان يتخلوا وقتيا او ابديا عن بعض ما يحصلوا عليه من اموال من مراتبهم الكهنوتية. وان يكرسوا انفسهم لخدمة البابا وليس الامراء، ولخدمة الكنيسة التي يحملون لقبها، وان يمارسوا الليتورجيا والعبادة . 2) تخفيض عدد امناء السر Protonotaires الى سبعة فقط. 3) امر رؤساء الاساقفة والاساقفة ورؤساء الاديرة، بالاقامة في ابرشياتهم واديرتهم. وان يعقدوا مجلسا محليا كل ثلاث سنوات، وان يمنحوا الرتب الكهنوتية والوظائف مجانا...

لكن قامت في سبيل ذلك الاصلاح مئات من العقبات والاعتراضات. وما لبثت هذه الاقتراحات ان عفا عليها الزمان وجر عليها النسيان ذيوله. وفي عام 1430 بعث مندوب الماني في روما الى اميره برسالة تكاد تكون نذيرا بالاصلاح الديني الذي جاء فيما بعد:

"اصبح الشره صاحب السلطان الاعلى في البلاط البابوي، وهو يبتكر في كل يوم لنفسه اساليب جديدة... لابتزاز المال من المانيا بدعوى اداء اجور رجال الدين. وهذا هو سبب الاصوات التي ترتفع بالتذمر والالم... وستثار كذلك اسئلة خاصة بالبابوية، والا فان الناس سينفضون يدهم آخر الامر من طاعة البابا فرارا من هذا الابتزاز الظالم للاموال. واعتقادي ان هذا المسلك الاخير سترتضيه كثير من البلاد".

وفي عهد مارتينوس الخامس، انتهي الانشقاق كاملا عندما ندم جيل مونوز Gilles Munoz لقبوله البابوية باسم كلمنضوس الثامن بعد موت بندكتوس الثالث عشر عام 1424، فاستقال في عام 1429 وخضع للبابا مارتينوس الخامس. واختفى البابا المضاد الاخر بندكتوس الرابع عشر دون ان يترك أي اثر في التاريخ.

ومات مارتن الخامس على اثر ازمة صرع، في 20 شباط 1431، بعد ان قرر الدعوة لعقد مجمع بازل BALE المنتظر.

يوجينوس الرابع 1431-1447

وواجه البابا الذي خلف مارتينوس ما تجمع لدى البابوية من مشاكل مواجهة الراهب الفرنسيسكاني التقي الخاشع الذي لم يُعِد نفسه لتصريف الشئون السياسية. ذلك ان البابوية كانت حكومة اكثر مما كانت دينا، وكان لا بد ان يكون البابوات رجال حكم، ومحاربين في بعض الاحيان، وقلما كان في مقدورهم ان يكونوا من اولياء الله الصالحين. نعم ان يوجينوس الرابع كان من هؤلاء الاولياء في بعض الاحيان، وانه كان عنيدا، صلب القناة لا يلين، وان داء الرثية la goutte الذي كان يلازمه ويسبب له آلاما مبرحة في يديه لا تكاد تفارقه قط، مضافا الى متاعبه الجمة، قد جعله ضجرا ملولا، محب للعزلة، منطوي على نفسه. ولكنه كان يعيش عيشة النسك، مُقِلاً من الطعام، لا يشرب غير الماء، قليل النوم، مجدا كثير العمل، حريصا على اداء واجباته الدينية باخلاص وضمير حي، لا يحمل الحقد على اعدائه، جوادا سخيا بماله، لا يحتفظ بشيء لنفسه، بلغ من تواضعه انه كان لا يرفع عينيه عن الارض. ومع هذا كله فقلما نجد من البابوات من كان له من الاعداء ما كان لهذا البابا.

وكان اول هؤلاء الاعداء هم الكرادلة الذين انتخبوه. فقد ارادوا ان يتقاضوا ثمن اصواتهم، وان يحموا انفسهم من ان يحكمهم رجل لمفرده كما كان يحكمهم مارتينوس، فاقنعوه ان يوقع مرسوما Capitula ومعناها الحرفي عناوين — يعدهم فيه ان يطلق لهم حرية الكلام، ويؤمنهم في مناصبهم، وان يجعل لهم السيطرة على نصف ايرادهم، وان يشاورهم في جميع الشؤون الهامة. واصبحت هذه الامتيازات سنة متبعة وسابقة جرى بها العمل في الانتخابات البابوية طوال عصر النهضة. يضاف الى هذا ان يوجنيوس جعل آل كولنا اعداء له اقوياء. فقد اعتقد ان مارتينوس اقطع هذه الاسرة كثيرا من املاك الكنيسة، فامر بان ترد اليها اجزاء كثيرة من هذه الاملاك، وامر بتعذيب امين مارتينوس السابق تعذيبا كاد يفضي الى موته لكي ينتزع منه معلومات عن هذا الموضوع. وشن آل كولنا الحرب على البابا، ولكنه هزمهم بقوة الجند الذين ارسلوا اليه من مدينتي فلورنس والبندقية، غير انه اثار بعمله هذا عداء روما نفسها.

مجمع بازل Concile de Bâle:

واجتمع بمدينة بازل في هذه الاثناء المجلس الذي دعا اليه مارتينوس، وكان اجتماعه في السنة الاولى من عهد البابا الجديد (1431). واقترح مرة اخرى تأييد المجالس الكنسية العامة على البابوات. فما كان من يوجنيوس الا ان امره بان ينفض، ولكنه لم يطع امره، وطلب اليه ان يمثل امامه، وبعث بجند من ميلان يهاجمونه في روما. وانتهز آل كولنا هذه الفرصة ليثأروا لانفسهم منه، فدبروا ثورة في المدينة، واقاموا حكومة جمهورية (1434). وفر يوجنيوس في قارب صغير سار به نحو مصب التيبر، بينما كان العامة يرشقونه بالسهام، والحراب والحجارة، واتخذ له ملجأ في فلورنس ثم في بولونيا، وظل هو وحكومته منفيين عن روما تسع سنين.

كانت الكثرة الغالبة من المندوبين الذين حضروا مجلس بازل من الفرنسيين. وكان غرضهم، كما قال اسقف تور صراحة، اما ان ينتزعوا الكرسي الرسولي من الايطاليين، واما ان يجردوه من سلطانه بحيث لا يهمهم بعدئذ اين يكون مقره. وعملا بهذه القاعدة استولى المجلس على امتيازات البابوية واحدا بعد آخر. فاصدر هو صكوك الغفران،

ومنح الاعفاءات من الفروض الدينية، وعين الموظفين الدينيين، وطلب ان تؤدى له هو لا للبابا باكورة مرتبات رجال الدين.

واصدر يوجنيوس قرارا آخر يحل المجلس، فرد عليه بان اعلن خلعه هو (1439)، واختار امديوس الثامن من سافوي بابا في مكانه باسم فليكس الخامس. وبهذا تجدد الانشقاق في البابوية مرة اخرى.

وراى شارل السابع ملك فرنسا ان يتم هزيمة يوجنيوس البادية للعيان، فعقد في بورج (1438) جمعية من كبار رجال الدين والامراء ورجال القانون، كلهم من الفرنسيين، واعلنت هذه الجمعية سيادة المجالس على البابوات، واصدرت قرار بورج التنظيمي الذي ينص على ان المناصب الكهنوتية يجب ان تملأ من ذلك الحين بمن تنتخبهم جماعات الرهبان او الكهنة، ولكن من حق الملك ان يصدر "توصيات". وحرم استئناف الاحكام الى المجلس البابوي الاعلى الا بعد ان تستنفد جميع الاحتمالات القضائية في فرنسا. ومنع جمع بواكير مرتبات الكهنة للبابا. وبذلك اوجد هذا التنظيم في واقع الامر كنيسة فرنسية مستقلة رئيسها ملك فرنسا نفسه. واتخذ مجلس عقد في مينز بعد عام من ذلك الوقت قرارات مماثلة لهذه انشئت بمقتضاها كنيسة قومية في المانيا. وكانت كنيسة بوهيميا قد انفصلت عن البابوية اثناء الثورة الهوسية Husite. ووصف كبير اساقفة براج البابا انه "وحش سفر الرؤية". ولاح ان صرح الكنيسة كله قد تحطم وان الاصلاحي القومي للكنيسة قد توطدت دعائمه قبل لوثر بمائة عام.

مجمع فرارا Ferrara وبداية الوحدة بين الكنيسة الشرقية والغربية:

وكان الاتراك هم الذين انقذوا يوجنيوس. ذلك انه لما اقترب الاتراك العثمانيون من القسطنطينية قرر البيزنطيون ان مدينتهم خليقة بان يكون فيها قداس روماني، وان عودة الاتحاد بين المسيحية اليونانية والرومانية تمهيدا لا بد منه للحصول على معونة عسكرية من الغرب. وبناء على هذا بعث الامبراطور يوحنا الثامن ببعثة الى مارتينوس الخامس (1431) تعرض عليه اجتماع مجلس من رجال الكنيستين. وبعث مجلس بازل بمندوبين الى يوحنا (1433) يقولون له ان المجلس اعلى سلطة من البابا، وانه تحت حماية الامبراطور سجسمند، وانه سيرسل المال والجند للدفاع عن القسطنطينية اذا ما تعاملت الكنيسة اليونانية مع المجلس لا مع البابا. وارسل سجسمند وفدا من عنده يعرض معونته بشرط ان يعرض الاقتراح الخاص باتحاد الكنيستين على مجلس جديد يدعوه هو نفسه الى الانعقاد في فيرارا.

وقرر يوحنا ان يظاهر يوجنيوس، واستدعى البابا الى فيرارا من ثبتوا على ولائهم له من رجال الدين، وغادر كثيرون من كبار الاحبار، ومنهم شيراريني ونقولاس الكوزائي بازل وجاءوا الى فيرارا، لانهم شعروا ان اهم ما في الامر هو مفاوضة اليونان. وطالت جلسات مجلس بازل، ولكنها كانت مفعمة بالغضب المتزايد، واخذت مكانته تزداد انحطاطا يوما بعد يوم.

واثار مشاعر اوروبا كلها ما ترامى اليها من الانباء عن عودة الوحدة الى العالم المسيحي بعد انقسامه بين الكنيستين اليونانية والرومانية منذ عام 1054. وفي الثامن من شباط عام 1438 قدم الى البندقية، التي كانت لا تزال مدينة بيزنطية الى حد ما، الامبراطور البيزنطي، والبطريرك يوسف بطريرك القسطنطينية، وسبعة عشر من رؤساء الاساقفة اليونان، وعدد كبير من اساقفة الكنيسة اليونانية، والرهبان والعلماء. واستقبلهم يوجنيوس في فيرارا بأبهة لا نشك في انها لم تكن لها قيمة كبيرة في نظر اليونان الذين اعتادوا الاحتفالات الفخمة في بلادهم. ولما افتتح المجلس جلساته اختيرت عدة لجان لازالة ما بين الكنيستين من خلاف على حقوق البابا في الرئاسة، وعلى استعمال الخبز الفطير، وطبيعة ألالام التي تعانيها النفوس في المطهر، وعلى انبثاق الروح القدس من الاب والابن. وظل العلماء ثمانية اشهر يجادلون في هذه المسائل، ولكنهم لم يصلوا فيها الى اتفاق.

مجمع فلورنس 1439 واعادة الاتحاد بين الكنيستين:

وانتشر الطاعون في بلدة فيرارا في هذه الاثناء، ودعا كوزيمو ده ميديتشي المجلس ان ينتقل الى فلورنس، على ان يستضيفه هو واصدقاؤه. وتم هذا الانتقال بتلك الصورة، ويؤرخ بعضهم بداية النهضة الايطالية بدخول العلماء

اليونان الى فلورنس في ذلك الوقت (1439). وهنا تم الاتفاق على ان الصيغة التي يقبلها اليونان هي "الروح القدس يصدر من الاب عن طريق الابن ex Patre per filium Procedit تعني بالضبط ما تعنيه الصيغة الرومانية وهي انه "يصدر من الاب والابن" ex Patre filioque procedit. ولم يستهل شهر حزيران سنة 1439 حتى تم الاتفاق كذلك على طبيعة آلام المطهر. اما حقوق البابا في الرئاسة فقد اثارت نقاشا حارا، حتى لقد انذر الامبراطور اليوناني ان يفض المجلس. غير ان بيساريون Bessarion كبير اساقفة نيقية، وهو بطبيعته رجل مسالم يسعى الى الصلح، استطاع التوفيق بين الطرفين اذ عثر على صيغة تعترف بسلطة البابا العامة، ولكنها تحتفظ بما كان للكنائس الشرقية وقتئذ من حقوق وامتيازات. وقبلت هذه الصيغة، ولما حل اليوم السادس من شهر تموز عام 1439 قرأ بيساريون باللغة اليونانية كما قرأ سيزاريني باللغة اللاتينية في الكتدرائية الكبرى التي اقام فيها بروتيلسكو منذ ثلاث سنين قبتها الفخمة، المرسوم الذي يوحد الكنيستان، وقبل الحبران كلاهما الآخر، وخر جميع اعضاء المجلس وعلى رأسهم الامبراطور ركعا امام يوجنيوس الذي كان يبدو من وقت قريب انسانا طريدا مرذولا.

لكن ابتهاج المسيحية كان قصير الاجل. ذلك انه لما عاد الامبراطور اليوناني وحاشيته الى القسطنطينية، قوبلوا بالاهانات والشتائم، فقد رفض رجال الدين والشعب الخضوع الى روما. وحافظ يوجنيوس على نصيبه في هذا الاتفاق، وارسل الكردينال سيزاريني الى بلاد المجر على رأس جيش للانضمام الى قوات لادسلاس Ladislas وهنيادي Hunyadi، وانتصرت هذه القوات عند نيش Nish على الاتراك ودخلت مدنية صوفيا ظافرة في مساء يوم عيد الميلاد عام 1443، ثم بدد شملها مراد الثاني في وارنه عام 1444، وسيطر الحزب المعارض للاتحاد في القسطنطينية على الموقف، ولم ير البطريرك غريغوريوس الذي ايد هذا الاتحاد بدا من الفرار الى ايطاليا. واستطاع غريغوريوس بعدئذ ان يشق طريقه بالقوة عائدا الى صوفيا. وفيها قرأ مرسوم الاتحاد في عام 1452. ولكن الشعب ظل من ذلك الحين يتجنب الاتصال بالكنيسة الكبرى. ولعن رجال الدين المعارضون للاتحاد كل من يؤيدونه، ورفضوا ان يغفروا ذنوب كل من حضروا قراءة المرسوم، واهابوا بالمرضى ان يموتوا دون تناول القربان بدل ان يتناولوه من يد كاهن اتحادي. ورفض بطاركة الاسكندرية وانطاكية واورشليم قرارات المجلس الذي عقد في فيرارا. ويسر محمد الثاني الامر باتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة التركية (1453)، ومنح المسيحيين الحرية التامة في العبادة، وعين جناديوس Gennadius، وهو من الد اعداء الوحدة بطريركا في القسطنطينية.

عودة البابا الى روما وموته 1447

وعاد يوجنيوس الى روما في عام 1443، بعد ان قضى مبعوثه القائد والكردينال فتليسكي Vitelleschi على الجمهورية المضطربة، وعلى اسرة كولنا المشاكسة بوحشية لا تضارعها وحشية الوندال او القوط.

مات البابا يوجنيوس الرابع في 22 شباط عام 1447، موتا هادئا بعد 16 سنة من حكم ساده الاضطراب الكبير. وكان قد شهد في اواخر حياته بداية الانتصار على مؤيدي مجمع بازل، وانتصار واولوية البابوية على المجامع.

كما وبالرغم من انه قضى اكثر وقته في الدفاع عن اولوية البابوية وحقوقها، فقد حاول ولو بخطوات بطيئة وعلى مراحل ان يصلح ما في الكنيسة من مفاسد. الا ان بعض نتائج الاصلاحات ظهرت في نطاق المالية والادارة الكنسية، وفي نطاق الاداب والاخلاق، معطيا بذلك نفسه المثال بعيشة لا لوم عليها، امتازت بالبساطة والتقشف، والصلاة، بعيدا عن محاباة الاقارب Nepotisme، وخصوصا بمحبته للفقراء، مما جعله اهلا لان يدعى ب "ابو الفقراء".

كما واشتهر هذا البابا بالنهضة الادبية والعلمية. وكان مقام البابا في فلورنس قد علمه تطور الآداب الانسانية والفنون في عهد كوزيموده دي ميديتشي، وكان العلماء اليونان الذين شهدوا مؤتمر فيرارا وفلورنس قد اثاروا فيه الاهتمام بحفظ المحفوظات القديمة التي قد يضيعها او يتلفها سقوط القسطنطينية المرتقب. ولهذا ضم الى امنائه بجيو، وفلافيو ببوندو، وليوناردو بروني، وغيرهم من الكتاب الاناسنيين Humanistes الذين يستطيعون مفاوضة اليونان باللغة اليونانية. وجاء بالراهب فرا انجيلكو الى روما، وعهد اليه نقش الرسوم في معبد القداس بقصر الفاتيكان. وكان يوجنيوس معجب بالابواب البرنزية الكبرى التي صبها جبيرتي Ghiberti لمكان التعميد في كنيسة فلورنس، ولهذا عهد الى فيريتي Filaarte

ان يصب ابوابا مثلها لكنيسة القديس بطرس القديمة (1433). ومن الامور ذات البال، ان هذا المثال لم يضع علىابواب اشهر الكنائس العالم المسيحي اللاتيني تماثيل المسيح، ومريم، والرسل فحسب، بل وضع معها ايضا صور المريخ، وروما، وهيرون، وليياندر، وجوبيتر، ولم يكتف بهذا بل اضاف اليها ليدا والبجعة وان كان عمله هذا لم يثر حتى في ذلك الوقت أي تعليق.

(يل دورانت" قصة الحضارة" الجزء 20، ص. 15-23)

خاتمة القسم الاول

كلمة حق في العصور الوسطى

عند الحديث عن كنيسة العصور الوسطى، يطيب للبعض ان يرتدي منظاره الاسود، فلا يرى في صورتها غير الظلام القاتم، وينسى هؤلاء ان هذه الكنيسة هي جزء من الكنيسة العامة، بل انها تمثل الجزء الاكبر من كنيسة المسيح، وانها رغما عن كل ما شابها من اخطاء، قد استطاعت خلال فترة طويلة من الزمان، ان تحفظ الايمان المسيحي وتحافظ عليه، ذلك الايمان الذي تسلمته الاجيال، خلفا عن سلف، خلال تلك العصور.

وهل يستطيع غير مكابر، ان ينكر فضل كنيسة العصور الوسطى على العالم؟ وهل يمكن ان ينسى التاريخ اولئك الابطال، الذين انجبتهم تلك الكنيسة، والذين شرف الزمان بذكرهم؟

لقد انجبت لنا الكنيسة العديد من اعاظم الرجال، الذين سلف ذكرهم في فصل سابق. هؤلاء الرجال الذين عاشوا بالقرب من المسيح وتبعوا اقواله، ونسجوا على منواله، ولو ان كنيسة العصور الوسطى، كانت فعلا على تلك الحالة المشوهة الممقوتة، التي يحاول البعض تصويرها بها، لما انجبت امثال هلدبراند، برنارد، ودومنيك، وفرانسيس الاسيزي وتوما الاكويني... وغيرهم، لان الشجرة تعرف من ثمرها، فإن كانت الشجرة رديئة، انتجت ثمرا رديئا، وان كانت جيدة، كان ثمرها جيدا.

ولعل الظروف والملابسات التي احاطت بتلك الكنيسة في ايامها، وتكون ظروفا مخففة، لصالح الكنيسة، لدى كل الذين يحاولون ان يقيموها ويقيموا اعمالها، منا نحن الذين نعيش في عصر آخر، يختلف اختلافا كليا، عن تلك العصور.

فعندما كانت كنيسة العصور الوسطى، في طور التكوين، كانت اوروبا تعاني حالة من الفوضى والتشويش، فالامبراطورية الرومانية التي كانت تحكم العالم آنذاك، كانت قد سقطت، وكثيرون من سكان البلاد الاوروبية، كانوا قد هجروا بلادهم، خوفا من الغزو البربري الذي اجتاح تلك البلاد، في بداية العصور الوسطى، وكان هذا يحمل في طياته، خطرا داهما، هو اجتياح الوثنية لتلك البلاد، والقضاء على المسيحية قضاء مبرما.

والتصدي لهذا التيار الكاسح، كان يتطلب قيام تنظيم قوي، يجمع الناس في وحدة متماسكة، تحت قيادة حكيمة واعية وحازمة معا، تعودهم على الانضباط، حتى يتسنى لهم الوقوف، في وجه هذا الطوفان الكاسح.

بعد ذلك عندما ازداد نفوذ النبلاء والامراء، تعرضت اوروبا لخطر آخر، هو خطر الانقسام والتفتت، بسبب الحروب والمنازعات، التي كثيرا ما كانت تشجر بين بعض الامراء وبعضه الآخر. لكن الكنيسة التي كانت تضم تحت جناحيها كل الشعوب في بلدان اوروبا الغربية، هذه الكنيسة وحدها، كانت هي القوة المضادة، التي استطاعت ان تحفظ للشعوب الاوروبية وحدتها الى حد ما، وكان لهذا الامر الفضل الاكبر، في الحفاظ على الايمان المسيحي والحضارة الانسانية وتطورهما.

ثم ان الكنيسة هي التي احتوت جماعات الغزو البربري التي اكتسحت اوروبا، وقدمت لهم الدين المسيحي، وهذبت من طباعهم، لكي يحيوا بين ظهرانيها حياة حضارية مهذبة، تختلف تماما عن حياتهم البربرية، التي كانوا يحيونها من قبل. ولا ننكر ان الكنيسة لم تقم بهذا الواجب كما ينبغي، لكنها قامت به على أي حال، بصورة ضمنت لها البقاء والاستمرار.

واحقاقا للحق نقول، انه لم يكن في الامكان ابدع مما كان، بالرغم من كل اخطائها، كان للكنيسة فضل كبير، في التأثير على القيم، التي كانت سائدة بين الناس آنذاك.

وفي مجال التعليم، اخذت الكنيسة على عاتقها القيام بهذه المهمة لعدة قرون في بلدان اوروبا، ومعظم المتعلمين والمثقفين على قلتهم في تلك العصور، كانوا من الاكليروس، والكنيسة ايضا، هي صاحبة الفضل، في كل ما ظهر في فترة العصور الوسطى من فنون.

وبرغم كل ما شابها من فساد، وما حوته تعاليمها من اخطاء، وما انطبعت به تصرفاتها من قسوة، بل وعنف في بعض الاحيان، رغم هذ كله، يمكن لقول، ان كنيسة العصور الوسطى، كانت واحدة من وسائط النعمة الفعالة، التي استخدمها الله، لنشر المسيحية، وحفظ الايمان، والحضارة المسيحية من التلاشي والاندثار. لانه حتى اذا كانت الكنيسة الرسمية قد وصلت في بعض الاحيان الى حالة الخراب، الا ان الرب كان يقيم من بين اعضاء الهيئات والجمعيات التابعة لها، آلات يستخدمها لتصحيح الاخطاء، وتصحيح المسار، والعمل لامتداد ملكوته. وهكذا نرى ان كنيسة العصور الوسطى، كان لها على العالم الذي عاشت فيه، فضل لا يمكن انكاره.

(من كتاب "تاريخ المسيحية: المسيحية في العصور الوسطى" جزء 2 ص. 149-152).

القسم الثاني

عصر النهضة

La Rennaissance

الفصل الواحد والاربعون

مقدمة: ما هو عصر النهضة

يعتبر القرن الرابع عشر الميلادي، بداية عصر التحول العظيم في اوروبا، الذي اشتهر في التاريخ بعصر النهضة، الذي شهد الميلاد الجديد لدول اوروبا وشعوبها.

يُطلق تعبير "النهضة Renaissance" على الثورة التي حدثت في الاداب والعلوم والفنون في بلدان اوروبا الرئيسية في الفترة ما بين 1350-1650، مؤشرا للانتقال من عالم العصور الوسطى الى عالم العصر الحديث. والاسم الذي اشتهر به هذا العصر مشتق من الكلمات اللاتينية التي معناها "الميلاد الثاني" و "العودة" وهو يعبر عن فكرة

اعادة بعث او ولادة الحضارة من جديد. وقد أُستخدم هذا الاسم لاول مرة حوالي سنة 1854[1] كتعبير وصفي لهذه الحقبة من التاريخ الانساني. ارتبط عصر النهضة في مفهومه الاضيق بالقرن الرابع عشر في ايطاليا، اذ ادت اعادة اكتشاف كنوز الماضي الكلاسيكية الى توفير الحافز والتحدي للابداع الادبي والفني من جديد.

عصر النهضة في ايطاليا

ظهرت النهضة اولا في ايطاليا في القرن الرابع عشر ومنها انتقلت الى البلاد الاوروبية الاخرى. ويعود الفضل في ذلك الى اسباب عدة اهمها: **اولا لان التراث الكلاسيكي** كان قويا اكثر منه في أي مكان اخر. فالايطاليون محاطون في كل مكان باثار مبهرة تمثل عظمة تاريخهم، كما لم ينس الايطاليون ان بلادهم كانت منبع الحضارة الرومانية. ثم ان الروح الايطالية تتعاطف مع التركيز على القيم الحضارية الرفيعة في الحياة الحاضرة.

والسبب الثاني هو وجود فئة من الاغنياء في ايطاليا استطاعت تقديم الدعم المادي الذي يحتاجه الفنانون للابداع بحرية كاملة. واصبح البابوات في عصر النهضة يهتمون بالاداب والفنون الى درجة ان مثل هذه الاهتمامات صارت لها الاولوية على مهامهم الروحية.

وسبب ثالث كان نزوح العديد من علم اليونان الى ايطاليا بعد سقوط الفسطنطينية عام 1453، ومعهم الاف المخطوطات القيمة، هربا من تدمير الاتراك لها. وعندما اتى مانويل كريسولورس Manual Chrysolores (1350-1415) الى فينسيا في عام 1393 كسفير يطلب عونا للقسطنطينية في مواجهة التهديد التركي، بقي في فلورنسا لمدة ثلاث سنوات يُدرّس اللغة اليونانية للمهتمين من اهل فلورنسا. وقد سعى بترارك وهو من اوائل الانسانيين الايطاليين باجتهاد لاكتشاف المخطوطات الرومانية والاغريقية لكي يدرسها.

عمت النهضة كل جوانب الحياة سواء في الناحية الفكرية، او في مجالات الطاقة البشرية، اذ تفجرت في اوروبا في خلال هذه الفترة، طاقات وامكانيات الانسان، بصورة تجل عن كل وصف.

اكتشافات حديثة:

وقد تمثلت هذه النهضة في مجال الاكتشافات العلمية، في الكشف العظيم الذي قدمه "كوبرنيكس"، عندما اكتشف المجموعة الشمسية. وقد احدث هذا الاكتشاف تغييرا جذريا في الافكار التي كانت سائدة بين الناس في ذلك الزمان، عن الكون الذي يعيشون فيه. كما قام "كريستوفر كولمبس"، باكتشافاته الجغرافية الشهيرة في الشرق والغرب، وعلى اثر هذه الاكتشافات، تحدد بصورة قاطعة شكل الارض.

حركات وتيارات جديدة:

وقد ترتب على الكشوف الجغرافية الجديدة، قيام نشاط تجاري وصناعي واسع المدى، وبدأت تظهر في الافق نزعات استعمارية، راحت تتسلط على دول اوروبا. كما نشطت بين شعوبها، حركات قومية، ترتب عليها ظهور قوى سياسية جديدة ومؤثرة، في كل من فرنسا وانكلترا واسبانيا.

حركة احياء العلوم والفنون (Humanisme)[2]

ومن ابرز الاسباب التي ادت الى قيام هذه النهضة، حركة احياء العلوم، هذه الحركة التي ترتب عليها، اتصال الاوروبيين بمختلف الحضارات والثقافات اليونانية والرومانية. وكان انتشار تعلم اللغة اليونانية، عاملا رئيسيا، ساعد الدول الاوروبية، على اللحاق بركب الحضارة، بعد ان انفتحت امامها مغاليق الكنوز اليونانية الرفيعة، في مجالات الفكر والفن والادب، فعوضت اوروبا في عصر النهضة هذا، ما فاتها في العصور السابقة، التي كانت فيها اللغة اليونانية لغة

---

[1] كان فاساري Vasari في كتابه "الحياة النشيطة لفنون العمارة والتصوير والنحت الممتازة" (1550) هو الذي اول من استعمل لفظ Rinascita . وكانت الموسوعة الفرنسية التي صدرت بين عامي 1751 و 1772 والتي اشرف عليها الكاتب Michelet هي التي استعملت لاول مرة وبصفة قاطعة واضحة لفظ Renaissance للدلالة على ازدهار الآداب والفنون في القرون الربع وحتى السادس عشر.

[2] سنتكلم عن هذا الموضوع باسهاب عند التكلم عن الاصلاح البروتسطنتي

غريبة عند شعوبها. والمتتبع للنتاج الفكري الاوروبي في عصر النهضة، يستطيع ان يرى بصمات الفكر اليوناني واضحة في مجالات الفن والادب.

ويدهش الدارس لقدرة الافراد في عصر النهضة على اظهار البراعة في عدة مجالات، فمثلا مايكل انجلو Michaelangelo هو الذي زين سقف كنيسة سيستين برسوم رائعة. وكان في نفس الوقت المعماري القدير الذي اشرف على اكمال انشاء كاتدرائية القديس بطرس في روما وتوج ذلك المبنى بانشاء قبته البديعة. وصمم مايكل انجلو ايضا الزي الرسمي للحرس الوطني للفاتيكان والذي ما زال يرتديه اعضاؤه الى اليوم. اما ليوناردو دافنشي Leonardo Da Vinci فقد رسم لوحة العشاء الاخير والموناليزا ورسم تصميما تخطيطيا للبنادق الالية والغواصات يدهش المرء لمطابقتها لتصميمات هذه الالات الحديثة.

كان رجال عصر النهضة يعشقون الجمال في الطبيعة وفي البشر. بل انهم في الواقع اسسوا مدرسة جديدة للجمال. وتصور لوحات هذه الفترة تزايد الاهتمام بالدراسة الدقيقة لتشريح جسم الانسان حتى تخرج الصور والتماثيل دقيقة تماثل الواقع. ويظهر هذا الحب والتقدير في المهارة الفائقة التي اظهرها تيتيان رسام اللوحات الشخصية العظيم من فنيسيا وهو يتفنن في رسم الاقمشة الملونة الفاخرة التي يرتديها اشخاص لوحاته. وهذه اللوحات الدقيقة تختلف كل الاختلاف عن المسخ والاشخاص المشوهة التي تظهر في لوحات الفترة القوطية.

مفاهيم دينية جديدة

اما عصر النهضة في مفهومه الاوسع فيمكن تعريفه على انه تلك الفترة التي شهدت اعادة صياغة الحضارة حيث استبدل الناس الاتجاه الديني الجماعي الذي ساد العصور الوسطى وحكم نظرة الناس الى حياتهم، بنظرة جديدة حديثة علمانية ذات طابع فردي. واصبحت شوارع روما هي مركز انتباه الناس بدلا من التفكير في اورشليم الجديدة في السماء. وتغيرت مفاهيم العصور الوسطى للعالم والتي كانت تتمركز حول الله الذي كان يعتبر مقياسا لكل شيء. وصار التركيز على مجد الانسان بدلا من مجد الله. واصبح مجتمع المدن المكون من رجال الطبقة الوسطى اكثر اهمية من مجتمع القرية القديم الذي يعمل بالزراعة التي سادت الانشطة الاقتصادية في عصر الاقطاع. وينبغي ان نتذكر في هذا السياق ان النهضة اقتصرت في مجملها على مجتمع الطبقة العليا الصغير وان افكارهم واسلوب حياتهم تسرب ببطء ليصل الى الدرجات الادنى في قطاعات المجتمع المختلفة. اصبحت التجارة اهم من الزراعة كوسيلة لكسب العيش. وساد نمط جديد في معالجة الامور يتميز بالنزعة الانسانية، المتفائلة الراغبة في التجريب. ومع ان الطابع الديني ظل مسيطرا على شكل الحياة في العصر الجديد لكنه انحصر في الشكليات ايام الاعياد وغيرها. وكان الاتجاه السائد هو ان يتناسى الناس ما يطلبه الله منهم في حياتهم اليومية.

بقيت تعاليم الكنيسة وعقائدها مقبولة، واستمر الناس في ممارسة طقوس العبادة، ولكن حدث نوع من الانفصال بين الحياة الدينية للناس وحياتهم اليومية. وقد اثرت هذه الروح الدنيوية حتى على بابوات عصر النهضة انفسهم. فلم يظهر سوى عدد قليل من الهراطقة او الملحدين في البلاد اللاتينية في تلك الفترة، لكن الاتجاه الروحي احتل مكانا ثانويا بعد الديانة الطقسية الجامدة.

واذا القينا نظرة سريعة على انجازات ونشاطات البارزين من بابوات عصر النهضة ما بين 1337-1521 نرى كيف ان البابوية اذعنت لتلك الروح الدنيوية الانسانية التي سادت ذلك العصر.

الفصل الثاني والاربعون

بابوات عصر النهضة

البابوية من 1450 – 1492

مقدمة: يوبيل عام 1450

باحتفال يوبيلي نبدأ هذا الفصل من حياة الكنيسة والذي سيكون موضوع درستنا في هذا الفصل الثاني. تمتد هذه الفترة من 1450 الى 1623.

اعلن البابا نقولا الخامس سنة 1449 ان سنة 1450 هي سنة يوبيل، يوبيل عام، "سنة مقدسة" كما نقول اليوم. وقد اثار هذا الاعلان مشاعر قوية ومؤثرة في كل انحاء العالم المسيحي، الذي مر في اوقات وازمات صعبة. فبعد السبي البابلي، كما كانت تدعى اقامة البابوات في افنيون – منذ 1305-1378، جاء الانشقاق البابوي، وما ان عادت الوحدة الى الكنيسة، حتى ثار النزاع بين البابوية والمجالس العامة، وخصوصا مجلس بازل الذي دام 18 سنة اعقبه شقاق اخر في الكنيسة.

بارتقاء نقولا الخامس عام 1447، بدأ السلام يعود رويدا رويدا الى الكنيسة. فقد اظهر البابا رحابة صدر كبيرة نحو الجميع. فاعاد المنشقين الى الوحدة، وخضع فيلكس الخامس، اخر بابا مضاد Antipape واستقال. وعاد قميص المسيح الممزق الى الوحدة الكاملة. واستقبل العالم اعلان السنة المقدسة بفرح وابتهاج، واعتبرها تتويجا لعودة السلام والوحدة الى الكنيسة.

قرر البابا نقولا الخامس ان يبدأ اليوبيل في عيد الميلاد 1449 لينتهي في عيد الميلاد السنة التالية 1450. وقام البابا بنفسه بفتح "الباب المقدس" في كنيسة اللاتران ايذانا ببدأ الاحتفالات. فتوافد الحجاج من جميع انحاء العالم المسيحي بكثرة لم يسبق لها مثيل. وشبههم شهود عيان باسراب النمل وبعدد نجوم السماء. وبلغ الزحام في روما لدرجة اضطر معها البابا الى ان يحدد اقصى مدة يقيمها أي زائر فيها بخمسة ايام في اول الامر، ثم بثلاثة، ثم بيومين اثنين. وحتى الامراء والاعيان، جاؤوا باعداد كبيرة ترافقهم حاشيتهم كل حسب مركزه.

> "توافد الحجاج من كل انحاء اوروبا – كتب مؤرخ البابوات لويس باستور Louis Pastor – من كل الاعمار والاجناس واللغات، رجالا ونساء، شبابا وشيبا، اصحاء ومرضى، اغنياء وفقراء. عصا الحج في ايديهم، والقبعات التي تزينها الاصداف على رؤوسهم او مدالة على اكتافهم، يسيرون على الطرقات التي تؤدي الى روما وهم ينشدون الترانيم ويتلون الصلوات".

وكان نقولا الخامس قد صمم منذ جلوسه على العرش البابوي ان يجعل روما خليقة بزعامة العالم. وهذا ما بدت فيه روما اثناء اليوبيل، كأنها مركز العالم، عاصمة الايمان والرجاء والامل لجميع الناس.

وكان من اعظم ايام اليوبيل، يوم اعلان قداسة الواعظ الشهير، برناردين السياني Bernardino di Sienna المتوفى عام 1442، حيث غادر موكب احتفالي يضم حوالي ثلاثة الاف راهب فرانسيسكاني، – من بينهم رهبان ووعاظ مشهورون سيعتلون هم ايضا الهياكل لاحقا، امثال يوحنا الكبستراني Jean de Capistran، ويعقوب دي لا مارش Jacques de la Marche وغيرهم – من دير Arta Caeli الى كنيسة اللاتران. وكان بين الجموع، Rita de Cascia، الموسومة بجرحات المسيح، والتي ستعلن هي ايضا قديسة.

دل كل هذا الاقبال العظيم على اليوبيل، مع الحماس الذي رافقه، وكل الاحتفالات المهيبة الرائعة التي واكبته، على ما كان يتصف به ذاك العصر من ايمان عميق. لم يعكر صفوه الا ما تخلله من مآسي: اذ انتشر، بسبب الحر الشديد، وباء معدي، اضطر البابا والكثير من الحجاج الى مغادرة روما في 18 حزيران، ليعاود الاحتفالات في 25 تشرين الثاني.

لم تؤدي هذه الاحداث الى التقليل من عظمة روما. ولكن ماذا سيحل بهذه العظمة؟ هذا ما سنراه في الفصول التالية.

1

نقولا الخامس 1447-1455

اول بابوات النهضة

كان من قَدَر البابا نقولا الخامس ان يكون اول بابوات عصر النهضة للدور الكبير الذي لعبه في تطور الحركة الفكرية والادبية والفنية مما خلد اسمه في التاريخ. فبعد عشرة ايام من موت البابا يوجنيوس الرابع، انتخب مجلس الكرادلة توماسو بارنتوتشيلي Tommasso Parentucelli، اسقف بولونيا Bologne، والذي اتخذ له اسم نقولا الخامس.

ولد توماسو بارنتوتشيلي عام 1397 ونشأ نشأة فقيرة في ساردسانا Sarzana حيث كان ابوه يزاول مهنة الطب. ولكنه استطاع بطريقة ما ان يلتحق بجامعة بولونيا، وان يقضي فيها ست سنين. ولما نفذ ماله غادرها الى فلورنسا واشتغل مربيا خاصا لاولاد عائلات الاغنياء. وفتحت له هذه السنوات التي قضاها في فلورنسا، مهد النهضة، المجال للالتقاء بالكتاب والعلماء والفنانين. ولما جمع ما يكفي من المال لاكمال دراسته، عاد الى بولونيا وواصل الدرس وحصل وهو في سن الثانية والعشرين على درجة دكتور في اللاهوت. رسم كاهنا وعينه نقولا ديلي البرجاتي Niccolo degli Albergati، رئيس اساقفة بولونيا مشرفا على شؤون بيت الاسقفية استمرت عشرين عاما،. ثم اخذه معه الى فلورنسا، ليكون في خدمة البابا يوجنيوس الرابع حين كان هذا البابا يقضي عهد منفاه الطويل.

اصبح هذا الكاهن في السنين التي قضاها في فلورنس من اصحاب النزعة الانسانية humaniste، دون ان يخرج بذلك على المبادىء المسيحية. وصار صديقا لهم، وانضم الى مجتمعاتهم الادبية. وسرعان ما التهب قلب توماسو ساردسانا، كما كان الانسانيون يسمونه، بنار تحمسهم للآداب القديمة، فكان ينفق كل دخله تقريبا في شراء الكتب، ويقترض المال لابتياع المخطوطات الغالية الثمن، وجهر بأمله في ان يمكّنه ماله يوما ما من ان يجمع في مكتبة واحدة جميع الكتب العظيمة في العالم. وترجع نشأة مكتبة الفاتيكان الى هذا المطمع العظيم. واستخدمه كوزيمو في عمل فهارس المكتبة المرقسية، وابتهج توماسو لوجوده بين مخطوطاتها. وساهم مجمع فلورنسا بين الكنيسة الشرقية والغربية في اظهار كفاءة هذا الكاهن اللاهوتية، اثناء نقاشاته مع اليونان. فساهم بمعرفته الجيدة في اللاهوت والكتاب المقدس واباء الكنيسة، في اسدا خدمة جليلة للكنيسة اثناء المجمع مما وضعه في الواجهة ولفت الانظار اليه.

وظل عشرين عاما يقوم بخدمة الكردينال البرجاتي في فلورنس وبولونيا. فلما مات رئيس الاساقفة (1443) عينه البابا يوجنيوس خلفا له. ثم عينه البابا بعد ثلاث سنوات من ذلك الوقت كردينالا متأثرا بذلك بعلمه، وصلاحه، ومقدرته الادارية. وانقضى عام اخر، ومات يوجنيوس، ووجد الكرادلة انفسهم في مأزق حرج بين احزاب اورسيني وكولنا، فرفعوا بارنتوتشيلي الى عرش البابوية، فاختار اسم نقولا الخامس، عرفانا بالجميل لرئيس اساقفة بولونيا نقولا البرجاتي.

وكان البابا نقولا الخامس رجلا ضعيف البنية، بشعا، الا انه عشق الجمال. فملك من الفضائل الجميلة الكثير: التقوى والحكمة والعلم واللطف والطيبة والكرم. كما كانت له سيئاته: سريع الغضب، بعض التهور، عديم الصبر. الا انه كان مستقيما، منفتحا، عدو كل تملق.

برنامج نقولا الخامس

حدد نقولا الخامس لبابويته ثلاثة اهداف:

1) ان يعيد الوحدة والسلام في الكنيسة وبين الحكومات ويصلح الكنيسة: ورأى ان تحقيق هذا الهدف لن يتم عن طريق العنف والعناد، وانما عن طريق المحبة، لا ان يفرض طاعة البابوية وانما ان يجعل البابوية محبوبة. فسلك في اعمال منصبه السامي مسلك التواضع، واستطاع ان يحتفظ بعلاقات الود والصداقة بين كل من المانيا وفرنسا. وعندما ادرك البابا المعارض فليكس الخامس، ان البابا نقولا الخامس لن يلبث ان يكسب ولاء العالم المسيحي كله، تخلى عن جميع دعاويه، وتخلى عن البابوية، وعفا عنه نقولا الخامس. وانتقل مجلس بازل BASLE الثائر الآخذ وقتئذ في الانحلال من بازل الى لوزان ثم انفض عام 1449، وانتهت بذلك حركة المجالس الكنسية، والتأم الصدع الذي حدث في البابوية.

واغتنم البابا نقولا الخامس فرصة عودة نفوذ البابوية، فارسل الى مختلف البلاد المسيحية، موفدين مبعوثين لاعادة توطيد السلام، وتحريك عملية الاصلاح الديني. وكانت هذه المبادرة من افضل ما قام به نقولا الخامس، اذ لو اتيح لهذه المبادرة الاستمرار وكتب لها النجاح لغيرت مجرى التاريخ.

غير ان الاصلاح واجه صعوبات جمة، خصوصا ان اختيار المبعوثين لم يكن دائما موفقا. فبينما حقق الكاردبنال نقولا ديكوزا Nicolas de Cuz، والواعظ الشهير يوحنا الكبستراني Jean de Capistran نتائج باهرة في البلاد التي ارسلوا اليها (المانيا وهنغاريا)، حصل غيرهم على نتائج لا تذكر، الا اللهم، ما اثاروه من حولهم من انبهار لعيشة البذخ والترف التي عاشوها. وشعر نقولا الخامس انه عجز عن القيام بهذا الاصلاح امام معارضة جميع ذوي المناصب الكبيرة الذين سيفقدون مناصبهم حتما اذا ما تم الاصلاح المنشود. فوجه جهوده الى اهداف اخرى دون ان يهمل الاصلاح.

2) حملة صليبية ضد الاتراك: لما جاءته الانباء ان الاتراك بقيادة محمد الثاني، استولوا على القسطنطينية، اخر معقل للمسيحية في الشرق، وانهم اتخذوا كنيسة ايا صوفيا مسجدا (1453)، اهاب بالدول الاوروبية ان تضم صفوفها لتقوم بحملة صليبية تستعيد بها حصن المسيحية الشرقية. وطالب بعشر ايراد اوروبا الغربية باجمعه ليمول هذه الحملة، وتعهد باداء جميع ايرادات الاملاك البابوية، وغيرها من الموارد الكنسية. ثم طالب بوقف جميع الحروب المستعرة بين الامم المسيحية، والا حرم القائمون بها من الكنيسة. لكن اوروبا المقسمة على نفسها اصمت اذنيها عن سماع النداء. وقال الناس ان الاموال التي جمعها البابوات السابقون لتمويل حروب صليبية استخدمت في اغراض اخرى. وآثرت البندقية ان تعقد مع الاتراك اتفاقا تجاريا، واستفادت ميلان من متاعب البندقية فاستردت برستشيا، ونظرت فلورنسا بعين الرضا الى فقدان البندقية تجارتها مع الشرق. فسقطت القسطنطينية وتركت للنهب والحرق ولجميع انواع المجازر لمدة ثلاثة ايام. واحنى نقولا الخامس رأسه امام الحقيقة الواقعة، وبرد دم الحياة في عروقه. وعرف ان الصليبية ماتت في قلوب الامراء المسيحيين.

3) نقولا الخامس والنهضة – احياء الاداب والعلوم والفنون: كان نقولا الخامس يأمل ان الكنيسة، اذا ما تزعمت حركة احياء العلوم، ستستعيد ما كان لها من مكانة فقدتها اثناء وجودها في افنيون، وفي عهد الانشقاق. وقبل ارتقائه الى البابوية كان قد صرح يوما انه "اذا كان يملك الاموال فسوف ينفقها كلها على اقتناء الكتب واقامة الابنية". والآن وقد امتلأت خزانته بايرادات البابوية، فقد شرع يبعث العمال الى اثينا والقسطنطينية، والى كثير من المدن في المانيا وانجلترا ليبحثوا عن المخطوطات اليونانية واللاتينية، وثنية كانت او مسيحية، ويشتروها او ينسخوها.

ولم يهمل ايضا ما يمكن ان نسميه الادب المسيحي القديم. فقد عرض خمسة آلاف دوقة على من يستطيع ان يأتيه بانجيل متى بلغته الاصلية. واستخدم مترجمين ليترجموا كتب سيريل St. Cyrille، وباسيل St. Basile وغريغوريوس النزينزي وغريغوريوس النيصصي، وغيرها من الآداب الدينية. وحشد في الفاتيكان جماعة كبيرة من النساخين والناشرين، ولم يكد يترك كاتبا انسانيا في ايطاليا الا استدعاه الى روما. وفي ذلك يقول فسبازيانو Vespasiano Da Bisticci معجبا به: "واقبل العلماء من جميع انحاء العالم على روما في ايام البابا نقولا، بعضهم من تلقاء انفسهم، وبعضهم اجابة لطلبه". وكافأهم على اعمالهم بسخاء، وقد بلغ من ضخامة هذه المكافأت ان تردد بعض العلماء في قبولها، ولكن البابا تغلب على التردد بان حذرهم بشيء من الفكاهة قائلا: "لا ترفضوا، فقد لا تجدون نقولا آخر". ولما اضطر الى الخروج من روما الى فيرارا بسبب الوباء، اخذ معه مترجميه ونساخيه خشية ان يهلك الوباء واحدا منهم.

وكان نقولا الخامس يحب مظهر الكتب وشكلها كما كان يحب ما تحتويه صحائفها. وكان هو نفسه خطاطا. وامر ان يكتب له التراجم كتبة مهرة على الرق، وان تجلد اوراقها بالقطيفة القرمزية اللون، وان تكون لها مشابك من الفضة. ولما كثر عدد كتبه – حتى بلغ اخيرا الى 824 مخطوطا لاتينيا و352 مخطوطا يونانيا – وضمت هذه الكتب الى مجموعات البابوات السابقين نشأت مشكلة المكان الذي توضع فيه هذه المجلدات الخمسة الالاف، وهي اكبر مجموعة من الكتب في العالم المسيحي، بحيث يضمن انتقال هذه الذخيرة كاملة الى الاجيال القادمة، فكان تشييد دار الكتب في الفاتكيان من اصدق اماني نقولا الخامس.

وكان بنَّاءا كما كان عالما. وقد صمم منذ جلس على عرش البابوية ان يجعل روما خليقة بزعامة العالم. وكان يوبيل عام 1450 قد اقترب، وكان ينتظر قدوم مائة الف زائر اليها في هذا العيد، وينبغي الا يجدوا رومة خربة، بالية. وتطلبت كرامة الكنيسة والبابوية ان يطالع حصن المسيحية زائريه "بمبان فخمة، تجمع بين حسن الذوق والجمال من جهة والفخامة والضخامة من جهة اخرى" بحيث "يرفع هذا من شأن كرسي الرسول بطرس". هكذا صرح نقولا الخامس بغرضه وهو على فراش الموت معتذرا عما قصر فيه. فقد اعاد بناء اسوار المدينة وابوابه الكبرى، وعهد الى ليون باتستا البرتي بان يخطط القصور، والميادين العامة، والشوارع الفسيحة، وامر برصف كثير من الشوارع، وتجديد كثير من الجسور، ورمم حصن سانت انجيلو. واقرض اعيان المواطنين الاموال ليساعدهم على بناء القصور التي تزدان بها روما. وجدد برناردو رسلينو، اطاعة لامره، كنائس سانتا ماريا مجورى، وسان جيوفاني لاترانو، وسان بول، وسان لورنسو القائمة خارج اسوار المدينة، والكنائس الاربعين التي كان غريغوريوس لاول قد خططها لتكون محطات للصليب. ووضع تصميمات فخمة لبناء قصر جديد للفاتيكان يغطي بحدائقه جميع تل الفاتيكان، ويسع البابا وجميع موظفيه، وكرادلته، وجميع المكاتب الادارية التابعة للحكومة البابوية، والمكتبة الفاتيكانية، واستدعى اشهر الرسامين لتزيين حجرات الفاتيكان وكنائسيه، منهم الراهب انجيلكوا. وعزم علي ان يهدم بازليكا القديس بطرس المتداعية، وان يشيد فوق قبره اروع كنيسة في العالم، الا انه قُدِّر للبابا يوليوس الثاني ان يشرع في تحقيق هذا الغرض الجليل.

هذا كله ما دفع المؤرخون الى تسمية البابا نقولا الخامس "ببابا النهضة" وبهذه الاعمال خلده التاريخ.

مؤامرة على البابا

شوه بعض التذمر هذا الرخاء الطارىء في روما. ذلك ان حكم نقولا الخامس لهذه المدينة كان حكما مستنيرا عادلا. وكان قد وعد بتحقيق بعض الآمال الجمهورية، بان رشح اربعة من المواطنين يعينون هم في المستقبل جميع موظفي البلدية، ويشرفون على شؤون الضرائب التي تجبى في المدينة. ولكن اعضاء مجلس الشيوخ والاعيان وهم الطبقة التي كانت تتولى حكم المدينة حين كان البابوات يقيمون في افنيون وفي عهد الانشقاق، لم يرضوا عن الحكومة البابوية القائمة فيها، كما استاء العامة من تحويل الفاتيكان الى قصر محصن يقوى على صد أي هجوم يمائل الهجوم الذي ادى الى طرد يوجنيوس من روما. وكانت الافكار الجمهورية التي ينادي بها ارنولد البيشائي، كولا دي ريندسو Cola di Rienzo لا تزال تثير كثير من العقول.

وحدث في السنة التي تربع فيها نقولا الخامس على عرش البابوية ان القى زعيم من اهل المدينة يدعى استفانو بركارو Stefano Porcaro خطبة حماسية نارية يطالب فيها باعادة الحكم الذاتي الى المدينة. فما كان من نقولا الخامس الا ان نفاه من المدينة نفيا مريحا، اذ عينه حاكما لانياني Agnani، ولكن بركارو استطاع ان يعود الى العاصمة، وان ينادي بآرائه من جديد فنفاه البابا مرة اخرى الى بولونيا، ولكنه ترك له حريته الكاملة ولم يفرض عليه الا ان يظهر كل يوم امام المندوب البابوي في المدينة، الا انه استطاع وهو في بولونيا ان يدبر مؤامرة محكمة اشرك فيه ثلثمائة من اتباعه في روما. وكانت النية ان يهاجم المتآمرون قصر الفاتيكان في يوم الغطاس اثناء قيام البابا والكرادلة بالقداس في كنيسة الرسول بطرس، ثم يستولوا على ما فيه من كنوز ليتمكنوا بها من اقامة الجمهورية. وغادر بركارو بولونيا سرا في 26 كانون اول سنة 1453، وانضم الى المتآمرين عشية يوم الهجوم الكبير. ولكن غيابه عن بولونيا عُرِف، وجاء رسول الى الفاتيكان يحذر البابا من المؤامرة. واقتفى اثر استفانو، وعثر عليه، وزج بالسجن، وقطع رأسه في اليوم التاسع من كانون ثاني في سانت انجيلو. وعد الجمهوريون قتله اغتيالا، وندد الكتاب الانسانيون بالمؤامرة وعدوها خيانة مروعة للبابا الصالح.

موت نقولا الخامس

وروع البابا نقولا الخامس، وتبدلت حاله لما تبين له ان قسما كبيرا من اهل المدينة يرونه طاغية مهما تكن فعاله الخيرة. واقضت مضجعه الظنون السيئة، وملأ الغضب صدره. وكانت الضربة القاضية لما جاءته الانباء ان الاتراك

استولوا على القسطنطينية، ولم يستطع ان ينظم حملة صليبية لاستردادها، فساءت صحته وتدهورت، وعذبه داء المفاصل la goutte، فاخذ ينحدر انحدارا سريعا نحو الشيخوخة، وكانت ايامه الاخيرة ايام عذاب احتملها بصبر وثبات، ثم توفي في ليلة 24 او 25 اذار عام 1455 في الثامنة والخمسين من عمره، بعد ثماني سنوات من البابوية.

الحكم على البابا نقولا الخامس

اعاد البابا نقولا الخامس السلام الى داخل الكنيسة. واعاد النظام والمجد الى روما، وانشأ اعظم مكتبة في اوروبا كلها، ووفق بين الكنيسة والنهضة، ولم يدنس يده بالحرب، ولم يتحيز لذوي القربى، وبذل كل ما يستطيع من الجهد ليخرج باوروبا من النزاع. وكان هو نفسه يحيا حياة بسيطة وسط موارد لم يسبق لها في ضخامتها مثيل، وكان محبا للكنيسة ولكتبه. ولم يسرف الا في عطاياه. وقد عبر اخباري محزون عن شعور ايطاليا حين وصف البابا للعالم انه رجل "حكيم، عادل، خير، رحيم، مسالم، شفيق، محسن، متواضع... متصف بجميع الفضائل". نعم ان هذا هو حكم المحبين، وقد لا يري اعداؤه هذا الرأي، ولكن لا بأس من ان نسجل هذا الحكم.

2

كلكستس الثالث 1455– 1458

Calixte III

كان تفرق ايطاليا هو الذي قرر نتيجة انتخاب البابا الذي خلف نقولا الخامس، ذلك ان الكرادلة قد عجزوا على اختيار احد الكرادلة الايطاليين، فعمدوا الى اختيار كردينال اسباني هو الفونسو بورجيا Alfonso Borgia الذي تسمى باسم كلكستس الثالث. وكان البابا الجديد سليل عائلة بورجيا الشهيرة والقديمة من كتالونيا Catalonia، التي اتسمت بجمال الاجسام، وذكاء العقل، وحماس الشباب، وعزم الارادة. وعرف في مجلس الكرادلة باستقامته وامانته، ومهارته في ادارة الاعمال. وكان قد بلغ السابعة والسبعين من العمر، ولم يكن احد ينتظر هذا الاختيار الا المنتَخب نفسه، اذ كان الواعظ الشهير فانسان فريه Vincent Ferrier قد تنبأ له وهو لا يزال بعد كاهنا، انه سيصبح بابا. لذلك كان اول عمل قام به هذا البابا هو اعلان قداسة هذا الواعظ الشهير في 26 حزيران 1455.

كان كلكستس، تقيا، مستقيما، فطنا، يعيش حياة بسيطة، بعيدة عن فخفخة وتبذير سلفه، متخصصا في القانون الكنسي، بارعا في الدبلوماسية، ولذلك كان ذا عقلية قانونية، قليل العناية بالعلوم القديمة التي شغف فيها نقولا الخامس، وضعف في عهده شأن الكتاب الانسانيين الذين لم تكن لهم اصول ثابتة في روما. اظهر نشاطا كبيرا، بالرغم من كبر سنه وقُصر بابويته التي استمرت فقط ثلاث سنين، وبرهانا على ذلك ال 48 مجلدا التي تحوي اعماله (les Actes) والموجودة في ارشيف الفاتيكان.

الدعوة الى حرب صليبية

جلس كلكستس الثالث على العرش البابوي في الوقت الذي فيه احتل الاتراك القسطنطينية، ودمروا الامبراطورية البيزنطية، وهددوا الحضارة المسيحية في الغرب. لذلك قرر كلكستس الثالث ان اهم مهمة في برنامجه هي الدعوة الى حرب صليبية ضد الاتراك. لذلك حالا بعد انتخابه، اقسم يمينا علنيا باسم الثالوث الاقدس، ان يعمل كل ما في وسعه، وان يضحي بحياته اذا لزم الامر، لاستعادة القسطنطينية واعادة الايمان، واستئصال الاسلام من الشرق. ووجد هذا الشيخ الذي شارف على الموت، في هذه المهمة، روح الشباب وحماسه، فاوفد رسائل ومبعوثين الى جميع انحاء العالم المسيحي، ليدعوه الى حرب صليبية ولتكريس الاموال اللازمة لهذا الغرض. ولم يبخل هو بشيء في سبيل ذلك، فقد باع جواهر الخزينة البابوية، وكثير من الاعمال الفنية وحتى كؤوس العبادة في سبيل اعداد تسليح السفن. وفي 15 ايار 1455، اصدر مرسوما بابويا منح فيه الغفران لجميع من يشترك في هذه الحرب الصليبية، وعين يوم 1 اذار من عام 1456 موعدا لبدئها.

الا ان وقت الحروب الصليبية ولّى، ولم يعد في اوروبا المتغيرة الا امما انانية، همها في مصالحها الخاصة، ولم تعد الوحدة المسيحية الا كلمة جوفاء. ولم تجد دعوة البابا نتيجة لا في المانيا المقسمة، ولا في فرنسا وانكلترا المتعاديتين، ولا عند الملك الفونس ملك البرتغال، ولا عند ملك اسبانيا الفونس دارجون، ولا في بولونيا، ولا حتى في فنسيا التي كانت تتاجر مع السلطان التركي. فقط هنغاريا المهددة من قبل الاتراك استجابت، وهبت بقيادة جان هونياد Jean Hunyade، يسانده القديس يوحنا كبسرتانو Jean de Capistran، تعد العدة للدفاع عن بلغراد، اخر سد للعالم المسيحي امام الاسلام.

وكان البابا قد وجه نداء يطلب فيه الصلاة في جميع انحاء العالم المسيحي، وانشأ خصوصا صلاة "الملاك المسائية" لهذه الغاية. وتكللت كل هذه الجهود والصلوات بالنصر، واستطاع جان هونياد Jean Hunyade ان يرد الاترك، مكبدا جيش محمد الثاني البالغ عدده ما يقارب المئة الف مقاتل هزيمة كبيرة تحت اسور بلغراد، جرح خلالها محمد الثاني نفسه، واجبر على رفع الحصار. وكان هذا في يوم 21 تموز عام 1456، تنفست فيه اوروبا الصعداء،

وأسس البابا عيد التجلي في 6 اب تخليدا لذكرى انتصار بلغراد. وانتصرت ايضا السفن البابوية واسرت خمسة وعشرين سفينة تركية. كما وكبد دوق البانيا Duc d'Albanie Scanderberg، الاتراك هزيمة اخرى، كانت الاخيرة. وعندما مات كلكستس الثالث كان الاتراك قد احتلوا كورنتوس.

الحكم على كلكستس الثالث

لا يستحق هذا البابا الا كل مدح وتقدير وثناء لما قام به في سبيل انقاذ المسيحية[3]، لو لم يكن في حياته تلك النقطة السوداء، الا وهي محاباة الاقارب Népotisme، فلم تنقض على تتويجه عشرة اشهر حتى رفع الى مقام الكردنالية ثلاثة من ابناء اخيه وهما لويس جون داميلا Lois Juan da Maila، وردريجو بورجيا Rodriguo Borgia ودون جيمي البرتغالي Don Jayme وكانت اعمارهم على التوالي خمسة وعشرين عاما، واربعة وعشرين، وثلاثة وعشرين. وكان يعيب رودريجو (الذي اصبح فيما بعد البابا اسكندر السادس) شيء آخر وهو انه كان رجلا مستهترا، لكن كلكستس مع ذلك منحه اكثر المناصب كسبا في البلاط البابوي، فجعله نائب رئيس الحكومة البابوية (1457)، ثم عينه في العام نفسه قائدا عاما للقوات البابوية.

وهكذا بدأت محاباة الاقارب، وهي العادة التي اتبعها بعده البابوات فوهبوا المناصب البابوية لابناء اخوتهم واخواتهم وغيرهم من الاقارب. وكانوا في كثير من الاحيان ابناء البابا نفسه. واغضب كلكستس الايطاليين اذ احاط نفسه برجال اختارهم من بلده، فاضحت روما يحكمها الاسبان القطلانيون. على ان البابا كنت تدفعه الى ذلك اسباب معقولة: منها انه كان اجنبيا في روما، وان الاعيان والجمهوريين كانوا يحيكون المؤامرات ضده، وكان يريد ان يكون بالقرب منه رجال يعرفهم، يحمونه من الدسائس بينما كان يوجه اهتمامه الى اهم ما يعنيه، الا وهو الحرب الصليبية.

ولما مات احتفلت روما بانتهاء حكم "البرابرة" لها، ولما رشح الكردينال بكولوميني Piccolomini خلفا له، ابتهجت روما كما لم تبتهج من قبل لاختيار أي بابا في خلال المائتي العام للاخيرة.

يعود الفضل الى هذا البابا اعادة محاكمة جان دارك وتبرأتها.

ملحق: جان دارك

(من مقال "جاان دارك... رمز خالد تحدى النار" مجلة العربي عدد 514، ايلول 2001)

المكتبة الوطنية الفرنسية تحتوي حاليا على ما يزيد على عشرين الف كتاب عن جان دارك، فقد كتب عنها المؤرخون، العلمانيون منهم وغير العلمانيين، المعاصرون منهم والمحدثون، كما تناولها الأدباء والشعراء والفنانون كل في ميدان اهتمامه، وظهرت عنها اروع الافلام السينمائية، على ايدي امهر المخرجين، في اوروبا وامريكا، فقد كتب عنها، على سبيل المثال لا الحصر، الفيلسوف الفرنسي فولتير والاديب الانجليزي شكسبير والاديب الامريكي مارك توين، والاديب الالماني برخت، والاديب الانجليزي برنارد شو. ومنذ بدايات القرن العشرين اخذت الافلام عنها تتوالى، مثل فيلم "آلام جان دارك" الذي اخرجه الدنماركي كارل دبير، ولعبت فيه الممثلة الايطالية ماريا فالكونتي دور جان دارك. وفي نهاية القرن نفسه، ظهر عنها فيلمان من اروع الافلام الامريكية.

فمن هي جان دارك؟ وما قصتها؟ وما مكانتها التاريخية؟

البيئة التاريخية التي وُلدت فيها جان دارك

في الواقع لا نستطيع ان نتعرف على جان دارك الا اذا اطلعنا على الاطار التاريخي الذي ظهرت فيه، والظروف التي احاطت بها وببلادها، لأن سيرتها ارتبطت ارتباطا وثيقا باخطر حدثين اجتاحا اوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهما حرب المائة عام والتي اندلعت بين فرنسا وانجلترا، ما بين عامي 1337 و 1453م. والانشقاق الاكبر الذي وقع في الكنيسة الغربية الكاثوليكية ما بين عامي 1378 و 1416م. فهذان الحدثان انعكسا بشكل مباشر على حياة جان دارك، بل لا نبالغ اذا قلنا انهما اسهما اسهاما مباشرا في صياغة قصة حياتها ومماتها على السواء.

الحدث الاول: حرب المائة عام

[3] من اعماله ايضا: اعلان قداسة Vincent Ferrier الدومينيكاني، واعادة الاعتبار الى القديسة جان دارك، التي اتهمت زورا بالهرطقة واحرقت.

اما بالنسبة الى حرب المائة عام، فانها تعود في جذورها الى المشكلات التي افرزتها المصاهرات بين الاسرتين المالكتين في كل من فرنسا وانجلترا. ففي عام 1328 مات الملك الفرنسي شارل الرابع، وهو اخر الذكور من ابناء الملك فيليب الرابع (ت 1314)، بحيث لم يبق على قيد الحياة من ذرية الاخير سوى ابنته ايزابيلا التي تزوجت الملك الانجليزي ادوارد الثاني. وظهر عندئذ اثنان ادعى كل منهما حقه في العرش الفرنسي، الاول هو الامير فيليب فالوا وهو ابن اخ فيليب الرابع، والثاني هو ادوارد الثالث ابن ايزابيلا. ودعم الشعب الفرنسي حق فيليب في العرش وتم تتويجه ملكا على فرنسا عام 1328 لقطع الطريق على مزاعم الانجليز في العرش الفرنسي. ولم يكتف فيليب بذلك وانما قام عام 1337 بمصادرة دوقية غاسكوني الفرنسية التي كان يعتبرها الانجليز من املاكهم في القارة، فأعلن ادوارد الثالث الحرب على فيليب في العام نفسه (1337)، وبذلك اندلعت حرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا.

واذا كان المجال لا يسعنا للافاضة بتفاصيل هذه الحرب ومراحلها، الا انه ينبغي ان نشير الى ان الانجليز حققوا انتصارات مذهلة على الفرنسيين واستولوا على اجزاء كبيرة من بلادهم، ويهمنا ان نذكر هنا انه بعد انتصار الانجليز في معركة اجينكورت عام 1415، فرضوا على الفرنسيين معاهدة تروى المشهورة (عام 1420)، والتي وقعت بين الملك الفرنسي شارل السادس الذي كان مصابا بمس، والملك الانجليزي هنري الخامس، وقد تضمنت ان يتزوج الاخير كاترين ابنة شارل السادس، وان يكون ابنهما القادم (وهو هنري السادس) وريث العرش الفرنسي، اي ملكا على فرنسا وانجلترا معا، وهذا يعني حرمان الامير شارل السابع، وهو الابن الوحيد لشارل السادس، من حقه في العرش الفرنسي وانتقال هذا الحق الى ابن اخته كاترين. ومما زاد في خطورة الأزمة ان والدة شارل السابع اباحت سر آنذاك وهو ان الاخير ليس من صلب زوجها شارل السادس. وشكل هذا النبأ فضيحة بل كارثة على شارل السابع والشعب الفرنسي فضلا عن الدوائر الكنسية. وفي عام 1422 مات كل من شارل السادس وهنري الخامس. ووفقا لمعاهدة تروى غدا هنري السادس، البالغ من العمر سنة واحدة، ملكا على انجلترا وفرنسا معا.

في خلال هذه الحرب التي دامت اكثر من مائة عام، استباح الانجليز وحلفاؤهم الفرنسيون، امثال البورجنديين، فرنسا وقاموا بابشع ما يمكن ان يقوم به المحتلون من اعمال سلب وقتل وتدمير واغتصاب، بل جاءت عصابات من كل ارجاء اوروبا الى فرنسا للافادة من هذه الحرب وما يرافقها من فوضى، والعمل كمرتزقة عند الفرنسيين والانجليز على السواء، وكانت هذه العصابات تقوم باعمال السلب والنهب في الارياف والمدن، اثناء توقف القتال، لأن الدولتين المتحاربتين لا تدفعان لهم الاجور الكافية.

الحدث الثاني: الانشقاق البابوي

اما الحدث الثاني الذي اسهم في صياغة حياة جان دارك ووجدانها، فهو الانشقاق الاكبر، الذي وقع في الكنيسة الغربية ما بين 1387 و 1417، وما ترتب عليه من نتائج بالغة الخطورة، ولا سيما فيما يتعلق بثقة شعوب الغرب آنذاك بالكنيسة ورجالها. فمن المعروف ان البابوات انتقلوا من مقر اقامتهم التاريخي، وهو روما، الى مدينة افنيون الفرنسية، وعاشوا فيها اشبه بالاسرى لدى ملوك فرنسا من عام 1305 الى عام 1377.

وعلى الرغم من عودة البابا الى روما عام 1387 فانه سرعان ما أُنتخب بابا اخر في مدينة افنيون، وغدا هناك اثنان منن البابوات، احدهما يقيم في روما والاخر في افنيون، وكل منهما يدّعي انه البابا الشرعي وانه القائد الوحيد للكنيسة الغربية. وعندما ولدت جان دارك عام 1412 كان هناك ثلاثة يتنافسون على المنصب البابوي، فبالاضافة الى بابا روما بابا افنيون، ظهر بابا جديد في بيزا منذ عام 1409. ولم تستقر الامور وينتهي الانشقاق الا في مجمع كونستانس عام 1417 بانتخاب البابا مارتينوس الخامس. وخلال هذا الانشقاق كان الملوك الانجليز يدعمون بابا روما في حين كان ملوك فرنسا يدعمون بابا افنيون. وقام كل من البابوين يحرمان البابا الاخر ومن كان يقف معه من ملوك وامراء ورجال دين. وكان الانجليز عندما يحتلون مدينة في فرنسا اثناء حرب المائة عام، يقومون بعزل الاساقفة المناصرين لبابا افنيون، ويعينون اخرين يناصرون بابا روما. وكذلك قام الفرنسيون بعزل من كان مواليا لبابا روما والانجليز.

ويؤكد الباحثون على ان الانشقاق الكنسي ادى الى نتائج بالغة الاهمية من الناحية الدينية، بل ربما تفوق في خطورتها ما ادت اليه الحرب من نتائج سياسية واقتصادية وبشرية، فقد اضطربت الحياة الدينية في الغرب اضطرابا عميقا، وغدت شعوب الغرب لا تعرف من هو البابا الحقيقي او الشرعي، وفقد البابوات مكانتهم وفقدت الشعوب ثقتها بها.

ولهذا عندما ظهرت جان دارك على مسرح الاحداث كانت فرنسا ترتعد فرائصها، وهي تطفو فوق بحر من الرعب والدمار والقتل والاغتصاب والحرمان... الخ، وغدت هذه الامور جزءا من الحياة اليومية، وباختصار، فقد دمرت هذه المحن، على امتداد قرن من الزمن، روح فرنسا ووجدانها، ومزقت ارضها وشعبها، واخذت الامال والاحلام في الخلاص تراود كل الفرنسيين، ولا سيما الاتقياء منهم والمخلصين لوطنهم ودينهم. من هذه النقطة يجب ان تبدأ قصة جان دارك.

حياتها

وُلدت جان دارك عام 1412 في قرية دومرمي الواقعة قرب حدود فرنسا مع اللورين، على الحدود الشرقية من المملكة الفرنسية. تألفت اسرتها من ستة افراد هم: والدها واسمه جاك دارك ووالدتها واسمها ايزابيلا، وولدان وابنتان، وكانت جان، التي عُرفت في صغرها باسم جانيت هي الابنة الصغرى. ومع ان جان دارك كانت أُمية، لا تعرف القراءة والكتابة، الا انها تعلمت في بيت اهلها الخياطة وغزل الصوف، كما رعت الغنم لاسرتها في ضواحي القرية مثلها مثل فتيات جيلها في الريف الفرنسين، ولكنها اشتهرت عنهن بما تميزت به من اخلاق حميدة وتقوى، وقد اعتادت منذ نعومة اظفارها بتأثير والدتها، على الصلاة وعلى سماع قصص الأولياء والقديسين.

عندما كانت جان دارك في الثالثة عشر من عمرها (اي عام 1425) اجتاحت قريتها عصابات من البورجنديين، حلفاء الانجليز في الحرب الدائرة، وعانى الفلاحون العُزل الكثير من اعمال السلب والقتل والاغتصاب، بل لم تتورع تلك العصابات عن إحراق كنيسة القرية بعد نهب محتوياتها، ويبدو ان هذه الاحداث تكررت كثيرا، حتى ان عشرات من أُسر الفلاحين، بما فيها أسرة جان دارك، اضطرت الى النزوح الى القرى والمدن المجاورة، ولا نبالغ اذا قلنا ان جان دارك نشأت وعقلها قد أمتلأ بسير القديسين والاولياء الصالحين من ناحية، وبقصص الفظائع التي كان يرتكبها الانجليز وحلفاؤهم البورجنديون في فرنسا من ناحية اخرى. ولهذا فقد كان طبيعيا ان تترعرع هذه الفتاة وقد تشربت آلام ابناء أمتها وآمالهم في الخلاص من هذه المحن.

ارادة تتحدى العواصف

يروي المؤرخون انه عندما بلغت جان دارك الثالثة عشرة من عمرها، اي في العام نفسه الذي اجتاحت فيه عصابات البورجنديين قريتها، ادّعت انها سمعت اصوات بعض القديسين تبلغها انها مكلفة مهمة التوجه الى مدينة اورليان لتخليصها من الحصار الانجليزي المفروض عليها. ومن ثم عليها اصطحاب الامير شارل السابع الى مدينة ريمس لتتويجه ملكا على فرنسا لأنه الابن الحقيقي للملك شارل السادس والوريث الشرعي للعرش الفرنسي.

والواقع ان ظاهرة جان دارك لم تكن جديدة في ذلك العصر، لأن الاصوات والرؤى والاحلام غدت شائعة في فرنسا آنذاك، ولا سيما بين النساء، وكانت توجه لهن تهمة ممارسة السحر والشعوذة او الجنون او كلها مجتمعة، وهذا الأمر يفسر لنا الصعوبات التي واجهتها جان دارك، في البداية، لاقناع من حولها بمهمتها. وعلى اي حال، فقد تعددت آراء الباحثين، ولا زالت، حول حقيقة ما ذهبت اليه جان دارك. هل هو انعكاس لاحاسيس عامة كانت سائدة بين الفرنسيين؟ او تعبير عما يدور في اللاشعور عند جان دارك؟ هل هو اسقاط لرغبات وآمال عميقة لا يجرؤ المرء على البوح بها الا بتلك الصيغة؟ هل هي الحاسة السادسة (الباراسيكولوجية)؟ (هل هي فعلا مهمة الهية عُهدت اليها؟)...، ومهما يكن من أمر فإن ما يهمنا هو رصد بعض ما ترتب على ظاهرة جان دارك من نتائج.

وقابلت جان دارك الحاكم العسكري المحلي، ملتمسة منه المساعدة للوصول الى بلاط شارل السابع القابع مكتئبا في قلعة بمدينة شينون. وبعد تردد استجاب لطلبها، وزودها بالاسلحة والدروع وعدد من الحرس لمرفقتها، وفي شباط من عام 1429، انطلقت جان دارك في مهمتها وهي تركب جوادا وترتدي ملابس الفرسان، وبعد احد عشر يوما، كان شارل السابع في استقبالها، ويقول المؤرخون المعنيون بهذا الموضوع ان شارل اخفى نفسه بين عشرات من رجالات بلاطه الذين احتشدوا لرؤيتها، الا انها نجحت في التعرف عليه دون كل الحضور وامام ذهول الجميع ودهشتهم، واخبرت جان دارك شارل السابع انها "أداة لتنفيذ ارادة الله" في تخليص اورليان وتتويجه لأنه الملك الشرعي لفرنسا. وعلى الرغم من ان شارل قد دُهش واغتبط في آن واحد لما سمعه إلا انه كان يشك فيما كانت تقوله هذه الفتاة التي ترتدي ملابس الرجال، ولهذا بعثها برفقة عدد من كبار رجال بلاطه الى مدينة بواتييه لتخضع الى فحص من قبل هيئة دينية بغية التأكد من سلامة عقيدتها واخلاقها، وبالفعل، قامت لجنة مؤلفة من ثمانية عشر عضوا، كان من بينهم رئيس اساقفة ريمس، بالمهمة على حسن وجه. وجاءت النتائج لصالح جان دارك اذ تبين ان الفتاة في غاية التقوى والورع وانها تؤمن ايمانا عميقا بان كل ما تقوله "هو تنفيذ لمشيئة الله". واكدت اللجنة انها لم تجد في كل ما قالته الفتاة اي أثر لهرطقة او سحر او شعوذة، ولهذا كله فهي تنصح شارل بالاصغاء لها والعبرة في النتائج. وفي ضوء ذلك كله سمح لها شارل بقيادة جيشه لتخليص اورليان من الحصار الانجليزي.

قبل ان تنطلق جان دارك الى اورليان كان قد ذاع صيتها في ارجاء فرنسا حتى انه لم يصل الى مسامع الفرنسيين فحسب، وانما الى مسامع الانجليز المحتلين وحلفائهم ايضا. وبحكم سيكولوجية انتشار الاشاعات وبخاصة في مثل ذلك العصر، فقد نسب الى جان دارك انها تصنع الكثير من المعجزات. ويبدو انه في هذه الفترة أملت جان دارك رسالة موجهة الى المقيم الانجليزي في فرنسا وقادته تتضمن التهديد والوعيد، وتبلغهم بانها مكلفة مهمة طردهم من فرنسا وتطلب منهم المغادرة بالتي هي احسن والا فعليهم ان يتحملوا مسؤولية ما اقترفت ايديهم من آثام بحق بلادها وشعبها. واذا كنا لا نعرف بالدقة ما كان

لهذه الرسالة من تأثير على الانجليز الا انها اسهمت في رفع روح الصمود والاستبسال في اوساط الفرنسيين الذين كانوا يعانون من الحصار في اورليان.

كان الانجليز قد فرضوا الحصار على اورليان منذ تشرين اول عام 1428، وكان حاكمها الفرنسي في الأسر الانجليزي منذ معركة اجينكورت التي وقعت عام 1415. وتعد هذه المدينة جسرا مهما بين شمال فرنسا وجنوبها. وخلال ذلك الحصار تلقى الطرفان الانجليز المحَاصِرون والفرنسيون المحاصَرين، تعزيزات كثيرة، ولكن كان يبدو واضحا ان ميزان القوى كان يميل الى صالح الانجليز بحيث يمكن ان تسقط المدينة امام اي هجوم انجليزي قوي.

مزيد من الانتصارات

بعد عودة جان دارك من بواتييه، أمر شارل السابع بتجهيزها بكل ما تحتاج اليه من اسلحة ودروع واعلام، كما زودها بجيش قُدّر بثمانية آلاف محارب، ضم خيرة قادة فرنسا وفرسانها، واتجه هذا الجيش الى اورليان، وفي الثامن من ايار عام 1429، نجحت جان دارك في رفع الحصار عن اورليان وتحريرها من خطر الانجليز، بعد ان دام حصارهم لها تسعين يوما. ونظر الفرنسيون، وعلى رأسهم شارل اسلابع ورجال بلاطه الى تحرير اورليان على انه برهان على ان جان دارك قد انجزت المهمة الاولى في برنامجها، وبالتالي فإن تصديق وعودها غدا من الناحية النفسية تحصيل حاصل.

بعد رفع الحصار عن اورليان كانت الخطوة التالية في مهمة جان دارك هي تتويج شارل السابع ملكا على فرنسا في مدينة ريمس وهو المكان الذي يتوج فيه ملوك فرنسا منذ تتويج كلوفيس ملكا على الفرنجة عام 496م. ولذا اخذت جان دارك تشق طريقها، على رأس القوات الفرنسية من اورليان الى ريمس، اشتبكت مع الانجليز في عدد من المواقع، وحققت انتصارات باهرة، ولعل اهمها انتصارها في معركة باتاي التي قتل فيها ما لا يقل عن الفي جندي انجليزي، وبهذه الانتصارات استطاعت جان ان تنظف وادي اللور من الانجليز والبورجنديين، ومهدت بذلك الطريق امام شارل السابع للوصول الى ريمس دون التعرض للخطر. وفي 16 تموز عام 1429، دخلت القوات الفرنسية، وعلى رأسها شارل السابع وجان دارك مدينة ريمس دخول الفاتحين. وفي اليوم التالي (17 تموز) تم الاحتفال رسميا بكتدرائية المدينة بتتويج شارل السابع ملكا على فرنسا وفقا للطقوس الكنسية التقليدية. وقد وقفت جان دارك اثناء مراسم التتويج الى جانبه وهي ترتدي درعها وتمسك برايتها. وبعد التتويج اعلنت الكثير من المدن الفرنسية ولاءها له.

أسر جان دارك

منذ تتويج الملك شارل السابع ملكا في ريمس بدأ نجم جان دارك بالافول. وعلى الرغم من انها اعلنت بعد التتويج، ان "مهمتها" قد انتهت، وأنه يتعين عليها العودة الى قريتها لمساعدة اهلها، الا انها سرعان ما غيرت موقفها وقررت مواصلة الحرب لاسترداد باريس من الانجليز. وربما تعرضت في هذه المرحلة الى ضغط من رفاقها في السلاح للبقاء في خدمة قضية تحرير فرنسا. اما شارل السابع فقد اخذ يتبع معها من الان فصاعدا سياسة المراوغة ولم يستثمر الحماس القومي الذي أعلت فتيله في طول البلاد وعرضها. فقد عارض رغبتها في تحرير باريس اشد المعارضة، وقال ان العمل السياسي في هذه المرحلة اكثر مضاء من السيف. وأنه اذا تمكن من كسب امير بورجنديا، وغيره من امراء فرنسا، الى صفه فان الانجليز سيخسرون الحرب.

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد انطلقت جان دارك على رأس قوات قليلة نحو باريس التي كان الانجليز قد حشدوا معظم قواتهم حولها. وبعد معارك طاحنة حول الاسوار، فشلت جان دارك في فتحها وتراجعت الى مدينة كومبين، حيث وقعت اسيرة عند اسوارها بيد البورجنديين اثناء القتال. وعلى الارجح ان أسرها قد تم وفق خطة مدبرة وليس بمحض الصدفة، وكان ذلك يوم 23 ايار 1430. وقد باع البورجنديون جان دارك الى الانجليز مقابل عشرة آلاف قطعة ذهبية.

نُقلت جان دارك وهي مقيدة بالسلاسل الى مدينة روان (مقتطعة نوماندیا)، وهي المكان الذي قرر الانجليز محاكمتها فيه، حيث وصلتها في 24 كانون اول من العام نفسه (1430)، اي بعد سبعة اشهر من وقوعها في الأسر. وتجدر الاشارة الى ان شريعة الحرب كانت في ذلك العصر تقتضي معاملة الأسرى باحترام وتقدير، اذا كان هؤلاء من طبقة النبلاء. في حين تسمح بمعاملة الاسرى من الجنود المرتزقة والفلاحين الذين يعيشون في اراضي العدو معاملة وحشية. ولهذا فقد لقيت جان دارك من الجنود والانجليز معاملة يندى لها الجبين من وحشيتها، منذ ان سُلّمت لهم الى لحظة اعدامها.

الاعدام حرقا

اوكل الانجليز مسألة محاكمة جان دارك الى محكمة التفتيش، وقد ضمت المحكمة اثني عشر عضوا برئاسة الاسقف بيير كوشون، فضلا عن عدد من الاساقفة الانجليز وممثل عن الحكومة الانجليزية. وتمت المحاكمة تحت حراسة قوات انجليزية مسلحة. واستمرت نحو خمسة اشهر من كانون ثاني 1431 الى ايار من العام نفسه، وقد حاول المحققون، كما يقول المؤرخون،

الايقاع بجان دارك لانهم كانوا قد اتخذوا قرارا مسبقا بناء على طلب الانجليز بادانتها. ولهذا كانت جهودهم تتركز على استدراج الفتاة بالحيلة والخداع والتضليل والمكر، كما كانوا يلونون اسئلتهم واجوبتها بطريقة تخدم هدافهم وهو ادانتها.

وكانت التهم التي وُجهت الى جان دارك ذات طابع ديني، ومنها على سبيل المثال ممارسة السحر. وقد ركز الانجليز كثيرا على هذه التهمة لانها تبرر هزائمهم امامها، كما أُتُهمت "بالزندقة" لانها كانت تصر على ان كل ما قامت به هو "بأمر الله". وقد وقف المحققون كثيرا عند هذه التهمة وحاولوا اقناعها ان كل ما فعلته هو من وساوس الشياطين، كما أُخذ عليها اشياء كثيرة منها ارتداء ملابس الرجال وقص شعرها على منوالهم، وانها هاجمت باريس في احد ايام الاعياد الدينية، واخيرا نجح كوشون في اقناع جان دارك بالتوقيع على وثيقة تمت صياغتها على لسانها، وتتضمن اعترافا بكل التهم التي وجهت اليها واقرارا واضحا بأنها تتبرأ من كل ما قالته وفعلته.

وتجدر الاشارة الى ان جان دارك لم توافق على مضمون الوثيقة الا بعد ان وعدها كوشون باطلاق سراحها، ولكن على الرغم من ذلك كله، فوجئت جان دارك بقرار المحكمة بايداعها بالسجن المؤبد، وعندئذ استجمعت شجاعتها وأعلنت في قاعة المحكمة رفضها كل ما وقعت عليه وهاجمت رجال المحكمة بقسوة واعلنت انها تتمسك باقوالها وافعالها السابقة ولن تتراجع عنها ابدا. وفي ضوء ما تقدم، اصدرت المحكمة قراراها باعدام جان حرقا بالنار.

يميل الكثير من الباحثين الى ان كوشون كان المخطط البارع لاعدام جان دارك، فقد كان سياسيا بارعا واداة بيد الحاكم الانجليزي في فرنسا، وأن الانجليز كانوا يذكّرونه اثناء المحاكمة ان مهمته هي اعدام جان حرقا. وعندما كان يُظهر كوشون اي تردد في قيادة فصول المحاكمة الى تلك النتيجة كانوا يذكّرونه بمهمته بعنف احيانا حتى لا ينسى.

وفي 30 ايار عام 1431 قاد الجنود الانجليز جان دارك الى السوق العامة وهي مكبلة بالسلاسل، وقد احتشدت جموع الناس على جانبي الطريق الذي سلكته تعلن غضبها وسخطها على اعدامها. وتم ربطها الى عمود على منصة في قلب المحرقة، ثم اضرمت النيران فيها. وهكذا أُعدمت جان دارك حرقا وكانت عندئذ في التاسعة عشرة من عمرها.

اعادة محاكمة جان دارك واعلان قداستها

وجه المؤرخون انتقادات لاذعة للملك شارل السابع لانه تقاعس عن انقاذ جان دارك، سواء اثناء أسرها او خلال محاكمتها، ولم يُعثر في المراجع المعنية بهذه المسألة على اسباب مقنعة لموقفه هذا، في الوقت الذي ازدادت فيه عواطف الفرنسيين وعقولهم تعلقا بها وبخاصة بعد اعدامها. قد كان بامكان الملك ان يفعل الكثير لانقاذها، فقد كان بامكانه — مثلا — ان يدفع للبورجنديين اموالا كافية ويحررها من الأسر قبل ان يبيعها هؤلاء للانجليز، كما كان بامكانه مبادلتها بعدد من الأسرى الانجليز الموجودين في سجونه، هذا فضلا عن انه كان بامكانه القيام بتظاهرة عسكرية ضد بعض المواقع التي كان يحتلها الانجليز لاجبارهم على اطلاق سراحها مقابل هدنة او اتفاقية ما، ولكن شارل لم يفعل شيئا من ذلك كله.

وعلى اي حال لم يمض عام على اعدام جان دارك حتى بدأ ميزان القوى، في الحرب الدائرة، يميل لصالح الفرنسيين. فقد عادت الوحدة الى زعماء فرنسا، ولا سيما بين الملك وامير بورجنديا الذي تخلى عن تحالفه مع الانجليز. وتمكن الفرنسيون من استرداد باريس عام 1436. وادرك الملك شارل السابع اخيرا انه من المعيب، بل من غير المشرف، ان يُعزى الفضل في تتويجه الى فتاة حكم عليها بالزندقة والسحر، ولهذا اتخذ خطوة مهمة لصالح جان دارك من حيث الشكل ولكنها كانت لصالحه من حيث المضمون، حيث طلب من البابا كاليستوس الثالث اعادة محاكمة جان دارك. وبالفعل وافق البابا وبدأت المحكمة اعمالها عام 1455 برئاسة مندوب بابوي، وبعد ان استجوبت المحكمة نحو مائة وخمسة عشر شاهدا، كان معظمهم متورطا في المحاكمة السابقة التي ادينت بها جان دارك عام 1431.

اصدرت المحكمة الجديدة قرارها عام 1456 بان المحاكمة السابقة غير قانونية وبالتالي فهي ملغاة شكلا ومضمونا، وان جان دارك بريئة من كل التهم التي سبق ان أُدينت بها.

في 16 ايار 1920 اعلنها البابا بندكتوس الخامس عشرا قديسة. وفي 2 اذار 1922 اعلنها البابا بيوس الحادي عشر "شفيعة فرنسا بعد العذراء مريم".

امتزجت قصة جان دارك بوجدان الغرب وعقله منذ اعدامها، ودخلت تاريخه قديسة، وبطلة قومية، ورمزا للتضحية من اجل الحرية.

3

بيوس الثاني 1458–1464

Pie II

انتخاب بيوس الثاني

اجتمع الكرادلة بعد موت البابا كلكستس الثالث وكان عدهم ثماني عشر كردينالا، وارادوا تجنب اختيار بابا غريبا، فوقع اختيارهم بعد تردد على الايطالي انياس سلفيو بكولوميني Aenas Sylvus Piccolomini 19في اب 1458 واتخذ لنفسه اسم بيوس الثاني.

ولد انياس سلفيو بكولوميني عام 1405 في بلدة كورسنيانو القريبة من سيينا Sienne، من عائلة شريفة الاصل، الا ان والده كان فقيرا، مما اجبره على العمل منذ طفولته ليكسب عيشه. ولم يمنعه عمله في الزراعة على متابعة دروس في الخطابة في سيينا. وكان ذكيا مولعا بالقراءة، وبدأ بكتابة اشعار باللاتينية والايطالية وكثيرا منها كانت اشعارا خلاعية. ثم بدأ بدراسة القانون في جامعة سيينا، لكن القانون لم يرق له، لانه كان يميل الى الادب، غير ان القانون اكسب عقله حدة وانتظاما في التفكير، واعده لواجبات الادراة والسياسة.

عينه الكردينال دومينيك كبرانيكا امينا له في عام 1432، ورافقه الى مجلس بازل. وهناك اجتمع مع مجموعة من اعداء البابا يوجنيوس الرابع، والمعادية للبابوية، وظل كثيرا من السنين يدافع عن حركة المجالس ضد سلطان البابوية. ثم عمل وقتا ما امينا لفليكس الخامس البابا المعارض. ولكنه ادرك فيما بعد انه راهن على الحصان الخاسر، وظل ينتقل من جانب الى جانب، الى ان ارتد وانضم الى معسكر البابا يوجنيوس الرابع واعترف باخطائه في كتاب رقيق جذاب. وفي عام 1446 رسم كاهنا في فيينا، ثم عين اسقفا على تريستة Trieste عام 1448، وفي عام 1450 اسقفا على سيينا، ورقاه البابا كلكستس الثالث الى الكردينالية.

ولما حان الوقت الذي يجب ان يُختار فيه خليفة لكلكستس، اراد الايطاليون في المجمع المقدس ان يتفادوا اختيار الكردينال دستوتيفيل d'Estouteville، فاعطوا اصواتهم لبكولوميني لان الكرادلة الايطاليين صمموا ان يحتفظوا بالمجمع المقدس ايطاليا صميما، وكان تصميمهم هذا مبنيا على اسباب شخصية وعلى خوفهم من ان بابا غير ايطالي قد يعيد الانشقاق الى العالم المسيحي بانحيازه الى بلاده او بنقل كرسي البابوية من ايطاليا. واحست الغالبية ان الكردينال بكولوميني، وان لم يرتد القبعة الحمراء الا من عهد قريب، كان واسع التجربة، كما كان دبلوماسيا ناجحا واسع الاطلاع على شؤون المانيا المتعبة وعالِما يرفع بعلمه مكانة البابوية.

وكان وقتئذ في الثالثة والخمسين من العمر، وكانت حياته الكثيرة المغامرات قد اثرت في صحته وبدا كأنه شيخ طاعن في السن[4]. وكان وهو بابا يعيش عيشة بسيطة يراعي فيها جانب الاقتصاد. وكانت نفقات بيته في الفاتيكان اقل ما سجله التاريخ من نفقات هذا البيت. وكان اذا امكنته واجبات منصبه يأوي الى ضاحية في الريف، يعيش فيها كما يعيش القروي الشريف المتواضع لا كما يعيش البابوات. وكان احيانا يحضر مجامع الكرادلة او يستقبل السفراء، في ظلال الاشجار او بين غياض اشجار الزيتون، او الى جوار عين باردة او ماء جار. وكان يسمى نفسه سلفاروم اماتور Silvarum Amator أي محب الغابات.

---

[4] يقال انه بينما كان مسافر من هولندة الى سكتلندة (1435)، اضطرب البحر اضطرابا بعث في نفوس المسافرين اشد الهول والانزعاج، فاقسم اذا نجا ن يسير حافي القدمين الى اقرب ضريح للعذراء. وحدث ان كان هذا الضريح في هويت كيرك Whitekirk على بعد عشرة اميال من المكان الذي نزل فيه. وبر بيمينه، ومشى المسافة كلها وهو حافي القدمين فوق الثلج والجليد، واصيب بداء الرئة وظل يعاني منه اشد الآلام ما بقى من حياته، ولم يحل عام 1458 حتى كان مصابا بحصاة في الكلوتين، وبسعال مزمن، وغارت عيناه، وامتقع لون وجهه.

كان تقيا، امينا في اداء واجباته، خيّرا، متسامحا، معتدلا حليما، كسب قلوب جميع الناس حتى الساخرين من اهل روما. ولما كبر تخلى عن شهوانية شبابه، واصبح من الناحية الاخلاقية بابا نموذجيا.

الاصلاح

قَبْلْ عملية الانتخاب، تعاهد الكرادلة، بمعاهدة علنية تدعى "ميثاق" (Pacte ou capitulation)، العمل على اصلاح الادارة البابوية (la Curie). ولم يكن بيوس الثاني مِنِ مَن ينسون تعهدهم. فمنذ بداية بابويته، عزم على مداواة النقائص والمفاسد الموجودة ليس فقط في روما وانما في الكنيسة جمعاء. وعين بيوس في بداية ولايته لجنة من كبار الاحبار لوضع منهاج للاصلاح. وقَبِل في ذلك مشروعا عرضه عليه الكردينال نقولاس الكوسائي Nicolas de Cusa، فاوفد الى مناطق عدة من العالم المسيحي مبعوثين مهمتهم اجبار الاكليروس والعلمانيين على تغيير نمط حياتهم واصلاحها، ومحاربة جميع التجاوزات في بناء الكنائس، واديرة الراهبات المحابيس، وصحة الذخائر المطروحة لتكريم المؤمنين، وباعة صكوك الغفران، والغاء الربا والزنا، والسحرة .. الخ. واعلنه في مرسوم بابوي، ولكنه لم يجد احدا في روما يريد الاصلاح، لان نصف من فيها من الكبار كانوا يجنون نفعا كبيرا من المفاسد التي طال عليها العهد. وتغلب الجمود والمقاومة السلبية على جهود بيوس، وكانت الصعاب التي واجهها في الوقت عينه في المانيا، وبوهيميا، وفرنسا قد استنفدت قواه. كما ان الحرب الصليبية التي كان يدبر امرها قد استنفدت جميع عواطفه الدينية، وتطلبت منه المال الكثير. ولهذا قنع ان يلوم الكرادلة على حياتهم الشهوانية. وان يقوم من حين الى حين ببعض الاصلاحات المتقطعة في نظم الاديرة. واصدر في عام 1463 آخر نداء الى الكرادلة قال فيه:

> "يقول الناس انا نسعى وراء اللذة، وجمع الثراء، وانا متغطرسون، نمتطي البغال السمينة، والمهر الجميلة، وجر اذيال اثوابنا من خلفنا، ونطل بوجوهنا المستديرة المكتنزة من تحت القبعة الحمراء، والقلنسوة البيضاء، ونربي الكلاب للصيد، وننفق الكثير من المال على الممثلات والطفيليين والطفيليات، ونضن بالقليل على شؤون الدين. وان لهم لبعض الحق فيما يقولون: ذلك ان من بين الكرادلة وغيرهم من الموظفين في بلاطنا من يحيون هذا النوع من الحياة. واذا شئتم الحقيقة قلت لكم ان الترف والابهة الكاذبة زادا في بلاطنا عن الحد، وهذا هو الذي يجعل الناس يمقتوننا مقتا يمنعهم من ان يستمعوا لنا، حتى حين ننطق بما هو حق ومعقول. وماذا تظنون انا فاعلوه في هذه الحال التي تجلب لنا العار؟... يجب علينا ان نبث من الوسائل التي كسب بها اسلافنا ما كان لهم من سلطان واحترام في داخل الكنيسة... ثم علينا بعد ذلك ان نحتفظ بسلطاننا بهذه الوسائل ذاتها. ان الذي سما بالكنيسة الرومانية وجعلها سيدة العالم كله هو الاعتدال، والعفة والطهارة والغيرة على الدين... واحتقار الدنيا، والرغبة في الاستشهاد".

الدعوة الى محاربة الاتراك

عندما ارتقى بيوس الثاني سدة البابوية، كان الاتراك الذين دمروا الامبراطورية البيزنطية منذ خمس سنين، يستعدون للهجوم على اوروبا من جديد. وعبر بيوس الثاني يوم تتويجه عن ارتياعه من تقدم المسلمين بازاء نهر الدانوب في طريقهم الى فينا، واختراقهم بلاد البلقان الى البوسنة، وكانت بلاد اليونان ومقدونية والصرب والبوسنة تتساقط كلها في ايدي المسلمين. وكان البابا يتساءل متى يعبرون البحر الادراتيكي وينقضون على ايطاليا؟ ولم يمض على تتويج بيوس شهر واحد حتى ارسل الى جميع الامراء المسيحيين براءته البابوية " يدعونا بيوس Vocavit nos Pius" يدعوهم للانضمام اليه في مؤتمر كبير يعقد في مانتوا Mantoue، في الاول من حزيران 1459، ليضعوا الخطط التي تكفل حماية العالم المسيحي الشرقي من تيار العثمانيين الجارف.

مؤتمر مانتوا

ووصل هو الى مانتوا في السابع والعشرين من ايار عام 1459، يرتدي افخم الاثواب الخاصة بمنصبه الرفيع، واخترق المدينة في محمل يحف به اعيان المدينة وموظفو الكنيسة. والقى على الجموع المحتشدة لاستقباله خطبة من اقوى الخطب التي القاها في حياته واعظمها تأثيرا. ولكن احدا من ملوك الاقاليم الواقعة وراء الالب وامراءها لم يلب الدعوة،

بل لم يرسل واحدا منهم ممثلين لهم الحق في ان يزجوا بدولتهم في الحرب. وحث الكرادلة البابا على الرجوع الى روما، ولم يكونوا فضلا عن هذا راغبين ان ينزلوا عن عشر ايرادهم لتمويل الحرب الصليبية المرتقبة. فمنهم من انغمسوا في ملاذهم، ومنهم من جابهوا بيوس متسائلين هل يريد منهم ان يموتوا بالحمى في صيف مانتوا الشديد الحرارة؟ وانتظر البابا قدوم الامبراطور زمنا طويلا. ولكن فردريك الثالث آثر ان يعلن الحرب على المجر محاولا بذلك ان يضم الى ملكه الامة التي كانت انشط الامم استعدادا لمقاومة الاتراك، واشترطت فرنسا لمعاونتها ان يؤيدها البابا في حملة لها على نابولي، وتلكأت البندقية خشية ان تكون املاكها الباقية لها في بحر ايجة اولى ضحايا الحرب التي تنشب بين اوروبا المسيحية والاتراك. وجاءت اخيرا بعثة في شهر اب من فيليب الطيب دوق برغندية. وفي ايلول اقبل فرانشيسكو اسفوردسا وتبعه غيره من امراء ايطاليا. وعقد المؤتمر اولى جلساته في السادس والعشرين من هذا الشهر بعد اربعة اشهر من قدوم البابا. ومرت اربعة اشهر اخرى في الجدل والنقاش، واستطاع فيليب آخر الامر ان يضم برغندية وايطاليا الى جانبه في خطته المرتقبة للقيام بحرب مقدسة، وذلك بعد ان اتفق المؤتمرون على تقسيم الاملاك التركية وقتئذ والاملاك البيزنطية السابقة بين الدول المنتصرة. قد طلب الى جميع المسيحيين من غير رجال الدين ان يتبرعوا بجزء من ثلاثين من دخلهم، والى جميع اليهود بجزء من عشرين منه، ومن جميع رجال الدين بجزء من عشرة من هذا ايراد. وتم الاتفاق على تنظيم حملة صليبية. عاد البابا الى روما وهو يكاد يكون خائر القوى على أثر ما بذله من جهود، ولكنه أمر بانشاء اسطول بابوي، واعد العدة رغم ما كان ينتابه من امراض الرئة، والسعال، والحصى لان يقود الحملة الصليبية بنفسه.

ولكنه كان يكره الحرب بفطرته، ويحلم ان ينال النصر عن طريق السلم. ولعل ما كان يشاع من ان محمدا الثاني الذي كانت امه مسيحية يميل في السر الى دينها قد بعث الشجاعة في قلب بيوس، فوجه الى السلطان (1461) دعوة حارة لقبول انجيل المسيح كانت ابلغ ما كتب حتى ذلك الوقت:

> "اذا اعتنقت المسيحية، لم يبق امير على وجه الارض يفوقك في المجد او يضارعك في السلطان. ولئن فعلت لنعترفن بك امبراطورا على اليونان وعلى بلاد الشرق، وتصبح البلاد، التي استوليت عليها بالقوة، والتي تحتفظ بها ظلما وعدوانا، ملكا لك مشروعا... وما اعظم السلم التي يؤدي اليها هذا العمل واكملها. اذن لعاد الى الوجود عصر اغوسطس الذهبي الذي يتغنى به الشعراء. فاذا انضممت الينا فلن يلبث الشرق كله ان يعتنق الدين المسيحي. ان ارادة واحدة تستطيع ان تبسط لواء السلم على العالم كله، وهذه هي ارادتك".

ولم يرد محمد الثاني على هذه الرسالة، ذلك انه، مهما تكن آراؤه الدينية، كان يعلم ان الذي يحميه آخر الأمر من قوى اوروبا الغربية ليست وعود البابا، بل الحماسة الدينية التي تضطرم في قلوب شعبه. وانقلب بيوس رجلا اكثر واقعية مما كان قبل، فاخذ يجمع العشور من رجال الدين. وهيأت له الاقدر في عام 1462 حظا غير مرتقب، وذلك حين عثر في ارض من الاملاك البابوية في طلفا Tolfa في غربي لاتيوم على رواسب من حجر الشب. واستخدم عدة آلاف من الرجال ليعملوا في استخراج هذه المادة العظيمة القيمة للصباغين. وسرعان ما كانت مناجمها تدر على كرسي البابوية الاموال الطائلة. واعلن بيوس ان هذا الكشف من المعجزات، وانه معونة من عند الله للحرب التي سيشنها على الاتراك، واضحت الولايات البابوية في ذلك الوقت اغنى دولة في اوروبا.

وايقنت البندقية ان البابا جاد في غرضه مصمم على بلوغه، فاسرعت في استعدادها. ولكن الدول الاخرى تلكأت، او امرت بتقديم معونة رمزية، وفترت همة فرانشيسكو اسفوردسيا في مد يد المساعدة لهذا المشروع بحجة انه سيؤدي الى تقوية البندقية اذ يعيد اليها ما فقدته من املاكها ومن تجارتها، وضنت جنوى باثمان السفن ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف وهي المعونة التي وعدت بتقديمها. وحث دوق برغندية البابا على ان يؤجل العمل الى يوم يكون فيه اسعد حظا.

استولت القوات التركية في عام 1463 على البوسنة، ومن ثم على رومانيا. وصمم البابا الذي خيبت اماله مواقف الامراء، ان يقود بنفسه الحملة ضد الاتراك، ظناً ان مثال البابا الطاعن بالسن والمريض والذاهب لمحاربة الاتراك، سيخجل لامراء ويقوي من عزائمهم ويشحذ هممهم. وفي 22 تشرين لاول 1463، اعلن في براءة بابوية، بعد ان وصف المخاطر التي تهدد المسيحية، عن نيته الذهاب الى انكونا، لينتظر فيها انضمام الاسطولين البابوي والبندقي، ثم

يعبر بهما الى راجوسا Ragusa، وينضم الى قوات اسكندر بك Scandberg في البوسنة، وماتياس كرفينوس Mathias Corvinus الهنغاري، ثم يتولى بنفسه قيادة الحملة الزاحفة على الاتراك. واحتج الكرادلة تقريبا على هذه الخطة، ذلك انهم لم يكونوا يرغبون في اختراق بلاد البلقان، وحذروا البابا من احوال البوسنة التي كانت تعج بالهراطقة ويتفشى فيها الطاعون. غير ان البابا المريض حمل الصليب، وودع روما التي لم يكن يتوقع ان يراها مرة اخرى، واقلع باسطوله الى انكونا في 18 حزيران 1464.

وفي هذه الاثناء كانت الجيوش التي يظن انها ستقابله قد ذابت كأنما كان بسحر ساحر. فالجيوش التي وعدت بها ميلان في اول الامر لم تأت، والعدد القليل التي بعثت بها فلورنسا كان مجهزة تجهيزا بلغ من الضعف حدا جعلها عديمة النفع. ولما وصل بيوس الى انكونا في 19 تموز وجد ان معظم الصليبين الذين تجمعوا فيها قد غادروها لانهم سئموا الانتظار، وقاسوا المتاعب في سبيل الحصول على الطعام. وتفشى الطاعون في اسطول البندقية بعد ان غار في مياهها الضحلة، واخر وصوله اثنى عشر يوما.

موت بيوس الثاني

وبقى بيوس بعض الوقت في انكونا يقلقه اختفاء الجند، وعدم ظهور اسطول البنادقة، واشتدت عليه العلة حتى كادت تقتله. ثم تراءى له الاسطول آخر الامر، وبعث البابا بسفنه لتستقبله في عرض البحر، وامر فحمل هو نفسه الى نافذة يستطيع ان يرى منها المرفأ. ولما اقترب الاسطولان المتحدان بحيث يمكن ان ترهما العين توفى البابا في 15 اب 1464. واستعادت البندقية اسطولها وتفرق من كان باقيا من الجند. واخفقت الحملة الصليبية.

الحكم على بيوس الثاني

ما عدا الفرحة التي هزته يوم احتفل باعلان قداسة كاترينا دي سيينا، بنت بلده، لم يكن حكمه الذي دام ست سنوات سوى مجموعة من خيبات الامل. الا ان هذا لا يمنع من ان يعد البابا بيوس الثاني واحدا من افضل بابوات العصور الوسطى.

4

بولس الثاني 1464–1471

Paul II

انتخب الكرادلة، وكان عددهم عشرين كردينالا، في الثلاثين من آب 1464، الكردينال بيترو باربو Pietro Barbo، كردينال سان ماركو وابن اخت البابا يوجنيوس الرابع، بابا. وكان قد ولد في عائلة شريفة من فنسيا Venise في الثالث والعشرين من كانون ثاني 1417، وكان يبلغ الثامنة والاربعين من عمره عندما انتخب بابا. وكان وسيم الوجه، يفتخر بجمال منظره، واقترح ان يسمى Formosus، أي الوسيم الخلق، الا انه رضي ان يلقب ببولس الثاني. وكان بسيطا في حياته، الا انه كان يعرف ما للفخامة من تأثير يخدر نفوس من حوله، فاحتفظ لنفسه ببلاط فخم، وكان سخيا، جوادا في استضافة اصدقائه وزائريه.

عندما دخل المجمع المقدس الذي اختاره بابا، تعهد كما تعهد باقي الكرادلة، انه اذ اختير سيشن الحرب على الاتراك كما تعهد غيره من البابوات، وان يواصل الاصلاح في الكنيسة، وان يعقد مجلسا عاما، وان يحدد عدد الكرادلة باربعة وعشرين، والا يتجاوز عدد اقارب البابا اكثر من كردينالا واحدا، والا يرفع احد الى مرتبة الكردنالية من لم يبلغ سن الثلاثين، وان يستشير الكرادلة في جميع الشؤون المهمة كتعيين الكرادلة، ونقل مقر البابوية خارج روما، واعلان الحرب وتوقيع المعاهدات. وكان هدفهم من ذلك هو اعطاء الكرادلة دورا اكبر في ادارة شؤون الكنيسة، اكثر من همهم في اصلاح الكنيسة.

فلما تم انتخابه، نبذ كل ما اخذه على نفسه من تعهدات بعد ان استشار ذوي الاختصاص القانوني، بحجة انها تناقض التقاليد المرعية التي رفع الزمان شأنها. واسترضى الكرادلة بان رفع من ايرادهم السنوي، وسمح لهم بارتداء القبعة الحمراء والتاج الكبير الموشح بالصوف والجواهر والذي كان فقط من امتياز البابا.

الحرب على الاتراك

اراد البابا بولس الثاني ان يكمل ما بدأه سلفه من الدعوة الى الحرب الصليبية. وجابهته مشكلة الخزانة البابوية الفارغة، فعمل على تأليف لجنة، لتهتم فقط بجمع الاموال من اجل الحرب الصليبية، وحدد المبلغ الذي على كل دولة ان دفعه. وفي تموز 1466 وجه نداء الى الامراء المسيحيين لمساندة اسكندر بك Scanderbeg الذي كان يقاوم بشجاعة الاتراك وكان قد كبدهم عدة خسائر. لكن للاسف لم يكن لنداء البابا أي تجاوب من قبل الامراء، وكان البابا هو الوحيد الذي ساهم بقسط كبير من الاموال التي ارسلها لهنغاريا ولدوق البانيا، البلاد التي كانت توجه خطر الهجوم التركي.

بعد موت اسكندر بك 1468، اغار محمد الثاني على اليونان بجيش قوامه مئة الف جندي، بينما كان اسطول محمود باشا، يجول البحر مهددا، واصبح يهدد ايطاليا. امام هذا الخطر الداهم، جدد البابا ندائه الى الامراء المسيحيين لتكوين حلف دفاعي. الا ان زعماء ايطاليا المنهمكين بنزاعاتهم، لم يكونوا على استعداد للوحدة ولسماع نداء البابا. وعندما عادوا الى الواقع، وتحققوا من عِظَم الخطر، كان ذلك متأخرا، اذ ان قلعة Négrepont، التي كانت تعتبر احدى القلاع المنيعة، كانت قد وقعت بايدي الاتراك في 12 تموز 1470. واسرع الامراء الى روما والفوا حلفا في 22 كانون اول 1470، ولكن قبل ان يتم ضم كل الامراء المسيحيين الى هذا الحلف، توفى البابا بولس الثاني فجأة على اثر نوبة صرع (Apoplexie) في 26 تموز 1471.

بولس الثاني والانسانيون Humanistes

كانت حركة النهضة في اوجها عند ارتقاء بولس الثاني عرش البابوية. وكان الكتّاب الانسانيون في اوج نشاطهم. كان بعض هؤلاء امناء للبابا او الكرادلة، وكانت كثرتهم الغالبة تشغل مناصب اقل مكانة، فكانوا كتّاب "مختصرات Abréviations"، او حفظة سجلات الحكومة البابوية. الا ان بجانب وجود البعض منهم الذين حافظوا على مبادئهم المسيحية، اظهر البعض الآخر ميلا اكثر الى الافكار والاخلاق الوثنية. ففصل بولس الثاني هذه الجماعة كلها ووزع

عملها على ادارات اخرى، فاصبح نحو سبعين منهم بلا عمل او عينوا في مناصب اقل من مناصبهم السابقة شأنا واجرا.

وكان المتكلم باسمهم، افصح اولئك الانسانيين لسانا، بارتوليوه ده ساكي Bartolomeo di Sacchi da Piadena، المعروف باسمه اللاتيني بلاتينا Platina، فطلب من البابا اعادة المفصولين الى مناصبهم، فلما رفض البابا، نشر منشورا ضد البابا، ووجه اليه خطاب تهديد بدعوة مجمع كنسي، ليقاضي البابا. فامر بولس الثاني بالقبض عليه، والقاه اربعة اشهر في سجن سانت انجلو، مقيدا بسلاسل، ثم اطلق سراحه استجابة لشفاعة الكردينال غونزاغا Conzague.

وكان على البابا ان يحارب تمردا اخر، جاء من بعض الانسانيين ذوى النزعة الوثنية، وكانوا قد الفوا نوعا من المجمع العلمي (academia)، تزعمه جوليو بموبونيس ليتي Julius Pomponius Laety، وكان هذا مولعا بالادب الوثني، يعيش في روما كما لو كان في ايام قيصر، وكان يسير الى قاعة الدرس في ثياب روماني، وكانت القاعات لا تتسع للجموع لكثرة الزحام لسماع دروسه، وكان بعض الطلاب يفدون في منتصف الليل كي يجدوا مكانا. وكان يحتقر الدين المسيحي، واستبدله بعبادة عبقرية روما، واطلق على نفسه لقب "الكاهن الاعظم". وكان هدف هذه الجماعة المعلن هو نشر الثقافة والعلوم القديمة، الا انها كانت في الواقع ملتقى لكل معارضي البابوية، والهراطقة والمتمردين الذين يطمحون لتغيير الحكم في روما. وتقدم احد المواطنين الى الشرطة في اوائل عام 1468، واتهم المجمع العلمي بأنه يأتمر بالبابا ليخلعه ويعتقله، وأيد التهمة بعض الكرادلة. فامر بولس باعتقال ليتي وبلاتينا وغيرهما من زعماء المجمع. فكتب ليتي معتذرا متذللا ومعلنا اعترافه بالدين القويم، فاطلق البابا سراحه بعد العقاب اللائق، وواصل محاضراته وحرص على ان يجعلها مطابقة للدين، حتى ان اربعين من الاساقفة شيعوا جنازته عام 1498. اما بلاتينا فقط ظل في السجن عاما كاملا، رغم كتابته ما يزيد عن عشر رسائل اعتذار. واعلن البابا حل المجمع وحرم تدريس الاداب الوثنية في مدارس روما.

واجاز البابا الذي خلف بولس الثاني اعادة فتح المجمع العلمي بعد ان عدل واصلح، وعهد الى بلاتينا بعد ان تاب اعادة الانسانيين الاشراف على مكتبة الفاتيكان، وفيها وجد بلاتينا المادة التي كتب منها سيرة البابوات. ولما وصل الى بولس الثاني، انتقم منه، بان وصفه بابشع الصفات: وحش، متهور، شره، محب للابهة.

الاصلاح الكنسي

وقف بولس الثاني، على مثال اسلافه، موقفا حازما للدفاع عن حقوق الكنيسة امام تدخلات الملوك والامراء والحكام. مما دفعه الى الصدام مع جمهورية فنسيا Venise ومع ملك فرنسا لويس الحادي عشر، لتدخلهم في الشؤون الكنسية وتعيين الاساقفة واقالتهم.

وحاول منذ بداية حبريته، اصلاح ما دبّ في الكنيسة من مفاسد. الا انه امام ما واجهه من صعوبات ومعارضة قوية، وخصوصا من الكرادلة، استكفى بان يخفف من هذه الاختلالات، محاربا محاباة الاقارب Népotisme، وحرّم على الكرادلة والاساقفة والمبعوثين والحكام والقضاة قبول الهدايا، معطيا بذلك المثل بنفسه، فعندما حضر السفراء، بعد انتخابه، لتقديم التهاني والهدايا باسم بلادهم، قبل التهاني ورفض الهدايا قائلا انه: "يكفيه ان يتأكد من صدق طاعتهم للكرسي الرسولي".

بسيط في حياته الخاصة، ولكن عالم ما للكرسي الرسولي من كرامة، تفوق كل كرامة ارضية، فقد احاط احتفالاته الليتورجية بابهة وفخامة منقطعة النظير. ولم يمنح الرتب الكنسية الا لرجال نزهين مستحقين. وعمل على اصلاح الاديرة، وقرر ان اليوبيل المقدس سيحتفل به مرة كل خمسة وعشرين سنة.

موت بولس الثاني والحكم عليه

مات بولس الثاني فجأة بعد ضربة صرع Apoplexie في السادس والعشرين من تموز عام 1471. وبالرغم من حبه للابهة والفخامة، الا انه كان حبرا تقيا، مسالما، عادلا، ورجل خير. ستنحدر من بعده البابوية الى الاسوأ.

5

سكستس الرابع 1471-1484

Sixte IV

لم يكن اختيار الكرادلة سيئا عندما اختاروا في التاسع من آب عام 1471 الكردينال فرانشسكو دلا روفيرا Francesco della Rovera، الذي اختار لنفسه اسم سكستس الرابع.

كان الكردينال فرانشسيكو ينتمي الى اسرة عريقة، افتقرت واشتغلت بالفلاحة. ولد في قرية بيكوريلي Picorile القريبة من سافونا Savona. وانتابته منذ صغره الامراض، فنذرته امه للقديس فرنسيس. وعندما بلغ التاسعة من عمره أُرسل الى دير من اديرة الرهبان الفرنسيسكان ثم عمل مربيا خاصة في اسرة الروفيرا التي اتخذ اسمها اسما له. درس الفلسفة واللاهوت في باريس وبولونيا وبادوفا، وعمل في تدريس هاتين المادتين. أنتُخب وهو في الخمسين من عمره عام 1464، رئيسا عاما لجمعية الفرنسيسكان، عين بعدها بثلاث سنوات كردينالا. وانتُخب بابا وهو في السابعة والخمسين من عمره.

كان متوسط القامة، قوي البنية، ذا رأس كبير يدل على حب التسلط، الا انه كان راهبا بسيطا، فاضلا، وذا اخلاق حميدة، وحافظ مدى حبريته على سيرة فاضلة لم يتعرض لها احد.

حب الاقارب

كانت الفوضى والاضطراب تحيط بسكستس من كل جانب، وكان قليل الثقة بالغرباء، شديد التأثر بصلات القربى، ولهذا حبا ابناء اخوته واخواته واقربائه الكثيرين بمناصب كبيرة تدر عليهم المال والجاه. رفع اثنين منهم الى رتبة الكردينالية : جوليان دلا روفيرا Julian de Rovera البالغ من العمر الثامنة والعشرين، والذي سيصبح البابا يوليوس الثاني، وبيترو ريباريو Pietro Riario، البالغ من العمر الخامسة والعشرين، وكان احب الناس اليه. كان ريباريو وسيم الطلعة، مرحا، فكها، مجاملا، كريما، ولكنه كان مولعا بالترف والشهوات الجسدية، ولم تستطع نذوره الرهبانية ان تقف حدا لاستهتاره، ولم تستطع ما درت عليه مناصبه من اموال ان توفي مطالب هذا الراهب الذي كان من قبل مُعدَما. وكان يأمل ان يصبح بابا بعد موت عمه، ولكنه توفى في احدى رحلاته الكثيرة عام 1474، وكان في الثامنة والعشرين من عمره. وعين اخاه جيرولاومو قائدا لجيوش البابا خلفا له.

الحرب الصليبية

لم يترك سكستس الرابع فكرة الصليبية، واصدر كاسلافه البراءات البابوية وارسل المبعوثين الى جميع امراء وملوك المسيحية يدعوهم الى حمل السلاح ومحاربة الاتراك. الا انه كاسلافه ايضا، لم يلق النجاح، بل ردودا مبهمة او فشلا ذريعا.

صراعاته في ايطاليا

عندما وجد البابا ان اوروبا منقسمة على نفسها وان حكوماتها فاسدة، وان هذا الانقسام والفساد يحولان بينه وبين الاقدام على حرب صليبية ضد الاتراك، استقر رأيه ان يكرس جهوده الدنيوية لاصلاح احوال ايطاليا، وقد وجدها هي ايضا لا تخلو من الانقسام. فقد كان الحكام المحليون يتحدون سلطة البابا في الولايات البابوية متجاهلين سلطة البابا، وفي روما وصلت الغوغاء الى درجة ان رجموا محمله في موكب التتويج بالحجارة، فعزم على اعادة النظام الى روما، وتقوية سلطة القاصد الرسولي في الولايات البابوية. وكثيرا ما كانت هذه الولايات البابوية سبب نزاع مع الولايات الاخرى. لذلك حاول اولا ان يحافظ على علاقات جيدة مع جميع الولايات، الا ان هذا البرنامج لم يتم بسبب

الانقسامات بين هذه الولايات وبسبب سياسية البابا الخارجية، التي لم تكن دائما ناجحة، بسبب تدخلات ومؤمرات اولاد اخوانه واخواته، مما ادى الى نشوب عدة صراعات وحروب بين البابا وبين الكثير من هذه الولايات. لا مجال هنا للتوسع في ذلك، الا انها منعته من التفرغ لمواصلة جهوده في صد الاتراك عن اوروبا، وعن اصلاح المساؤى في الكنيسة.

مؤامرة باتسي Pazzi

كانت مؤامرة باتسي احدى الصفحات السوداء في حياة هذا البابا، وكانت موجهة ضد عائلة ميدتشي Medicis امراء فلورنسا. كان سكستس قد اتخذ عائلة باتسي كمصرفيين للبابوية بدلا من عائلة مديتشي، فما كان من لورنسو دي مديتشي الا ان عمل على خراب آل باتسي المالي، ورد هؤلاء بان حاولوا قتله، وهجموا اثناء القداس في كاتدرائية المدينة على عائلة مديتشي، وقتلوا شقيق لورنسو، بينما نجا لورنسو، وفشلت المؤامرة. وانتقم لورنسو بان اعدم رئيس الاساقفة سلفياتي وجميع المتأمرين. وكان الاسواء عندما عُلِم ان البابا سكستس وافق على المؤامرة، ولكنه استنكر القتل، وقال للمتأمرين "افعلوا ما شئتم شريطة ان تتجنبوا القتل"، واسفرت هذه النتيجة عن حرب دامت ثلاث سنوات، انتهت عندما هدد الاتراك باجتياح ايطاليا.

الحرب ضد الاتراك

اثناء هذه الهدنة بين البابا وبين فلورنسا، عمل البابا على تحضير حملة صليبية ضد الاتراك. فوجه نداء عاجلا الى جميع البلاد الاوروبية للمساهمة في هذه الحملة. ولم تثنه ردود الفعل الباردة من البلاد الاوروبية، فبدأ هو نفسه بالتحضير لهذه الحملة بالاموال والرجال.

وفي الثاني من حزيران عام 1481، انتشر خبر موت محمد الثاني، الذي كان ذكر اسمه يخيف الجميع، فتنفس الناس الصعداء، وقرعت الاجراس، واطلقت المدافع طلقات الفرح، وقام رجال الدين بتنظيم ثلاثيات شكر (Triduum) لابتعاد الخطر الداهم عن اوروبا. فارسل البابا الى جميع الامراء المسيحيين يحثهم على اغتنام هذه الفرصة السانحة لدحر الاتراك عن اوروبا كلها، وبدأ بتجهيز اسطول من اربعة وثلاثين سفينة، وضعها تحت امرة الكردينال سفيلي Savelli. وفي الرابع من تموز 1481، ابحر الاسطول البابوي وبعد ان التقى باسطول فرديناند ملك نابولي، اتجه نحو اوترونت Otrante، لانقاذها من الاتراك. وبعد حصار قاسي ومقاومة عنيفة، استسلمت الحامية التركية في العاشر من ايلول عام 1481. اراد سكستس ان يستفيد من هذا النجاح وان يواصل الابحار حتى تحرير فالونا Vallona وتدمير الاسطول التركي هناك، الا ان انتشار مرض الطاعون في الاسطول، وعدم انصياع البحارة للاوامر، وعدم التفاهم بين قادة الحملة، ادى الى العدول عن هذه الفكرة والاكتفاء بما تم تحقيقه من نصر.

موت البابا

بعد ابعاد الخطر التركي، عادت التحالفات والمؤمرات بين الولايات الايطالية، واشتعلت الحروب الاهلية بينها. واصاب البابا الاحباط عندما شعر ان كل مساعيه لانهاء الحروب باءت بالفشل، وكان يعاني من مرض النقرس (داء المفاصل)، فمات حزنا في الثاني عشر من آب 1484.

الحكم على البابا سكستس

لا يمكن ان ننعت هذا البابا الراهب بما نعته به اعدائه من انه ما ان اعتلى عرش البابوية، حتى اصبح بابا فاسدا، بخيلا وطماعا، محبا للفخفخة والابهة. يقول باستور عنه: "ان البابا سكستس وان يكن قد ارتكب اخطاء كثيرة، الا انه لا شيء يثبت انه تغيير الى بابا سيء في حياته الاخلاقية والرهبانية، والا لما بقي امادى البرتغالي Amdée de Portugal (الذي سيصبح قديسا) معرفا له". بل استمر في العيش على النمط الرهباني، حياة تقشف وصلاح، وراعيا غيورا ومحافظا على الخدمة الالهية، متعبدا للعذراء مريم ، التي من اجلها اسس عيد الزيارة (1475)، موصيا

بتلاوة المسبحة الوردية، ومكرسا على اسمها مجموعة من الكنائس: Maria del Popolo, Santa Maria della Pace، ومعبد السكستين المكرس للعذراء الحبل بلا دنس.

كما لم يكتفي بالمساهمة في احياء الرهبنات المتسولة الموجودة، مانحا لهم الكثير من الامتيازات، مما ادى الى اتهامه أنه زاد عن الحد، بل شجع على تأسيس غيرها جديدة: Les Minimes و Les Augustins dechaussés.

شاد مكتبة جديدة للفاتيكان واغناها بالمخطوطات الكثيرة وفتحها للدارسين، وبنى فوقها المعبد السكستيني Chapelle Sixtine، نسبة الى اسمه. وامر بتخطيط شوارع روما الكبرى ووسعها ورصفها. واعاد بناء الجسور والاسوار والابواب والابراج، واقام على نهر التيبر جسر سيستو Ponte Sisto المسمى باسمه ايضا. وأنشأ جامعة روما، وفتح للجمهور متحف الكبتولين الذي بناه بولس الثاني قبله، فكان اول المتاحف العامة في اوروبا.

كما وشجع جميع انواع الفنون، من أدب وشعر، ورسم ونحت، وجلب الرسامين والنحاتين المشهورين، واغدق عليهم العطايا بسخاء، وشجع اعمالهم.

* * *

ان المؤرخ المحايد لا بد ان يعترف انه بالرغم من ما اشتهر به عصر البابا سكستس الرابع من مساؤى: محبة الاقارب، ضعف الانضباط في الاكليروس، فساد الادارة البابوية La Curie، والفساد المستشري في رجال الدين، يبقى البابا سكستس الرابع اميرا من امراء الكنيسة، واحد البابوات الذين زينوا الكرسي البابوي، وساهموا في جعل روما عاصمة العالم المسيحي في كل المجالات، الثقافية والادبية والفنية.

6

انوسنت الثامن 1484–1492

Innocent VIII

تعرضت روما بعد موت سكستس الرابع لموجة من الفوضى والاضطرابات، قادها ابن اخ البابا الراحل، جيروم ريباريو Jerome Riario، ولم يُخلِ قصر سانت انج Sant'Angelo الا بعد ان دفُعت له مبالغ كبيرة.

عقد المجمع المقدس اجتماعا عاجلا في الفاتيكان، تبودلت فيه الوعود والرشاوي بين الكردينال بورجيا والكردينال جوليانو دلا روفيرا، وحاول الكرادلة بلا طائل الفرض على من سينتخب بابا الشروط المسمى ب Capitulations، بحيث يصبح الحكم في الكنيسة جماعيا اكثر منه ملكيا، وان يصبح للكرادلة دور اكبر في ادارة الكنيسة. كل هذا ادى في النهاية الى انتخاب جيوفني باتستا تشيبو Giovanni Battista Cibo وتسمى باسم انوسنت الثامن.

بالفعل لم يكن الاسم الذي اختاره ينطبق على ماضي هذا البابا. كان عند انتخابه في الثانية والخمسين من عمره، متوسط القامة، وسيم الطلعة. كان له، قبل ان يصبح كاهنا، على الاقل ابن وابنة، ولكنه كان له على اغلب الظن غيرهما من الابناء يعترف بهم بصراحة. ولما سيم كاهنا، عاش عيشة صحيحة. وكان المتندرون من اهل روما يكتبون النكات عن ابنائه، ولكن القليل من الرومان كان يأخذ عليه تصرفاته ايام شبابه، غير انهم اعترتهم الدهشة حين احتفل بزواج ابنائه واحفاده في الفاتيكان.

كان انوسنت الثامن مسالما، وديعا حتى الضعف، متوسط الذكاء والتجربة. يبدو انه بعد ان اصبح بابا، قنع ان يكون جدا، وان يستمتع بالحب الابوي والراحة المنزلية، فعهد بشؤون السياسة الخارجية الى الكردينال دلا روفيرا Della Rovera، ومن ثم على المصرفي الكبير الثري لورنسو مديتشي، الذي عرض ان يزوج ابنته مدالينا Maddalena من فرانشسكو تشيبو ابن البابا، ووافق انوسنت على هذا الزواج، وعقد حلفا مع فلورنسا (1487)، وترك بعد ذلك للورنسو يقود السياسة البابوية، واستمتعت ايطاليا بسلم دام خمس سنين.

وحدثت في عهده حادثة، اشبه ما تكون بالتمثليات المضحكة. وتفصيل ذلك ان بايزيد الثاني جيم Jim ابني محمد الثاني اوقدوا نار حرب داخلية بعد موت ابيهما (1481) في نزاعهما على عرش آل عثمان. ولما هُزم جيم اراد ان ينجو من القتل بالاستسلام الى فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس (1482). وابقاه رئيس الفرسان بيير دوبسون Pierre d'Aubusson عنده يهدد به بايزيد. وارتضى السلطان ان يؤدي الى الفرسان مبلغا كل عام لانفاقه على اخيه جيم في الظاهر ولكنها في الحقيقة كانت اغراء لهم على الا يشجعوا جيم على المطالبة بعرش السلطنة العثمانية، والا يتخذوه عونا نافعا لهم في شن حرب صليبية على الاتراك. واراد دوبسون ان يضمن سلامة هذا الاسير الذي يدر المال الكثير، فبعثه ليقيم تحت حراسة الفرسان في فرنسا. وعرض كل من سلطان مصر، وفرديناند وازبلا ملك اسبانيا وملكتها، وماتياس كرفينوس ملك المجر، وفيرانتي Ferrante ملك نابولي، وانوسنت نفسه، عرض كل واحد من هؤلاء مبالغ طائلة على اوبسون مقابل تسليمهم جيم. وفاز البابا بذلك لانه وعد رئيس الفرسان بقلنسوة حمراء (أي تعيينه كردينالا) فضلا عن الاموال. وبناء على هذا سار "التركي العظيم" كما كان يسمى جيم في ذلك الوقت، في الثالث عشر من شهر اذار عام 1489 في موكب فخم من الفرسان مخترقا شوارع روما حتى وصل الى قصر الفاتيكان حيث سجن سجنا يستمتع فيه بضروب الترف والمجاملة. واراد بايزيد ان يضمن حسن مقاصد البابا، فبعث اليه بمراتب ثلاث سنين نفقة لجيم، ثم بعث اليه في عام 1492 رأس حربة اكد له انه هو الذي نفذ في جنب المسيح. وشك بعض الكرادلة في هذا، ولكن البابا اعد العدة لينقل هذا الأثر من انكونا الى روما، ولما وصل الى "باب الشعب" Porta del Popolo، تلقاه هو بنفسه وحلمه في موكب فخم رهيب الى الفاتيكان.

وكان البابا قد وضع برنامجا عظيما لسياسته: فرض السلام بين الامراء، استتباب العدل، والعمل على مصلحة الدولة، بقي حبرا على ورق بسبب ضعف البابا والمنافسة والصراعات بين الامراء والاغتيالات السياسية والاضطرابات التي اجتاحت روما.

واذ كان البابا قد اظهر قليلا من الحماس والهمة في اصلاح الكنيسة، فمجمع الكرادلة كان اكثر منه مصدرا للقلق. فقد اضاف انوسنت الى هذا المجمع ثمانية كرادلة اخرين، اكثرهم غير مؤهلين لشغل هذا المنصب، مع انه وعد الا يزيد عدد اعضاء هذا المجمع على اربعة وعشرين. ومع ذلك خلع لقب كردينال على جيوفني دي مديتشي، ابن لورنسو، وكان ذلك جزءا من الاتفاق الذي تم بين البابا ولورنسو. وكان كثير من الكرادلة رجالا متعلمين، مناصرين للآداب والموسيقى والفن والتمثيل، الا انهم كانوا في مستوى اخلاقي منحط، يعيش بعضهم عيشة دنوية في الترف والزنا. وكان منهم من لم يتجاوزوا المراتب الصغرى في السلك الكهنوتي ولم يصبحوا بعد كهنة. وكان الكثير منهم رجال دنيا، تتطلب منهم واجباتهم السياسية والدبلوماسية والمالية ان يشتغلوا بالشؤون الدنيوية، وكانوا قادرين على ان ينافسوا امثالهم من موظفين الحكومات في الكفاية العلمية والدهاء السياسي. ومنهم من حذا حذو النبلاء الايطاليين، فحصنوا قصورهم واحتفظوا برجال مسلحين يحمونهم من غوغاء روما ومن غيرهم من الكرادلة. قال في ذلك المؤرخ الكاثوليكي باستور Pastor:

> "لقد كانت المنزلة المنحطة التي وضع فيها لورنسو ده مديتشي مجمع الكرادلة ايام انوسنت الثامن قائمة لسوء الحظ على اساس صحيح. فقد كان الكرادلة اسكانيو اسفوردسا Aascanio Sforza، وريباريو Riario، وارسيني Orsini، واساكالفيناتوس Scalfenatus، وجان ده لا بالو Jean de la Balue، وجوليانو دلا روفيرا، وسافلي Savelli، وردريجو بورجيا من ابرز الكرادلة الزمنيين، سرت اليهم عدوى الفساد الذي كان منتشرا في ايطاليا بين الطبقات العليا في عصر النهضة. فقد احاطوا انفسهم في قصورهم الفخمة بالكثير مما تتيحه المدنية الراقية من اعظم ضروب الترف. فكانوا يعيشون كما يعيش الامراء الزمنيون، ويبدو انهم كانوا يحسبون في اثوابهم الكهنوتية ليست الا زينة تتطلبها مراتبهم، وكانوا يصيدون، ويقامرون، ويقيمون الولائم وضروب التسلية الفخمة ويشتركون في ضروب المرح التمثيلي الذي تجرى به المساخر المقنعة، وينغمسون في الفساد الخلقي الطليق من كل قيد".

وكان روردريجو بورجيا الذي سيصبح البابا اسكندر السادس، اكثرهم فسادا وانحطاطا، مع انه كان اكثرهم ذكاء ودهاء وحنكة في ادارة الاعمال.

وقد وجد انوسنت صعوبة كبيرة في موازنة دخله ونفقاته رغم المعونة السخية التي حبا بها السلطان الكنيسة. ولهذا اخذ يجري على السُّنة التي جرى عليها البابا سكستس الرابع، ومعظم حكام اوروبا، فملأ خزانته بالاموال التي كان يتقاضاها من طلاب المناصب الكبيرة، وعندما وجد ما في هذا من نفع كبير أنشأ مناصب جديدة للبيع.

ولما قربت نهاية البابا انوسنت، ارتفعت بعض الاصوات في حضن الكنيسة تتنبأ عن قصاص وعن كوارث ستصيب الكنيسة بسبب ما آلت اليه من انحطاط. ومن بين هذه الاصوات النبوية، بدأ يظهر صوت الراهب جيرولامو سفونارولا Jerome Savonarole. ففي السنة التي مات فيها البابا انوسنت الثامن رأى حلما، اعتبره كشفا الهيا، يدا ظهرت له ممسكة بسيف وسمع صوتا يقول "قريبا سيضرب سيف الله الارض".

كان موت انوسنت الثامن احسن وافضل من حياته. من على فراش الالم، وجه الى الكرادلة خطابا، طلب فيه المغفرة لانه لم يكن على مستوى الرسالة التي وكلت اليه، ودعاهم الى اختيار من بعده بابا افضل. ثم قبل بعد ذلك باكيا سر المسحة الاخيرة واسلم الروح بعد خمسة ايام من النزاع في ليلة الخامس والعشرين من شهر تموز عام 1492. وكان ذلك قبل اسبوع واحد من خروج كرستوفر كولومبوس الى اكتشاف العالم الجديد.

وعن موته يقول احد المؤرخين:

> "في العشرين من شهر تموز حدث اضطراب شديد في مدينة روما، اغلق التجار على اثره حوانيتهم، ورجع من كانوا في الحقول الى بيوتهم مسرعين، وكان سبب ذلك ما أعلن من ان البابا انوسنت قد مات".

ورويت قصص غريبة عما حدث في ساعات وفاته، فقيل ان الكرادلة وضعوا جم تحت حراسة خاصة خشية ان يستحوذ عليه فرانشيسكو تشيبو، وان الكردنالين بورجيا ودلا روفيرا كادا يتلاكمان الى جانب الميت. وان ثلاثة اولاد ماتوا من كثرة من نقل من دمائهم الى البابا المحتضر املا في انقاذ حياته.

دفن انوسنت الثامن في كنيسة القديس بطرس وغطى الفنان انطونيو بلايولو Antonio Pallaiuolo خطاياه بضريح فخم.

لقد تطلع البابا انوسنت الثامن الى ان يتم بعده انتخاب بابا افضل، الا ان تمنياته لم تتحق، اذا انه بتعيناته غير الموفقة لكرادلة عير مستحقين من بينهم فتى في الرابعة عشرة من عمره وهو جان دي مديتشي Jean de Medicis، الذي سيصبح البابا ليون العاشر، ساهمت في تحضير أسوء اختيار في كل تاريخ البابوية: البابا اسكندر السادس بورجيا.

7

البابا اسكندر السادس 1492–1503

Alexandre VI

يذكر التاريخ بابوية اسكندر السادس بخجل وحرج كبيرين. وعلينا ان نتذكر كلمات البابا ليون الثالث عشر: "ان الكنيسة ليست بحاجة الى كذبنا"، يجب ان نقول ما كانت عليه هذه الحبرية دون اخفاء شيء او انكاره. وكان نيومان قد وصف كنيسة هذا العصر بالمسيح الذي قبض عليه الشيطان بكلتا يديه. وكان البابا بولس الرابع صادقا عندما قال ستين سنة بعد ذلك:"انه لو لم تكن الكنيسة خالدة والهية، لقتلها ممثلوها في ذلك العصر".

* * *

ولد هذا البابا في اكساتيفا Xativa من اعمال اسبانيا في اليوم الاول من شهر كانون ثاني عام 1431، من اسرة يمكن ان تعد من الاشراف. تلقى رودريجو تعليمه في اكساتيفا وبلنسية وبولونيا، ولما اصبح عمه كردينالا ثم البابا كالكستس الثالث فتح امام الشاب طريق التقدم في السلك الكهنوتي. وانتقل رودريجو الى ايطاليا وغير اسمه الى بورجيا، واصبح كردينالا وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ولما بلغ السادسة والعشرين عين نائبا لقاضي القضاة أي رئيسا للحكومة البابوية وقام بواجبات منصبه بحزم وكفاية، ونال بعض الشهرة في حسن الادارة وعاش عيشة التقشف، واتخذ له كثيرا من الاصدقاء من كلا الجنسين، ولم يكن بعد كاهنا، ولن تتم رسامته حتى بلغ السابعة والثلاثين من العمر.

وكان في ايام شبابه وسيم الخلق، جذابا حلو الطبع، مرحا في مزاجه، قويا مقنعا في بلاغته وفكاهته المرحة. وقد بلغ في هذه الصفات كلها درجة يصعب معها على النساء ان يقاومنه. واذا كان ردريجو قد نشأ في جو التساهل الاخلاقي الذي كان يسود ايطاليا في القرن الخامس عشر، حيث يرى كثيرين من رجال الدين والكهنة يبيحون لانفسهم التمتع بالنساء، فقد قرر ردريجو ان يستمتع بكل النعم، ويروى ان بيوس الثاني لامه لسلوكه الشائن، ولكن قبل اعتذاره وابقاه موضع ثقته. وفي ذلك العام ولد لردريجو ابنه الاول بدرو لويس او جيء له به، ووُلِدت له كذلك ابنته جيرولاما، ولا يعلم من هم امهاتهم.

في حوالي عام 1466 عقد علاقة اكثر دواما من صلاته النسائية السابقة مع فانوتسا ده كاتاني Vanozza de Catanei، وكانت وقتئذ في حوالي الرابعة والعشرين من العمر. وولدت فانوتسا لردريجو (الذي كان قد اصبح كاهنا في عام 1468) اربعة ابناء: جيوفاني في عام 1474، وسيزاري في عام 1476، ولكريدسيا في عام 1480، وجيوفري في 1481. واعترف بهم ردريجو ابناء له. وكان ابا خيرا رحيما. ولما ان تطلع رودريجو الى كرسي البابوية وجد لفانوتسا زوجا متسامحا، وعمل على ان تعيش في رخاء ونعيم. وقد ترملت مرتين، ثم عاشت في عزلة بعيدة عن المظاهر الفخمة، وابتهجت حين علا صيت ابنائها واثروا، وحزنت لفراقها اياهم، واشتهرت بعدئذ بالتقى والصلاح، وتوفيت في السادسة والسبعين من عمرها (1518)، واوصت باملاكها العظيمة القيمة للكنيسة. وارسل ليون العاشر رئيس تشريفاته للاشتراك في موكب جنازتها.

وانا لنخطىء في فهم معنى التاريخ اذا حكمنا على اسكندر السادس من وجهة النظر الاخلاقية في عصرنا هذا. فقد كان معاصروه ينظرون الى تصرفاته الجنسية قبل ان يرق عرش البابوية على انها آثام مرذولة حسب قوانين الكنيسة لا اكثر، ولكنهم يرونها بالنسبة للجو الاخلاقي السائد في زمانه من الصفات التي يتسامح فيها ويعفى عنها. بل ان الرأي العام في ذلك الوقت كان يتسامح مع قانون الكنيسة الذي يفرض العزوبية، بل ان بيوس الثاني نفسه كان له اطفال من عشيقاته في ايام شبابه قبل ان ينتظم في سلك الكهنوت، ولقد دعا هو نفسه في وقت من الاوقات الى

اباحة زواج الكهنة. كذلك كان لسكستس الرابع عدة ابناء. ولم تمنع تصرفات رودريجو من ان يعينه خمسة بابوات متعاقبين في مناصب مهمة، وانه قام بمهامه بجد وحزم. وكان اهل روما يحيونه، لانه متعهم بالالعاب.

ولعل الكرادلة الذين اجتمعوا في المجمع المقدس قد تأثروا ايضا بثروته، لان المناصب الادارية التي تولاها خلال حكم خمسة من البابوات جعلته اغنى الكرادلة. وكانوا يعتمدون عليه فيما سيمنحه من الهدايا القيمة مقابل اصواتهم في الانتخاب، ولم يخيب هو رجاءهم. وكان شراء الاصوات من الامور المألوفة، فقد استخدمها كثير من البابوات السابقين. كما ان الرشاوي كان لها نصيب ايضا في هذا الانتخاب. وقد كان صاحب الصوت الحاسم هو الكاردينال غراردو Gherardo وهو رجل في السادسة والتسعين من عمره "لا يكاد يحتفظ بقواه العقلية". واندفع الكرادلة جميعا آخر الامر فانضموا الى الجانب الفائز حتى كان انتخاب ردريجو بورجيا باجماع الاراء (في 10 اب سنة 1492). ولما سئل أي اسم يريد ان يسمى به وهو بابا اجاب بقوله: "باسم الاسكندر الذي لا يقهر" تيمنا بالاسكندر الكبير.

انجازاته

وكان اختيار المجمع المقدس هو الاختيار الذي يريده الشعب. ولم يحدث ان كان ابتهاج الناس بانتخاب البابا مماثلا لابتهاجهم في هذه المرة، كما لم يكن تتويج واحد من البابوات افخم من تتويجه.

وبد اعماله بداية حسنة. فقد حدثت في روما في الستة والثلاثين يوما بين موت انوسنت الثامن وتتويج الاسكندر السادس مائتان وعشرون حادثة اغتيال. ولكن البابا الجديد ضرب المثل باول قاتل قبض عليه، فقد شنق هذا المجرم، وشنق معه اخاه، وهدم بيته، وارضت المدينة هذه القسوة، واخفت الجريمة راسها، وعاد النظام الى روما، وابتهجت ايطاليا كلها اذ وجدت يدا قوية تقبض على زمام الامور.

وكان من انصار الادب والفن، فقد شاد البابا الجديد كثيرا من المباني داخل روما وخارجها، وتبرع بالمال لترميم المباني والابنية. واعاد بناء جامعة روما، واستدعى اليها طائفة من المعلمين الممتازين. ومن اعماله انه اعاد الرقابة على المطبوعات في عام 1501 بأن اصدر مرسوما يحرم طبع أي كتاب الا بعد ان يوافق عليه كبير الاساقفة المحلي.

وكان تصريفه شؤون الكنيسة في السنين الاولى من ولايته تصريفا يشهد له بالقدرة والكفاية الى حد غير مألوف. ومن الادلة على ذلك ان انوسنت الثامن ترك الخزانة مدينة، في حاجة الى كل ما وهب الاسكندر من مقدرة لاصلاح حال المالية البابوية، وتطلبت منه موازنة الميزانية سنتين كاملتين. وقد تذرع لذلك بان انقص عدد موظفي الفاتيكان، واخفض النفقات.

كان الاسكندر يواظب على اقامة المراسم الدينية الشاقة التي يستلزمها منصبه بامانة، ولكنه كان يملها.

نقطة ضعف البابا اسكندر السادس: اولاده

الا ان نقطه ضعفه، وهي حبه الكبير لاولاده الكثيرين والجشعين، كانت سبب مصيبة حبريته. فقد سعى لتوفير الثراء لابنائه، وعين في مناصب الدولة في روما حشدا كبيرا من الاسبان. وكان عددا كبيرا من اقارب البابا الاسبان قد هرعوا الى روما لاغتنام الفرصة وللحصول على مكسب من المكاسب.

وكانت لكريدسيا هي المفضلة لديه من بناته، والتي جعلت منها الشائعات والنميمة، وصورتها بابشع الصور وارخص التخمينات، بان اباها واخواتها كانوا يتنافسون على عشقها. الا انها كانت ضحية واداة لسياسة ابيها واخيها. وقد حدث مرتين ان اضطر الاسكندر الى الغياب عن روما ان اعد لكريدسيا حجرة في الفاتيكان وخولها حق فض رسائله وتصريف جميع الشؤون العادية. وهذا العمل روع روما نفسها وهي المتخمة بالمفاسد.

الا ان العقل السيء للبابا كان ابنه سيزاري، وكان البابا يعتقد ويأمل ان يعينه ابنه جيوفني على حماية الولايات البابوية، ولكن جيوفني ورث عن ابيه حسه المرهف نحو النساء غير مصحوب بقدرته على محك الرجال. وادرك الاسكندر ان ابنه سيزارى دون سائر ابنائه هو الذي اوتي العزيمة والصرامة اللتين لا بد منهما لخوض غمار السياسة الايطالية في

ذلك العصر المليء بالعنف. فخلع عليه كثير من المناصب الدينية التي تدر عليه ايرادا يفي بنفقات هذا الشاب ذي السلطان المطرد الزيادة. ثم جعل منه رئيس اساقفة فالنس، ثم كردينالا. الا ان ميله الى الحرب والمغامرات جعلته يلقي عنه رداء الكردينالية ويحمل السيف، ليعيش كمحارب على هواه، مستعملا كل الطرق بدون وازع او ضمير في سبيل تحقيق اهدافه.

وكان الاسكندر في ذلك الوقت يواجه المشاكل السياسية القائمة امام بابوية تكتنفها القوى الايطالية التي تأتمر بها من كل جانب. وكانت الولايات البابوية قد وقعت مرة اخرى في ايدي طغاة محليين، يدعون انهم خدام الكنيسة ولكنهم انتهزوا الفرص التي اتاحها لهم انوسنت الثامن، فاستردوا الاستقلال الفعلي الذي فقدوه هم واسلافهم في عهد سكستس الرابع. وكانت الدول المجاورة للمدن البابوية قد استولت على بعض هذه المدن، فاستولت نابولي مثلا على سورا Sora واكويليا في عام 1467، واستولت ميلان على تورلي في عام 1488. ولهذا كان اول واجبات الاسكندر هو ان يخضع هذه الولايات لحكم بابوي مركزي، يفرض عليها الضرائب، كما اخضع ملوك اسبانيا وفرنسا، وانجلترا السادة الاقطاعيين. وكانت هذه هي المهمة التي عهد بها الى سيزارى بورجيا والتي انجزها بسرعة وقسوة، جعلت مكيفلي يعجب به ويدهش من مقدرته، ويتخذه مثلا لبطولته في كتابه "الامير".

ومن بين جرائم سيزاري والتي هزت البابا نفسه هي مقتل ابنه جيوفاني. وكان جيوفاني وسيزارى وغيره من الضيوف في بيت امه فانوتسا للعشاء، وبعد العشاء افترق جيوفاني عن سيزارى وسائر الضيوف وهم عائدون، وقال انه يريد ان يزور سيدة من معارفه، ولم يُرَ حيا بعد تلك الساعة. ولما طالت غيبته طلب البابا ان يبحث عن ابنه، فاعترف صاحب زورق انه رأى جثة تلقى في نهر التيبر في ليلة الرابع عشر من شهر حزيران، ولما سئل لمَ لم يبلغ عنها، قال انه شاهد في حياته مائة حادثة من هذا النوع، وانه تعلم الا يشغل باله بها. وفتش مجرى النهر، ووجدت الجثة، مطعونة في تسعة مواضع مختلفة. والظاهر ان الدوق الشاب هاجمه عدد من الاشخاص. وامر البابا ان يبحث عن القتلة، ولكنه وافق بعد قليل ان يبقى الحادث في طي الخفاء. ومن بين الذين وجهت اليهم اصابع الاتهام اخوه سيزارى.

حطم الحزن قلب الاسكندر وادى به ذلك الى ان يغلق على نفسه باب غرفته الخاصة ويمتنع عن الطعام، وكان انينه يسمع في الشارع نفسه. ولما استرد البابا سلطانه على نفسه، جمع مجلسا من الكرادلة في 19 حزيران سنة 1497، وتلقى تعازيهم وابلغهم ان "دوق غنديا، كان احب اليه من أي شخص آخر في العالم"، وقال ان هذه المصيبة "وهي اكبر المصائب التي يمكن ان تحل به" عقابا له من عند الله على ذنوبه، ثم اضاف "ولقد عقدنا العزم على ان نصلح من شأن حياتنا، وان نصلح الكنيسة... وستكون المناصب من هذه الساعة وفقا على من يستحقونها، تعطى حسب اصوات الكرادلة. ولن نتحيز لاقاربنا، وسنبدأ الاصلاح باصلاح انفسنا، ثم نسير به في جميع مراتب الكنيسة حتى ننجز العمل كله". وعينت لجنة من ستة كرادلة لتعد برنامجا للاصلاح، واخذت تعمل بجد قدمت للاسكندر دراسة بهذا الاصلاح بلغ من عظم الشأن درجة لو نفذت مواده لنجت الكنيسة من الانقسام. الا ان هذا الدراسة لم ترى النور. وعاد البابا الى عادته والى حياته السابقة، ارتاح الكرادلة، واستمرت المؤامرات والمنافسات في الدوائر الفاتيكانية، واستمر بيع المناصب، وبقيت الفوضى تعبث بالكنيسة. الا ان صوتا ارتفع من بين الحطام، صوتا قويا، حادا، منتقما ، صوتا علينا ان نسمعه، ونعرف عنه، من اجل شرف الشعب المسيحي، في تلك الحقبة من التاريخ.

ملحق: جيرولامو سفُنرولا Savonarola

انتقلت اسرة سفُنرولا من بدوا Padova الى فرارا حوالي عام 1440 وذلك حين دعا نقولو الثالث ده است Niccolo III d'Este ميشيل سفُنرولا ليكون طبيب بلاطه. وكان ميشيل هذا رجلا تقيا. وكان ابنه نقولو متوسط القدرة في الطب، ولكن الينا بوناكسي Elena Bonacossi زوجة نقولو كانت امرأة عالية الاخلاق ذات مثل عليا سامية.

وكان جيرولامو ثالث ابنائها السبعة، واعده ليكون هو ايضا طبيبا، ولكنه رأى ان توما الاكويني اكثر متعة من التشريح، وان انفراده بكتبه الذ من عبث الشباب. وراعه الا يجد في جامعة فيرونا طالبا "بلغ من الفقر درجة تحمله على ان يجل الفضيلة". وكتب يقول:

"اذا شئت ان تكون رجلا في هذا المكان، فعليك ان تلوث فمك باقذر الفاظ التجديف، واكثرها حيوانية، واشدها فظاعة.. واذا درست الفلسفة والفنون الطيبة كنت في نظرهم حالما، واذا عشت عفيفا متواضعا، فأنت أبله. واذا كنت تقيا، فانت منافق، واذا آمنت بالله فانت مغفل".

ولهذا ترك المدرسة وعاد الى والدته والى العزلة. وكان يقضي الساعات الطوال في الصلاة والدعاء، وطال صيامه حتى حزن ابواه مما اصابه من الهزال. ثم هرب خلسة من بيته، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، ودخل ديرا للبندكتان في بولونيا.

واقام في دير بولونيا ست سنين، وكان في خلالها يطالب في عزة وفخر ان يعهد اليه باحقر الاعمال، ولكن موهبته الخطابية تكشفت اثناء هذه المدة، وعهد اليه بالخطابة. ثم نقل الى دير سان ماركو في فلورنسا عام 1481، وكُلف بالخطابة في كنيسة سان لورندسو. ولكن مواعظه فيها لم ترق الجماهير، لانها كانت ممتعة في الناحية النظرية والتلقينية اكثر مما تطيقه مدينة عرفت بلاغة الكتاب الانسانيين واسلوبهم المصقول. فاخذ من يستمعون الى بعظاته يقل عددهم اسبوعا بعد اسبوع. فما كان من رئيس الدير الا ان خصه بتعليم المستجدين.

واكبر الظن ان السنين الخمس التالية هي التي تكونت فيها اخلاقه واتخذت صورتها النهائية. ولما ازدادت مشاعره قوة ظهرت آثارها على ملامحه، فتغضنت جبهته وتجهمت، وانقبضت شفتاه الغليظتان تنمان عن قوة العزيمة، وبدأ وجهه مكتئبا قاسيا، ينم عن قدرة لا حد لها على الحب والكره، وجسمه الضئيل تحطمه وتنتابه الرؤى، والآمال الخائبة، والاعاصير الداخلية. وكتب وقتئذ يقول لابويه:

"لا زلت لحما ودما مثلكما، ولا زالت حواسي مستعصية غير خاضعة لعقلي، ولهذا كان لا بد لي ان اناضل بقسوة كي امنع الشيطان ان يقفز على ظهري".

سفنرولا النبي

وعمد الى السوط وجلد نفسه كي يذلل ما بدا له انه الفساد المتأصل في الطبيعة البشرية. فهام بمفرده في صومعته يعلي من شأن وحدته بأن يصور نفسه كأنه ميدان تصطرع فيه الارواح التي تحوم حوله، وخيل اليه اخر الامر ان الملائكة وكبارهم يتحدثون اليه، واخذ الفاظهم على انه وحي الهي، وقام فجأة يتحدث الى العالم كأنه نبي اختير ليكون رسولا من عند الله، وقال:

"ان عهد المسيح الدجال قد اقبل، وان الشيطان قد استحوذ على العالم، وان المسيح سيظهر بعد قليل ليبدأ حكمه على الارض، وأن الانتقام الالهي سيحل بالطغاة والزناة، والكافرين ممن خيل اليهم انهم يسيطرون على ايطاليا".

وفي لمبارديا حيث ارسله رئيسه ليخطب فيها عام 1486، تخلى سفُنرولا عن اسلوبه التعليمي الذي كان يصطنعه في شبابه، وصاغه في صورة التشهير بالرذائل الخلقية، والتنبؤ بيوم الدينونة، والدعوة الى التوبة. واصغى اليه الاف ممن لم يكونوا يستطيعون تتبع حججه الاولى، واخذوا يستمعون في وجل الى البلاغة الجديدة الثائرة القوية التي ينطق بها رجل خيل اليهم انه يتحدث عن يقين وتأييد الهي. وسمع بيير دلا مرندولا بما اوتيه الراهب من نجاح، فطلب من لورندسو ان يعرض على رئيس سفُنرولا ان يعيده الى فلورنسا. وعاد سفُنرولا فعلا في عام 1489، واختير بعد عامين رئيسا لدير سان مركو. ووجد فيه لورندسو عدوا صريحا واقوى من اي عدو آخر اعترض سبيله.

ودهشت فلورنسا اذ رأت ان الواعظ الذي كان من قبل يبعث اليأس بحججه، قد اخذ الآن يروعهم بالرؤى والخيالات الدينية، ويستحوذ على قلوبهم بالاوصاف الحية القوية التي يصور بها الوثنية والفساد، والرذائل المتفشية بين جيرانهم، ويسمو بارواحهم الى مراقي التوبة والامل، ويبعث في نفوسهم من جديد قوة الايمان التي كانت تلهمهم وتروعهم ايام شبابهم:

"يا ايتها النساء يا من تختلن بزينتكن وشعركن وايديكن، اقول لكن انكن جميعا قبيحات، فهل تردن ان ترين الجمال الحق؟ انظرن الى الرجل التقي او المرأة التقية، حيث تسيطر الروح على المادة. انظرن اليه وهو يصلي، وحين يتلألأ عليه شعاع من الجمال الرباني ساعة يختتم صلواته. سترين وقتئذ جمال الله يتلألأ في وجهه، فتبصرنه كأنه وجه ملاك".

وذهل الناس من شجاعته، فقد كان تنديده بالكهنة والبابوية اشد من تنديده بغير رجال الدين. وكانت قسوته على الامراء اشد منها على الشعب، وسرى في قلوب الفقراء تيار قوي من التطرف. انظر الى قوله:

"لا يوجد في هذه الايام شيء من نعم الروح القدس او هباته لا يستطاع شراؤه او بيعه. اما الفقراء فقد ابهظت كاهلهم الاعباء الثقال، واذا ما دعوا لاداء مبالغ من المال فوق طاقتهم، صاح الاغنياء في وجوههم قائلين: "اعطونا ما بقي لديكم". ومن الناس من لا يزيد دخلهم على خمسين فلورينا في العام، ثم يؤدون ضرائب عن مائة، على حين ان الاغنياء لا يؤدون الا القليل، لأن الضرائب قد نظمت على هواهم. الا فلتفكروا جيدا ايها الاغنياء، لأن العذاب سوف يحل بكم. ولن تسمى هذه المدينة بعد اليوم فلورنسا، بل ستكون عشا للصوص وللدناءة، وسفك الدماء. فاذا جاء هذه الوقت حلت بكم الفاقة... وانقلب اسمكم ايها الكهنة فصار هو الرعب".

ثم يأتي بعد الكهنة دور رجال المصارف:

"لقد ابتدعتم وسائل كثيرة تجمعون بها المال، وتجرون بها عمليات كثيرة من التبادل تقولون انها مشروعة، ولكنها ابعد ما تكون من العدالة، وقد افسدتم باعمالكم مناصب المدينة وكبار حكامها. ليس في مقدور احد ان يقنعكم بان الربا اثم، ولذلك تراكم تدافعون عنه وتعرضون نفوسكم للهلاك، وليس فيكم من يستحي من اقراض المال بالربا، بل ان من يفعلون غير فعالكم يرمون بالبلاهة والغفلة.. ان وجوهكم لهي وجوه العاهرات قد نضب منها ماء الحياة، فانتم تقولون ان الحياة الطيبة السارة هي حياة الكسب، والمسيح يقول: طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات".

ثم يوجه كلمة الى لورنسو فيقول:

"ان الطغاة لا يمكن تقويمهم، لانهم متكبرون، ولانهم يحبون الملق، ولن يردوا مكاسبهم الحرام.. وهو لا يستمعون الى نداء الفقراء، ولا يلومون الاغنياء.. ويفسدون اخلاق الناخبين، ويكلون جباية الضرائب الى الملتزمين ليهبطوا بذلك كاهل الاهلين.. وقد جرت العادة الطاغية ان يشغل الناس بالمعارض والاعياد حتى ينصرفوا عن التفكير في اعماله الى التفكير في ملاهيهم، فينشأوا غير ملمين بسير امور الدولة، ويتركوا ازمة الحكم في يديه".

اضطرب لورندسو لهذه الاقوال، وحاول ان يسترضي الراهب، فجاء الى دير سان ماركو ليحضر القداس، ونفح الدير بهبات سخية، ولكن سفُنرولا سخر منه وازدراه. ولما وجد في صندوق الصدقات قدرا كبيرا من الذهب على خلاف المعتاد ظن انه جاء من لورندسو، فوهبه الى دير آخر وقال ان الفضة تفي بحاجات اخوانه الرهبان. وبعث اليه لورندسو خمسة من زعماء المدينة ليحاولوا اقناعه ان عظاته النارية ستؤدي الى العنف الذي لا طائل من ورائه، وانها قد اخذت تخل بالنظام وتهدد الامن والسلام في فلورنسا. ورد عليهم سفُنرولا ان عليهم ان يأمروا لورندسو ان يكفر عن سيأته. واغرى لورندسو راهبا فرسيسكانيا اشتهر ببلاغته ان يلقي عظات شعبية بهدف ابعاد المستمعين عن سفُنرولا، ولكن هذا الراهب اخفق في مهمته، وهرعت الى سان ماركو جماعات اكبر مما كان يهرع اليه من قبل، حتى لم تعد كنيسة الدير تتسع للمستمعين. ونقل سفُنرولا منبره الى الكنيسة الكبرى ليلقى فيها عظاته في موسم الصوم الكبير من عام 1491. وكان هذا الصرح يزدحم بالحاضرين كلما اعلن ان الراهب سيخطب فيه، مع انه قد انشيء ليسع اهل المدينة باكملها. ولم يحاول لورندسو بعدئذ، وكان يقاسي الام المرض، ان يتدخل في عظاته.

وكان ضعف بيرو بعد موت والده لوندسو سببا في ان اصبح سفنرولا اكبر قوة في فلورنسا. ووافق البابا الجديد اسكندر السادس على كره على انفصال ديره عن المجموعة اللمباردية التي كان هذا الدير جزءا منها، وبهذا نصب سفنرولا نفسه من الوجهة العملية رئيسا مستقلا لاهل ديره. فلما تم له ذلك اصلح نظمه، ورفع مستوى الرهبان الخاضعين لحكمه من الناحيتين الخلقية والعقلية. فانضم الى جماعته رهبان جدد، واحاطه اعضاء الدير البالغ عددهم 250 عضوا بالحب والاخلاص اللذين كانا عونا قويا له في جميع ظروف حياته ما عدا محنته الاخيرة. واصبح سفنرولا اشد جرأة فيما يوجهه من نقد للفساد الشائع وقتئذ بين رجال الدنيا والدين على السواء. فاخذ يندد بالثراء الدنيوي الذي يستمتع به رجال الدين، وفيما يتجلى في الحفلات الكنسية من ابهة وفخامة، ويشنع على "الاحبار الكبار الذين يضعون على رؤوسهم تيجانا فخمة من الذهب والحجارة الكريمة.. وعلى ملابسهم الجميلة واوشحتهم المنسوجة من الديباج المقصب". واخذ يقارن هذا بما كان عليه رجال الكنيسة الاولون من بساطة، ويقول ان هؤلاء "لم تكن لهم تيجان ذهبية وكؤوس قربان الا اقل من القليل. وذلك لان القليل الذين كانوا يملكونه منها قد تحطم ليسد حاجة الفقراء والمعوزين. اما احبارنا فانهم ينهبون من الفقراء ما لا يملكون سواه ليقيموا به اودهم، ليحصلوا هم به على كؤوسهم".

وكان يضيف الى هذا التشهير نبوءات بسوء المصير. وكان قد تنبأ ان لورندسو وانوسنت الثامن سيموتان في عام 1492، ومات كلاهما في ذلك العام بالفعل. ثم تنبأ على ان الله سيرسل على ايطاليا كارثة ينتقم بها لذنوبها وآثام طغاتها ورجال الدين فيها، فاذا انقضت هذه الكارثة فان المسيح سوف يقود الامة في سبيل الاصلاح المجيد، وأنه هو نفسه، سفُنرولا، سيموت موتا عنيفا. ثم تنبأ في بداية 1494 ان شارل الثامن سيغزو ايطاليا، ورحب هو بهذا الغزو ووصفه بأنه يد الله المطهرة. ويقول احد معاصريه ان ما كان يلقيه وقتئذ من عظات كانت "مليئة بالارهاب، والفزع، والصراخ والعويل، الى حد جعل كل من يسمعها يطوف بالمدينة ذاهلا، صامتا شبيها بالاموات".

وتحققت نبوءة سفُنرولا، فعبر شارل الثامن جبال الابنين في عام 1494 وانقض على ايطاليا يعتزم ضم مملكة نابولي الى التاج الفرنسي، ودخل املاك فلورنسا في شهر تشرين اول من ذلك العام، وعمل بيرو مديتشي مع شارل معاهدة سلم له كل ما طلب من الحصون والاموال. فقرر مجلس حكام فلورنسا بزعامة المعارضين لبيرو ان يخلعوه ويعيدوا الجمهورية القديمة. فخشى بيرو على حياته ففر هو واسرته واخوته من المدينة. ودخل شارل فلورنسا ورضى ان يدخل تعديلا طفيفا على مطالبه استجابة لوفد مجلس حكام فلورنسا والذي كان سفُنرولا من بينهم.

سفُنرولا الحاكم

رحب اهل فلورنسا بالجمهورية الجديدة، التي بدأت اعمالها بداية طيبة، فاصدرت عفوا عاما عن جميع المؤيدين لحكم آل مديتشي الزائل، والغت جميع الضرائب عدا ضريبة قدرها عشرة في المائة من دخل الاملاك العقارية، وبذلك اعفى التجار الذين كانوا يسيطرون على الاعمال التجارية من الضرائب، والقوا العبء كله على الارستقراطية المالكة للارض، وعلى الفقراء المنتفعين بها. ثم أنشأت الحكومة بايعاز سفُنرولا مكتبا للقروض monte de pietà يقرض المال بفائدة قدرها خمسة في المائة. وبذلك نجت الفقراء من الاعتماد على المرابين.

ثم حاول المجلس بتحريض الراهب ايضا ان يصلح الاخلاق والقوانين: فحرم سباق الخيل، والاغاني البذيئة في الحفلات التنكرية، وانتهاك الحرمات، والميسر. وشجع الخدم على ان يبلغوا عن اسيادهم اذا قامروا. وكان من يحكم عليهم من المذنبين يعذبون. كما كان المجدفون يعاقبون بخرق السنتهم، ومن يرتكبون اللواط يلقون من العقوبات الشديدة ما يزرى بهم. ونظم سفُنرولا الشباب من جماعته في شرطة اخلاقية مهمتها المساعدة على تنفيذ هذه الاصلاحات. وتعهد هؤلاء الشباب ان يداموا على الذهاب الى الكنيسة بانتظام، ويتجنبوا مشاهدة السباق، والاستعراضات، والالعاب البهلونية، وصحبة الرفقة السيئة الفاسدة، والاطلاع على الادب البذيئة، ومشاهدة الرقص، ومدارس الموسيقى، كما تعهدوا بتقصير شعر الرأس. وكانت "عصب الامل" هذه تجوب الشوارع تطلب الصدقات للكنيسة وتنتزع من اجسام النساء ما ترى انه غير لائق من الثياب.

وايدت المدينة هذه الاصلاحات الى حين، وايدتها بعض النساء تأييدا حماسيا، وسلكن مسلكا مرضيا، ولبسن ثيابا بسيطة، وخلعن الحلى والزينة. وبدلت الثورة الاخلاقية فلورنسا المرحة تبديلا، واخذ الناس يتغنون في الشوارع بالترانيم الدينية بدل الاغاني الخمرية، وغصت الكنائس بالمصلين، واخرج الناس الصدقات بمقادير لم يعهد مثلها من قبل. ورد بعض رجال المصارف والتجار مكاسبهم غير المشروعة. ودعا سفُنرولا جميع سكان المدينة، فقراءهم واغنياءهم على السواء، ان يتجنبوا البطالة والترف، وان يجدّوا في اعمالهم، وان يجعلوا حياتهم قدوة حسنة لغيرهم، وقال في ذلك:

> "يجب ان تبدأ اصلاحاتكم بشؤون الروح... وان تضعوا مغانمكم الدنيوية في خدمة المصالح الاخلاقية والدينية التي هي اساس هذه المغانم. واذا كنتم قد سمعتم ان الدول لا تحكم بالصلوات والادعية، فاذكروا ان هذا هو حكم الطغاة المستبدين.. وهو حكم لا يعمل لحرية المدينة بل يعمل لظلمها. فاذا شئتم حكما صالحا، وجب عليكم ان تردوا هذا الحكم الى الله".

وتنبأ ان هذه الحكومة الدينية ستؤدي الى "المدينة الفاضلة". وقال:

> "أي فلورنسا! وإذن ستكونين غنية بثروتك الروحية والزمنية، وستفوزين باصلاح روما، وايطاليا، وجميع الاقطار، وستبسطين جناحي عظمتك على العالم كله".

والحق ان فلورنسا لم تسعد في يوم من قبل ذلك الوقت كما سعدت في تلك الايام التي كانت لحظة ساطعة في تاريخ الفضيلة.

ولكن الطبيعة البشرية لا تتغير، فالناس ليسوا فاضلين بفطرتهم، والنظام الاجتماعي انما يحافظ على بنيانه المزعزع وسط التنازع الخفي والعلني القائم بين النفوس والاسر والطبقات والعناصر والعقائد. وكان في المجتمع الفلورنسي عنصر قوى شديد الميل الى الحانات، واندية القمار ينفسون بها عن غرائزهم، او يتخذونها وسيلة الى الكسب. وثارت ثائرة اسرة الباتسيين، والزيليين، والكيونيين، والفرع الاصغر من الا مديتشي وغيرهم من الاعيان الذين اخرجوا بيرو، حين رأوا ازمة الحكومة تقع في يدي راهب. وكانت بقية من حزب بيرو لا تزال قائمة تتحين الفرص التي تستطيع بها العودة الى الحكم وتستعيد بها الثراء. كذلك كان الرهبان الفرنسيسكان يعملون بكل ما أوتوا من حماسة دينية ضد سفُنرولا الدمينكاني.

واجتمعت هذه الطوائف المختلفة من اعداء النظام الجديد في تجريح مؤيدي سفُنرولا ووصفهم بالباكين Piangnoni، لأن الكثيرين منهم كانوا يبكون اذا سمعوا عظات سفُنرولا وذوي الرقاب الملتوية Colitorti والمنافقين Stropiccioni، ومن يلوكون الصلوات Masticapaternostri. وكان الذين يلقبون بهذه الالقاب يسمون اعداءهم الكلاب المسعورة Arrabiati. وافلحت طائفة الاربياتي في انتخاب مرشحها فلبو كوربتسي Filippo Corbizzi حاملا لشعار الدولة في بداية عام 1496، فلما تم له ذلك عقد في قصر فيتشيو مجلسا من الكهنوت، واستدعى سفُنرولا للمثول امامه، واتهمه بالتورط

في نشاط سياسي لا يليق بالرهبان، وانضم اليه في هذه التهمة عدد من رجال الدين من بينهم راهب دومنيكاني، وطالبوه ان يصرح ان كانت عظاته موحى بها من عند الله، ولكنه رفض ان يجيب عن هذا السؤال، وعاد الى صومعته.

ولعله كان يستطيع التغلب على اعدائه لو ان الظروف الخارجية كانت في صالحه. لكنها لم تكن، ذلك ان الفلورنسيين كانوا غاضبين اشد الغضب على بيزا التي استقلت عن فلورنسا، وكانوا يطالبون بها. كما وأسف الفلورنسيون لان سفُنرولا ربط مصيرهم بشارل الثامن ملك فرنسا، ولانهم دون غيرهم من الايطاليين، لم يشتركوا في طرد الفرنسين من ايطاليا.

ولاح ان المدينة التي كانت من قبل قوية مزدهرة قد اوشكت ان تخسر ممتلكاتها الخارجية كلها تقريبا، وستخسر كذلك جميع منافذها التجارية القائمة على نهر الآرنو، والبحر الادرياتيكي، وعلى الطرق المؤدية الى ميلانو وروما. وكان لهذا أسوأ الأثر في التجارة، وقل ايراد الضرائب، واقفرت خزانة الدولة في عام 1496. واستفحل الفقر والجوع. وبدأت المؤمرات لقلب الحكم، وحكم بالاعدام على زعماء المؤمرات. واخذ كثيرون من الفلورنسيين يقارنون بين ما هو منتشر في الحكم الجمهوري من تخريب وعنف وقسوة، وبين ما كان يسود عهد لورندسو دي مديتشي من نظام وأمن وسلام. وتكررت مظاهرات الجموع الغاضبة المعادية امام دير سفُنرولا. ولما ان شرع الراهب يلقي موعظته في يوم الصعود من عام 1497، قاطعته جماعة من الغوغاء وحاول اعداؤه اثناء الشغب ان يقبضوا عليه، ولكن اصدقاءه ردوهم على اعقابهم. وعرض حامل الاختام على مجلس السيادة ان ينفي سفُنرولا من المدينة لعل ذلك يسكن من غضب الناس، ولكن الاقتراح رفض باغلبية صوت واحد. وكان سفُنرولا في هذه العاصفة التي انهارت فيها احلامه يواجه ويتحدى اعظم قوة في ايطاليا: البابا.

سفُنرولا والبابا اسكندر السادس

لم يضطرب البابا اسكندر السادس بسبب ما وجهه سفُنرولا من نقد لرجال الدين او لاخلاق اهل روما، ذلك انه سمع مثل هذا النقد من قبل. فقد ظل مئات من رجال الكنيسة قرونا طوالا يشكون من ان الكهنة يحيون حياة تنافي الفضيلة، ومن ان البابوات يحبون المال والسلطان حبا لا يليق بخلفاء المسيح. وكان البابا اسكندر سهلا رضي الطباع، لا يسؤوه النقد الهين ما دام يشعر انه آمن بالكرسي الرسولي. اما الذي كان يسؤوه من سفُنرولا فهو آراءه السياسية، وخصوصا تحالفه مع فرنسا، ويرى ان سفُنرولا هو القوة الخفية التي توجه سياسة المدينة هذه الوجهة، ويرتاب في انه يراسل في السر الحكومة الفرنسية. وقد كتب سفُنرولا في والواقع ثلاث رسائل يؤيد فيها ما اقترحه الكردينال جوليانو دلا روفيرى من ان يعقد الملك مجلسا عاما من رجال الدين والحكم يصلح الكنيسة ويخلع الاسكندر لانه "كافر وزنديق".

حرض الكردينال اسكنيو اسفوردسا Ascanio Sforza ممثل ميلان في البلاط البابوي، البابا على ان يضع حدا لخطب سفُنرولا ونفوذه. فكتب الاسكندر في اليوم الحادي والعشرين من شهر تموز عام 1495 رسالة موجزة الى سفُنرولا قال فيها:

> "الى ابننا المحبوب نهدي تحياتنا وبركتنا الرسولية. لقد سمعنا انك اشد العاملين في كرمة الرب غيرة، فابتهجنا لذلك اشد الابتهاج وحمدنا الله العلي القدير على هذا. وسمعنا كذلك من ان تنبؤاتك لا تصدر منك بل من الله. ومن اجل هذا نرغب في ان نتحدث اليك في هذه الامور كما يقضي علينا بذلك قيامنا على رعاية أبناء هذا الدين، حتى اذا ما زدنا بهذه الطريقة علما بإرادة الله كنا اقدر على اداء واجبنا. ولهذا نأمرك بما لنا عليك من حق الطاعة المقدسة التي اقسمت بالحرص عليها ان تعجل بالمثول بين يدينا، وسوف تلقى منا الترحيب المشفوع بالحب والحنان".

وكانت هذه الرسالة نصرا عظيما لاعداء سفُنرولا، لانها وضعته في مأزق لا يسعه الا ان يختم حياته بوصفه مصلحا او ان يعصى امر البابا علنا. وخشى سفُنرولا الا يستطيع العودة الى فلورنسا اذا القى بنفسه في قبضة البابا، او لربما قضى بقية حياته في سجن سانت انجيلو، واذا لم يعد فان انصاره سيقضى عليهم لا محالة. لهذا عمل بنصحتهم فرد على الاسكندر قائلا ان مرضه الشديد يحول بينه وبين القدوم الى روما.

فكتب البابا الى مجلس فلورنسا يحتج على تحالفهم مع فرنسا، وامر سفُنرولا في الوقت عينه ان يمتنع عن الخطابة، وان يخضع لسلطان الوكيل العام للرهبان الدمنيكان في لمبارديا، وان يرحل الى أي مكان يأمره هذا الوكيل بالرحيل اليه. ورد عليه سفُنرولا ان اتباعه لا يريدون ان يخضعوا الى الوكيل العام، ولكنه في الوقت عينه سيمتنع عن الخطابة. فرد عليه الاسكندر مرة اخرى ردا يدل على رغبته في التوفيق والمصالحة، واعاد في هذا الرد امره بالامتناع عن الخطابة، وعبر عن امله في ان يجيء سفُنرولا الى روما حين تسمح له صحته لكي يستقبل فيها "بروح البهجة والاخوة"، ثم ترك الاسكندر الامر عند هذا الحد مدة عام.

وكان حزب سفُنرولا في هذه الاثناء قد استرد لنفسه السلطان في مجلس السيادة، ورجا مبعوثو حكومة فلورنسا في روما البابا ان يلغي امره القاضي بمنع الراهب من الخطابة، قائلين ان فلورنسا في حاجة الى تأثيره القوى ايام الصوم الكبير. ويبدو ان الاسكندر اجابهم اجابة شفوية الى ما طلبوا، وعاد سفُنرولا الى الخطابة في الكنيسة الكبرى.

وكانت عظته الاولى في ذلك العام ايذانا ببدء النزاع مع البابا، وكان هذا النزاع حادثا عظيم الخطر في تاريخ فلورنسا. وتاق نصف المدينة المهتاجة الى سماعه، ولم تتسع الكاتدرائية على رحبها لكل من ارادوا الدخول، واحاطت بالرئيس جماعة من اصدقائه المسلحين حتى اوصلته الى الكنيسة. وبدأ عظته ان شرح سبب انقطاعه الطويل عن المنبر، واكد ولاءه التام لتعاليم الكنيسة، لكنه اتبع ذلك بتحدي البابا تحديا جريئا فقال:

"ان الرئيس لا يستطيع ان يصدر الي امرا ايا كان يتعارض مع القواعد التي تسير عليها جماعتي، ولا يستطيع البابا ان يصدر امرا ما يتعارض مع مقتضيات البر او اوامر الانجيل. ولست اعتقد ان البابا سيحرص يوما ما على ان يفعل هذا، فان فعل فساقول له:"انك الان لست براع، ولست انت كنيسة روما، انك مخطىء".. واذا تبين بوضوح ان اوامر الرؤوساء تتعارض مع اوامر الله، وبخاصة اذا تعارضت مع قواعد البر والخير، فما من احد من اناس في هذه الحال ملزم باطاعتها... اذا ما تبينت بوضوح ان رحيلي عن مدينة ما سيؤدي الى هلاك اهلها الروحي والزمني، فاني لن اطيع انسانا على ظهر الارض يأمرني بالرحيل عنها... لاني ن اطعته عصيت اوامر الله".

وندد في عظته التي القاها في يوم الاحد الثاني من آحاد الصوم الكبير باخلاق عاصمة العالم المسيحي باقسى الالفاظ فقال:

"ان الف عاهر، وعشرة الاف عاهر، واربعة عشر الف عاهر، عدد قليل لا يكفي روما لان جميع ما فيها من رجال ونساء في العهر سواء"

وانتشرت هذه العظات في طول اوروبا وعرضها عن طريق الاختراع الجديد العجيب ونعني به المطبعة، وكان الناس يقرأونها في كل مكان حتى سلطان تركيا نفسه. واثارت عاصفة من المنشورات والكتيبات في داخل فلورنس وخارجها، منها ما اتهم الراهب بالخروج على لدين والنظام ومنها ما تدافع عنه وتصفه بنبي وقديس.

واخذ الاسكندر يبحث عن وسيلة غير مباشرة يتقي بها الحرب العلنية. ومن اجل هذا امر في شهر تشرين ثاني من عام 1496 ان تُوَحّد جميع الاديرة الدومنكنية التسكانية لتؤلف مجموعة تسكانية، توضع تحت سلطة الاب جياكو ده تشيتشيليا Giacomo de Cicilia. ورفض سفُنرولا ان يطيع امر التوحيد.

ولما اقترب اليوم الاخير من ايام المساخر من الصوم الكبير لعام 1497، سار اشد الناس حماسة من اتباع سفُنرولا في موكب رهيب وهم ينشدون الاناشيد خلف تمثال للطفل يسوع الى ميدان السيادة Piazza della Signoria. وكان قد اعد في ذلك الميدان هرما ضخما من ما دعى "بالاباطيل" وهي المواد التي جمعت في خلال الاسبوع او جيء بها وقتئذ لتحرق، وكان منها مخطوطات وتحف فنية عظيمة القيمة، وحلى، ومواد تزيين، وشعر مستعار، وملابس التنكر، واوراق اللعب والنرد، والآلات الموسيقى، ومستحضرات التجميل، والكتب السيئة: واشعلت النار في الكومة، ودقت الاجراس لتعلن عن اول "حريق للاباطيل يقوم به اتباع سفُنرولا".

ونقلت عظات الراهب في ايام الصوم ميدان الحرب الى روما، ذلك ان الراهب، وان قبل المبدأ القائل ان الكنيسة يجب ان يكون لها قسط تعتمد عليه من السلطة الزمنية، قال ان ثروة الكنيسة هي سبب انحطاطها. ولم يكن هجومه عليها وقتئذ يقف عند حد:

"ان الارض تسفك فيها انهار الدماء، ولكن الكهنة لا يعبئون بشيء من هذا، بل انهم ينشرون الموت الروحي بين الناس جميعا بما يضربونه لهم من المثل السيئة. لقد ابتعدوا عن الله، فلا يعرفون من اسباب التقوى الا ان يقضوا لياليهم مع العاهرت.. هم يقولون ان الله لا يعني قط بشؤون العالم، وان كل شيء يحدث فيه مصادفة واتفاقا، وهم لا يؤمنون ان المسيح موجودا في القربان الاقدس... تعالي الي ايتها الكنيسة السفيهة.. ان الله يقول: لقد وهبتك ثيابا جميلة، ولكنك اتخذتها اصناما، وجعلت من الادعية المقدسة زينة وغرورا، وجعلت العشاء الرباني سلعة تباع وتشترى. لقد اصبحت في شهوانيتك عاهرا مجردة من الحياة، وانت احط من الحيوان، انك من الفظائع الممقوتة. لقد كنت يوما ما تشعرين بالخجل من آثامك، اما الآن فقد فارقك الحياء. وكان من مسحوا من رجال الدين يسمون ابناءهم ابناء اخوتهم واخواتهم، اما الآن فهم يتحدثون صراحة عن ابنائهم (اشارة الى قول البابا اسكندر السادس الصريح عن ابنائه). والآن ايتها الكنيسة الفاجرة لقد كشفت عن خبثك ورذائلك للعالم اجمع وبلغ خبث رائحتك عنان السماء".

وكان سفُنرولا يتوقع ان يؤدي هذا الهجاء القاذع الى حرمانه من حظيرة الدين، وقد رحب فعلا بهذا الحرمان فقال:

"يقول الكثيرون منكم ان قرار الحرمان سيصدر.. اما انا فاني اتوسل اليك يا الله ان يعجل بهذا القرار.. فليحمل هذا الحرمان الي على سن حربة، ولتفتحوا له الابواب! وسأرد عليه، واذا لم يذهلكم هذا الرد فقولوا فيّ ما شئتم..

اني لا ابغي منك يا رب الا صليبك! فلاضطهد، اني اسالك هذه النعمة، لا تمتني في فراشي، بل دعني اقدم لك دمي، كما قدمت انت دمك لي".

واوقدت هذه الخطب النارية لهيب الحماسة في كافة انحاء ايطاليا. اما في روما فقد انقلب الناس على الراهب واخذوا يطالبون بانزال العقاب به. ثم سيطر الاربياتي على الحكم وحرموا الخطابة في الكنائس. وانصاع الاسكندر الى تحريضهم فوقع في الثالث عشر من ايار قرارا بحرمان الراهب، ولكنه اذاع في الوقت عينه انه مستعد لالغاء هذا القرار اذا استجاب سفُنرولا الى امره بالقدوم الى روما. واصر الراهب على رفض الدعوة، لكنه لزم الصمت مدة ستة اشهر. وبلغ عصيان سفُنرولا غايته في الحادي عشر من شبط عام 1498، فقد خطب في كنيسة سان ماركو فوصف قرار الحرمان انه قرار ظالم باطل، واتهم بالخروج عن الدين كل من يؤيد صحته، وانتهى الامر ان اصدر هو قررا بالحرمان قال فيه:

"من اجل هذا فلتحل اللعنة Anathema sit على من يصدر اوامر تتعارض مع الخير. ولو ان هذا الامر قد نطق به ملاك من السماء، بل نطق به جميع القديسين (وهو مستحيل بلا ريب) لحلت عليهم اللعنة.. واذا ما نطق أي بابا بما ينقض هذا، فليعلن حرمانه".

وقرأ سفُنرولا صلاة القداس في اليوم الذي قبل الصوم الكبير في الميدان القائم امام كنيسة سان ماركو، امام غفير من الناس ودعا الله جهرة بقوله:

"اللهم ان كنت غير مخلص في اعمالي، و ان كانت لفظي غير موحى بها منك فامتني في هذه الساعة".

ونظم سفُنرولا في عصر ذلك اليوم حرقا ثانيا للاباطيل.

وابلغ الاسكندر مجلس السيادة انه سيصدر قرارا بحرمان المدينة اذا لم يستطع هذا المجلس اقناع سفُنرولا ان يكف عن الخطابة. وكتب سفير فلورنسا في روما يقول انه يخشى اذا نفذ البابا ما هدد به من الحرمان فان جميع التجار الفلورنسيين في روما قد يلقى بهم في السجون. ولم يسع مجلس السيادة الا الخضوع، وامر سفُنرولا ان يكف عن عظاته. واطاع الراهب الامر، ولكنه تنبأ ان فلورنسا ستحل بها اشد الكوارث. وشغل الراهب دومنيكو منبر الدير بدله، وجعل نفسه الناطق بلسان الراهب. وكتب سفُنرولا في خلال ذلك الى ملوك فرنسا، واسبانيا والمانيا، وبلاد المجر، يرجوهم ان يدعوا الى عقد مؤتمر عام لاصلاح الكنيسة وجاء في رسالته:

"لقد حان وقت الانتقام، وقد امرني الله ان اكشف عن اسرار جديدة، وان اظهر للعالم الاخطار التي تتهدد سفينة بطرس نتيجة لطول اهمالكم. ان الكنيسة غاصة بكل ما هو ممقوت ومرذول من قمة رأسها الى اخمص قدميها، ومع ذلك فانكم لا تكتفون بالسكوت عن اصلاح مساوئها بل انكم تقدمون الولاء والخشوع للمتسببين في هذه الرذائل التي تدنسها. وقد غضب الله من هذا اشد الغضب، وترك الكنيسة زمنا طويلا من غير راع.. ذلك اني بهذا اقر: ان الاسكندر هذا ليس بابا، ولا يمكن ان يكون بابا، لانه يغض الطرف عن الخطيئة المهلكة خطيئة الاتجار بالمقدسات والمناصب الكهنوتية التي ابتاع بها كرسي البابوية، وهو في كل يوم يبيع المناصب الكنسية لصاحب اكبر عطاء. واذا غضضنا النظر عن آثامه الاخرى البادية للعيان، فاني اعلن على رؤوس الاشهاد انه ليس مسيحي ولا يؤمن بالله".

واضاف الى ذلك قوله انه اذا عقد الملوك مجلسا فانه سيمثل امامه ويبرهن عن صحة هذه التهم جميعها. واعترض احد عمال ميلان على احدى هذه الرسائل وبعث بها الى الاسكندر.

قام راهب فرنسيسكاني في الخامس والعشرين من شهر اذار عام 1498 وسلط اضواء المسرحية على نفسه بان خطب في كنيسة سانتا كروتشى Santa Croce يتحدى سفُنرولا ويدعوه الى التحكيم الالهي بوساطة النار. واتهم في خطابه الراهب الدومنيكاني انه خارج على الدين، ومتنبيء كذاب. وعرض ان يخوض النار اذا قبل سفُنرولا ان يحذو حذوه. وقال انه يتوقع ان يحترق كلاهما، ولكنه يرجو ان تنجو فلورنسا بهذه التضحية من الاضطراب الذي احدثه فيها دومنيكاني مزهو يعصي اوامر البابا. ورفض سفُنرولا هذا التحدي لكن دومنيكو قبله. واغتنم مجلس السيادة هذه الفرصة التي سنحت له لكي يندد بالراهب الذي اصبح في زعمه زعيما مهرجا اثار في المدينة كثيرا من المتاعب.

واحتشد في اليوم المحدد جمهور كبير في الميدان العظيم ليستمتع بالنظر الى معجزة من المعجزات او الى عذاب يحل ببني الانسان، واحتل النظارة كل نافذة وكل سقف يطل على هذا المنظر. واعدت في وسط الميدان كومتان متماثلتان من الخشب الممزوج بالقر والزيت والبارود. واقبل الرهبان، وكان الراهب دومنيكو يحمل قربانا مقدسا، بينما كان سفُنرولا يحمل الصليب. وشكا الراهب الفرنسيسكاني من ان قلنسوة الراهب الدومنيكاني الحمراء قد سحرها رئيس الدير حتى اضحت غير قابلة للاحتراق، واصروا على ان يخلعها. واحتج الراهب الدومنيكاني على هذا الطلب ولكن الجماهير الحت عليه بالامتثال ففعل. ثم طلب اليه الفرنسيسكاني ان يخلع اثوبا اخرى ظنوا انها هي ايضا قد تكون مسحورة، وارتضى دومنيكو هذا. والح الفرنسيسكاني مرة اخرى

ان يحرم عليه الاقتراب من سفُنرولا، لئلا يعود الى التأثر بسحره، وارتضى دومنيكو ان يحيط به الرهبان الفرنسيسكان. وعارضوا في ان يخوض النار وهو يحمل الصليب او القربان المقدس، فاعطاهم الصليب ولكنه ابى ان يعطيهم القربان، واعقبت هذا مناقشة لاهوتية بين سفُنرولا والرهبان الفرنسيسكان خلاصتها هل يحترق المسيح مع القربان او لا يحترق. وظل البطل الفرنسيسكاني في خلال هذه المدة في القصر يرجو مجلس السيادة ان ينقذه بوسيلة ما، واطال الرهبان الجدل. حتى اقبل الليل وخيم الظلام، ثم اعلنوا ان التحكيم الالهي لن يحدث. وغضبت الجماهير وهاجموا القصر وحاول بعض الاربياتي ان يعتقلوا سفُنرولا ولكن حراسه دافعوا عنه، وعاد الدومنيكاني الى سان ماركو وسط سخرية الجماهير، وان كان من الواضح ان الفرنسيسكان هم الذين كانوا سبب التاخير. وشكا الكثيرون من ان سفُنرولا قد سمح ان يمثله شخص اخر في التحكيم الالهي بدل ان يواجهه بنفسه، بعد ان اعلن انه يتلقى الوحي من الله، وان الله سيحميه. وانتشرت هذه الافكار في المدينة، ولم يكد ينقضي الليل حتى تنحى اتباع سفُنرولا عنه.

وكان اليوم التالي هو احد الشعانين، وفيه قام اتباع الاريباتي وغيرهم بمهاجمة سان ماركو، وقتلوا في طريقهم بعض الباكين، ودق جرس سان ماركو يدعو الباكين الى النجدة، ولكنهم لم يلبوا النداء. واستعد الرهبان للدفاع عن انفسهم بالسيوف والهروات، وامرهم سفُنرولا ان يضعوا اسلحتهم ولكنهم رفضوا، ولكن الجماهير الغاضبة كانت اكثر منهم، واقنعهم سفُنرولا في آخر الامر ان يضعوا اسلحتهم. ولما جاء الامر من مجلس السيادة باعتقاله هو ودومنيكو، استسلم الرجلان. وسيقا وسط الجماهير التي اخذت تسخر منهما، وتضربهم بالايدي، وتركلهما بالاقدام، وتبصق عليهما، واودعا السجن، وضم الراهب سلفسترو الى السجينيين في اليوم التالي.

وبعث مجلس السيادة الى البابا اسكندر بانباء التحكيم الالهي والقبض على الرهبان. وطلب البابا ان يرسل الرهبان الثلاثة الى روما ليحاكموا امام محكمة كنسية. فرفض المجلس. وكان المجلس يصر على اعدام سفُنرولا، وذلك لاعتقاده ان حزبه سيبقى قائما ما دام هو حيا وان موته هو الذي سيعيد الوحدة والسلام الى المدينة.

وجرى المحققون على الشريعة التي سنتها محكمة التفتيش فاخذوا يعذبون الرهبان الثلاثة عدة مرات بين اليوم التاسع من نيسان واليوم الثاني والعشرين من ايار. وانهار سلفسترو على الفور، ولم يتردد في ان يجيب المحققين الى كل ما رغبوا فيه حتى كانت اعترافاته عديمة القيمة بسبب الافراط في يسرها. اما دومنيكو فقد ظل يقاوم حتى النهاية وحتى بعد ان عذب عذابا كاد يؤدي به الى الموت، وظل يجهر ان سفُنرولا قديس ولا تشوبه شائبة من خداع او اثم. وتوترت اعصاب سفُنرولا وخارت قواه فلم يلبث ان انهار تحت ضغط التعذيب، وادلى امام المحققين بكل ما اوحوا اليه به. فلما افاق انكر ما اعترف به، فعذب وعاد الى الخضوع. ولما تكرر عذابه للمرة الثالثة تحطمت روحه وامضى اعترافا بانه لم يتلق وحيا الهيا، وانه آثم في كبريائه واطماعه، وانه دبر مؤامرة لخلع البابا. وادين الرهبان الثلاثة انهم منشقون خارجون على الدين، وانهم اذاعوا اسرار الاعترافات وادعوا برؤى ونبؤات وانهم اشاعوا الفرقة والاضطراب في الدولة. وحكم عليهم بالاعدام باتفاق الدولة والكنيسة وبعث الاسكندر اليهم بالغفران.

ونفذ حكم الاعدام في الثالث والعشرين من شهر ايار عام 1498. فاقتيدوا حفاة مجردين من ثيابهم الكهنوتية الى ميدان مجلس السيادة الذي حرقوا فيه "الاباطيل". واحتشدت جماهير كثيرة لتشاهد هذا المنظر. وسال احد الكهنة سفُنرولا "بأي روح تتحمل هذا الاستشهاد؟" فرد عليه بقوله: "ما اكثر ما تعذب الرب من اجلي". وقبّل الصليب الذي كان معه ولم ينبس بعد بكلمة. وسار الرهبان بجنان ثابت ليلقوا مصيرهم المحتوم، وشنق ثلاثتهم وتركوا معلقين، وسمح للصبيان ان يرشقوهم بالحجارة وهم في حشرجة الموت. واوقدت تحتهم نار حامية احالت جثتهم رمادا. ثم القى الرماد في نهر الارنو لئلا يكرمه الناس بوصفه بقايا القديسين. وجاء بعض الباكين يتحدون الاحراق بالنار فركعوا في الميدان واخذوا ينتحبون ويصلون. وظلت الازهار تنثر في صباح اليوم التالي للثالث والعشرين من ايار في كل عام حتى عام 1703 في البقعة التي سقطت فيها دماء الرهبان.

* * *

وبعد، فقد كان سفُنرولا صوتا من العصور الوسطى بُعِث حيا في عصر النهضة، وكانت النهضة هي التي قضت عليه.

لم يستطع احد ان ينكر فضائله ونقاوة اهدافه، ولا قوة فصاحته. لقد ورث الرجل ما كان يتصف به القديسون في العصور الوسطى من غيرة اخلاقية وسذاجة عقلية. الا ان خطأه انه سار في طريق لم تكن طريقه وتمسك بها بعناد وكبرياء. كان يشهد انحلال ايطاليا الاخلاقي بفعل الثروة، كما يشهد اضمحلال العقيدة الدينية. ووقف مستبسلا، متعصبا، ولكنه وقف عبثا، في وجه روح العصر المتشككة، الشهوانية. وبدا انه لا مكان له في عالم يسبح بحمد بلاد اليونان الوثنية التي عثر عليها من جديد.

اختلفت الاراء حول سفنرولا باختلاف وجهات النظر التي نُظِر اليه منها:

فكثير من معاصريه امثال القديس فرانسو دي بول François de Paule، وفليب نيري Philippe Neri، والقديس كاترينا دي ريتشي Catherine de Ricci، رأوا فيه الراهب صاحب الاخلاق الحميدة التي لا غبار عليها، كما ورأوا فيه ضحية اضطهاد غير عادل.

بينما نظر اليه اخرون كرجل سياسي، واتهموه أنه كان محرضا خطيرا، ترك العنان لنفسه مدفوعا بغلو مخيلته، فوقع في اقسى درجات التطرف والتعصب، والتي جعلته يطلب قطع رؤوس جميع اعدائه.

واخيرا عدد لا بأس به من المؤرخين وخصوصا البروتستنت، رأوا فيه سابقا لما يدعى بالاصلاح البروتستنطي. الا انه لا يمكن ولا بأي مجال مقارن سفنرولا بلوثير. ولا أي لحظة في حياته كان سفنرولا هرطوقيا، او أنه قَبِل تعليما مخالفا للعقيدة. حتى وهو في اوج صراعه مع البابا اسكندر السادس، كتب في مقالته "انتصار الصليب": "ان من ينكر الكنيسة ينكر المسيح".

كان مقتنعا باهمية وضرورة الاصلاح في الكنيسة، وبأن البابا الاسكندر السادس ليس هو الرجل الذي يستطيع او ان يريد ان يقوم بهذه المهمة. آمن وبكل صدق ان الله اختاره هو لهذه المهمة، وفاته ان مثل هذه المهمة كان مكتوبا لها الفشل اذا ما تمت خارج عن السلطة الكنسية.

واخفق الرجل في هدفه وكان اخفاقه نتيجة قصور عقله وانانيته التي نستطيع ان نغفرها له، وان كانت تضايقنا. وكان يغالي في استنارة عقله وفي كفايته، ويستخف استخفاف السذج الطيبي القلوب مما تتطلبه مقاومة سلطان البابوية وغرائز البشر من قوة ليست له. ولقد روعته اخلاق الاسكندر ترويعا نستطيع ان ندرك سببه، ولكنه كان عنيفا في اتهاماته عنيدا في سياسته. لقد كان بروتستنتيا قبل مجيء لوثر، ولكن بروتستنطنيته لم يكن لها معنى الا انها الدعوة لاصلاح الكنيسة. ولم يكن يشارك لوثر في شيء من ارائه الدينية المخالفة لاراء الكنيسة القائمة، ولكن ذكراه اصبحت قوة تملأ عقول البروتستنت. ولذلك لقبه لوثر بالقديس.

اما عظمة سفُنرولا فترجع الى ما بذله من الجهد لاحدث ثورة اخلاقية في فلورنسا، ولحث الناس على ان يكونوا اشرافا، صالحين، عادلين. ونحن نعرف ان هذه اشق الثورات كلها.

موت البابا اسكندر السادس

يبدو ان الاسكندر السادس قضى سنى حياته الاخيرة سعيدا موفقا. فقد تزوجت ابنته في اسرة شريفة، وكانت فيرارا كلها تجلها وتعظمها. كذلك انجز ولده ما عهد اليه بوصفه قائدا وحاكما. وكان الولايات البابوية مزدهرة ذات حكومة ممتازة. ويصف سفير البندقية البابا في تلك السنين بانه مرح نشيط، يبدو مرتاح الضمير "لا ينغص عليه حياته شيء". وقد بلغ في عام 1501 سن السبعين ولكنه، كما يضيف السفير: "يخيل الى من يراه انه ينقص في السن يوما عن يوم".

وحدث في الخامس من شهر اب من عام 1503 ان كان اسكندر وسيزارى ابنه، وجماعة غيرهما يتعشون في الهواء الطلق في بيت الكردينال ادريانو داكرنيتو Adriano da Corneto الخلوي غير البعيد عن الفاتيكان، وبقوا جميعا في حديقة حتى منتصف الليل لأن حرارة الجو في داخل الدار لم تكن تطاق. فلما كان اليوم الحادي عشر اصيب الكردينال بحمى شديدة دمت ثلاثة ايام ثم زالت. وفي اليوم الثاني عشر اصيب البابا وولده بحمى وقيء واضطرا لملازمة الفرش. وتحدثت روما كعادتها عن السم وقال النمامون ان سيزارى امر بدس السم للكردينال ليحصل على ماله، وان الضيوف كلهم تقريبا اكلوا خطأ من الطعام المسموم. لكن المؤرخين الآن متفقون مع الاطباء الذين عالجوا البابا على ان الحمى هي عدوى من الملاريا سببها طول التعرض لهواء الليل في روما في منتصف الصيف. وقد اصيب بهذا المرض نفسه نصف آل بيت البابا، وكان كثير من هذه الاصابات مميتا، وقد مات بها في روما عدة مئات في ذلك الفصل عينه.

وظل الاسكندر ثلاثة عشر يوما بين الحياة والموت، يستعيد صحته تارة حتى يستطيع عقد المجالس الدبلوماسية. بل حدث في الثالث عشر من اب ان تسلى بلعب الورق. وحجمه الاطباء مرارا، ولعلهم قد اخذو من دمه في احداها اكثر مما يجب، بحيث استنزفوا قواه. وتوفى البابا في الثامن عشر من اب، وما لبثت جثته ان اصبحت سوداء اللون كريهة الرائحة، تؤيد زعم من يشيعون انه مات مسموما.

الحكم على الاسكندر السادس

يتفق مكيافلي مع جوتشيارديني فيقول ان الاسكندر:

> "لم يؤثر عنه الا الخداع، وانه لم يكن يفكر في غير هذا طول حياته كلها، ولم يقسم قط انسانا ايمانا اقوى من ايمانه بانجاز الوعود ثم ينقض هذا الايمان فيما بعد. ولكنه مع هذا نجح في كل شيء لانه كان ملما كل الالمام بهذا الجزء من العالم".

وقد بنيت هذه الاحكام على فرضيتين اساسيتين اولهما ان القصص التي كانت تروى في روما عن الاسكندر صادقة، وثانيهم ان الاسكندر لم يكن محقا في سلوك السبل التي سلكها لاستعادة الولايات البابوية.

المؤرخون الكاثوليك:

يشترك المؤرخون الكاثوليك في الطعن في اساليب الاسكندر واخلاقه، وان كانوا يدافعون عن حقه في استعادة سلطان البابوية الزمني. ومن ذلك ما يقوله باستور:

> "ان الناس بوجه عام يصفونه بأنه حيوان لا انسان، ويلصقون به كل انواع الجرائم الشنيعة. ولكن البحث النقدي الحديث يحكم عليه حكما اعدل من هذا، وينفي عنه بعض ما يلصق به من اشنع التهم، غير اننا وان كان من واجبنا ان نكون حذرين في قبول القصص التي يرويها معاصرو الاسكندر عنه دون بحث وتحقيق، وان كان الفكهون الحاقدون من اهل روما قد وجدوا متعة لهم في اكل لحمه ميت دون رحمة، فوصفوا حياته في مطاعنهم الشعبية ونكاتهم الشعرية اوصافا قذرة لا يصدقها انسان، نقول انه من واجبنا ان نكون حذرين في قبول هذا كله فإن ما ثبت عليه من هذه التهم ليضطرنا الى رفض ما يبذل في هذه الايام من محاولات ترمي الى تبرئته، لأن في هذه المحاولات عبثا بالحقيقة لا يليق. ويستحيل علينا من وجهة النظر الكاثوليكية ان نتجاوز الحد اللائق في لوم الاسكندر وتعنيفه".

المؤرخون البروتستنت

وكان المؤرخون البروتستنت كرماء في حكمهم على الاسكندر، فاصطنعوا معه اللين في بعض الاحيان. فقد كان وليم رسكو William Roscoe من اوائل الذين قالوا كلمة طيبة وذلك في كتابه الشهير *حياة ليون العاشر وبابويته* (1872):

> "مهما تكن جرائمه، فان الذي لا شك فيه انها قد بولغ فيها كثيرا، فليس ثمة من ينكر انه قد صرف جهوده في رفع شأن اسرته، وانه استخدم السلطة التي اسبغها عليه منصبه في فرض سيطرته الدائمة على ايطاليا في شخص ابنه. ولكن يبدو اننا نظلم الاسكندر اذا وصمناه بقسط خاص غير عادي من السفالة والاسفاف في الوقت الذي كان فيه امراء اوروبا كلهم تقريبا يحولون تحقيق مطمعهم بوسائل لا تقل اجراما عن وسائله. فبينما كان لويس ملك فرنسا، وفرديناند ملك اسبنيا يتامران للاستيلاء على مملكة نابولي واقتسامهما بينهما، ويستخدمان في ذلك اساليب من الغدر لا يمكن ان نوفيها ما تستحقه من المقت واللعنات، فان للاسكندر بلا ريب ان يظن نفسه محقا في كبح جماح البارونات المشاكسين، الذين ظلوا اجيالا طوالا يمزقون املاك الكنيسة بالحروب الداخلية، وفي اخضاع صغار الامراء في روما، وهم الذين كانوا يعترفون له بحق السيادة عليهم، والذين حصل معظمهم على املاكهم بوسائل لا نجد لها ما يبررها، وهي ابعد عن العدالة من الوسائل التي استخدمها هو ضدهم. اما التهم التي يعتقد بصدقها كثيرون من الناس، وما يعزى اليه من الصلة بينه وبين ابنته... فليس من العسير ان نثبت بعدها عن الصواب. يضاف الى هذا ان رذائل الاسكندر كان يصحبها، وان لم يعوضها، كثير من الصفات الطيبة العظيمة التي يجب الا نمر بها صامتين في حكمنا على اخلاقه... وان اشد الناس عداوة له لا ينكرون انه ذو عبقرية فذة، وذاكرة عجيبة، وانه كان فصيح اللسان بقظا، بارعا في تصريف جميع شؤونه".

8

البابا بيوس الثالث

22 ايلول – 18 تشرين اول 1503

Pie III

مات البابا اسكندر السادس مكروها من الشعب ومن بارونات روما. فكان من المتوقع ان يكون انتخاب خليفته انتخابا صعبا وعنيفا، بسبب حدة المنافسة وخصوصا لمقاومة تأثير سيزارى بورجيا على الانتخاب. وكان سيزارى بورجيا مع كونه منهكا من الحمى التي اصابته، يعتقد انه لا يزال بامكانه التأثير على سير الامور، وانجاح مرشحه، وهو كردينال اسباني، مستعد ان يتجاوب وتطلعات ومخططات سيزارى. الا انه وبمساعدة وضغط ملك فرنسا لويس الثاني عشر، وملك اسبانيا فرديناند الكاثوليكي، تم ابعاد سيزارى عن روما ليتسنى لمجمع الكرادلة انتخاب بابا جديدا.

التئم مجمع الكرادلة في 16 ايلول عام 1503، وكان عددهم حوالي 37 كردينالا: 22 ايطاليا، 11 اسبانيا، والباقون من جنسيات مختلفة. الا ان الكراهية تجاه الاسبان حوّلت المنافسة بين الحزب الفرنسي والايطالي، بين الكردينال دامواز D' Amboise مرشح ملك فرنسا، وبين الكردينال جوليان دلا روفيرا.

لم يحز اي من المرشحين ثلثي الاصوات، اخيرا تم اختيار مرشح ثالث وهو الكردينال فرنسوا بكولوميني Francois Piccolomini، ابن اخ البابا بيوس الثاني، الذي انتخب في الثاني والعشرين من ايلول، واتخذ اسم بيوس الثالث تيمنا لذكرى عمه بيوس الثاني.

وكان هذا البابا يتمتع بصيت وسمعة جيدة، فكان معروف بثقافته وعلمه وطيبة قلبه، وبالخصوص انه كان ذا سيرة حميدة، مما كان من شأنه ان يخفف من ذكرى بابوية اسكندر السادس المشككة.

وقع بيوس الثالث وعلى مثال اسلافه على وثيقة التعهدات "Capitulations" والتي يتعهد فيها بدعوة مجمع عام في خلال سنتين لمواصلة ومتابعة الاصلاح في الكنيسة. وفي اليوم الثاني لانتخابه، جدد البابا بيوس الثالث وعده امام الكرادلة بالعمل على اصلاح الكنيسة، وعلى استتباب السلام بين فرنسا واسبانيا.

كانت الدلائل تشير وتتنبىء ببابوية جيدة، تعوض عما سبقها، وهلل الناس لانتخاب مثل هذا الحبر الجليل التقي الطيب السمعة. ولكن للأسف، مع انه لم يكن يبلغ بعد سن الرابعة والستين من العمر، الا انه منهكا ويعاني من مرض النقرس، فظهر وكأنه شيخ على حافة القبر. زد على ذلك الاحتفالات الطويلة والمتعبة التي تعرض لها: الرسامة الكهنوتية، اذا لم يكن قد رسم كاهنا بعد، ثم الاسقفية وبعدها التنصيب البابوي، انهكت قواه الباقية، فمات في الثامن عشر من شهر تشرين الاول عام 1503، بعد حكم دام ستة وعشرون يوما.

وبكته روما كلها. وقال عنه احد معاصريه: "ان موت البابا بيوس الثالث، مصيبة كبيرة للكنيسة، ولمدينة روما ولمحبيها، ربما لا نستحق مثل هذا البابا بسبب اثامنا!" (اوردها باستور (Pastor, op. Cit. VI, p. 191)

9

البابا يوليوس الثاني 1503–1513

Jules II

كان مجمع الكرادلة يتألف من 38 كردينالا، 27 منهم كانوا ممن رفعهم الى هذا المنصب البابا اسكندر السادس، لذلك كان لسيزارى بورجيا التأثير الكبير عليهم، لانتخاب بابا مواليا له بعد موت البابا بيوس الثالث. استطاع الكردينال جوليان دلا روفيرا، الذي امضى حياته يطمح الى تاج البابوية، بمهارته، ان يكسب سيزارى بورجيا الى جانبه،

بأن وعده بابقائه في منصبه ويحافظ على جميع ممتلكاته، مما ادى الى انتخابه باجماع الاصوات تقريبا في اليوم التالي لالتئام مجمع الكرادلة في 31 تشرين اول عام 1503. واتخذ لنفسه اسم يوليوس الثاني، تيمنا بيوليوس قيصر وليس لذكرى البابا يوليوس الاول على حد قول اعدائه.

ولد هذا البابا في عام 1441 في البسولا Albissola ليس بعيدا عن جنوى. وهو ابن اخ البابا سكستس الرابع. وصل الى الكردينالية في السابعة والعشرين من عمره، ظل فيها قلقا ساخطا ثلاثة وثلاثين سنة قبل ان يرقى الى المنصب الذي كان يري انه حقه الواضح. لعب دورا مهما زمن حبرية البابا انوسنت الثامن، اما مع اسكندر السادس الذي كان جوليان يكرهه، لانه اعتبره دخيلا اسبانيا، ولا يرى انه يليق بالبابوية، ويسميه نصابا مغتصبا، فقد ظل يعيش في المنفى في فرنسا.

كان من اعظم واقوى الشخصيات الكنسية في ذلك العصر. كان اهل عصره يعجبون به، الا انه كان مهابا اكثر منه محبوبا. وصفه احد المؤرخين: "الرهيب، العملاق، المهول. كان متسلطا، عنيفا، وكثيرا ما كانت لغته تتجاوز كل الحدود في وقاحتها، الا انه كان شجاعا".

صراعه من اجل وحدة الدولة البابوية

وجد يوليوس عندما ارتقى كرسي البابوية ان الكنيسة مضطربة، وولايات البابوية منقسمة، واستبدلت سلطة البابا بسلطة الامراء والبارونات ومجالس البلديات لدرجة انه اصبحت ولايات بابوية بالاسم. ولذلك كان همه ان يجعل من دولة البابا دولة كبرى، فاصبح وهو في الستين من العمر جنديا، وكان ارتداء الثياب العسكرية ايسر له من الثياب البابوية، وكان يحب المعسكرات وحصار المدن وتصويب المدافع، ومشاهدة الهجمات توجه امام عينيه، واصبح هذا البابا محاربا اكثر منه كاهنا.

ففي القسم الاول من حبريته (1503-1509) وطد سلطته في ولايات الكنيسة، واجبر سيزارى بورجيا على اعادة الحصون التي اخذها بغير حق، واضطره الى الالتجاء الى اسبانيا وثم الى فرنسا حيث مات. وانتزع بيروز Perouse من آل باليوني بولونيا Bologne من ال بانتيفوليو. واراد منذ العام 1509 ان يجعل من الكرسي الرسولي سلطة من السلطات المسيطرة على ايطاليا الجديدة، فانضم الى حلف كمبرى Cambrai الذي تشكل ضد البندقية من لويس الثاني عشر ومكسمليان وفرديناند ملك اسبانيا، ونشر في 27 نيسان 1509 مرسوما اعلن فيه الحكم علي البندقية بالحرمان، فاحتلها الفرنسيون.

غير ان البابا ما لبث ان قلق من تقدم الفرنسيين، ورأى ان يطردهم من ايطاليا، فاعلن عفوه عن البندقية في شباط 1510 بعد ان اعادت اليه فانزا Faenza ورافين Ravenne، ووجد حليفا ممتازا في شخص ماتياس شينر Mathias Schinner، وكان هذا اسقفا في سيون وعدوا للفرنسيين وكان له تأثير عظيم على الكانتونات السويسرية. فبادر لويس الثاني عشر الى النضال ضد يوليوس الثاني، واثار عليه عاصفة من السخط، ولم يأل جهدا في ان يذهب بها الى الحقل الروحي. واخذ يتكلم بالانفصال عن الكنيسة وخلع البابا، ودعا الى عقد مجمع لذلك.

مجمع بيزا

انعقد هذا المجمع اولا في بيزا في الاول من تشرين ثاني عام 1511، لم يحضره سوى اربعة كرادلة متمردين، رئيس اساقفة ليون وسيون، واربعة عشر اساقفا فرنسيا، وخمسة رؤوساء اديار، وممثلون عن جامعات بارس، وبعض علماء اللاهوت والحق القانوني. وامام عداء اهل بيزا لهذا المجمع انتقل الى ميلانو ثم الى استى وقرر خلع البابا في 4 كانون ثاني 1512، ثم انتقل الى تورينو واخيرا ليون، حيث اختفى دون ان يترك اثرا.

الحلف المقدس

واراد يوليوس ان يقوم بحركة مضادة لحركة الكرادلة المتمردين، فدعا الى عقد مجلس عام في قصر اللاتران في روما في التاسع من نيسان عام 1512. وظل يعمل ليلا ونهارا لينشيء حلفا مقدسا ضد فرنسا. واوشك ان ينجح في

غرضه إذ اصيب بحمى شديدة الوطأة في 17 تموز 1511، وظل بين الحياة والموت ثلاثة ايام كاملة، حتى اذا كان اليوم الحادي والعشرون منه، أغمى عليه اغماءة بلغ من طولها ان استعد الكرادلة لعقد مجمع مقدس لاختيار خلفه. ولكن البابا افاق من الاغماءة في اليوم الثاني والعشرين، وتغلب على اطبائه، وشرب جرعة كبيرة من النبيذ، فخيب امال الكثيرين بشفائه من مرضه. واعلن في الخامس من تشرين اول انه أنشأ حلفا مكونا من البابوية والبندقية واسبانيا، انضم اليه فيما بعد هنري الثامن ملك انكلترا . ولحسن حظ لويس الثاني عشر كان تحت تصرفه رئيس من خيرة الضباط وهو ابن اخيه غاستون دوفوا. فقد استطاع هذا ان يستولي على بوبون وبريشيا وينتصر على الحلف في رافين (في يوم الفصح 1512) وحاول ان يهدد روما لولا انه قُتِلَ في هذه الواقعة.

ولم يوات حسن الحظ لويس الثاني عشر. فقد انفصل مكسمليان وانضم الى اعدائه وسحق السويسريون الجيش الفرنسي في نوفار (حزيران 1513). وخسرت فرنسا منطقة ميلانو واصبحت مهددة بعد ان اجتاحها هنري الثامن من جهة الشمال، ومكسمليان والسويسريون من جهة الشرق في منطقة ديجون. غير ان لويس الثاني عشر توصل الى ايقافهم بالمال وتوقيع هدنة معهم.

مجمع اللاتران

افتتح يوليوس المجمع في الثالث من ايار عام 1512 بقداس حبري جرى في كاتدرائية اللاتران في روما، القى خلاله Gilles de Viterbe رئيس عام الرهبانية الاوغسطينية، خطابا رائعا صريحا، تكلم فيه عن ضرورة الاصلاح في الكنيسة. ومما قاله ان البابا الذي احرز حتى الان انتصارات باهرة بقوة السلاح، عليه الان ان ينتصر على اعدائه بسلاح الكنيسة: التقوى، والصلاة، وايمان صادق حي. واليه تنسب عبارة اصبحت مشهورة: "مسموح ان نغير الناس بواسطة الاشياء المقدسة، لا الاشياء المقدسة بواسطة الناس" "Il est permis de changer les hommes par les choses sacrées, non les choses sacrées par les hommes".

وافتتحت الجلسة الاولى في العاشر من ايار وفيها قدم البابا عرضا عن سبب انعقاد المجمع: اصلاح الكنيسة، والقضاء على الانقسام في فرنسا، والحرب ضد الاتراك.

اما الجلسات الثانية وحتى الخامسة، فقد خصصت لاعلان مجلس بيزا–ميلان باطلا، واعلان الحرمان ضد فرنسا، تخللها خطاب رائع حول وحدة الكنيسة القاه الدومينيكاني المعروف باسم كاجتان Cajetan. كما تم في خلالها انضمام الامبراطور الالماني والملك هنري الثامن ملك انكلترا الى الحلف المقدس.

موت بوليوس الثاني

في ذلك الحين، اخذ يضمحل ما كان يتمتع به البابا المحارب من نشاط جبار، فآوى الى فراش المرض في اواخر شهر كانون ثاني من عام 1513، مصابا بعدة امراض، ولم يفلح أي علاج في تخفيف وطأة الحمى، فاستسلم للموت، واصدر التعليمات من اجل جنازته، وحث مجلس اللاتران على ان يواصل عمله دون انقطاع. واعترف انه من اكبر الخطأة، وودع الكرادلة، ومات شجاعا كما عاش شجاعا في 20 شباط 1513، بعد ان اوصى ان توزع ثروته على الكهنة الفقراء، طالبا الصلاة من اجل روحه. وحزنت عليه روما باجمعها، واحتشد لتوديع جثمانه جمع كبير لم يسبق له مثيل.

الحكم على يوليوس الثاني

اختلف المؤرخون في الحكم على يوليوس الثاني. فمنهم من اتهمه بان اهتمامه بالسياسة والحروب جعلته يقصر في الاهتمام بالكنيسة، ومنهم من رأى فيه حامي البابوية ومخلصها. فالمؤرخ Guicciardini مثلا، وهو احد المؤرخين المعاصرين، قد شهرّ بالبابا، وحكم عليه بقساوة لانه "جاء الى الكرسي الرسولي بدولة استخدم فيها قوة السلاح وسفك فيها دماء المسيحيين، بدل ان يعنى بان يضرب للناس مثالا في الحياة الصالحة".

ليس صحيحا على الصعيد الديني ان البابا اهمل واجباته الدينية واهتم فقد بالحرب، فقد شهد مدير احتفالته Paris de Grassis، في مذكراته، ان البابا كان مواظبا على جميع واجباته الدينية، ولم يكن يتغيب عنها الا في ساعات المرض الشديد. كما انه اعطى اهتماما خاصا في الدفاع عن الايمان ونشره. فقد ارسل المرسلين الى كل المواقع التي تم اكتشافها في جزر الهند واثيوبيا والكونغو. كما انه حاول جلب الهوسيين الى حضن الكنيسة بان سمح لهم ببعض التنازلات. كما وساهم في تقدم وتطور الجمعيات الرهبنة مانحا اياها الكثير من الامتيازات، كما شجع على تأسييس غيرها جديدة.

الحقيقة ان يوليوس الثاني اتصف بحياة صالحة، متقلبة، الا انها صادقة، وانه فكر جديا في اصلاح الكنيسة، وانه كان اذا احب الحرب والقتال، الا انه مقتنعا انه بهذا يخلص استقلال الكنيسة في عصر كان يهددها بالخطر، ويعيد للبابوية سلطتها السياسية التي لا غنى عنها. لذلك نعته Burckhardt، – مؤرخ عصر النهضة — "بمخلص البابوية".

صحيح اننا لا نريد اليوم بابوات من هذا النوع، ولكنه كان ما يجب ان يكونه في ظروف وقته، وفي العصر الذي عاش فيه. لذلك يبقى يوليوس الثاني، حَبرا كبيرا ورجل الساعة في زمنه، وقد غفرت له الايام ما ارتكبه من ذنوب.

10

البابا ليون العاشر 1513-1521

Léon X

انتخاب ليون العاشر

استدعي الكردينال جيوفني دي مدتشي من فلورنسا، عندما مات يوليوس الثاني، ليشترك في اختيار من يخلف يوليوس على عرش البابوية. ولم يكن وقتئذ قد تجاوز الثامنة والثلاثين من عمره، وكان له منها اربعة وعشرون سنة كردينالا. واحتدم النقاش اسبوعا اختير بعده جيوفني دي مديتشي بابا في الحادي عشر من اذار عام 1513، وسمى باسم ليون العاشر، وسيم كاهنا في 15 اذار اذ لم يكن بعد الا شماسا.

ودهش الناس جميعا من هذا الاختيار وابتهجوا له. فقد سرهم واثلج صدورهم، بعد دسائس الاسكندر بورجيا السوداء وحروب يوليوس واضطراباته، ان يتزعم الكنيسة بعد ذلك الوقت شاب امتاز وهو لا يزال فتيا بقلبه الطيب السمح، وكياسته ودمائة خلقه ومجاملته، ومناصرته السخية للآداب والفنون، وان يقودها كما يبدو في طريق السلام. واقيمت احتفالات فخمة بمناسبة تتويجه، لم يسبق لها مثيل من قبل، قدم فيها المصرفي اغستينو كيجي Agostino Chigi، مركبة نقش عليها باللغة اللاتينية: "لقد حَكَمت من قبل فينوس (أي الاسكندر) وحكم بعدها المريخ (أي يوليوس)، والان تحكم بالاس Pallas (أي الحكمة)". وطاف الناس بشعار اخر اكثر ايجازا وتعبيرا: "كان المريخ، وتكون بالاس، وانا فينوس ساكون ابدا!". وابتهج الشعراء والنحاتون والمصورون والصياغ، وانبعثت في قلوب الكتّاب الانسانيين آمال بعودة عصر اغسطس الذهبي.

جيوفاني الشاب

ولد جيوفني دي مدتشي في فلورنسا في الحادي عشر من كانون اول عام 1475، ومنذ نعومة اظفاره عاش في جو من الرفاهية في ظل والده لورنسو دي مديتشي وامه كلاريس امرسيني، وحصل على تعليم وثقافة عالية، اذ درس على اكبر الاساتذة الانسانيين في ذلك العصر. وحصل على لقب الكردينالية وهو في الثالثة عشر من عمره. درس الحق القانوني في بيزا. وفي عام 1500، سكن في روما، في مقر عائلته، وفيها امضى اثنتي عشرة سنة، حياة ارستقراطية، في الترف وبذاخة العيش، بين الشعراء والموسيقيين والفنانين، مما جعله من اكبر مؤيدي الانسانيين.

جيوفني البابا

بدأ البابا ليون العاشر عمله بداية طيبة. فمن الناحية السياسية، استطاع ان يأمن خطر فرنسا، بأن دخل في مباحثات مع لويس الثاني عشر، الذي كان قد تعرض لعدة انهزامات، وكانت حدود بلاده مهددة، والشعب الفرنسي يصبو الى السلام وانهاء الخلافات مع البابوية. فبعد مباحثات مضنية، تم التوصل الى اتفاق وافق الملك فيه على اعلان تنديده بمجلس بيزا وانضمامه الى مجمع اللتران، واعلن البابا من جهته ان الحرمان الذي اعلن ضد مجمع بيزا لم يطل الملك، وعفا عن الكرادلة الذين دبروا مجلس بيزا وانتهى بذلك خطر الانقسام. وبعد موت لويس الثاني عشر، تتابعت مباحثات الملك مع فرانسو الاول ادت الى عقد بمعاهدة بولونيا Boulogne، عام 1519، عملت على تنظيم العلاقات بين فرنسا والبابوية فيما يخص التعينات في المناصب الكنسية.

حاجة ليون الى المال ونتائج سياسته المالية

وكانت حاجة ليون الى المال تنغص عليه وقتئذ حكمه الذي كان من قبل موفقا سعيدا. ذلك ان عطاياه للاقارب والاصدقاء والفنانين والكتّاب، والموسيقيين، ونفقات بلاطه الذي لم يكن له من قبل مثيل، ومطالب كنيسة القديس بطرس الجديدة، ونفقات حرب اربينو Urbino والاستعداد لحرب صليبية، كل هذا كاد يقود خزينة البابا الى

هاوية الافلاس. ولم يكن الايراد العادي يكفي هذه النفقات. على ان هذا الايراد نفسه كان يصعب دائما تحصيله من اوروبا التي لم تكن راضية عن انسياب هذه الاموال الكنسية الى روما.

واراد ليون ان يملأ خزانته بالمال فأنشأ مناصب جديدة يبيعها لطالبيها. وفي شهر تموز من عام 1517 رشح واحدا وثلاثين كردينالا جديدا، كثيرون منهم ذوو كفايات عظيمة، ولكن الكثرة الغالبة منهم قد اختير افرادها لقدرتهم على اداء ثمن ما يستمتعون به فيها من الجاه والسلطان. وزيادة الرسوم على المعاملات والضرائب وكثرت حملات التبرعات تحت كل الحجج: حرب صليبية، بناء كنيسة، بناء جسور، بناء مستشفيات... الخ. وروعت ايطاليا نفسها وهي التي فسدت عقليتها في هذه الناحية فلم تعد تفرق بين ما هو خير منها وما هو شر. وكانت قصة هذا العمل بعد ان وصلت الى المانيا زادت من حدة غضب لوثر وثورته (تشرين اول 1517).

ومما زاد ايضا من حدة التمرد جاء على اثر فتح السلطان سليم بلاد مصر في تلك السنة الحاسمة في التاريخ وضمها الى املاك الاتراك العثمانيين، ونادى البابا بحرب صليبية ولم يلب احد نداءه. كما كانت الحاجة الى اموال لمتابعة اعمار كنيسة القديس بطرس في روما، دفعت البابا الى ان يبعث بعماله في جميع انحاء البلاد المسيحية يعرضون صكوك غفران واسعة المدى الى درجة غير عادية على من يتوبون، ويعترفون ويتبرعون.

وكان كثير من البلاد تتذمر من كثرة فرض هذه الضرائب والتبرعات، ومن هذه البلاد بالخصوص المانيا، وزاد على ذلك الوسائل التي استعملها عمال البابا في جمع هذه التبرعات، وما رافقها من اعمال الغش والاختلاس والمعاملات المصرفية المشكوك فيها.

وكان عدة اشخاص قد نبهوا روما الى خطورة الحالة، وقد كانت البابوية ومنذ سكستس الرابع قد بدأت تهوى الى الهاوية، ولم يكن في وسع حروب وعنف يوليوس الثاني ولا بذخ ليون العاشر ايقاف هذا التدهور. وكان مبعوث البابا ليون العاشر في المانيا قد شعر بحالة السخط والتمرد في الشعب الالماني وقد نبه البابا في عام 1516 بتخويفه من قيام تمرد في المانية ضد الكرسي البابوي. ولم يصدق البابا ليون العاشر، فاندلعت الثورة في العام التالي.

متابعة مجمع اللاتران (1513–1517)

قرر ليون العاشر بعد انتخابه مواصلة جلسات مجمع اللاتران الخامس، حيث افتتح في 27 نيسان عام 1513 بالجلسة السادسة، وعرض البابا فيها تصميمه على مواصلة المجمع حتى يتم تحقيق ما كان مرجوا منه. وألفت ثلاث لجان، الاولى للتداول حول اعادة السلام بين الامراء المسيحيين، والثانية للاصلاح الكنيسي وخصوصا في المجلس الباباوي (La Curie)، والثالثة لحفظ الايمان والقضاء على انفصال فرنسا، والذي تم بعد ان خضع الملك لويس الثاني عشر في السادس والعشرين من تشرين اول عام 1513. وفي الجلسة التاسعة تداول المجتمعون حول موضوع الاصلاح الشائك، وقرأ الدستور الذي يدعى Supernae dispositionis arbitrio، الذي كان يحتوى على قوانين تخص البابا والكرادلة والمجلس البابوي وعلى رفع مستوى الكهنوت وعلى تنوير المؤمنين، بهدف الاصلاح.

ينص الجزء الاول من هذا الدستور، على ان البابا يجب ان لا يمنح الاسقفيات والاديرة الا لاشخاص راشدين ناضجين وذوي سمعة وثقافة وتعليم جيد. والا يتم عزل اسقف او رئيس دير قبل ان يتم سماع دفاعه، حتى وان ارتكب اثما علنيا، ون لا يتم نقل أي رجل دين دون رضاه الا لاسباب شرعية، وتم منع كل بيع وتجميع المناصب الدينية.

ونص الجزء الثاني على ان الكرادلة عليهم ان يعيشوا حياة تناسب ومركزهم الديني، حياة تقوى وتقشف واعتدال، وبدون بذخ وترف، وان يزوروا كنائسهم شخصيا او بواسطة من يمثلهم، وان لا يمنحوا اقرباءهم مناصب او اموال على حساب الكنيسة.

ونص الجزء الثالث على الاكليروس المحافظة على العفة، وان لا يمارسوا السيمونية. اما بخصوص العلمانيين، فقد اكد المجمع اهمية تربية الشبيبة والابتعاد عن التجديف وعن ممارسة السحر والشعوذة.

اما الجلسة العاشرة، فقد كرست لدراسة الصراع والخلاف بين الاساقفة والرهبان، حيث اعترض الاساقفة على ان كثرة الامتيازات الممنوحة للرهبان جعلتهم يفلتون من سلطة الاسقف ومتابعته. واعطى الحرية للرهبان للعمل خارج سلطته وموافقته في كثير من الاحيان. وفيها تم اخذ ايضا بعض القرارات المهمة: منها مراقبة المطبعة، حيث فرض الحصول على موافقة السلطة الكنسية لطباعة أي كتاب كنسي.

وكرست الجلسة الحادية عشرة لدراسة معاهدة بولونيا Bologne بين فرنسا والكرسي الرسولي.

وكانت الجلسة الثانية عشر (16 اذار 1517)، الجلسة الختامية، فيها تمَّ اعلان اختتام المجمع الذي دام خمس سنوات. وكانت مجمل نتائجه انه اعاد الى البابوية سلطتها ومكانتها. واعاد السلام والوحدة في الكنيسة بالتوصل الى معاهدات مع فرنسا. واخذ قرارات هامة وضرورية في سبيل اصلاح المجلس البابوي، والكنيسة والاكليروس، لم تطبق الا في بعض الابرشيات التي ترأسها اساقفة جسورون، ولو طبقت لما ادت الى قيام الانقسام الكبير في الكنيسة الغربية، والذي سنتكلم عنه في الفصل القادم.

موت البابا

وانتاب الاعياء البابا في عام 1521 بسبب امراضه ومتاعب الحرب وما سببته من قلق واضطراب بال. واثناء اقامته في قصره الريفي في مليانا Magliana، ترامت اليه الانباء ان الجيش البابوي–الامبراطوري استولى على ميلان من الفرنسيين. فعاد البابا في الخامس والعشرين من تشرين الثاني الى روما واستقبل فيها ذلك الاستقبال الرائع الصاخب الذي لا يُستقبل به الا الغزاة الفاتحون. واجهد نفسه في السير على قدميه في ذلك اليوم، وتصبب عرقه حتى ابتلت ملابسه، حتى كان صباح اليوم التالي، لزم الفراش مصابا بالحمى، وسرعان ما زادت حالته سوء وادرك ان منيته قد اقتربت. وفي اول يوم من من كانون اول جاءته الانباء ان الجيوش البابوية استولت على Piacenza وبارما، فعلى وجهه البُشر، وكان قد اعلن في يوم من الايام انه يسره ان يضحي بحياته لضم هاتين المدينتين الى الولايات البابوية. ومات في منتصف ليلة 1–2 من كانون الاول عام 1521، قبل ان يتم الخامسة والاربعين من العمر بعشرة ايام. فحزنت عليه روما كلها، وكانت تعده اكرم من رأته من المحسنين في تاريخها. وادرك الفنانون والشعراء والعلماء، ان يوم سعدهم قد مضى. في ذلك يقول باولو جيونيو: "ان المعارف والفن ورفاهية الشعب باكمله، ومباهج الحياة، باختصار كل ما هو خير توارى في التراب مع ليون".